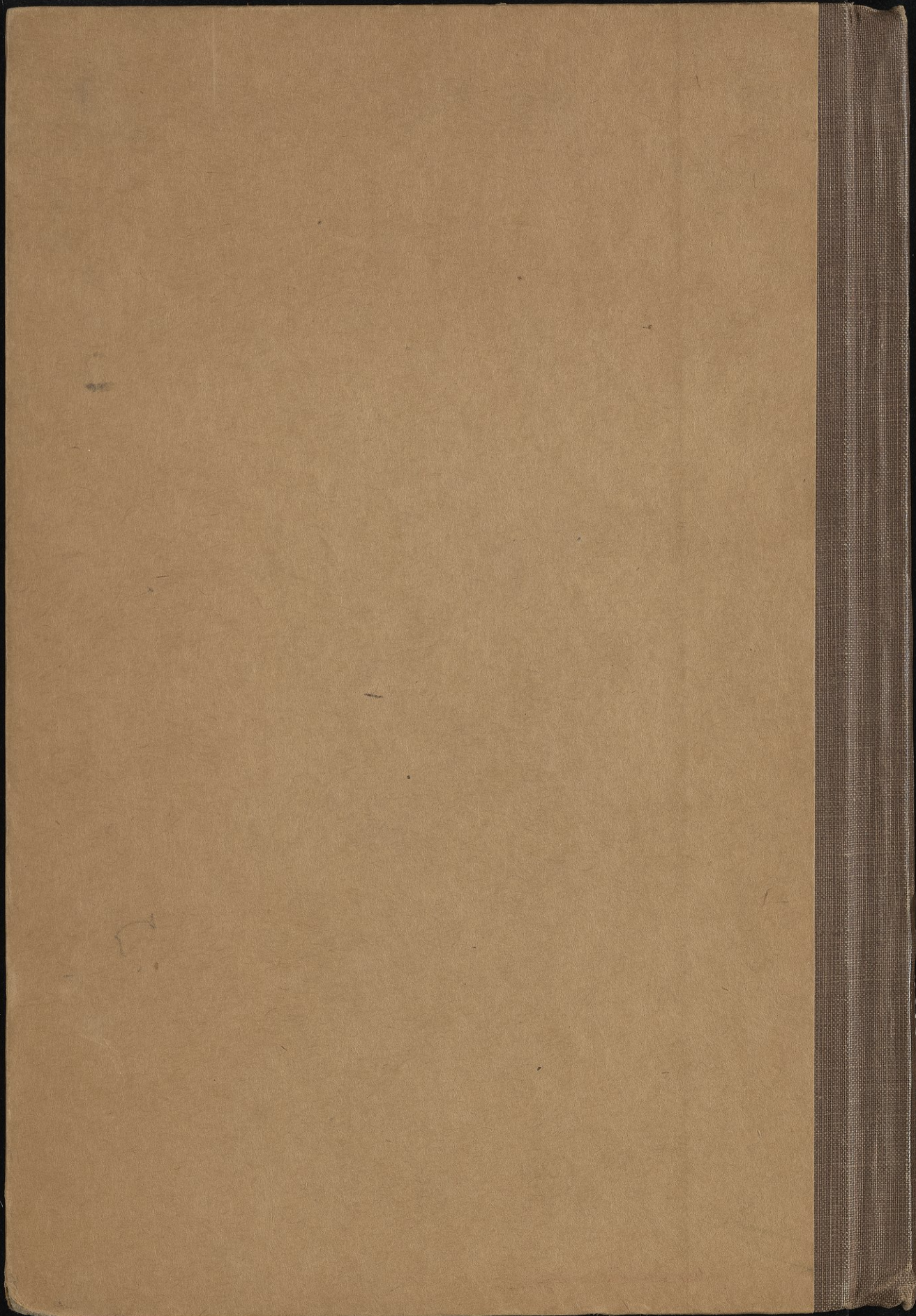
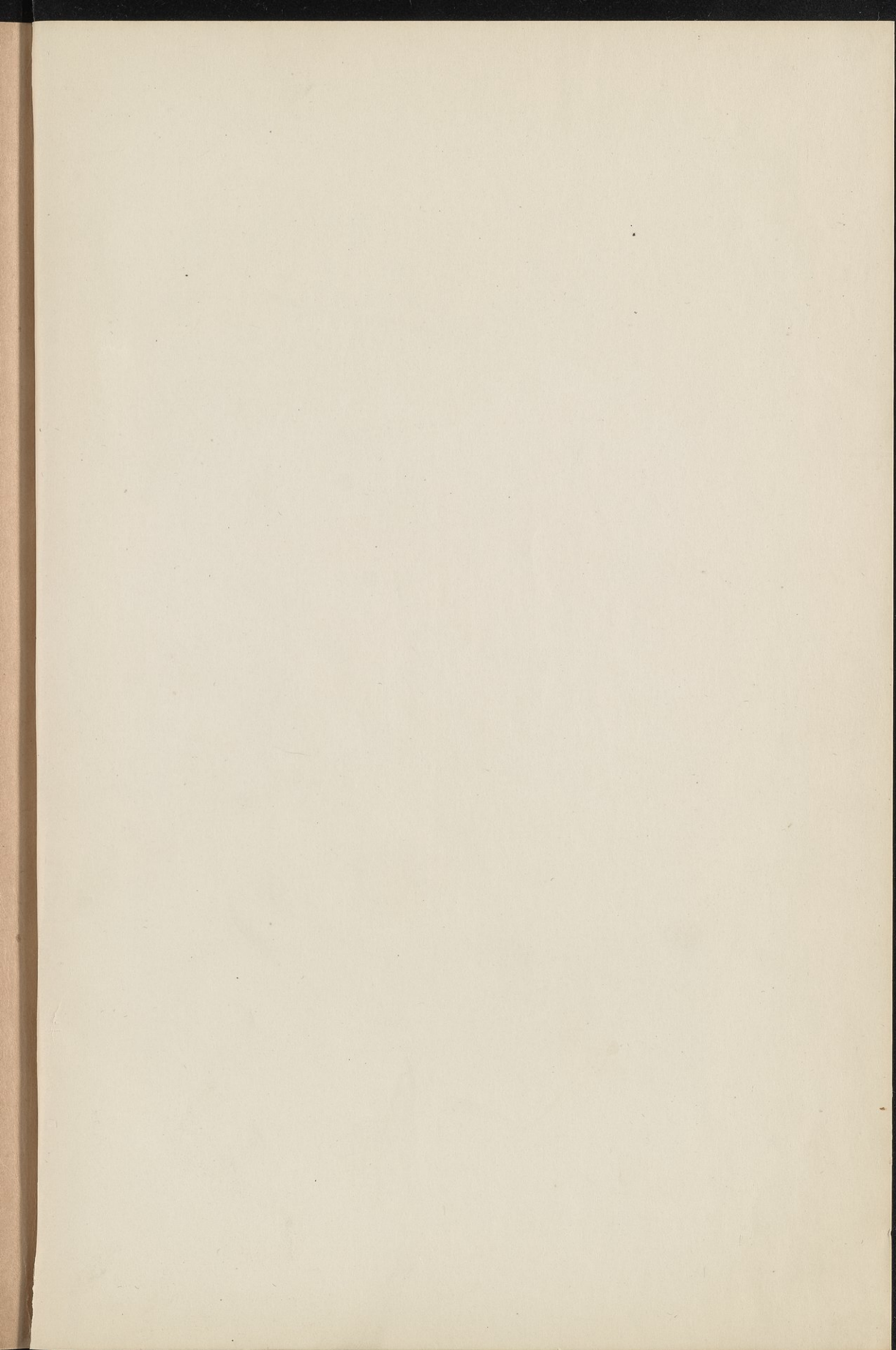




Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES





تاريخ الآداب العربية

من الجاهلية حتى عصر بني أمية

نص

المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية في سنة ١٩١٠ - ١٩١١

المرحوم الأستاذ

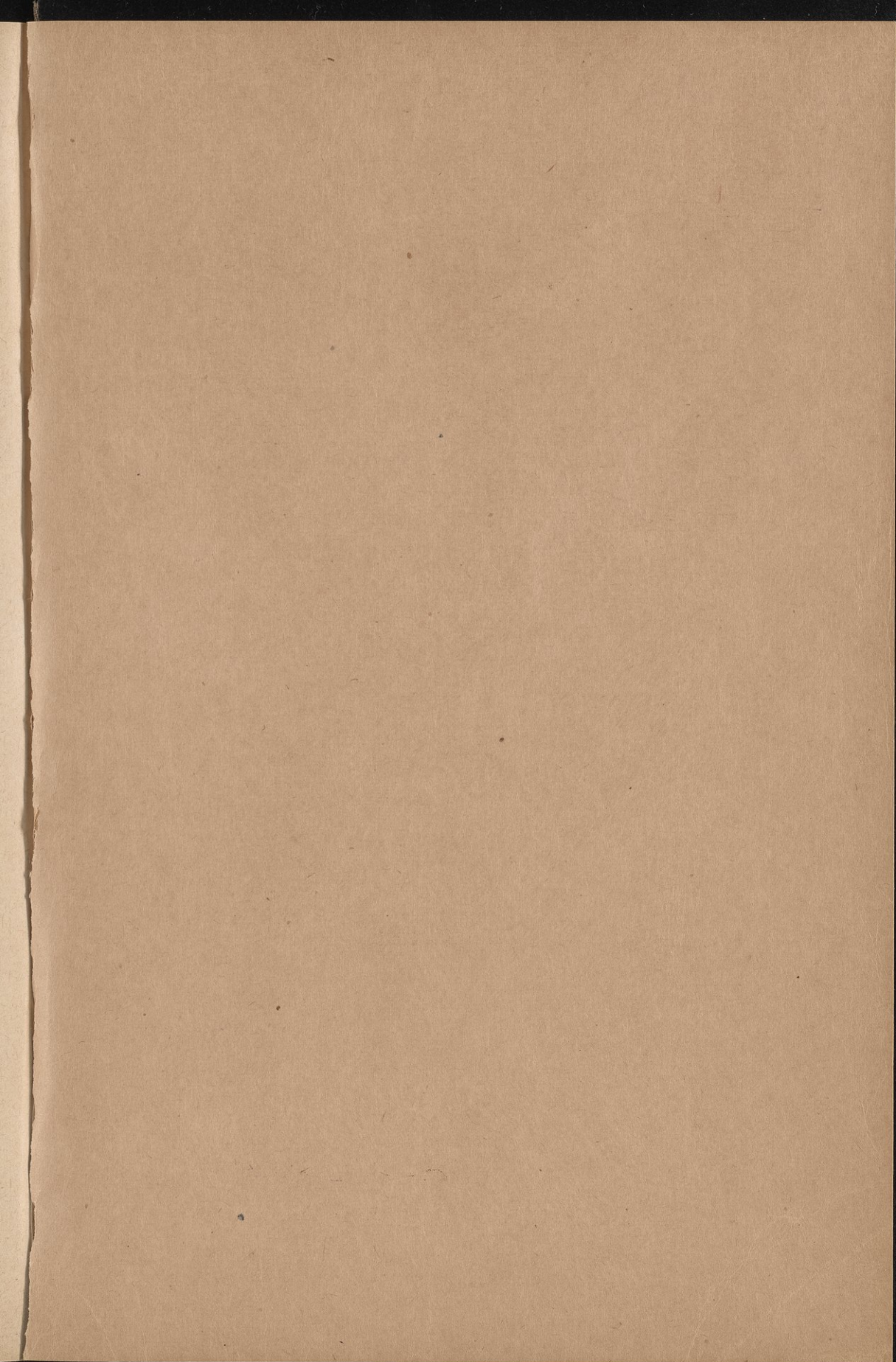
كارلونا لينو

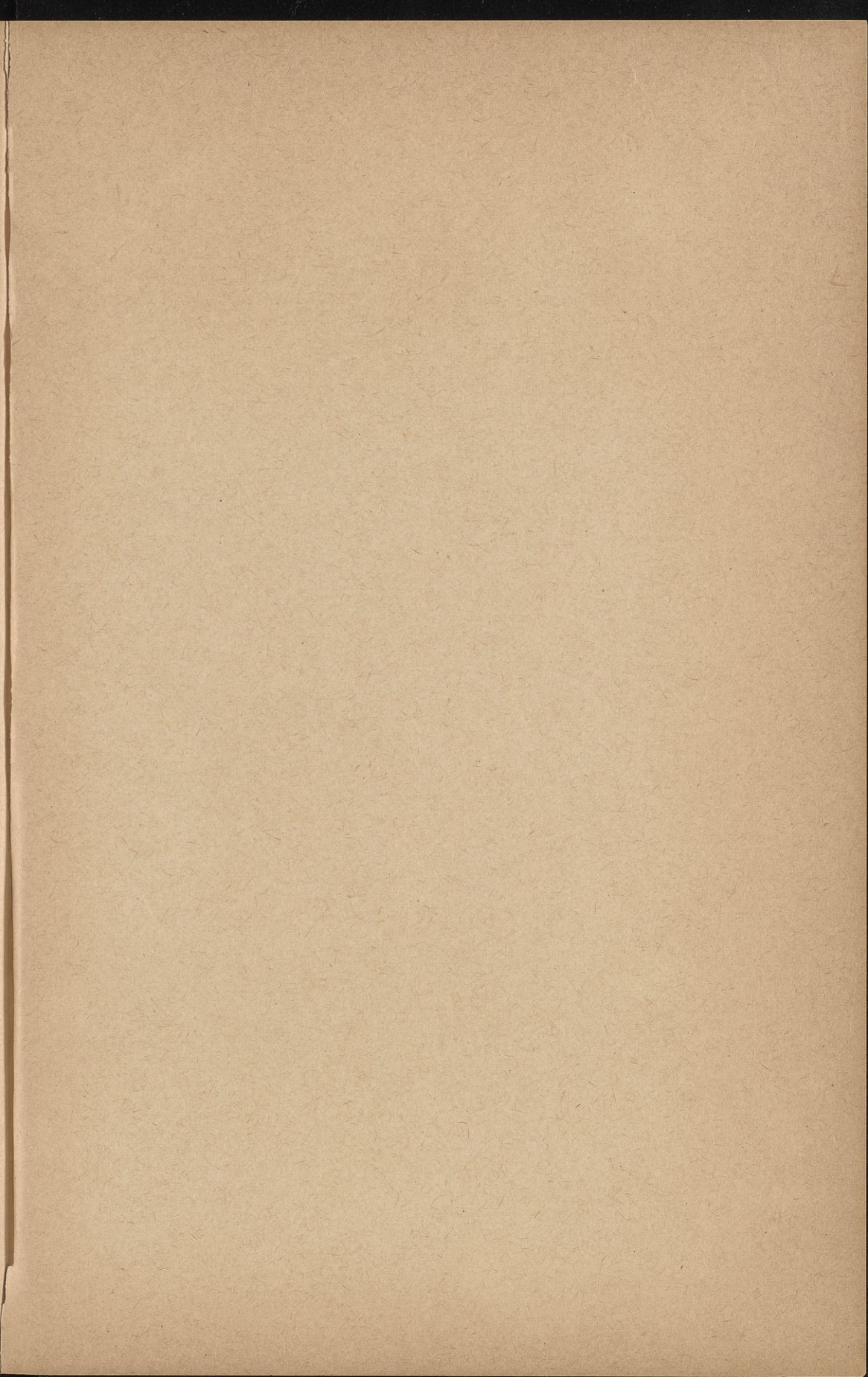
إعنتت بنشرها

مريم نالينو

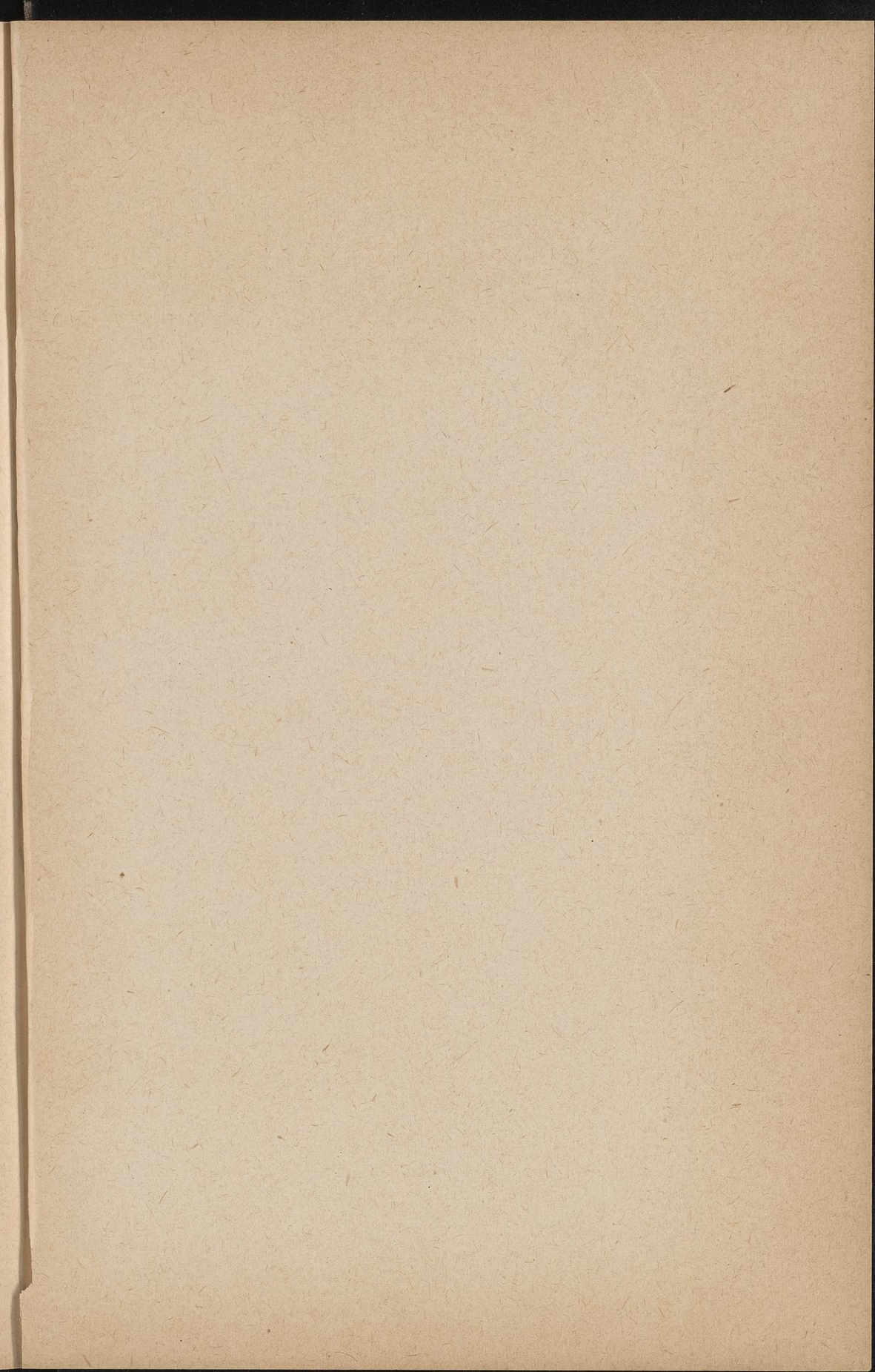
منزله الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

١٩٥٤





تاريخ الآداب العربية



تاريخ الآداب العربية

من الجاهلية حتى عصر بني أمية

نص

المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية في سنة ١٩١٠ — ١٩١١

المرحوم الأستاذ

كارلوناينو

اعتنت بنشرها

مريم نالينو

مترجم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

١٩٥٤

893.79
N1491

16547E

مقدمة

هذا كتاب فى تاريخ الأدب العربى ، قرأته كما تعودت أن أقرأ أمثاله من الكتب التى تعرض للأدب العربى وغيره من الآداب الأخرى . ولكنى لم أقرأه بعقلى وحده ، كما تعودت أن أقرأ كتب التاريخ الأدبى ، وإنما قرأته بعقلى وقلبى وشعورى وبهذه العواطف الكثيرة المختلفة التى تشور فى نفس الشيوخ حين يستحضرون أطرافاً من حياتهم فى عصر من عصور شبابهم الأول . عواطف هذا الحنين إلى شىء لا سبيل إليه أو إلى أشياء لا سبيل إليها . وعواطف هذا الحب لما لا سبيل إلى بلوغه ولا مطمع فى تحقيقه . وعواطف هذا الحزن على هذا الحرمان الذى لا سبيل إلى استدراكه ولا إلى اتقاء ما يثيره فى النفس من الميض والووعة والأسى .

ثم عواطف الأنىس بتلك الآمال العذاب التى طالما تعلقت بها النفس واثقة مطمئنة ، والتى صدقت ولم تكذب وتحققت ولم تخب ، فملأت القلب غبطة وبهجة وسروراً ، وأعانت على العمل والجد والسكد والنشاط ، وأتاحت لكثير من المنى أن تتحقق ثم انقضت وانقضت أيامها ، فأصبحت وكأنها حلم رائع رائق مضى مع تلك الليلة الجميلة التى أثارته وأثارت الرضى به ، ثم مضت إلى غير رجعة ومضى معها حلمها ذلك السعيد .

نعم هذا كتاب يتجه إلى العقل لأنه يؤرخ عصرًا من عصور الشعر العربى القديم . ولكنه بالقياس إلى وإلى نفر من رفاق فى ذلك الجيل الذى مضى ، يتجه إلى القلب أيضاً لأنه قطعة من شبابنا ، ولأنه يصور لنا لونًا من ألوان تلك الحياة التى كنا نحياها فى أول هذا القرن ، والتى لا يحياها الشباب الآن بعد أن تغيرت

الحياة المصرية وذهبت معالم تلك الحياة القريبة البعيدة ، وأصبحنا لا نستطيع أن نستحضرها إلا بالذكرى حين ما تتيح لنا الحياة الحاضرة وأعمالها وأثقالها أن نخلو إلى نفوسنا ونفرغ لذكرياتنا . وما أقل ما تتاح لنا الخلوة إلى النفوس وما أندر ما يتاح لنا هذا الفراغ إلى الذكريات .

نعم وهذا الكتاب لا يتجه إلى هذه الناحية وحدها من نواحي قلوبنا وحياتنا في أول الشباب ، وإنما يتجه إلى ناحية أخرى هي ناحية الحب الرفيع النقي الكريم الذى لا تشوبه نقيصة ولا تتعلق به آفة من هذه الآفات التى تتعلق بحب الإنسان للإنسان ، فتفسده أو تشيع فيه ما يحزن ويسوء . ذلك هو حب الشباب الطامع المتطلع للأستاذ الذى يرضى الطموح والطمع والتطلع ، ويخرج النفوس عن أطوارها ويرفعها إلى حيث تستطيع نفوس الشباب أن ترقى إليه من منازل الإكبار والإعجاب والثقة والاتصال بالمثل العليا ، لا يصدها عن ذلك صاد ، ولا يرددها عنه راد ، ولا يحول بينها وبينه حائل من تلك المعوقات التى تملأ حياة الشباب على اختلافها وتباين أشكالها وألوانها .

هذا كتاب فى تاريخ الأدب العربى سمعناه فى أول شبابنا فى تلك الجامعة المصرية القديمة من أستاذنا الإيطالى العظيم « كارلو نالينو » منذ أربعة وأربعين عاماً . فى ذلك الوقت كنت طالباً فى الأزهر أقيم فى ذلك الحى الذى وصفته فى كتاب الأيام ، والذى زرته منذ حين لأحدث به عهداً ، ولأظهر عليه صديقاً لى من أساتذة « مدريد » ترجم كتاب الأيام وشاقه هذا الحى فأراد أن يراه . فلم نسكد نلم به حين ارتفع الضحى من ذلك اليوم حتى رأيت هذين البيتين يترددان فى نفسى :

يا دار مية بالعلياء	فالسند	أقوت و طال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيلاً	أسائلها	عيت جواباً وما بالربع من أحد

نعم أشهد لقد أقوت ولقد طال عليها سالف الأمد ، ولقد سألتها فلم تجب ولم أجد فيها أحداً يستطيع أن يجيب . وما أذهب في هذا مذهب الجاز وإنما هو مذهب الحق الذى يستطيع الناس جميعاً أن يروه إذا ذهبوا إلى هذا الحى ورأوا فيه تلك الأطلال التى عبث بها الزمان ، وأهملها الإنسان وخلي بينها وبين البلى والخراب .

كنت أعيش فى ذلك الحى أخرج منه مصباحاً إلى الأزهر فأسمع فيه دروس الأدب من الأستاذ العظيم السيد على المرصفى ، وأخرج منه مع المساء إلى الجامعة المصرية فأسمع فيها دروس الأدب من الأستاذ العظيم « كارلو نالينو » . وكانت دروس الأدب تلك التى كنت أسمعها فى الأزهر حين يرتفع الضحى تردنى إلى حياة الطالات القدماء الذين كانوا يختلفون إلى العلماء فى مساجد البصرة والكوفة وبغداد . وكانت دروس الأدب التى كنت أسمعها فى الجامعة حين يقبل المساء تدفعنى إلى حياة الطلاب الذين يختلفون إلى الجامعات فى روما وباريس وغيرها من المدن الجامعية الأوروبية الكبرى . فكنت أعيش مع الماضى البعيد وجه النهار، وأعيش مع الحاضر الأوروبي الحديث آخر النهار ، وتشغلى خطوط الحياة المصرية الراكدة الممضة بين ذينك الوقتين . وكان الرفاق يجدون من هذه الحياة مثل ما كنت أجد، يسعدون حين يعودون إلى الماضى ، ويسعدون حين يدفعون إلى الحياة الغربية التى كانوا يتطلعون إليها ، ويشقون بين ذلك بالركود والمجود . ويجب أن يتصور القراء من الشباب المعاصرين حياة أولئك الشيوخ الشباب من طلاب الأزهر فى أول القرن ، حياتهم المادية وحياتهم العقلية أيضاً . وأن يقدرُوا ما كان يملأ قلوب بعضهم من الرضى والغبطة، وهذا الغرور الحلو البرى الذى كان يمازج نفوسهم تلك الغضة المتواضعة حين كانوا يدفعون من حى الأزهر إلى حى قصر النيل ، وحين كانوا يتحلقون مصبحين حول أعمدة الأزهر متربعين على الحصر

البالية ، ثم يجلسون إذا كان المساء إلى أساتذتهم في غرفات الجامعة لا يتربعون على الحصر وإنما يجلسون على الكراسى إلى تلك الموائد الضغار . وحين كانوا يسمعون من شيوخهم وجه النهار أحاديث الفقه والنحو كما كانت تلقى في تلك الأوقات ، وبأيديهم ملازمهم تلك العتيقة يتبعون فيها ما يقرأ الشيوخ عليهم من الكتب و يسمعون لما يلقي عليهم الشيوخ من التأويل والتعليل والتحليل ، فيفهمون قليلاً ويعجزون عن فهم كثير مما كانوا يسمعون . فإذا كان المساء جلسوا إلى أساتذتهم أولئك من الأوربيين فسمعوا منهم أحاديث لا عهد لهم بمثلها تلقى عليهم باللغة العربية الفصحى مع شيء من التواء الألسنة بهذه اللغة ، فتقع تلك الأحاديث من آذانهم موقع الغرابة ومن قلوبهم مواقع الماء من ذى الغلة الصادى ، فإذا خلوا إلى أنفسهم بعد ذلك وازنوا بين ما يسمعون وما يرون أول النهار ، وما يسمعون وما يرون آخر النهار . فأنارث هذه الموازنة في نفوسهم عواطف وأهواء وميولاً أقل ما توصف به أنها كانت تصور لهم هذه الآماد البعيدة إلى أقصى غايات البعد ، بين قديم سقيم سئموه وضاقوا به ، وبين جديد أحبوه وتهالكوا عليه . ووازنوا كذلك بين شيوخهم أولئك الذين كانوا لا يعرفون إلا حين يقرأون في الكتب ، فإذا تسكلموا غرقوا وأغرقوا طلابهم في اللغة العامية إلى أذقانهم أو إلى آذانهم ، وبين أساتذتهم أولئك الأوربيين الذين كانوا يعرفون حين يقرأون وحين يفسرون وحين يخوضون معهم فيما شاء الله من ألوان الحديث . وكانوا يسألون أنفسهم كيف أتيح لهؤلاء الأوربيين ما أتيح لهم من العلم بأسرار اللغة العربية ودقائق آدابها ، وكيف لم يتح هذا النوع من العلم لشيوخهم أولئك الأجلاء .

وكانت هذه الموازانات تثير في قلوبهم فنوناً من التمرد وتدفع نفوسهم إلى ضروب من الثورة والجموح . وكان هذا كله يعرضهم لكثير من الشر . وحسبك

أنهم كانوا مقسمين بين الأزهر القديم والجامعة الجديدة .
وكان هذا يجعل حياتهم قلقاً كلها . وأى شئ أجدى على النفوس الشابة من
هذا القلق الخصب الذى هو الأساس المتين لكل تطور منتج فى الحياة العقلية
والمادية جميعاً . وما أظن حياة الشباب « المطربشين » الذين كانوا يختلفون إلى
الجامعة إلا مشبهة من كثير من الوجوه لحياة زملائهم المعممين .
من أجل هذا كله يستطيع القارئ المعاصر أن يقدر ما كان للجامعة المصرية
القديمة من أثر بعيد فيما طرأ من تغير خصب على حياة ذلك الجيل من أجيال
الشباب .

أما أنا فقد سجلت غير مرة وأسجل الآن أنى مدين بحياتى العقلية كلها لهذين
الأستاذين العظميين : سيد على الموصفى ، الذى كنت أسمع دروسه وجه النهار ،
و « كارلو نالينو » الذى كنت أسمع دروسه آخر النهار . أحدهما علمنى كيف أقرأ
النص العربى القديم وكيف أفهمه وكيف أتمثله فى نفسى وكيف أحاول محاكاته .
وعلمنى الآخر كيف أستنبط الحقائق من ذلك النص ، وكيف ألائم بينها ،
وكيف أصوغها آخر الأمر علماً يقرؤه الناس فيفهمونه ويجدون فيه شيئاً ذا بال .
وكل ما أتيت لي بعد هذين الأستاذين العظميين من الدرس والتحصيل فى مصر
وفى خارج مصر فهو قد أقيم على هذا الأساس الذى تلقينته منهما فى ذلك الطور
الأول من أطوار الشباب . بفضلهما لم أحس الغربة حين أمعنت فى قراءة كتب
الأدب القديم ، وحين اختلفت إلى الأساتذة الأوربيين فى جامعة باريس ، وحين
أمعنت فى قراءة كتب الأدب الحديث .

فلا غرابة إذن فى أن تكون حياتى كلها براً بهذين الأستاذين وإكباراً لهما
واعترافاً بفضلهما وشكراً لما أهديا إلى من معروف وما أسديا إلى من جميل . وشهد
الله ما قرأت فى كتاب قديم ولا حديث ولا حاولت كتابة فى الأدب إلا ذكرت

أحدهما أو كليهما وأرسلت إليهما من أعماق نفسى تحية الحب والإعجاب والشكر
والوفاء .

والذين يقرأون هذا الكتاب الذى أقدمه اليوم إلى القراء المتأدبين يحسن بهم
أن يقرأوا ما كانوا يدرس لشبابنا فى ذلك الوقت من أدب فى معاهدنا ومدارسنا
على اختلافها ، ليقدرُوا الفرق الهائل بين ما كان الأستاذ « نالينو » يلقى علينا فى
الجامعة ، وبين ما كان يلقى علينا فى المعاهد والمدارس ، وأثر هذا الفرق فى تطور
حياتنا العقلية وفى تطور تصورنا للأدب العربى قراءة وفهماً وإنتاجاً .

فلأول مرة درس لنا الأدب العربى القديم درساً منظماً ، وألقى فى روعنا أن
الشعر العربى لا يختلف باختلاف فنونه التقليدية مدحاً وثناءً ووصفاً وهجاءً ونسيباً
وتشبيهاً فحسب ، وإنما يختلف باختلاف موضوعاته التى قيل فيها وظروفه التى أحاطت
به حين قيل ، والمؤثرات المختلفة التى أثرت فى قائله وفى سامعه أيضاً . ولأول
مرة ألقى فى روعنا ما كان للسياسة من آثار دقيقة عميقة فى نشأة فنون مختلفة من
الشعر العربى فى العصر الإسلامى أيام الخلفاء الراشدين وأيام بنى أمية .

ولأول مرة ألقى فى روعنا الفرق بين الشعر التقليدى وبين الشعر الذى
استحدثته السياسة الإسلامية فى العراق ، وبين النسيب التقليدى القديم والغزل
الذى استحدثته النظام الاجتماعى الإسلامى فى الحجاز ، وبين الغزل المحقق الذى
نشأ فى حواضر الحجاز والغزل العذرى النقى الذى نشأ فى البادية العربية فى الحجاز
ونجد والعراق .

ولأول مرة عرفنا أن من الممكن أن ندرس الأدب العربى على أساس من
الموازنة بينه وبين الآداب القديمة الكبرى ، وأن الحياة الإنسانية تتشابه وتتقارب
مهما تختلف ظروفها ومهما يتنوع ما يختلف عليها من الخطوب .

ولأول مرة تعلمنا كيف نحقق هذه الموازنة بين أدبنا القديم والآداب القديمة

الأخرى ، ملائمين بين ما ينبغي أن نلائم بينه ومخالفين بين ما ينبغي أن نخالف بينه من الظواهر المتباينة التي يذخر بها التاريخ والتي تؤثر في حياة الناس .
ثم لأول مرة تعلمنا أن الآداب مرآة لحياة العصر الذي ينتج فيه لأنه إما أن يكون صدى من أصداؤها ، وإما أن يكون دافعاً من دوافعها ، فهو متصل بها على كل حال وهو مصور لها على كل حال ، ولا سبيل إلى درسه وفقهه إلا إذا درست الحياة التي سبقته فأثرت في إنشائه ، والتي عاصرتة فتأثرت به وأثرت فيه ، والتي جاءت في إثر عصره فتلقّت نتائجه وتأثرت بها . فللآداب مظهران إذن ، مظهره الفردي لأنه لا يستطيع أن يبرأ من الصلة بينه وبين الأديب الذي أنتجه ، ومظهره الاجتماعي لأن هذا الأديب نفسه ليس إلا فرداً من جماعة خيالاته لا تتصور ولا تفهم ولا تحقق إلا على أنه متأثر بالجماعة التي يعيش فيها . هو في نفسه ظاهرة اجتماعية فلا يمكن أن يكون أدبه إلا ظاهرة اجتماعية .

كل هذا سمعناه وفهمناه في تلك الدروس التي كان الأستاذ « نالينو » يلقيها علينا ، حين كان هذا القرن ، في العاشرة من عمره . وكل هذا كان جديراً بالقياس إلينا في تلك الأيام وبالقياس إلى الأزهريين منا بنوع خاص . فمن الطبيعي أن يحدث في نفوسنا أعمق الآثار وأبعدها مدى ، وأن يطبع حياتنا العقلية بطابع النقد الحديث . وليس من شك في أن حقائق التاريخ الأدبي العربي قد تغيرت منذ ذلك الوقت في كثير من أنحائها وفي كثير من تفصيلها كذلك .

وليس من شك أيضاً في أن العلماء المصريين كان لهم أعظم الأثر فيما حدث من هذا التغير ، فهم قد تعمقوا دراسة الأدب أثناء هذه الأربعين سنة الأخيرة ، فاستكشفوا أشياء لم تكن معروفة في حياة الأدب العربي أثناء القرون الأولى للهجرة ، وهم قد نشروا آثار قديمة لم تكن قد خضعت لبحث العلماء ، فيسروا للباحثين درسها وفقهها واستكشاف ما كانت تخفي من الحقائق . وهم بعد ذلك

قد كسبوا بالدراسات الأدبية المصرية منزلة لها قيمتها الخطيرة في الدراسات العالمية لأدبنا العربي القديم .

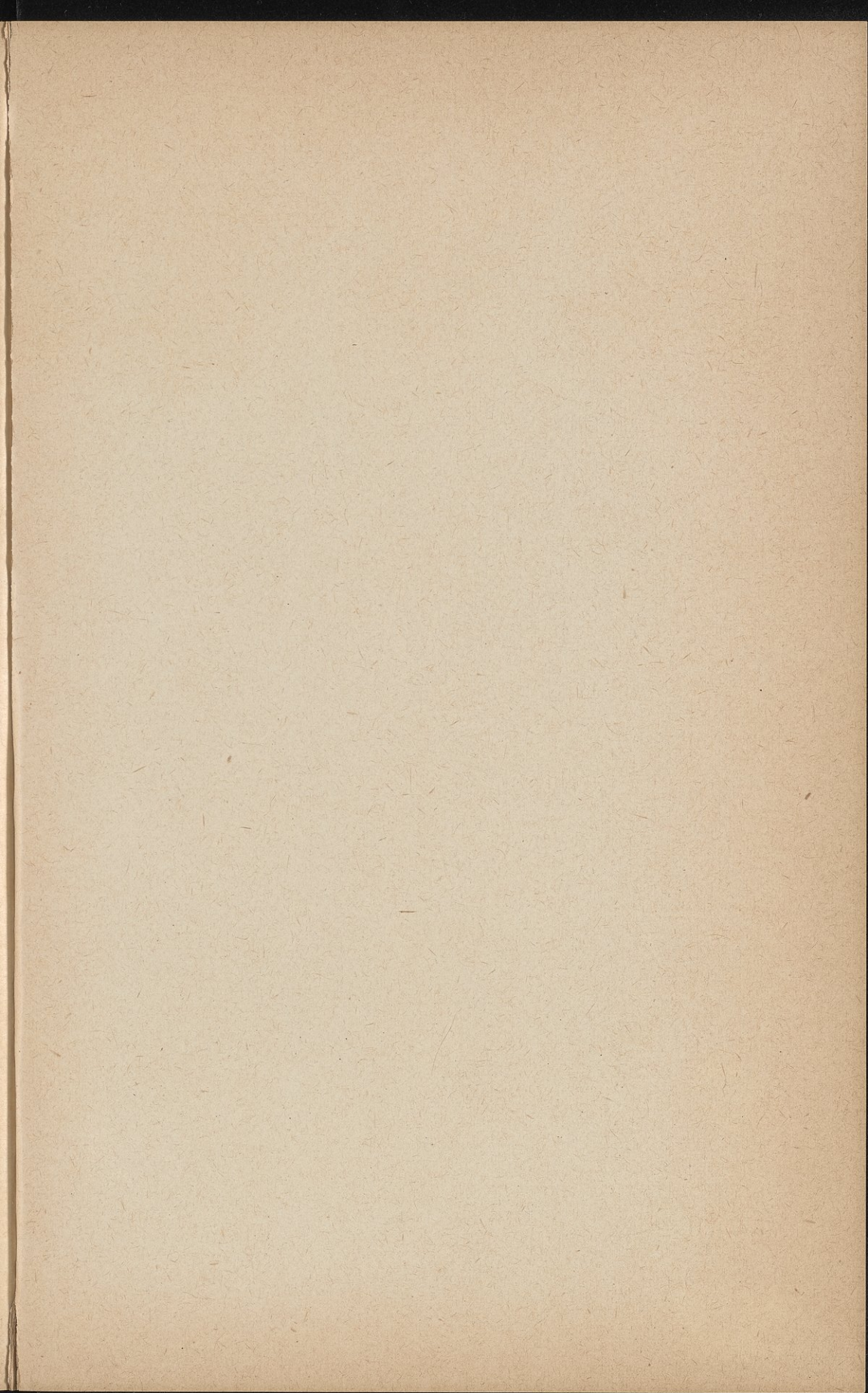
كل هذا شيء ليس فيه شك ودلائله تلمس بالأيدى في هذه السكتب القديمة التي نشرت، وفي هذه السكتب الجديدة التي ألقت، وفي الدروس الأدبية التي تلقى في جامعاتنا ومعاهدنا المختلفة، وفي إنتاجنا الأدبي الخالص الذي شغلت بدرسه وعنيت بفقهه ونقله إلى اللغات المختلفة البيئات العلمية في غرب أوروبا وشرقها وفي شمال أمريكا وجنوبها . ولكن هناك شيئاً ليس أقل من هذا ثبوتاً واستقراراً ووضوحاً، وهو أن دروس الأستاذ «ناليانو» في الجامعة المصرية القديمة كانت هي الموجة الأولى لنهضتنا العلمية في دراسة الأدب مباشرة أو بالواسطة، وجهت تلاميذ الأستاذ الذين سمعوا منه فبحثوا وتعمقوا وأحسنوا الفقه، ثم وجهت أجيالاً من الشباب سمعوا على هؤلاء الطلاب حين أصبحوا أساتذة وقرؤا لهم حين أصبحوا مؤلفين .

وكذلك مضى المذهب الحديث في تاريخ الأدب بين الأجيال المتعاقبة من الدارسين والباحثين . وما أعرف للأستاذ «ناليانو» نظيراً في التوجيه العميق للنهضة المصرية إلا زميله الأستاذ «سنتلانا» الذي أحدث في مصر نهضة خطيرة في دراسة الفلسفة الإسلامية، وفي الصلة بين هذه الفلسفة وبين الفلسفة اليونانية القديمة . وقد أتيج للأستاذ «ناليانو» من البرّبة بعد وفاته ما أرجو أن يتاح لزميله . والفضل في نشر هذا السكتاب يرجع قبل كل شيء وقبل كل إنسان إلى ابنته السكريمة الأنسة «ماريا ناليانو» . فهي التي حفظت آثار والدها العظيم وجدت في إعدادها للنشر، وظفرت بالمعونة على نشر هذه الآثار في إيطاليا، فأهدت للعلم والعلما كنوزاً لا سبيل إلى تقويمها ولا إلى استقصاء آثارها الخطيرة، فيما أنتج الباحثون من الشرقيين والغربيين وما سينتجون من الدراسات الأدبية العربية على اختلاف موضوعاتها .

وأعدت هذه الدروس للنشر كما تركها الأستاذ لم تغير فيها شيئاً وإنما وفيت لأبيها
أصدق الوفاء وأجدره بالإكبار والإجلال . ووجدت من دار المعارف للطبع والنشر
معونة صادقة على إذاعة هذا الكتاب . فكان للدار وللاستاذة « ماريا نالينو »
فضل أى فضل ، لأنهما بنشر هذا الكتاب قد برّتا بأستاذ جدير بالبر ، وهياتا
لشباب المصريين والشرقيين أن يعرفوا أصول نهضتنا الأدبية المعاصرة .
فليهما على جهدهما الخالص لخدمة العلم ، الشكر أجمل ما يكون الشكر ، والثناء
أصدق ما يكون الثناء .

أما أنا فلم أمل هذه الصفحات إلا لأسجل برى بأستاذى العظيم ، وشكرى
لابنته الكريمة ولدار المعارف على ما أتاحتلى من أن أرى لوناً من ألوان حياتى
فى طور من أطوار الشباب .

طه حسين

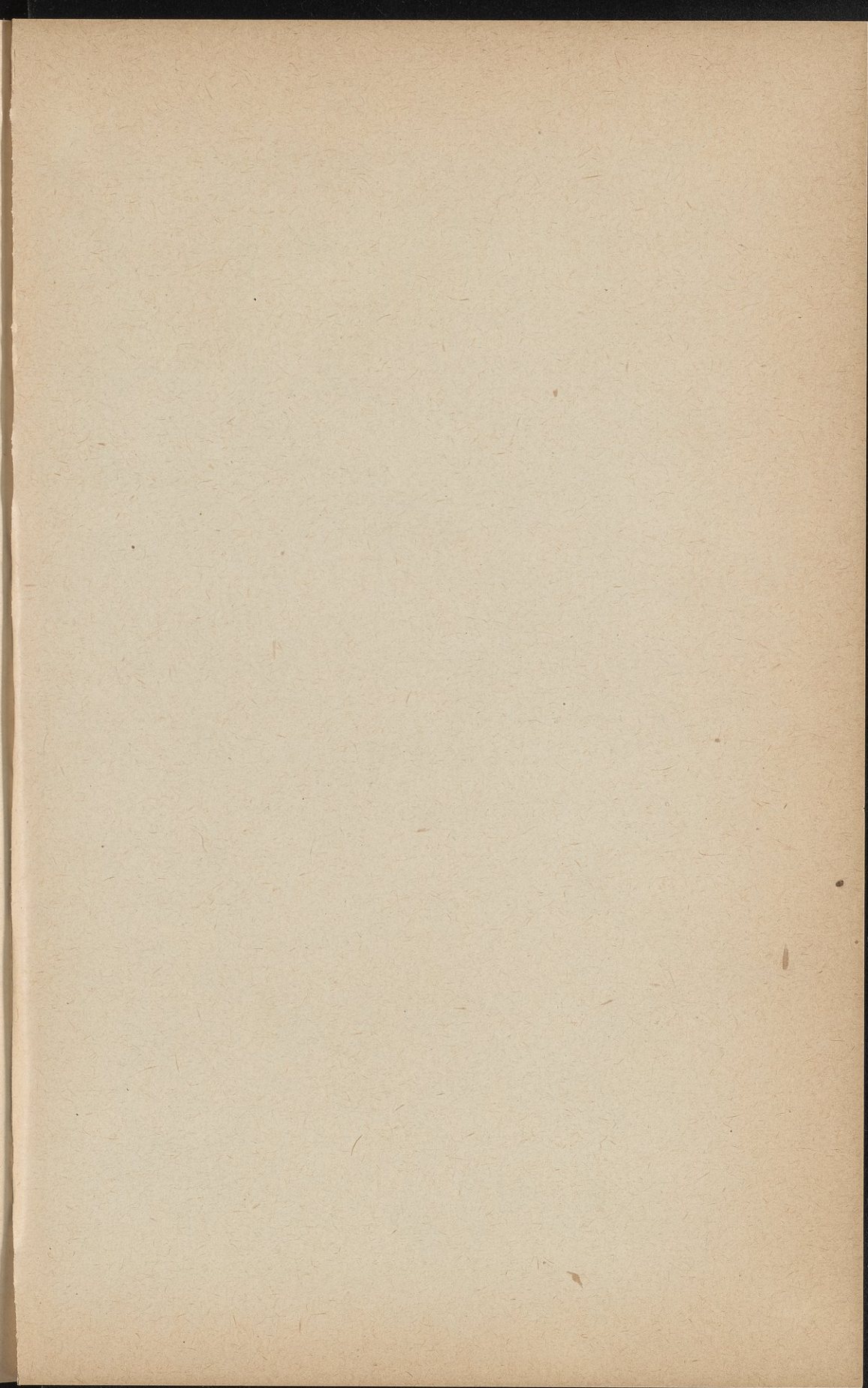


تذييل

لا يكون هذا الكتاب إلا نص الدروس التي ألقاها المرحوم الأستاذ كرلو نلينو (المتوفى سنة ١٩٣٨) في الجامعة المصرية سنة ١٩١٠ — ١٩١١ دراسية فقد كان المرحوم ألف نص الدروس باللغة العربية ولكنه كتب الحواشي بالإيطالية بشديد الإيجاز والاختصار ، فاعتنيتُ بنقل الحواشي إلى اللغة العربية وأضفتُ إليها ما عثرت عليه من الأخبار المفيدة الموجودة في بعض الكتب التي طُبعت بعد إلقاء هذه الدروس وإنما وضعتُ هذه الإضافات بين نصفي مستطيل [] .

ومن الواجبات علىَّ أن أشكر الدكتور طه بك حسين شكراً جزيلاً لإرادته أن يؤسس ذكرى المحبة الخالصة بينه وبين المرحوم بنشر هذا النص غير المطبوع إلى الآن .

م. م. نلينو



مقدمة

لَمَّا افْتَتَحْتُ دُرُوسِي فِي السَّنَةِ الْفَائِتَةِ كَانَ أَوَّلُ كَلَامِي إِبْدَاءَ شُكْرِ خَالصِ حَمِيمٍ صَادِرٍ عَنْ خَفَايَا قَلْبِي لِلْقَائِمِينَ بِالْجَامِعَةِ الْمَصْرِیَّةِ عَلَى مَا شَرَّفُونِي بِهِ بِالْدَعْوَةِ إِلَى الْإِقَاءِ مُحَاضِرَاتٍ فِي هَذَا الْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ الَّذِي عَلَى حَدَاثَةِ عَهْدِهِ أُضْحَى قَبْلَهُ آمَالُ الْمُجَدِّينَ فِي تَرْقِيَةِ هَذِهِ الدِّيَارِ الشَّرِيفَةِ وَمَرْكَزاً تَحُومُ حَوْلَهُ قُلُوبُ الْآخِذِينَ بِأَيْدِي الْأُمَّةِ الْمَصْرِیَّةِ فِي سَبِيلِ الْفَوْزِ وَالتَّقَدُّمِ . وَكَذَلِكَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ لَيْسَ لِتَدْرِيسِي افْتِتَاحُ أَوَّلَى وَلَا ابْتِدَاءُ أُخْرَى مِنْ إِعَادَةِ جَزِيلِ الشُّكْرِ عَلَى مَا أَظْهَرَهُ لِي دَوْلَةُ الْأَمِيرِ أَحْمَدَ بَاشَا فُؤَادٍ وَمَجْلِسُ إِدَارَةِ الْجَامِعَةِ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِي وَاسْتِحْسَانِ عَمَلِي السَّابِقِ حَيْثُ تَكَرَّمُوا عَلَيَّ بِتَكَرُّارِ الدَّعْوَةِ فِي هَذَا الْعَامِ وَإِنْ عَجِزَ لِسَانِي عَنْ تَوْفِيَةِ مَا يِقْتَضِيهِ مِثْلُ هَذَا الشُّرْفِ مِنْ عِبَارَاتِ الشُّكْرِ وَالْعِرْفَانِ .

وَالَّذِي حَمَلَنِي عَلَى تَلْبِيَةِ الدَّعْوَةِ مَعَ مَعْرِفَةِ قَلَّةِ عِلْمِي وَضَعْفِ قُوَّايِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى خَطَرِ الْمَوْضُوعِ وَجَلَالَتِهِ وَغَلْبِ فِي نَفْسِي عَلَى الْخَافَةِ مِنَ النِّقْصَانِ عَنْ نَهْضِ أَعْبَاءِ هَذَا الْمَنْصَبِ وَالتَّقْصِيرِ عَنْ إِحْسَانِ الْقِيَامِ بِمِثْلِ هَذَا التَّدْرِيسِ الصَّعْبِ الْوَعْرَانِ الْجَامِعَةِ الْمَصْرِیَّةِ تَدْخُلُ هَذِهِ السَّنَةِ فِي دَوْرٍ جَدِيدٍ وَطُورٍ مُجِيدٍ يُرْجَى مِنْهُ فَضْلاً عَنْ تَرْقِيَةِ الْعِلْمِ إِصْلَاحُ أَحْوَالِ التَّعْلِيمِ بِالْقَطْرِ الْمَصْرِیِّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ غَيْرِ الْبَعِيدِ وَتَجْهِيزُ الْمُعَلِّمِينَ الْأَكْفَاءِ لِتَحْسِينِ جَمِيعِ الْمَدَارِسِ الْوِطَنِيَّةِ وَجَعْلُهَا أَهْلاً لَهَا بِهَا تِلْكَ الْعِلْيَا الَّتِي مَرَامُ أَوَّلَى الْأَفْكَارِ السَّامِيَةِ وَالْأُمُيَالِ الْعَالِيَةِ أَعْنَى تَكْوِينِ الْقِرَاطِ وَتَثْقِيفِ الْعُقُولِ وَتَرْبِيَةِ النُّفُوسِ وَبَثِّ رُوحِ الْجِدِّ وَالْعَمَلِ وَإِيجَادِ الرِّجَالِ الْخَادِمِينَ لَوْطَنِهِمْ بِهَمَّةٍ وَصِدْقٍ وَاسْتِقْلَالٍ . وَإِنَّ الْأَفْضَلَ الْكَرَامَ الْمُعْتَنِينَ بِأُمُورِ الْجَامِعَةِ هُمْ كِفْلَاءُ النِّجَاحِ وَزَعْمَاءُ الْفَلَاحِ .

فَلِذَلِكَ سُرَرْتُ أَيْ سُرُورٍ وَحَسَبْتُ أَنِّي قَدْ نَلْتُ أَسْمَى الْمَنَى بِوُقُوفِي الْيَوْمَ بَيْنَ

أيديكم مشتركاً وإن لم أكن كفوءاً في هذا الأمر الجليل والعمل الخطير الذي هو أشرف ما يمتدّ إليه أعناق المهمة وأعظم ما يتنافس فيه نبال الأمم .

قد سبقت أمتي الإيطالية أيّ سبق جميع الأمم الإفريقية الأخرى إلى عقد العهود وتثبيت روابط المحبة والوئام بينها وبين الديار المصرية فكانت في القرون الوسطى تجار البندقية وجنوة وغيرها من المدن الإيطالية قاصدين مصر أفواجاً مقتحمين لجح البحر مُفرّعين الجهد في توسيع نطاق التجارة فأصبحوا في أثناء أمد مديد بل أجيال متوالية متفرّدين بالاتجار في الشرق مستبدين بعلاقات الودّ والسلم بهذه الأراضي الشريفة . وربما لم يقتصروا على مقايضة البضائع : ذهبوا بقصص وحكايات سمعوها من القصّاصين المصريين وأشاعوها في الأنحاء الإيطالية حتى اشتهرت فيها فألبسها أدباء أمتي ثوباً قشياً في مؤلّفاتهم المنظومة والمنشورة . وكذلك بعض المصوِّرين المشهورين من بنى جلدتي في القرن الخامس والسادس عشر ربّما في تصاويرهم المحفوظة الآن في المتاحف رسموا أشعة الأمراء والسلاطين من دولة المماليك أو صوروا رجالاً عليهم الحللُ المحلاةُ بكتابات عربية منقولةٍ ممّا رأوه منقوشاً في الصوانى والقناديل وما أشبهها من المصنوعات المصرية . وإن تصفّحت الكتب العربية في صناعة إنشاء الدواوين (مثل كتاب تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف للشيخ تقيّ الدين عبد الرحمن من علماء القرن الثامن للهجرة أو كتاب صبح الأعشى للقلقشنديّ المتوفى سنة ٨٢١ هـ - ١٤١٨ م) وجدتُم فيها قوانين رسم مكاتبه سلاطين دولة المماليك لأرباب الولايات أيّ الحكومات الإيطالية . وعلى تَمادى الزمن لم تزل هذه العلائق بين وطنكم ووطنى موقوفة على محض المحبة والمسألة فلا كدّرتها أبداً شرُّ العداوة أو سوء الطمع والغصب ولم يصل أبداً مركبُ إيطاليا إلى مرافئ القطر المصريّ إلاّ بصفة صديق يزور الصديق . فأحسبُ من أحسن التفاؤل لتوثيق علائق الارتباط بين الأمتين إن بعضنا الإيطاليين دُعينا إلى الاشتراك في هذه النهضة العالمية الجديدة التي تعود على بلادكم بالفائدة العظمى وتكون سبباً في

زيادة رفعة القطر وعزّه الشعب . فأتمنّى كلّ التّمتنى ازدياد المؤالفة والاتّفاق وتبادل
الحبّة والصدّاقة على الدوام .

إنّ الموادّ التي ستدور دروسى عليها هذه السنة ليست فى كتاب واحد موضحةً أو
فى كتب قليلة مدوّنة بل هى فى جملة وافرة من المصنّفات الكبيرة والصغيرة فى لغات
شّتّى شرقيةً وغربيةً متفرقةً فضلاً عما يكون من مبتكرات أفكارى . فلذلك أرى
من المناسب أن أكرّر نصيحة قد نصحتها للطلبة عند ابتداء السنة الدراسيّة السابقة
أعنى أن أحثّكم كلّ الحثّ على أخذ مذكرات فى أثناء الدرس ثمّ على تقييدها
وترتيبها فى منازلكم ببذل الجهد وإنعام النظر فيما قيّدتم لئلاّ تنسوا ما سمعتم ولا
تحفظوا شيئاً من المسموع إلّا فيهمّ معناه واستقصيتم فحواه . وأنتم تعلمون أنّ التعلم
بشيئين حسنّ الحفظ وإدمان الفكر فى المحفوظ فإن قل أحدهما قلّ ونقص المتعلّم .
وذلك خصوصاً فى المدارس الجامعات التي تنتهى ما يُرعى منها ليس كما فى المدارس
الثانويّة محض إفادة الطلبة ما سينفعهم فى الحياة العاديّة من المعارف بل هو هداية
الطلّاب فى طريق النبوغ فى الفنون وتمارينهم على آداب البحث العلمى باستقلال
الفكر ودقة الانتقاد السالم . فمثّل المدرّس بالجامعات كمثّل دليل رافق السّاحين
مدّة ما فلمّا رآهم قادرين على تذليل عقبات الطريق عارفين بما يجب عليهم من
التجهّز لباقي السفر والتحرّز من أخطار السيّر ودعمهم وتركهم لوحدهم داعياً لهم بالطائر
الميمون ونيل المرام متمنياً أن يسعهم اكتشاف طرق جديدة وسلوك مسالك لم يدخلها
أحد قبلهم وقطع بقاع لم يسبق إليها غيرهم . كذلك الأستاذ بجامعة يختار كلّ سنة
قطعة صغيرة من فنّه ويتبحّر فيها أثناء دروسه ليعرّف الطلبة أساليب البحث الدقيق
والفحص العميق التي لا سبيل دونها إلى ترقية العلم وتوسيع حلّة المعارف . فقصارى
القول أنّ غاية الجامعات ليست فقط أن يُصبح الطالب واعياً لما تلقاه عن أستاذه
من الفوائد والأخبار بل هى خاصّة تدريب ذهن الطالب بإجراء الاعتبار والانتقاد
فيما وعاه ليُضحيّ بعد ذلك التدريب أهلاً للتدرّج فى مراتب الارتقاء العلمى باستقلال

الفكر قادراً على سدّ الخلل الذي ربّما وقع فيه السلف جديراً بالإيجاد فيما اختصّ به من العلوم يجوز لطالب المدارس الثانوية الاقتناع بما دونه وبينه المدرّس أو بمضمون الكتب القليلة الابتدائية المقرّرة لتلك المدارس لكون مقصد التعليم الثانويّ أن يقتبس الشابُّ قدرًا معيّنًا من المعارف بفنون مخصوصة مناسباً لمقتضى القيام بأمور الحياة العادية العملية . ولكن لا يجوز ذلك لمن طلب العلم بالجامعات التي غايتها القصوى إنّما هو تأهيل أختيار الشّبّان للتوصّل إلى أعلى درجة من المهارة بالبحث العلميّ المُبدع ولا يتّان الوسائل والأسباب المبنى عليها سيرُ الوطن والعلم والاجتماع الإنسانيّ في سبيل الرُقّي الدائم والتمدّن الزائد . إنّ عمل الأستاذ بالجامعات كعمل الزّراع في حقولهم لأنّ دروسنا ليست إلّا بذرٍ بزُر صغير في عقول المستمعين فلا يذُرّ ذلك البزُر ولا ينبت ولا يُمسى شجرة وارقة مُثمرة إن لم يلحقه المتعلّم بقوة الحافظة ورياض العقل وإمعان النظر وسعة مطالعة جَمٍّ من مصنّفات أشهر العلماء على ما دون ذلك من النَّصب والجِدِّ والعناء والجهد لأنّه كما قيل :

بقدر الكدِّ تُسكّسب المعالي فمن طلب العُلَى سهر الليالي

وحيث إنّ حفظ جميع ما تُسمع مرّة واحدة شَيْءٌ مُستحيلٌ (ولا يخفى على أحد صحّة المثل السائر أن كلّ علم ليس في القرطاس ضاع) كيف لكم بإعمال الفكر فيما استمعوه بالجامعة والاستفادة منه بعد ما رجعتُم إلى منازلكم إن لم تكن لكم كرّاريسٌ قيّدة فيها خلاصة الدرس ؟ ثم كيف لكم بالتجهّز لتأدية الامتحان في آخر السنة إذ كان ما دُرّس بالجامعة أكثر المادّة التي سُمّتَحَنون فيها ؟ لا بدّ لكم من احتذاء مثال زملائكم بالجامعات الأورباوية في تقييد مذكّرات بسرعة أثناء درس الأستاذ ثمّ في تكميلها واستخراج نخبها وترتيبها مستعينين بمراجعة ما يتيسّر لكم من الكتب المشار إليها في الدرس .

ثمّ أحرّضكم كلّ التحريض على الاتّساع في المطالعة فإنّه ممّا لا غنى عنه لمن يريد الترقّي الرّحْبَ في أيّ علم . وهو أيضاً من أعظم الواجبات عليكم خصوصاً في هذا

الفن الذى أتشرف بتدريسه هذه السنة لأنَّ شدة الاعتناء بآداب لغتكم الشريفة وتاريخها ليست فقط مسألة علمية بل خدمة جلية لوطنكم يحقّ عليكم القيام بها . إنَّ الذى يعين ويصون وحدة أمة هو بالأخصَّ وحدة اللغة والآداب والأخلاق والأميال والأفكار المتوارثة منذ الزمان القديم دون انقطاع وانفصال فإن أُغفلت صيانتها لانحدرت الأمة إلى ورطة انحطاطها بل إبطال وحدتها . وإن راجعتم كتب تواريخ الغرب أقيم إنَّ بعض الأمم الإفرنجية قد تراكت عليها الفتن والحروب والبلايا والفساد وقهرها العدو وجعلها فى حال شرّ العبودية سلمت من الفناء التام لتسكها بحفظ آداب لغتها والعناية بتخليد ذكر ما أثر قدمائها العلمية والأدبية . ورُبَّ أمة قد ألقاها تقلبات الأمور وصروف الدهور فى غاية الانحطاط السياسى أخذت تُصلح شأنها الذليل وتعود إلى ما كانت أولاً عليه من العارة والصلاح السياسى والاستقلال لما صارت علماؤها مفرّغين كنانة جهدهم فى البحث العميق عن تاريخها وأحوالها السالفة وفى إحياء آداب لغتها وآثارها ومفاخرها كأنهم يعلمهم هذا قد ألقوا روح الحياة فى جسم الأمة المنهوك القريب من الموت — فويل لكل أمة غلب فيها الفتور عن صون كنوزها الأدبية وإبقاء ذكر ماثرها .

ستسمعونى يا سادة أسرد فى أثناء دروسى عدداً غير قليل من أسماء علماء معتبرين قدما كانوا أم معاصرين شرقيين أم غربيين فانتقد أقوالهم وأبدى فكرى فيها بالحرية التامة مستحسناً تارة لأرائهم وراداً تارة عليها بعد تقديم الاستنادات والدلائل والحجج . وليس غرضى من ذلك الخط من شأن أولئك العلماء الأفاضل والحكماء الأماجد الذين سبقونى فى هذه الأبحاث الخطيرة ومهدوا السبيل لمن جاء إثرهم وحذا حذوهم . كلا . وإنما غرضى الانتفاع بأعمالهم العلمية المهمة وتقدير فضائلها حقّ القدر واقتداء مثالهم فى المسعى إلى الفحص عن حقائق الأمور قدر ما استطعت لأنه بسبب قلة الطبيعة البشرية بالنسبة إلى جلالة أسرار الكائنات وعظم مخلوقات ربها يعرض للباحث القليل الشأن أن تمسكته إضافة شئ ولو يسير إلى ما اكتشفه

واخترعه السابقون له من الراسخين في العلم . إنَّ مَثَلَ العلم الذي لا نهاية لسعته كَمَثَلِ
 جبل شامخ ذي وعور هائلة وصخور مُرْعبة راسٍ في وسط بقاع كادت تكون ممتعة
 لا تُقَطَّع لَمَّا فيها من الخُسونة والصَّلابة فيرتفع ذلك الجبل بخراشيمه إلى فضاء
 الجوِّ ارتفاعاً لا يُحدِّد مقداره حتى لا يمكن أحداً أن يرى قِمَّتَه . وفي قديم الزمان
 تجاهد أجراً الناس وأقوامهم في التقرُّب من سَفْح الجبل ونجحوا بعد مقاساة متاعب
 لا تُحصى ثمَّ جاء ناسٌ آخر جسورون مثلهم أولو حزم وعزم وأخذوا في السعي
 إلى صعود الجبل وتوطئة طريق تُسلك في الأحجار والصخور فبعد المشاقَّ المديدة
 والزلات العديدة تمكَّنوا من إنفاذ جزء صغير من المشروع . فتبعهم أجيالٌ آخر
 وانتفعوا بعمل سلفهم وأصلحوه أحياناً وواصلوا فيه ورَبَّما لم يتقدَّموا إلا بعد ترك
 المسالك المأخوذة المألوفة والرجوع إلى ما أسفل منها لإيجاد طرق غيرها تكون أهلاً
 لمشروعهم فترقَّوا شيئاً يسيراً بعد كثرة الشغل والضلال واليأس وقللوا مسافة ما بينهم
 وبين القمَّة المرغوب فيها — هذا مثَلُ مسَّعانا إلى الحصول على الحقائق العامية
 الغامضة فإنَّ الحقيقة النامة المطلقة هي القمَّة المقصودة غير المدركة على ترايد تقرُّبنا
 منها والأقدمون يفيدون المتأخِّرين علماً ويمكنونهم من التوصل إلى ما هو أعلى من
 منزلتهم وكذلك من المرتقين في مرَاقاة العلم مَنْ يعتبر ويشرح من مبحثٍ وجهاً وَمَنْ
 يلاحظ ويبين منه وجهاً آخرَ فنقتبس من بنات أفكارها نوراً على نور .

ومن ذلك يتَّضح جلياً أنَّ تقدُّم العلوم النظرية العقلية مرتبطٌ بل متعلِّق بامتحان
 آراء السلف واختبار جميع ما يسعنا من تجاربهم ومعارفهم بدقَّة التحييص والنظر
 فيجب علينا أن ننتقد أقوال السابقين لنا انتقاداً صحيحاً سالماً خالياً عن كلِّ غرض
 دنيٍّ وميل شخصيٍّ . إنَّ ذلك الانتقاد المقرون بالاجتهاد يفيدنا علماً ويساعدنا على
 تحسين العمل وهو الذي يسوقنا إلى المقصود سياقة موثوقاً بها . راجعوا يا سادةُ توارِيخ
 الأمم الشرقية وتأمَّلوا فيها حقَّ التأمل تجدوا أنَّ انحطاط علومهم وسياستهم إنما ابتدأ
 لَمَّا انصرف حكَّوهم عن سبيل الاجتهاد المستقلِّ في العلوم واقتنعوا في المباحث النظرية

بالتقليد الذي كما لا يخفى عليكم هو قبول قول الغير دون مطالبته بحجّة فعدّوا عن
 تأليف الكتب المبدّعة المطوّلة ملتجئين إلى الاختصار والتلخيص وتصنيف الحواشي
 اللاغية على المتون والشروح أو التقايد والتقارير الباطلة على ذات الحواشي . ليس
 لأمة تمدّن صحيح ولا تقدّم إذا لم يكن فيها رجال مستقلّون بالعلوم النظرية مترقّون عن
 رتبة تقليد من سبقهم . فلذلك لا تقتصروا أيّها الطلبة على جمع أقوال أساتذتكم وتكريرها
 بل سرّحوا فيها أنظاركم وأعملوا فيها قوّة فطنتكم فإن سمعتم ما لا يقنعكم دليله
 أو برهانه فعليكم أن تسألوا أستاذكم وتطلبوا منه شرحاً أوسع أوفى . وحيث إنّ
 العصمة لله وحده فلا يسلم إنسان من الخطأ تماماً على جليل قدره وعلو منزلته ووفر
 علمه وعقله ليس من المستحيل أن يزل الأستاذ أحياناً في كلامه أم لا يُدرِك غاية
 الوضوح في بيانه فتقودنا إذ ذاك المباحثة إلى كشف القناع عن الغوامض ورفع
 الحجاب عن كلّ مُبهم مرتاب فيه .

و
و
م
م
ال
ع
ف
ك

الباب الأول

١ لفظ الأدب : بحث عن معناه الأصلي وما تفرع منه من المعاني المتعددة المختلفة — ٢ تعريف تاريخ الآداب — ٣ كيف ينقسم تاريخ الآداب العربية .

وهذا أوان الخوض فيما سندور دروسى عليه

١ — يجب على من يأخذ فى بيان علم أن يقدم تعريف ذلك العلم وتعيين موضوعه فأبتدى أنا أيضاً بشرح اسم الفن الذى أختص بتدريسه هذه السنة وهو تاريخ الآداب العربية .

إن اللغة لكائن حتى فعلى مثل كل حتى تقبل النمو والتجدد والفساد . وكذلك الألفاظ المفردة فكثيراً ما يطرأ عليها من التغير والانتقال من معنى إلى آخر حسبما يقتضيه تغير أحوال الأمة الاجتماعية والسياسية والتقدم أو التقهقر فى الصنائع والعلوم . ومن الألفاظ العربية التى كثر فيها تغير المعنى الأصلي على تمداد الزمان وتقلبات العوائد والأفكار والأميال هو لفظ الأدب حتى إن أحداً من عرب الجاهلية أو القرن الأول من الإسلام لو أحسب الآن وسمع اسم الفن المعين لى تدريسه لما فهم من حقيقة موضوعه شيئاً . فلنفحص عن معنى لفظ الأدب الأصلي ثم عما عرض له من الانحراف عن أصله والإطلاق والحصر مدة الأجيال التالية لظهور الإسلام إلى عصرنا هذا .

إذا راجعتم القواميس المطولة ما وجدتم فيها لهذا اللفظ تعريفاً كافياً ولا شرحاً وافياً فلا عجب فى ذلك لأن لغوى العرب عند شغفهم وعنايتهم المحمودة بلم غريب الألفاظ كثيراً ما أغفلوا إتقان تعريف المفردات المألوفة كأنها غير حرة بالذكر . فتجدون

مثلاً ان ابن منظور الإفريقي المتوفى بمصر سنة ٧١١ هـ — ١٣١١ م لم يقيّد في قاموسه العظيم الجسيم المترجم بكتاب لسان العرب لفظ « الحَرْف » بمعنى الكلمة مع أنه قديم متداول ولا أحد من علماء اللغة سجّل في كتبه ذات ذلك اللفظ بمعنى الشيء اليسير والقطعة الصغيرة على كثرة استعماله عند أطراف الكتاب منذ القرن الأوّل للهجرة النبويّة^(١). أمّا لفظ الأدب فأكثر اللغويين اقتصروا على تعريفه هكذا : « الأدبُ الظرفُ وحُسنُ التناول ». وفي المصباح المنير^(٢) لأحمد بن محمد المقرئ الفيومي المتوفى سنة ثيّف وسبعين وسبعائة ما نصّه : « أدبته أدباً من باب ضرب علمته رياضة النفس ومحاسن الأخلاق . قال أبو زيد الأنصاري^(٣) الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرّج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل . وقال الأزهري^(٤) نحوه » . وقال السيّد الشريف عليّ بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ هـ — ١٤١٣ م في كتاب التعريفات^(٥) : « الأدب عبارة عن معرفة ما يُحتَرَز به عن جميع أنواع الخطأ — آداب البحث صناعة نظريّة يستفيد منها الإنسان كفيّة المناظرة وشرائطها صيانة له عن الخبط في البحث وإلزاماً للخصم وإفحامه . كذا في قطب الكيلاني^(٦) . آداب القاضي وهو التزامه لما ندب إليه الشرع من بسط العدل ورفع الظلم وترك الميل » — والذي توسّع في بيان معنى الأدب من أهل اللغة هو السيّد المرتضى الحسيني

(١) راجع J. WEISS, *Die arabischen Nationalgrammatiker und d. Lateiner* في المجلة الألمانية (Z. D. M. G.) Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft 64, 1910, p. 368-374.

(٢) المصباح المنير ج ١ ص ٦ من طبعة بولاق ١٣١٦ .

(٣) توفي أبو زيد الأنصاري سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦ هـ .

(٤) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري المولود سنة ٢٨٢ والمتوفى في ربيع الثاني ٣٧٠ هـ و ٩٨٠ م ألف كتاب تهذيب اللغة .

(٥) كتاب التعريفات ص ١٤ . من طبعة ليبسك سنة ١٨٤٥ .

(٦) عاش قطب الدين الكيلاني هذا في النصف الثاني من القرن الثامن (الرابع عشر ميلادية) وله شرح على رسالة في آداب البحث لشمس لدين محمد السمرقندي .

الزبيدي المتوفى بمصر سنة ١٢٠٥ هـ — ١٧٩١ م . قال في كتاب تاج العروس^(١) الذي هو أوسع كتب اللغة العربية ألفه بصفة شرح على القاموس للفيروزابادي^(٢) : « (الادب محرّكة)^(٣) الذي يتأدّب به الأديب من الناس سُمّي به لأنّه يؤدّب الناس إلى المحامد وينهاكم عن المقابح وأصل الأدب الدعاء . وقال شيخنا^(٤) ناقلاً عن تقارير شيوخه الأدب مُلكة تعصم من قامت به عمّا يشينه . وفي المصباح^(٥) هو تعلّم رياضة النفس ومحاسن الأخلاق . وقال أبو زيد الأنصاري^(٦) الأدب يقع على كلّ رياضة محمودة يتخرّج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل . ومثله في التهذيب^(٧) . وفي التوشيح هو استعمال ما يُحمّد قولاً وفعلاً أو الأخذ أو الوقوف مع المستحسنات أو تعظيم مَنْ فوقك والرفق بمن دونك . ونقل الخفاجي^(٨) في العناية عن الجواليقي^(٩) في شرح أدب الكاتب الأدب في اللغة حُسْن الأخلاق وفعل المكارم وإطلاقه على العلوم العربيّة مولّد حدث في الإسلام . وقال ابن السّيد البطليوسيّ^(١٠) الأدب أدب النفس والدرس . والأدب (الظرف) بالفتح (وحسن تناول) وهذا القول شامل لغالب الأقوال المذكورة ولذا اقتصر عليه المصنّف » . ا هـ

(١) ج ١ ص ١٤٤ .

(٢) محمد بن يعقوب الفيروزابادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ — ١٤١٤ م .

(٣) ما بين القوسين هو متن القاموس .

(٤) و « شيخنا » يعني أبا عبد الله محمد بن الطيّب القاسمي المولود سنة ١١١٠ هـ بفاس والمتوفى سنة ١١٧٠ هـ بالمدينة .

(٥) يعني المصباح المنير لأحمد بن محمد المقرئ القيومي الذي قد تقدم ذكره .

(٦) أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري المتوفى سنة ٢١٤ هـ أو ٢١٥ أو ٢١٦ .

(٧) يعني كتاب تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى الذي قد تقدم ذكره .

(٨) أحمد بن محمد الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ . فانظر كتابه « الشفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل » ص ٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٩) توفى أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي سنة ٥٣٩ هـ — [وراجع شرحه على أدب الكاتب لابن قتيبة ص ١٣ من طبعة مصر ١٣٥٠] .

(١٠) ولد ابن السيد البطاليوسى سنة ٤٤٤ هـ ومات سنة ٥٢١ هـ أما اسمه ابن السيد فهو بكسر السين المهملة وياء ساكنة فراجع كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ترجمة عدد ٣٥٤ من طبعة غوننجن أو عدد ٣٢٠ من الطبعات المصرية .

إنّ هذا النصّ على طوله ليس غاية الوضوح ولا يفيدنا ما كان معنى الأدب أصلاً وكيف تفرّعت منه المعاني المتعدّدة المشهورة التي ربّما لا تُرى بينها علاقةٌ باديةً نظر وذلك فضلاً عمّا في شرح المؤلّف من الخلّ والنقصان . فعليّنا أن نستخرج من تأليفات العرب النظميّة والنثرية شواهداً ونصوصاً نافعة لتوضيح معنى ذلك اللفظ أصلاً وفرعاً ونوردها مرتبةً ترتيباً تاريخيّاً دون خلط القديم بالحديث لتجولوا لنا حقيقة الأمر .

لا شكّ في أنّ الأدب عند قدماء العرب إنّما كان السنّة^(١) أي طريقة العمل والتصرّف التي سنّها (أي سار فيها) الأوائل فصارت مسلكاً لمن بعدهم أعنى جملة العوائد القديمة الواجب على الإنسان سيّرها على رأى عرب الجاهليّة . وأنتم تدرون أنّ علم الأخلاق عندهم إنّما كان مراعاة سيرة أسلافهم فيها كانوا يفتخرون كما قال لبيد في معلّته^(٢) :

إِنَّا إِذَا التَقَّتِ الْجَامِعُ لَمْ يَرَلْ مِنَّا لِرَازٍ عَظِيمَةٍ جَسَامُهَا
وَمُقَسِّمٌ يُعْطَى الْعَشِيرَةَ حَقَّهَا وَمُعْذِرٌ لِحَقُوقِهَا هَضَامُهَا
مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا
أَوْ كَمَا جَاءَ فِي شَعْرِ الْمُتَلَمِّسِ^(٣) :

وَقَدْ كُنْتَ تَرْجُو أَنْ أَكُونَ لِعَقْبِكُمْ زَنِيمًا فَمَا أُجِرْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ
لَأُورِثَ بَعْدِي سُنَّةً يُقْتَدَى بِهَا وَأَجُلُوا عَنْ ذِي شُبْهَةٍ إِنْ تَوَهَّمَا

(١) في السنّة انظر : DE LANDBERG, *Etudes sur les dialectes de l'Arabie méridionale* : Leiden 1901, II, p. 891-893; NOELDEKE, *Fünf mo'allaqāt*, II, Wien 1900, p. 91-92; I. GOLDZIEHER, *Muhammedanische Studien*, Halle 1888-1890, I p. 41; II p. 13.

(٢) لِرَازِ الحَشْبَةِ التي يشد بها الباب ولِرَازٍ عَظِيمَةٍ لازم لها موكل بها والجَسَامُ المتكف للامور القائم بها . مُعْذِرٌ : قال الأصمعي : المعذر الذي يضرب بعض حقوق الناس ببعض يأخذ من هذا ويعطي هذا . وقال أبو عبيدة هو الذي يعصى ولا يُرد . هَضَامُ الهَضَام الذي ينقص قوماً ويُعطى قوماً بتدبير وقد وثق به في ذلك .

(٣) ديوان المتلمس المطبوع بليبسك سنة ١٩٠٣ م عدد ١ بيت ١٥ - ١٦ وزنيم المعلق في القوم ليس منهم . أجز شق طرف لسان الفصيل أو الجدى لئلا يرتضع .

فعلى معنى السُّنة والسيرة ورد لفظ الأدب في قصيدة لسهام بن حنظلة الغنوي^(١)
 من الشعراء المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام : (من بحر البسيط)
 قد يعلم الناس أني من خيارهم في الدين ديناً وفي أحسابهم حسباً
 لا يمنع الناس مني ما أردت ولا أعطيهم ما أرادوا حسنَ ذا أدباً
 فظاهر أن الأدب هنا هو السيرة والطريقة .

وحيث إن ركن التريّة وتثقيف العقول كان عندهم تعليم سنة الأوائل أطلقوا
 الأدب والتأديب على حسن الشيم وتهذيب الأخلاق . ومن هذا الباب قول
 بعض الفزاريين رواه أبو تمام الطائي في حماسته^(٢) : (من بحر البسيط)
 أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه بالسوءة اللقبا
 كذلك أدبت حتى صار من خلقي إني وجدت ملاك الشيمه الأدبا

(١) خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي ج ٤ ص ١٢٤ من طبعة بولاق ١٢٩٩ والبيت الثاني
 موجود أيضاً في لسان العرب ج ١٦ ص ٢٦٩ .

(شرح البيتين) الدين السيرة . والحسب ما للانسان من الشرف والمجد بسبب كثرة آبائه المجدين
 ومفاخرهم . وحسن من أفعال المدح أو الذم مثل حبّ وبعد وسرع ونعم وبئس ، واختلف الغويون
 في معنى البيت الأخير فهناك ما جاء في شرحه في كتاب خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر
 ابن عمر البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ ١٦٨٢ م عصر (ج ١ ص ١٢٥) « قال التبريزي في شرح
 إصلاح المنطق لابن السكيت يريد أنه يقهر الناس فيمنعهم ما يريدون منه ولا يمنعونه ما يريد منهم
 لغزته وجعله أدباً حسناً . هذا تفسير أبي محمد . وقال أبو العلاء في معنى هذا البيت كائن يترك على نفسه
 أن يعطيه الناس ولا يعطيهم وينعهم . وهو الصواب لأن ما قبله يدل عليه . وذا فاعل حسن وأدباً
 تمييز واراد حسن تخفف ونقل لأن هذا مذهب التعجب . وقال الصوار إن الشاعر أنكر على نفسه بأن
 الناس يعطونه وينعهم ثم قال حسن ذا أدباً أي ما أحسن هذا الأدب على سبيل الإنكار والتهمك . انتهى » . اه
 (٢) الحماسة ص ٥١٠ — ٥١١ من طبعة بَن ١٨٢٨ — ١٨٥١ أوج ٣ ص ٨٧ من طبعة
 بولاق ١٢٩٦ .

(شرح البيتين) الألقاب أعلام تشع بمدح شخص أو ذمه باعتبار معناها الأصلية فجاء في القرآن
 الشريف في سورة الحجرات : « ولا تتابروا بالألقاب » . وفي شعر حريث بن عتاب النهاني من
 معاصري الخلفاء الراشدين : (من بحر البسيط)
 لا يرتجى الجار خيراً في بيوتهم ولا محالة من شتم وألقاب

واختلفوا في شرح « والسوءة » ومنهم من قال أنه مفعول مع اللقبا أي لا القبه اللقب مع السوءة
 ومنهم من قال أنه مفعول به كما يقال ما زلت وزيداً حتى فعل كذا أي ما زلت يزيد حتى فعل كذا
 ومنهم من قال بالتقديم والتأخير كأن المراد ولا القبه اللقب والسوءة . وملاك الأمر قوامه الذي
 يقوم به أي نظامه وعماده .

ومنه أيضاً قول امرأة من بني هِزَّانُ سُمِّيتْ بِأُمِّ الثَّوَابِ فِي ابْنِ لَهَا عَقَّهَا^(١) :

(من بحر البسيط)

أَنْشَأَ يُمَزِقُ أَثْوَابِي يُؤَدِّ بَنِي أَبْعَدَ شَيْئِي عِنْدِي يَدْتَعِي الْأَدْبَا

ومنه أيضاً قول عبد الله بن المخارق الشهير بناغة بني شَيْبَانَ^(٢) من شعراء

عصر الأمويين :

إِنَّ الْغَلَامَ مُطِيعٌ مِنْ يُؤَدِّ بِهِ وَلَا يُطِيعُكَ ذُو سِنٍ لِتَأْدِيبِ

ثمَّ لَضِيقِ الْمَعَارِفِ عِنْدَ الْعَرَبِ الْقَدَمَاءِ (وتعلمون أنَّ أغلبه العلم بسنة آبائهم

ومكارمهم ومفازهم) صارت كلمة الأدب عبارةً أيضاً عن المعرفة بشيء والتأديبُ

عبارةً عن الإخبار بشيء والتعليم والأديبُ عبارةً عن المُخْبَرِ بأمر. ومن هذا الباب

ما جاء في الحديث النبوي^(٣) من قول علي بن أبي طالب حين سمع النبي يخاطب

وفد بني نَهْدٍ « يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تُكَلِّمُ وفود العرب بما لا نفهمُ

أَكْثَرَهُ . فَقَالَ أَدَبِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي وَرُبِّيتُ فِي بَنِي سَعْدٍ » .

ومنه أيضاً بيت لمقاتل بن مسعود العنيدى رواه المُخْتَرِيُّ في حماسته^(٤) :

(من بحر الطويل)

عَرَفْتُ اللَّيَالِي بُؤْسَهَا وَنَعِيمَهَا وَحَنَكَنِي صَرَفُ الزَّمَانِ وَأَدْبَا

(١) كذا في كتاب الحماسة لابن تمام ص ٣٥٦ من طبعة بُنِّ أَوْج ٢ ص ١٣٤ من طبعة بولاق .

وفي الكامل للمبرد ص ١٣٦ من طبعة ليبسك أَوْج ١ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤

أَنْشَأَ يَخْرُقُ أَثْوَابِي وَيَضُرُّ بَنِي أَبْعَدَ سَتَيْنِ عِنْدِي تَبْتَغِي الْأَدْبَا

(٢) كتاب الحماسة للبحتري ص ٣٤٠ من طبعة ليدن [وديوان ناغة بني شيبان ص ٧٥ من

طبعة مصر ١٣٥١]

(٣) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج ١ ص ٣ من طبعة مصر ١٣١١ . وقال

السيوطي في كتابه الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (ص ١٣ — ١٤ من طبعة مصر ١٣٠٧

بهاشم الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي) ما نصه : « (حديث) أدبني ربي فأحسن تأديبي

أبو سعيد بن السمعان في أدب الإملاء من حديث ابن مسعود والعسكري في الأمثال وابن الجوزي

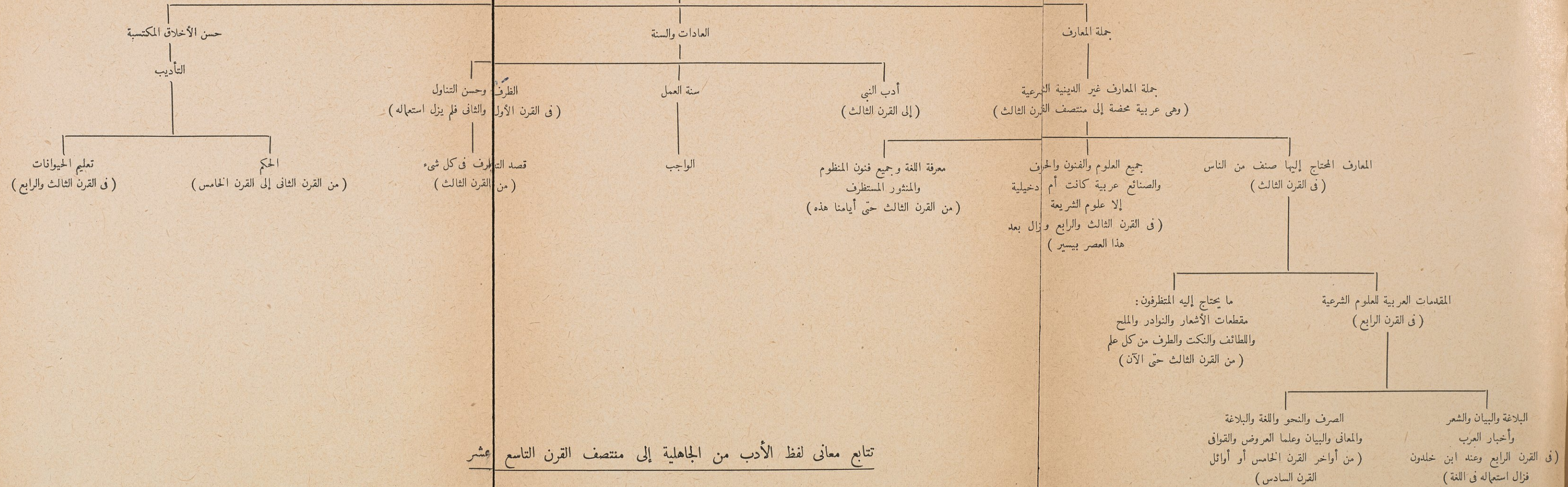
في الأحاديث الواهية من حديث علي وقال لا يصح وصححه أبو الفضل بن ناصر قلت وأخرج ابن عساكر

من طريق محمد بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عن جده أن أبا بكر قال يا رسول الله لقد طقت في

العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك قال أدبني ربي ونشأت في بني سعد انتهى »

(٤) الحماسة للبحتري ص ١٥٤ من طبعة ليدن — حَنَّكَ هَذَّبَهُ .

العادات المتوارثة والسنة في العمل



أى جعلنى ذا خِبرة بالأُمور . — ومنه قول أبى عطاء أفلح بن يسار السِّندى^(١)
 بن شعراء أواخر الدولة الأمويّة : (من بحر الوافر)

إذا أرسلتَ فى أمر رسولاً فأفهمه وأرسله أديباً
 وإن ضيّعتَ ذلكَ فلا تلمه على أن لم يكن عِلْمُ الغيوبَا

فجلى أن المراد بالأديب المُخبرُ بأمر مخصوص .

هذه كانت معانى لفظ الأدب فى زمان الجاهليّة والقرن الأوّل للهجرة لا غير —
 فلسائل أن يسأل : ما لكلّ هذه الألفاظ والمعانى من العلاقة بسائر المفردات المشتقة
 أيضاً من حروف أدب مثل الأدب وهو العجب والأدبة والمأدبة والمأدبة التى هى
 طعامٌ صُنع لدعوة أو عرس ومثل أدب يادُب أدباً معناه عمل مأدبة أو دعا فلاناً
 الى الطعام ؟ إن علماء اللغة من العرب اجتمعوا على جواب هذا السؤال بما تقدّم
 ذكره فى النصّ المنقول آنفاً من كتاب تاج العروس . فيوافقه مثلاً قول أبى زكرياء
 يحيى التبريزى فى شرحه على كتاب الحماسة لأبى تمام^(٢) : « والأدب اسم لما يفعله
 الإنسان فيتزيّن به فى الناس . وأصله من الدعاء والأدب يدعو إلى نفسه بحُسْنه » .
 وقال عبد القادر البغدady فى كتاب خزانة الأدب ج ٤ ص ١٢٤ من طبعة بولاق
 سنة ١٢٩٩ : « واشتقاقه من شيئين يجوز أن يكون من الأدب وهو العجب ومن الأدب
 مصدر قولك أدب فلان القوم يادُبهم إذا دعاهم قال طرفة^(٣) : (من بحر الرمل)
 نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدبَ فىنا يَنْتَقِرُ

(١) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٨٦ من طبعة بولاق .

(٢) الحماسة ص ٥١١ من طبعة بَن أو ج ٣ ص ٨٧ من طبعة بولاق .

(٣) البيت مروي فى الديوان : قصيدة رقم ٥ بيت ٤٦ من طبعة لندن (The Divans of the six ancient Arabic poets edited by Ahlwardt, p.62.) الجفلى قال فى المصباح هى أن تدعو الناس إلى طعامك دعوة عامة من غير اختصاص . افتقر اختار .

فإذا كان من الأدب الذى هو العجب فكأنه الشئ الذى يُعجَب منه لحُسْنه لأن صاحبه الرجل الذى يُعجَب منه لفضله وإذا كان من الأدب الذى هو الدعاء فكأنه الشئ الذى يدعو الناس إلى المحامد والفضل فينبههم عن المقابح والجهل .
يُبد أن هذا الاشتقاق ليس بعربى من الشكّ واللّبس الشديد لما فيه من التكلف البعيد عن مقتضى قوانين نموّ اللغة الطبعيَّة وطريقة انتقال معانى المفردات إلى غيرها .
ولكن إذا طلب أحدكم منى إظهار رأيي في حقيقة الأمر أجبت أنى لا أستطيع إلا إبداء تخمين قد لَمَح إليه عرضاً في بعض تصانيفه الأستاذ فُلرّس (Vollers)^(١) المرحوم ناظر دار الكتب الخديويَّة سابقاً . لا يخفى عليكم كثرة ورود لفظ الدَّأب في أشعار الجاهليَّة وإنَّ معناه أى العادة والملازمة ليس بعيداً عن معنى السَّنة والأدب .
ومع أن جمعه لا يُدْكر في كتب اللغة ليس من الحال أن العرب قد جمعوه على آداب أغنى على وزن أفعال بتخفيف الهمزة ومدّ الألف الأولى كما يُجمَع بئر على آبار وثأر على آثار ورأس على آراس ورأى على آراء . وحيث إنَّ حُسْن السيرة والأدب إنَّما كان عند العرب بحفظ ما كانوا توارثوا عن أسلافهم من العوائد المستحسنَّة لعلَّهم استعملوا لفظ الآداب عبارةً عن تلك العوائد أى السَّنة المحمودة .
ثمَّ على تِمَادى الزمان اشتقوا من ذلك الجمع المتداول اصطلاحه صيغة جديدة لمفردم أعنى الأدب كما اشتقوا تَقَى والتَّقَوَى من اتَّقَى أو تَخَذَ يَتَخَذُ تَخْذاً من اتَّخَذَ أو تَلَّه يَتَلَّه تَلْهاً (أى حار وذهل) من اتَّله وهلمَّ جرّاً . فأصبح لفظاً الأدب والأدب (أى الدعاء إلى الطعام) كأنَّهما فرعان من أصل واحد على عدم علاقة حقيقيَّة بينهما كما اتَّفَق مثلاً للفظي الرَّوَر والرَّوَر فأولهما عربى محض معناه وَسَط الصدر وقوَّة العزم والثاني فارسيّ الأصل معناه الكذب .
وإن التفتنا إلى ما سلَّم من التَّلَف ووصل إلينا من مصنفات القرن الثاني للهجرة

(١) انظر VOLLERS, Katalog der islamischen... Handschriften der Universitäts Biblioth., Leipzig 1906, p.180 n. 1.

وجدنا أن المراد بالأدب لم يزل مقصوراً على طريقة التصرف لا سيما الحمودة وحسن الأخلاق الناشئة عن حسن التربية والليل إلى المحامد ثم على المعارف سوى ما يتعلق بالدين والشريعة الذي قد اختص به اسم العلم منذ أواسط القرن الأول . ومما يدل على ذلك كُتِبَ لعبد الله بن المقفع ناقل كتاب كيلة ودمنة المتوفى نحو سنة ١٤٠ هـ — ٧٥٧ م وهو كُتِبَ في الحكم والنصائح والأخلاق اسمه كتاب الأدب الصغير نشره حضرة الشيخ طاهر الجزائري في مجلة المقتبس سنة ١٣٢٦ هـ ثم طبعه مستقلاً في المجموعة المسماة برسائل البلغاء^(١) . وقال حديثاً الأديب الأريب أحمد بك زكي^(٢) إن عنوان ذلك الكتاب يجوز نقله إلى الفرنسية هكذا : Le petit savoir faire ولكن لا أرى تمام الموافقة بين العبارتين العربية والفرنسية وحدّ ابن المقفع موضوع كُتِبَ هكذا^(٣) : « قد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عونٌ على عمارة القلوب وصقلها وتجليه أبصارها وإحياء التفكير وإقامة للتدبير ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق إن شاء الله » . فترون من هذا الكلام أن مراد المؤلف جمع حكم ونصائح وإن الأدب عنده قسم من علم الأخلاق العملي . فجاء في ضمن كتابه الأدب والآداب بمعنى طريقة التصرف وخصوصاً الحسنة فقال مثلاً المؤلف ص ٤ : « وعلى العاقل أن يُخصي على نفسه مساوئها في الدين وفي الرأي وفي الأخلاق وفي الآداب فيجمع ذلك كله في صدره أو في كتاب » ، وقال ص ٧ : « قد يسعى إلى أبواب السلطان أجناس من الناس كثيراً أما الصالح فدعوه وأما الطالح فمقتحمه وأما ذو الأدب فطالب وأما من لا أدب له فمختلس » .

(١) رسائل البلغاء ص ١ - ١٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ . قطبعه أيضاً أحمد باشا زكي في سنة ١٣٢٩ هـ بالإسكندرية [ونقله الأستاذ Rescher إلى الألمانية سنة ١٩١٥] .

(٢) AHMED ZEKI BEY, *Mémoire sur les moyens propres à déterminer en Egypte une renaissance des lettres arabes*, Cairo 1910, p. 20.

(٣) رسائل البلغاء ص ٣ من الطبعة المذكورة .

وفي ص ١٢ : « أمورٌ لا تصلح إلا بقرائنها : لا ينفع العقل بغير ورع ولا الحفظ بغير عقل ولا شدة البطش بغير شدة القلب ولا الجمال بغير حلاوة ولا الحسب بغير أدب إلخ » .

وفي ص ١٥ : « لا يطمعن ذو الكبر في حسن الثناء ولا الخبث في كثرة الصديق ولا السيئ الأدب في الشرف ولا الشحيح في المحمدة » . وربما جاء الأدب بمعنى حسن التربية وتعليم مكارم الأخلاق فقال ابن المقفع ص ٧ : « كلام اللبيب وإن كان نزرًا أدب عظيم » . وربما جاء أيضًا الأدب بمعنى المعارف الدنيوية فقال ص ١٣ : « من حاول الأمور احتاج فيها إلى ست الرأى والتوفيق والفرصة والأعوان والأدب والاجتهاد . وهن أزواج فالرأى والأدب زوج لا يكمل الأدب إلا بالرأى ولا يكمل الرأى بغير الأدب . والأعوان والفرصة زوج إلخ » .

وفي ص ١٥ : « فضل العلم في غير الدين مهلكة وكثرة الأدب في غير رضوان الله ومنفعة الأخيار قائد إلى النار » . وأختم إيراد النصوص المنقولة من كتاب ابن المقفع بما ورد في أول نفس الكتاب (ص ٢) : « فغاية الناس وحاجاتهم صلاح المعاش والمعاد . والسبيل إلى دركها العقل الصحيح . وأمانة صحة العقل اختيار الأمور بالبصر وتنفيذ البصر بالعزم . وللعقول سجيّات وغرائز بها تقبل الأدب وبالأدب تنمي العقول وتزكو . فكما أن الحبة المدفونة في الأرض لا تقدر على أن تخلع يابسها وتظهر قوتها وتطلع فوق الأرض بزهرتها ونضرتها وريعها ونمائها إلا بمعونة الماء الذي يغور إليها في مستودعها فيذهب عنها أذى اليبس والموت ويحدث لها بإذن الله القوة والحياة فكذلك سليقة^(١) العقل مكنونة في مغزها من القلب لا قوة لها ولا حياة بها ولا منفعة عندها حتى يعتلمها الأدب الذي هو نمائها وحياتها ولقائها . وجل الأدب بالمنطق وكل المنطق بالتعلم ليس منه حرف من حروف معجمه ولا اسم من أنواع أسمائه إلا وهو مروى متعلم مأخوذ عن إمام سابق من كلام أو كتاب » . اه فيلوح أن المراد هنا بالأدب هي المعارف على الإطلاق .

(١) سليقة طبيعة .

وكذلك لا يخرج عن العُرف اللغويّ القديم استعمالُ لفظ الأدب في عنوان الباب الثالث من كتاب الحماسة^(١) لأبي تمام المتوفى سنة ٢٢٨ هـ على أصح الأقوال فإنّ ذلك الباب يتضمّن الأشعار في الحِكم وفي الأخلاق المحمودة من حياء وعفة وإغضاء عن الفَحشاء وحُسن معاملة الناس ومسامحة الأخلَاء وهلمّ جرّاً ليكون ذلك كلّهُ هدايةً للناس في سيرتهم . — وأنتم تعلمون أنّ الإمام أبا عبد الله البخاريّ المتوفى سنة ٢٥٦ هـ — ٨٧٠ م أفرد كتاب الأدب من كتاب الجامع الصحيح^(٢) لعلم الأخلاق العمليّ وقوانين الأنس فإنّ مدار الأحاديث النبويّة المجموعة في ذلك الكتاب إنّما هو ما على الأولاد للوالدين والعناية بالأرامل واليتامى والفقراء ومراعاة حقوق الجيران وطيب الكلام والرفق في كلّ الأمور ورحمة الناس بالبهائم وتعاون المؤمنين بعضهم بعضاً وحُسن الخلق والسخاء وما يُكره من البخل وما يجوز من اغتيال أهل الفساد والريب وما يُكره من التمدّح والنهي عن التحاسد والتدابير والصبر على الأذى والتبسّم والضحك والإخاء والحلف والزياره والحياء والحذر من الغضب والضيّف وما يُستحبّ من العطاس وما يُكره من الثأوب وما يُشبه ذلك . — وكذلك كتاب الأدب لابن المعتزّ الشاعر الشهير المتوفى سنة ٢٩٦ هـ — ٩٠٨ م لا يشتمل إلّا على الحِكم في الأخلاق . — ولكنّي لا أريد الإطناب في سرّد النصوص والشواهد على ذلك لأنّ استعمال كلمة الأدب بمعنى مكارم الأخلاق وحسن الأنس والتصرّف معروفٌ لم يزل متداولاً إلى وقتنا هذا ، وهو المسمّى عند بعض الكتّاب بأدب النفس .

أمّا في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث ابتدأت تنفرّع من تلك المعاني الأصليّة معان جديدة على طريقي الإطلاق والحصر مع بقاء القديمة في عُرّف الناس . وكان سبب ذلك فضلاً عن نموّ اللغة الطبيعيّ ما حصل للعرب من الرقيّ في سبيل التمدن

(١) كتاب الحماسة ٤٩٨ — ٥٣٧ م طبعة بُنّ أو ج ٣ ص ٧٥ — ١١٢ من طبعة بولاق

(٢) صحيح البخاريّ ج ٢ ص ٣٩ — ٧١ من طبعة بولاق ١٢٨٩ أو ج ٤ ص ١٠٨ — ١٦٥ من طبعة ليدن .

والتغير في حضارتهم والتجدد في أحوال حياتهم والتقلب في سياستهم منذ اتسعت مملكتهم وامتد سلطانهم على أمم مختلفة الجنس واللغة والدين والعوائد والأميال الذين اختلطوا شيئاً فشيئاً بالمتغلبين عليهم وأثروا في عمرانهم وعلومهم ما لا يخفى على أحد من التأثير العظيم . ولا سيما بعد ما قويت شوكة بنى العباس وانتقلت دار الخلافة من دمشق إلى بغداد سنة ١٤٥ هـ — ٧٦٢ م أعنى إلى المدينة الجديدة الواقعة في وسط تلك الأراضي العراقية التي قد أدرك فيها التمدن الفارسي الساساني أوج عزته ورواقه . فالت أشرف العجم المراتب العليا عند الخلفاء العباسيين حتى كاد لا يستورّر إلا أكابر أهل الفرس .

قد ذكرنا آنفاً أن العرب أحياناً عبروا بلفظ الأدب عن جملة ما كان لهم من المعارف الدنيوية القليلة . وحُفظ هذا المعنى المطلق إلى ما يلي منتصف القرن الرابع حسبما يُستنتج من رسائل إخوان الصفاء . وفيها مانصه ^(١) : « واعلم يا أخى بأن العلوم التي يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس فمنها الرياضية ومنها الشرعية الوضعية ومنها الفلسفية الحقيقية . فالرياضية هي علم الآداب التي وُضع أكثرها لطلب المعاش وصالح أمر الحياة الدنيا وهي تسعة أنواع أولها علم الكتابة والقراءة ومنها علم اللغة والنحو ومنها علم الحساب والمعاملات ومنها علم الشعر والعروض ومنها علم الزجر والفأل وما يشاكله ومنها علم السحر والعزائم والكيمياء والحيل وما يشاكلها ومنها علم الحرف والصنائع ومنها علم البيع والشري والتجارات أو الحرث والنسل ومنها علم السير والأخبار . — فليس هذا بعيداً عن قول الوزير المشهور الحسن بن سهل المتوفى سنة ٢٣٦ هـ أو ٨٥٠ — ٨٥١ م .

(١) انظر الرسالة السابعة من القسم الثاني من رسائل إخوان الصفاء ج ١ ص ١٨ — ١٩ من طبعة بمبي سنة ١٣٠٥ — ١٣٠٦ . أما تسميتهم أنفسهم بإخوان الصفاء فأصلها عبارة توجد في أول باب الحماسة المطوقة من كتاب كلیلة ودمنة وذلك لأنهم أن تلك الحكاية مثل ضرب في احتياجنا إلى معاونة إخوان لنا نصحاء وأصدقاء لنا فضلاء متصرفين بأمر الدين علماء بمقائق طريق الأمور لننجو من الورطة التي وقعنا فيها كلنا بجنایة أبينا آدم (اطلب الرسالة الثانية من القسم الأول من رسائلهم ج ١ ص ٥٣ من الطبعة المذكورة) . فمثلوا أنفسهم بأولئك الإخوان النصحاء . أما رأيهم هذا في آدم فهو أقرب إلى اعتقادات النصارى منه إلى الدين الإسلامي .

cricket

قال : الآداب عشرة فثلاثة شهر جانية وثلاثة أنوشروانية وثلاثة عربية واحدة أرّبت عليهن . فأما الشهر جانية^(١) ف ضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج . وأما النوشروانية^(٢) فالطب والهندسة والفروسيّة . وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس وأما الواحدة التي أرّبت عليهن فمقطعات الحديث والسمروما يتلقاه الناس بينهم في المجالس^(٣) . فظاهر أنّه أراد بالآداب جميع الفنون غير الدينيّة وكلّ ما كان يصلح على رأى الفرس للظريف الشريف الأصل من المهارة بأنواع الألعاب ورياضة الجسم .

وفي نفس ذلك القرن الثالث ربّما حصروا الأدب (بمعني المعارف والقوانين الضرورية مراعاتها) في ما تجب معرفته على طبقة مخصوصة من الناس . فالف ابن قتيبة الديلموريّ اللغويّ والمؤرخ والمتأدّب الشهير المتوفّي سنة ٢٧٦ (وقيل ٢٧٠ أو ٢٧١) كتاباً سمّاه أدب الكاتب أو أدب الكتّاب جمع فيه ما لا غنى عنه لكلّ كاتب ماهر من العلوم اللغويّة وصنّف أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بابن كشاف المتوفّي في حدود سنة ٣٥٠ (وقيل ٣٦٠) كتاب أدب النديم وهو عبارة عن مجموعة نكّت وأبيات ونوادر

(١) الشهارجة أو الشهارج هم من أشرف الفرس .

(٢) من كسرى أنوشروان الذي كان ملك الفرس من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٧٩ م .

(٣) زهر الآداب وثمر الألباب للحصري ج ١ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ بهامش العقد الفريد لابن عبد ربه [أو ج ١ ص ١٤٠ من طبعة مصر ١٩٢٥] . فنسب جعفر بن محمد البيهقي العلوي (المتوفّي سنة ١١٨٢ هـ) مثل هذا القول إلى ذى الرئاستين وهو أبو العباس الفضل ابن سهل أخو الحسن بن سهل وتولى وزارة المأمون ومات سنة ٢٠٢ هـ . فهذا نص البيهقي في كتابه مواسم الأدب وآثار العجم والعرب ج ١ ص ٢ — ٣ من طبعة مصر ١٣٢٦ : « وفي سلاسل الذهب للعلامة أمين صفر المدني قال العلامة جار الله الزمخشري كان ذو الرئاستين يقول الأدب عشرة أجزاء ثلاثة أنوشروانية لعب الشطرنج والضرب بالعود والضرب بالصوالج (في الطبعة بالصولج وهو تحريف) وثلاثة شهرجانية (في الطبعة شهرخانية وهو تحريف) الهندسة والطب والنجوم وثلاثة عربية النحو والشعر وأيام العرب وواحدة وهي السمر أراد الحاضرة . ا هـ . فراجع أيضاً محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني (المتوفّي سنة ٥٠٢ هـ) ج ١ ص ٧٢ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

فعني الأدب هذا (أعني جملة العلوم والفنون والصنائع والألعاب التي يتميز الإنسان معرفتها من سقاة الناس) فارسيّ تماماً فليراجع كتاب المعلمين للجاحظ في كتاب الفصول المختارة من كتب الجاحظ (بهامش الكامل للمبرد) ج ١ ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ .

يليق حفظها وروايتها في المندامة ترويحاً للنفوس. ومن ألف كتباً في أدب الوزراء ودون فيها النصائح المفيدة للوزير في فروع الحكمة العملية والسياسية. ومن ألف التصانيف المترجمة بأدب القاضى شرح فيها قوانين القضاء الشرعى.

قد سبق أن الأدب والآداب أصلاً كانت السيرة أو السُنَّة الحميدة. وفي أواخر القرن الثالث أُطلق هذا المعنى على ما دون الأخلاق دلالةً على المنهج الواجب سلوكه في فن من الفنون والعلوم أو في عمل من الأعمال. ففي كتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه المتوفى سنة ٣٢٨ هـ - ٩٤٠ م نجد مثلاً باباً في آداب الحكماء والعلماء وأبواباً موسومة بالأدب في الحديث والاستماع أو الأدب في المجالسة أو الأدب في الماشاة وهلمّ جرّاً. ودون الإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ - ١١١١ م في كتاب إحياء علوم الدين آداب الأكل وآداب النكاح وآداب الكسب وآداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة وآداب السفر وآداب السماع والوجد وغير ذلك مما يطول نقله هنا. وألف محمد بن عليّ بن طباطبائي المعروف بابن الطقطقي كتاباً في التاريخ سماه كتاب الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية^(١) وقال^(٢) إنه « إنما هو موضوع للسياسات والآداب التي يُنتفع بها في الحوادث الواقعة والوقائع الحادثة وفي سياسة الرعية وتحصين المملكة وفي إصلاح الأخلاق والسيرة ». وكثيراً ما صنفوا مصنفات في آداب الدرس أى في طريقة التعليم والتعلم. وكلّكم تدرّون أن آداب المريدين هي مناهج طالب الترقى في مدارج الطرق الصوفية وأن آداب البحث هي قوانين المناظرة يسوغ للمتناظرين مراعاتها في الرد والقبول

فلننتقل إلى بيان أصل سائر معاني الأدب. إن الترفّ والرفّه والنعيم واتساع الأحوال قد بلغت غايتها في مدن العراق والجزيرة وخصوصاً ببغداد في أوائل القرن الثالث للهجرة فقد حصل هناك للعرب ما أجاد وصفه ابن خلدون حيث قال

(١) ألف ابن الطقطقي كتابه في سنة ٧٠١ هـ ١٣٠١ م لفخر الدين عيسى بن إبراهيم عامل موصل.

(٢) الفصل الأول من الفخرى ص ١٩ من طبعة غريفيوزولد بألمانيا سنة ١٨٥٨.

في مقدمته الشهيرة^(١) « إن الأمة إذا تغلبت وملاكت ما بأيدي أهل الملك قبلها
 كثير ريشها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى
 نوافله ورقته وزينته ويذهبون إلى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم وتصير
 لتلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في
 المطاعم والملابس والفروش والآنية ويتفاخرون في ذلك ويفخرون فيه غيرهم من
 الأمم في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره^(٢) . . . وعلى قدر ملكتهم
 يكون حظهم من ذلك وترفعهم فيه إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية » . ١ هـ . ومن طالع
 كتاب الأغاني لأبي الفرج على الإصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ - ٩٦٧ م وكتاب مروج
 الذهب للمسعودي المتوفى سنة ٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م وما يشاكلها من الكتب أو تصفح
 دواوين شعراء ذلك العصر عرف إفراط شغف الناس بالمجاسة والمنادمة والمحادثة
 على الشراب في أيام هارون الرشيد والأمين والمأمون ومن تبعهم من الخلفاء وتلقن
 قدر ما بلغه حينئذ قصد الأناقة في كل شيء وفعل والتفنن في جميع المعارف
 المستظرفة حتى أن غاية التريبة في بعض طبقات الناس إنما كان الظرف في اللبس
 والتصرف ورشاقة الكلام ورقة المعاني وحسن الاستئناس . وإن أردتم الوقوف
 التام على كنه أولئك المتظرفين راجعوا كتاب الموشى^(٣) لأبي الطيب محمد بن
 إسحاق بن يحيى الأعرابي المعروف بالوشاء المتوفى سنة ٣٢٥ هـ - ٩٣٧ م توصف فيه
 سنن الظرف بتفصيل فتجدون فيه أبواباً في ذكر زي الظرفاء في اللباس المستحسن
 عند سرات الناس وفي زي الظرفاء في التككف والنعال والخفاف وفي
 زيهم المخصوص في الخواتم والفصوص وفي زيهم في التعطر والطيب الذي من

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٧ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أوج ١ ص ٣٤٢ من الترجمة
 الفرنسية لدى سلمان (De Slane) .

(٢) الفاره الحصان الجارى المليح .

(٣) طبع بليدن سنة ١٨٨٧ ومصر سنة ١٣٢٤ بعنوان كتاب الظرف والظرفاء .

خالفه كان غير مصيب وفي ذكر زىّ الظرفاء في الطعام الذى بانوا به من منزلة اللثام وفي ذكر زيههم في الشراب الذى يتخير به ذوو الألباب وفي ذكر الأشياء التى يتطير الظرفاء من إهدائها ويرغبون عنها لشناعة أسمائها وفيما اختير من ألفاظ الأدباء فى المكاتبات واستحسن من الظرفاء من مליح المعاتبات وفيما ضمنوه كتبهم من الأشعار ونكاتب به ذوو الظرف والخطار وفيما ضمنوه كتبهم من السلام وجعلوه تلوّاً للشعر والنظام وهلمّ جرّاً .

فإذا لا غرّوى أن لفظ الأدب عندهم أخذ يعدل عن معنى محض الأخلاق الحمودة الحاصلة من حسن تربية النفوس حتى صار عبارة عن كلّ ما وجب مراعاته ومعرفته والتحلّى به على من أراد مجالسة اللطفاء والوجهاء وتعمد جميع أنواع التطرّف فى أعماله وأفكاره وحديثه . فلذلك لا فرق فى كتاب الموشى المذكور بين الظريف والأديب . وخلاصة القول إن المراد بالأدب عند بعض طبقات الناس ببغداد منذ ابتداء القرن الثالث كان إظهار الأخلاق المرضية للجلساء والظرف والأناقة فى اللباس والطعام والشراب وسائر أحوال الحياة والأنس والفصاحة وعذوبة الكلام ثم حفظ الأبيات والنكت مع أخذ شيء من كلّ علم لتوشية الحديث به . فهذا أعنى الأخلاق الحميدة والتطرّف والمعارف المستطابة هو معنى الأدب مثلاً فى كتاب العقد الفريد لأحمد بن عبد ربّه الأندلسى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ — ٩٤٠ م كما يلوح من جميع كتابه وخصوصاً من الباب فى آداب الحكماء والعلماء^(١) .

ومن هذا المعنى المحدث العام تفرّع معنيان خاصان مطابقة لاختصاص أميال بعض المتطرّفين بنوع معين من الظرف . فإنّ الذين مالوا إلى ما يلد للعقول وفضّله

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٠٦ — ٢٠٩ من طبعة مصر ١٣٠٥ [وإن أردت المقابلة بصحائف الطبقات الأخرى فانظر : *Mohammad Shafīʿ, Analytical Indices to the Kitāb al-ʿIqd al-farīd*, Calcutta 1935] . — أما لفظ الأدب فى « فصول فى الأدب » (العقد ج ٢ ص ١٨٩ — ١٩١) وفى « فصول لعمر بن بحر الجاحظ فى الأدب » (العقد ج ٢ ص ١٩١) فعناه الحكم .

على غيره رأوا غاية الظرف في حضور المجالس والمقامات ورواية الأمثال والحكايات والتحدث بالملح والنوادر والأخبار وتذاكر القصص والأشعار على ما تجرّ المحادثة من شجون الكلام وذلك مع كراهة كل إطناب مُملّ . فإنّ الإسّام كان عندهم من شرّ العيوب فكثيراً ما جاء التحذير منه في تأليفات القرن الثالث والرابع . وروى مثلاً عن الأشجع السلميّ الشاعر في أيام هارون الرشيد أنّ أنس بن أبي شَيْخٍ النصريّ صاحب الوزير جعفر بن يحيى لمّا عاشه أوّل مرّة طلب منه إنشاد بعض شعره . « قال الأشجع فأشدته فقال إنّك لشاعرٌ فما يمنعك من جعفر بن يحيى فقلت ومن لي بجعفر بن يحيى فقال أنا قتلُ أبياتاً ولا تطلّ فإنه يُملّ الإطالة . فقلتُ لستُ بصاحب إطالة فقلتُ أبياتاً على نحو ما رسم لي » ^(١) . — وفي الباب السابع بعد المائة من كتاب مروج الذهب للمسعودي ^(٢) ما نصّه : « وقد ذكر بعض المحدّثين من أهل الأدب أنّ من الأدب عدم إطالة الحديث من النديم وأنّ أحلى لحديثه وأحسن موقعه أنّ يجتنب منه الأحاديث الطوال ذات المعاني المغلّقة ^(٣) والألفاظ الحشويّة التي افتتنّ باقتصاصها مُسمّارُ المجلس وتعلّق بها النفوس وتحتسّى ^(٤) على أواخرها الكؤوس فإنّ ذلك بمجالس القصّاص أشبهُ منه بمجالس الخواصّ وقد ذكر هذا المعنى فأجاد فيه عبد الله بن المعتزّ ووصف ذلك من أوصاف أصحاب الشراب على المعاقرة ^(٥) فقال ^(٦) : (من بحر الخفيف) :

(١) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ٣٣ من طبعة بولاق سنة ١٢٨٥ وراجع A. MEZ, *Abulkâsim*,

. Heidelberg 1902, p. VIII-IX.

(٢) مروج الذهب للمسعودي في الباب السابع بعد المائة ج ٦ ص ١٣٢ — ١٣٣ من طبعة باريس ١٨٦١ — ١٨٧٧ .

(٣) الرسالة المغلّقة المحمولة من بلد إلى بلد .

(٤) حسا يحسو واحتسّى شربه شيئاً بعد شيء .

(٥) عاقر الخمر آدمّن شربه .

(٦) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٣ (الباب الخامس في الشراب والخمريات) من طبعة مصر

سنة ١٨٩١ .

بين أقداحهم حديث قصير هو سِجَرٌ وما سِواه كلامٌ

وكان السقا بن الندامي أَلِفَاتٌ على سطورٍ قيامٌ

فلتفتنهم في المعارف المستظرفة المقرون بالخوف الشديد من الملأ اشتهر في
عرفهم أن علم الأدب عبارة عن المَلَح والطائف والنكت والأمثال والنوادر والأبيات
الريقة والتواريخ وذكر الشيء بالشيء بالاستطراد أو بالمناسبة مع مراعاة مقتضى الحال .
ف قيل إن « الفرق بين الأديب والعالم أن الأديب من يأخذ من كل شيء أحسنه
فيألفه والعالم من يقصد لفن من العلم فيعتله » ^(١) . وقال شاعر ^(٢) (من بحر الطويل)

أرى العلم نوراً والتأدب حليّة فخذ منهما في رغبة ننصب

وليس يتيم العلم في الناس للفتى إذا لم يكن في علمه بأديب

ولا يخفى عليكم كم كتاب أُلِفَ في فنّ الأدب بهذا المعنى الخاص أغنى في جمع
مقطعات الأشعار وطُرف الأخبار وغرائب النوادر ترويحاً للنفوس وتفكيهاً للألباب .
وأول من سلك هذا المنهج في التأليف وصار أمودجاً في ذلك لمتأخرين هو أبو عثمان
عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م فإنه في مصنفاته النفيسة الشهيرة
يهيم في كل واحدٍ ويجمع بين المنظوم والمثور والنوادر والفكاهات والأخبار من غير
ترتيب واضح مخافة من ملل القارىء . ومن الغريب أن المسعودي ^(٣) قال إنه نظم تصانيفه
أحسن نظم . — ومن أحسن بيان لمادة التأليفات من ذلك الفن ما قال أبو إسحاق
إبراهيم بن عليّ الحُصْرِيُّ القيروانيّ المتوفى سنة ٤١٣ و قيل ٤٥٣ في وصف موضوع
كتابه المسمى بزهر الآداب وثمر الألباب ^(٤) : « هذا كتاب اخترت فيه قطعة كافية

(١) انظر إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت ج ١ ص ١٧ من طبعة لندن بعناية الأستاذ
مرجليوث (Margoliouth) سنة ١٩٠٧ [إلى ١٩٣١] ففي النسخة الخطية : فيعته وهو غلط
فأقراه : فيعتملة فقرأ الأستاذ مرجليوث : فيتقنه .

(٢) إرشاد الأريب ج ١ ص ١٦ .

(٣) مروج الذهب في الباب الأحد والعشرين بعد المائة (ج ٨ ص ٣٤ من الطبعة البارسية
المذكورة) .

(٤) زهر الآداب ج ١ ص ٢ — ٤ من الطبعة المصرية سنة ١٢٠٥ [أو ج ١ ص ١ — ٣
من طبعة سنة ١٩٢٥] .

من البلاغات في الشعر والخبر والفصول والفقر مما حسن لفظه ومعناه واستدل بفحوه
عن مغزاه ولم يكن شاردًا حوشيًّا ولا ساقطًا سوقيًّا بل كان جميع ما فيه من ألفاظه
ومعانيه كما قال البُحْتَرِيُّ^(١) :

في نظام من البلاغة ما شد لك امرؤ أنه نظامٌ فريد
حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنَّبَ ظلمة التعقيد
وركن اللفظ القريب فأدرك ن به غاية المراد البعيد

ولم أذهب في هذا الاختيار إلى مطوَّلات الأخبار . . . وهو كتاب يتصرَّف
الناظر فيه من نثره إلى شعره ومطبوعه إلى مصنوعه ومحاورته إلى مفخرته ومناقضته
إلى مساجلته^(٢) وخطابه المُبْهِتِ إلى جوابه المُسَكِّتِ وتشبيهاته المصيبة إلى اختراعاته
الغريبة . . . وكان السبب الذي دعاني إلى تأليفه وتدويني إلى تصنيفه ما رأيته من
رغبة أبي الفضل العباس بن سليمان أطل الله مدته وأدام نعمته في الأدب وإفناق
عمره في الطلب وماله في الكتب وإن اجتهداه في ذلك حمله على أن أرتحل إلى
المشرق بسببها وأغض في طلبها باذلاً في ذلك ماله مستعذباً فيه تعباً إلى أن أورد من
كلام بلغاء عصره وفصحاء دهره طرائف طريفة وغرائب غريبة وسألني أن أجمع له
من مختارها كتاباً يكتفي به عن جملتها وأضيف إلى ذلك من كلام المتقدمين ما قار به
وقارنه وشابهه ومثاله فسارعت إلى مراده وأعلنته على اجتهداه وألقت له هذا الكتاب
ليستغني به عن جميع كتب الآداب إذ كان موشحاً من بديع البديع^(٣) ولآلى

(١) انظر ديوان البُحْتَرِيِّ ج ٣ ص ١٩٥ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ أو ج ١ ص
٢٠٦ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٩ هـ أو ص ٦٩٣ و ٦٩٤ من طبعة بيروت سنة ١٩١١
ومدح البُحْتَرِيِّ (المتوفى سنة ٢٨٤ هـ) في هذا الشعر محمد بن عبد الملك بن الزيات .
الآيات مروية أيضاً في إعجاز القرآن للباقلان ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣١٥ والبيتان الآخريان
مرويان في كتاب دلائل الإعجاز لعبد الفاهر الجرجاني ص ٣٧٢ من طبعة مصر ١٣٢١ .
(٢) مساجلته وساجله فاخره وعارضه .

(٣) يعني بديع الزمان أحمد بن الحسين الهمداني المولود سنة ٣٥٨ هـ ٩٦٩ م والمتوفى سنة
٣٩٨ هـ ١٠٠٧ م [وفيه انظر النثر الفني في القرن الرابع لزمكي مبارك ج ٢ ص ٣٢٥
إلى ٣٥٦] .

الميكالى^(١) وشهبي الخوارزمي^(٢) وغرائب الصاحب^(٣) ونفيس قابوس^(٤) وشذور
أبي منصور^(٥) . — وهذا النوع من الأدب أى أخذ شئ مستظرف وطرائف
وغرائب من كل فن لا سيما من مقطعات الأشعار ولطائف الأخبار هو المقصود فى
أكثر ما جاء فى مدح الأدب ومحاسنه وفضيلته فى عدة تأليفات مشهورة مثل كتاب
العقد الفريد السابق ذكره وكتاب المحاسن والمساوى لإبراهيم بن محمد البيهقي^(٦)
من علماء القرن الخامس وكتاب إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب^(٧) لياقوت الحموي^(٨)
المتوفى سنة ٦٢٦ / ١٢٢٩ وشرح أبي العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي^(٩) المتوفى سنة ٦١٩ / ١٢٢٢
على المقامات الحريرية وكتب أخرى يطول سرّد أسماؤها .

أمّا المعنى الخاصّ الثانى الملمّح إليه فيما تقدّم فأصله عند قوم من الظرفاء فضّلوا
صناعة الشعر والإنشاء البليغ ودقائق اللغة على سائر أجناس الظرف فاصطلحوا بلفظ
الأدب على جميع الفنون الكتابية المستظرفة لا على مجرد المقطعات منها ولفظ الأديب
على من يحسن العربية ويتعاطى صناعتى النظم والنثر . وابتدأ استعمال كلمة الأدب

(١) وهو أبو الفضل عبد الرحيم بن أحمد الميكالى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ١٠٣٨ م . [راجع
النثر الفنى المذكور آفا ج ٢ ص ٣١٩ — ٣٢٤] .

(٢) المراد هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي ولد سنة ٣٢٢ هـ ٩٣٥ م ومات سنة
٣٨٣ هـ ٩٩٣ م (وقيل ٣٩٣) [راجع النثر الفنى المذكور سابقا ج ٢ ص ٢٥٩ إلى ٢٧٦] .

(٣) يعنى الصاحب بن عباد ولد سنة ٣٢٤ هـ ٩٣٦ م (وقيل ٣٢٦) وتوفى سنة ٣٨٠ هـ
٩٩٥ م [انظر النثر الفنى ج ٢ ص ٢٤٣ — ٢٥٨] .

(٤) وهو شمس المعالى قابوس وشمكير المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ١٠١٢ م [انظر النثر الفنى ج ٢
ص ٢٧٧ — ٢٨٩] .

(٥) وهو أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ولد سنة ٣٥٠ هـ ٩٦١ م ومات سنة ٤٢٩ هـ
١٠٣٨ م [انظر النثر الفنى ج ٢ ص ١٧٩ — ١٩٠] .

(٦) راجع كتاب المحاسن ج ١ ص ٢٠١ و ج ٢ ص ٧٤ — ٧٥ من طبع مصر
سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٦ م (وراجع أيضاً ج ٢ ص ٧٥ — ٩٢) .

(٧) إرشاد الأريب ج ١ ص ١٣ — ٢٧ من الطبعة الليدينية .

(٨) شرح المقامات الحريرية للشريشي فى آخر المقامة الثامنة والثلاثين (ج ٢ ص ١٨٠ من
طبعة مصر ١٣٠٦) .

هذا في نفس النصف الأوّل من القرن الثالث حسبما يتّضح من جملة من النصوص .
 منها قول الجاحظ^(١) المتوفّى سنة ٢٥٥ / ٨٦٩ : « طلبت علم الشعر عند الأصمعيّ فوجدته
 لا يُحسِن إلّا غريبه فرجعت إلى الأَخفش فوجدته لا يُتقِن إلّا إعرابه ففطقت إلى
 أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلّا ما اتّصل بالأخبار وتعلّق بالأيّام والأنساب فلم أظفر
 بما أردت إلّا عند أدباء الكُتّاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات » .
 فجئني أنّ الأدباء هنا هم الذين تُسمّون بالفرنسيّة gens de lettres أو lettrés .
 وقال الجاحظ^(٢) أيضاً في موضع آخر : « وأنشد رجل قوماً شعراً فاستغربه فقال
 والله ما هو بغريب ولكنكم في الأدب غرباء » فظاهر أنّ الأدب هنا صناعتى النظم
 والنثر البليغ . وهذا أيضاً المراد بالأدب في قول المبرّد المتوفّى سنة ٢٨٥ في خطبة
 كتابه الموسوم بالكامل في اللغة والأدب ج ١ ص ٢ من طبعة مصر سنة ١٣٢٣ إلى
 ١٣٢٤ : « هذا كتاب ألقناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منشور وشعر
 مرصوف ومثّل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة » . وكتب
 الآداب هي جميع التصانيف المستخرجة نظماً ونثراً كما يلوح من ذكر كتب ذلك الفنّ
 في إحدى رسائل أبي بكر الخوارزمي^(٣) المتوفّى سنة ٣٨٣ وقيل ٣٩٣ : « ذكر
 السيّد أنّه كتب جواب كتابي من وقت الظُّهر إلى وقت العصر . ولقد استبطنته
 مع ما أغرفه من بُعد غوره وغزارة بحره . ولكنّي أغلقت لهذا الجواب بابي وأرخت
 له حجابي وضمّمت إلى نشر كتب آدابی وجلست من الدواوين بين آل الجراح^(٤) »

(١) المروى في العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٨٤ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٥ .

(٢) وقول الجاحظ هذا مروى في عمدة ابن رشيق ج ١ ص ٨٦ من الطبع المذكور .

(٣) رسائل الخوارزمي ص ٢٢ من طبعة مصر سنة ١٣١٢ أو ص ٣٠ — ٣٦ من طبعة
 قسطنطينية سنة ١٢٩٧ ولكن في هذه الطبعة الأخيرة روايات غير صحيحة .

(٤) يشير بآل الجراح إلى داود بن الجراح الذي عاش في أيام المستعين ٢٤٤٨ — ٢٤٩٤ وابنه
 محمد وحفيده على بن عيسى وابني حفيده عيسى ابن علي وعبد الله بن علي فكلهم من الأدباء والمؤرخين
 فراجع فهرست ابن النديم ص ١٢٨ — ١٢٩ من طبع ليبسك سنة ١٨٧١ .

وآل ثوابة^(١) وبين بنى الخصيب وبنى مقلّة^(٢) ونشرت من المقابر آل يزداد
وآل شدّاد^(٣) وحشرت من الآخرة ابن المقفّع البصرى^(٤) وسهل بن هارون
الفراسى^(٥) وابن عبدان المصرى^(٦) والحسن بن وهب الحارثى^(٧) وأحمد بن يوسف
المامونى^(٨) ووضعت عن يمينى عهد أردشير بن بابكان وعن يسارى كتاب التبيين
والبيان^(٩) وبين يدى^(١٠) فصول بزجمهر بن البختكان^(١١) وقبل ذلك رسائل مولانا
الصاحب^(١٢) عين الزمان وزين الشيب والشبان فما زلت أسرق من هذا كلمة
وأطرت من ذاك فقرة واستعير من هناك نادرة وثيقة أغضب الأحياء على بيانهم
وأنبش الموتى من أكفانهم — وعلى مثل ذلك يستعمل ياقوت فى كتاب
إرشاد الأريب لفظ الأدباء لتعريف الذين يعتنون ببنى النظم والنثر لا غير . وهذا
المعنى لم يزل فى عرف الناطقين بالضاد إلى أيّامنا .

ولنتنقل إلى بيان معنى آخر أصله فى قوم من العلماء اشتغلوا بعلوم الدين والشريعة

- (١) أما آل ثوابة فهم أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة بن يونس المتوفى سنة ٢٧٧ وابنه
أبو عبد الله محمد وهما مؤلفا رسائل (انظر كتاب الفهرست ص ١٣٠) .
- (٢) ومن بنى مقلّة الوزير الكاتب أبو على محمد بن على ابن مقلّة الذى ولد سنة ٢٧٢ ومات
سنة ٣٢٨ (راجع ابن خلكان عدد ٧٠٨ من طبعة غوتنجن أو عدد ٦٦٩ من الطبقات المصرية)
وأخوه أبو عبد الله القاسم الذى ولد سنة ٢٧٨ وتوفى سنة ٣٣٠ (انظر كتاب الفهرست ص ٩
والإرشاد لياقوت ج ٣ ص ١٥٠ — ١٥٢) .
- (٣) ابن يزداد هو أبو عبد الله محمد بن يزداد بن سويد المتوفى سنة ٢٣٠ وكان وزير المأمون
وله ديوان ورسائل . راجع كتاب الفهرست ص ١٢٤ .
- (٤) يعنى عبد الله بن المقفّع المشهور الذى أمر الخليفة المنصور بقتله سنة ١٤٠ هـ ٧٥٧ م .
- (٥) هو سهل بن هرون كاتب المأمون ومدير خزانة الحكمة مات سنة ٢١٥ هـ [انظر
الإرشاد لياقوت ج ٤ ص ٢٥٨] .
- (٦) [لعله أحمد بن يوسف بن القاسم مات سنة ٢١٣ أو ٢١٤ وتولى ديوان رسائل المأمون
فليراجع الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٦٠ — ١٧١] .
- (٧) وهو كتاب مشهور للجاحظ .
- (٨) انظر ما قلت فيه فى كتابى علم الفلك تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى (روما ١٩١١)
ص ١٩٠ — ١٩٦ .
- (٩) يعنى الصاحب بن عباد الذى قد تقدم ذكره (انظر الحاشية ٣ من ص ٣٠) .

ورأوا من موجباتها التدقيق في معرفة أسرار العربيّة لتفسير القرآن من جهة المفردات والعبارات اللغويّة أو لشرح الغريب الوارد في الأحاديث النبويّة فجعلوا الاستقصاء في جميع أنواع العلوم المتعلقة باللغة والشواهد الشرعيّة جلّ المعارف الدنيويّة بل توطئة لكل العلوم الشرعيّة . فقال مثلاً الإمام أبو حامد الغزاليّ المتوفّى سنة ٥٠٥ في كتاب إحياء علوم الدين ^(١) « إن العلوم الشرعيّة تنقسم إلى أربعة أضرب الأول منها أصول الفقه والثاني فروع الفقه والثالث المقدمات والرابع المتمّمات يعنى تفسير القرآن وعلم الحديث . ثم قال : « والضرب الثالث المقدمات وهي التي تجرى منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو فإنّهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلعم . وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعيّة في أنفسهما ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكلّ شريعة لا تظهر إلّا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة » . فإذا لا غروى أن الذين جعلوا جلّ المعارف الدنيويّة في علوم اللغة العربيّة حصروا فيها الأدب الذي — كما مرّ بيانه فيما سبق — قد أطلق اسمه أحياناً على جملة المعارف غير الدينيّة الشرعيّة . إلّا أنّهم سلكوا في هذا الحصر طريقين مختلفين فمنهم من ذهب إلى أن علم الأدب أو الآداب الاعتناء بالأشعار القديمة والتأليفات والرسائل البليغة من جهة اللغة الفصيحة واستخراج الشواهد النافعة والتوصل إلى المعرفة التامّة بدقّة الكلام وأسرار الفصاحة والبلاغة لا من جهة قصد النزهة أو مجرد الظريف البديع . هذا هو المراد بالأدب في كتاب روضة العقلاء ونزهة الفضلاء للإمام الحافظ المحدث أبي حاتم محمد بن حبان البُسْتِيّ المتوفّى سنة ٣٥٤ الذي أفرد فيه باباً للبحث على تعلم الأدب ولزوم الفصاحة ^(٢) . وعلى مثاله ما قال عبد الله

(١) إحياء علوم الدين ج ١ ص ١٤ — ١٥ من طبعة مصر ١٣٠٢ (وفي آخرها ١٣٠٣) وراجع أيضاً كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢ من طبعة ليدن ١٩٠٤ م والمفصل للزحشرى ص ٣ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٣ ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٧ من طبعة مصر ١٣٢١ .

(٢) روضة العقلاء لابن حبان ص ١٩٥ — ٢٠٠ من طبعة مصر ١٣٢٨ .

بن محمد المعروف بابن السيد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١^١/_{١٣٢٧} في كتاب الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب ص ١٤ — ١٥ من طبعة بيروت سنة ١٩٠١ م : « إنّ الأدب له غرضان أحدهما يقال له الغرض الأدنى والثاني الغرض الأعلى . فالغرض الأدنى أن يحصل للمتأدّب بالنظر في الأدب والتمهّر فيه قوّةٌ يقدر بها على النظم والنثر . والغرض الأعلى أن يحصل للمتأدّب قوّةٌ على فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله صلعم وصحابه ويعلم كيف تُبنى الألفاظ الواردة في القرآن والحديث بعضها على بعض حتّى تستنبط منها الأحكام وتفرّع الفروع وتنتج النتائج وتقرن القرائن على ما تقتضيه مباني كلام العرب ومجازاته كما يفعل أصحاب الأصول . وفي الأدب لمن حصل في هذه المرتبة منه أعظم معونة على فهم علم الكلام وكثير من العلوم النظرية . فقد زهد الناس في علم الأدب وجهلوا قدر الفائدة الحاصلة منه حتّى ظنّ المتأدّب أن أقصى غايته أن يقول أبيتاً من الشعر . والشعر عند العلماء أدنى مراتب الأدب لأنه باطل يُجلى في معرض حقّ وكذب يُصوّر بصورة صدق . وهذا الذمّ إنّما يتعلق بمن ظنّ صناعة الشعر غاية الفضل وأفضل حلّى أهل الثبّل . فأما من كان الشعر بعض خُلاه وكان له فضائلٌ سواه ولم يتّخذ مكسباً وصناعة ولم يُرضه لنفسه حِرْفَةً وبِضَاعَةً فإنّه زائد في جلالته قدره ونباهة ذكره » . ثم قال : « وحدّ المنطق كتاب يتّخذه المتفلسفون مقدّمة للعلوم الفلسفية كما يتّخذ التأدّبون صناعة النحو مقدّمة للعلوم الأدبية » . — وحدّ علم الأدب (أو الآداب) بهذا المعنى ومرتبته في مراتب العلوم حدّهما ابن خلدون في مقدّمته بغاية الوضوح فقال في موضع ^(١) « إنّ » النظر في القرآن والحديث لا بدّ أن تتقدّمه العلوم اللسانية لأنه متوقّف عليها وهي أصنافٌ فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الآداب » . وقال في موضع آخر ^(٢) « إنّ علم

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨١ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٤٣٦ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ٤٨٦ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ج ٢ ص ٤٥٢ — ٤٥٣ من الترجمة الفرنسية لدى سلان .

(٢) مقدمة ص ٤٩٩ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٥٤ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ص ٦٣٨ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ج ٣ ص ٣٠٧ من الترجمة الفرنسية .

اللسان العربيّ « أركانهُ أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والأدب . ومعرقها ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتُها من الصحابة والتابعين عربٌ وشرحُ مشكلاتها من لغتهم فلا بدّ من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة » . وفي موضع ثالث أتى بتعريف علم الأدب فقال^(١) : « هذا العلم لا موضوع له يُنظر في إثبات عوارضه أو نفيها . وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرتهُ وهي الإفادة في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم^(٢) فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصلُ به الكلمة من شعرٍ على الطبقة وسجعٍ متساوٍ في الإفادة ومسائل من اللغة والنحو مبنوثة أثناء ذلك متفرقة يستقرى منها الناظر في الغالب مُعظمُ قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة ثم إنهم إذا أرادوا حدّ هذا الفن قالوا : الأدبُ هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرفٍ . يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كنفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحبُ هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها . وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانهُ أربعة دواوين وهي أدب الكتاب لابن قتيبة وكتاب الكامل لمبرّد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي عليّ القالي البغدادي » . ١٥

أما المسلك الثاني في حصر علم الأدب في علوم اللغة العربية هو مسلك الذين عنوا بالأدب علم الصرف والنحو واللغة والمعاني والبيان مع ما يتصل بها من علمي القوافي

(١) ص ٥٠٦ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٥٥٣ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ص ٦٤٧

من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ج ٣ ص ٣٢٨ إلى ٣٣٠ من الترجمة الفرنسية .

(٢) المنفعة المسيل المتوى .

والعروض وكل ذلك خلافاً لما نقلته عن ابن السيد البطليوسي وابن خلدون .
 والمحتمل عندي أن هذا المعنى الخاص لم يتولد إلا نحو انقضاء القرن الخامس فإنني
 ما عثرت عليه فيما صُنّف قبل القرن السادس . ومن أمثلة ذلك الاستعمال أن
 أبا البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري المتوفى سنة $\frac{٥٧٧}{١١٨١}$ ألف كتاباً جيداً سماه
 بنزهة الألباء في طبقات الأدباء فإن راجعتموه وجدتم أنه لم يذكر فيه إلا اللغويين
 والنحويين . فقال ابن خلكان ^(١) المتوفى سنة $\frac{٦٨١}{١٢٨٢}$ في ترجمة أبي زكرياء يحيى
 التبريزي : « كانت له معرفة تامة بالأدب من النحو واللغة وغيرها وصنّف
 في الأدب كتباً كثيرة مفيدة منها شرح الحماسة وكتاب شرح ديوان المتنبي وكتاب
 شرح سِقْط الزند وشرح المعلقات السبع وشرح المفضلّيات وله تهذيب غريب
 الحديث وتهذيب إصلاح المنطق وله في النحو مقدّمات حسنة إلخ » . فيتّضح من هذا
 الكلام أن علم الأدب عند ابن خلكان كالأدب عند أبي البركات ابن الأنباري
 المذكور وعند أبي يعقوب يوسف بن محمد السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ الذي قال
 في كتاب مفتاح العلوم ^(٢) أن الغرض من علم الأدب هو الاحتراز عن الخطأ في كلام
 العرب وأنه مشتمل على علم الصرف والنحو واللغة والمعاني والبيان . — ومن المشهور أن
 علماء هذا الفن اختلفوا في أقسامه لأن بعضهم جعل قسماً مستقلاً ما ليس على رأى
 غيره إلا جزء من أجزاء أحد الأقسام الأصليّة فمن ذكر لعلم الأدب أربعة أقسام
 ومن ذكر ثمانية ومن ذكر اثني عشر ومن ذكر أربعة عشر وهلمّ جراً . فقال مثلاً
 السيّد الشريف عليّ بن محمد الجرّجاني المتوفى سنة $\frac{٨١٦}{١٤١٣}$ إن الاشتقاق قسم مستقلّ
 خلافاً لرأى سعد الدين مسعود بن عمر التّفّازاني المتوفى سنة ٧٩٢ الذي جعله ذيلًا
 لعلم الصرف . وذهب قوم من العلماء إلى أن البديع قسم برأسه وعدّه آخرون من
 تنمّة علمي المعاني والبيان . ولكيّ لا أريد الخوض في مثل هذه المسائل الخارجة
 عن مقصودنا الحالي .

(١) وفيات الأعيان ترجمة عدد ٨١٠ من طبعة غوتنجن أو ٧٧١ من الطبقات المصرية .

(٢) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٣ من طبعة مصر سنة ١٣١٧ .

فتمّ كلامنا على ما عرض لكيفية استعمال لفظ الأدب من التغيّر والحصر والاطلاق والتفرّع بتغيّر أحوال العمران وتباين أصناف الناس في الأجيال السابقة لتأثير علوم الإفرنج في علوم الشرق . وأرى من المناسب أن أُلخّص الآن نتائج البحث المتقدّم بغاية الاختصار أعني مجرّدة عن الشواهد والنصوص التي إنّما أتيتُ بها قبلاً لئلا تأخذوا مني شيئاً بدون حُجّة . فإني لا أخاف من الإطالة إذا لا بدّ منها لإثبات البراهين على أقوالى فلست حينئذ من أولئك المتطرّفين السابق ذكرهم الذين كان الإسامُ عندهم شرّاً الكبار .

إنّ الأدب كان على المحتمل في عرف عرب الجاهليّة عبارةً عن العوائد الحميدة المتوارثة خلفاً عن سلف فليس من البعيد أنّ اسمه مشتقٌّ في قديم الزمان من الآداب جمع الدّأب . ثمّ لكون تلك العوائد المتوارثة عمدةً للناس في أعمالهم المستحسنة عبّروا بالأدب عن السنّة والسيرة لا سيما المحمودة وعن حُسن الأخلاق . وبما أنّ تعليم العوائد القديمة الماثورة كان عندهم أساس كلّ تعليم وتربية، بل مُعظَم معارفهم أطلقوا الأدب أيضاً على جملة المعارف فاستعملوا لفظي التّأديب والتعليم بدون فرق بينهما وكان الأديب المخبر بشيء .

ثمّ بعد ظهور الإسلام الى ما يلي أواخر القرن الثاني لم تزل معاني الأدب على ما كانت عليه في الجاهليّة أعني عبارة عن المنهج المسلك وعن حسن الأخلاق طبيعيّة كانت أم كسبيّة وعن جملة المعارف . إلّا أنّ المقصود من هذه المعارف انحصر في الأمور الدنيويّة ولم يُطلَق على العلوم الدينيّة .

وإثر ما وقع للعرب من التقلّب العظيم في هيئتهم الاجتماعيّة وأميالهم بسبب اختلاطهم بأمم غيرهم تولّدت من معاني الأدب القديمة معانٍ أخرى حديثة وذلك في القرن الثالث حين بلغ التمدّن الإسلامي أوجهُ بمدينة بغداد . وتارة وسّعوا نطاق المعارف المدلول عليها بلفظ الآداب قبلاً واصطلحوا بهذا الاسم على كلّ أنواع العلوم والفنون والصناعات والحرف والألعاب الشريفة سوى ما يتعلّق بأمور الدين والشريعة.

ثمّ اندرس استعمال الآداب بهذا المعنى العامّ الذى ما عثرت على أمثلة منه فيما صنّف بعد انقضاء القرن الرابع. وتارةً حصروا الأدب والآداب فيما تَمَسُّ إلى معرفته حاجةً تعاطى فنّ مخصوص من العلوم فقالوا مثلاً أدب الكاتب دلالةً على جميع ما لا يستغنى الكاتب عن تعلّمه ليقوم بصناعته قياماً حسناً. وتارةً اتَّخذوا الأدب بمعنى السَّنة وأطلقوه على ما غير الأخلاق عبارةً عن الأساليب والقواعد الواجب التمسُّكُ بها فى عمل من الأعمال فقالوا بآداب الأكل وآداب السفر وآداب الدرس وآداب البحث وهلمّ جرّاً. أمّا الناس الذين جعلوا اسمى مقصدهم فى الظرف واتَّخذوه سَنةً فى جميع أفعالهم فاصطلحوا الأدب (أى السَّنة) على كلِّ أنواع الظرف والأديب على المتظرف فى كلِّ شىء. وحيث أنّ التّفنُّ والمعرفة بما يُعجب من كلِّ علم أو صناعة كان عندهم أيضاً جزءاً من التظرف حصر بعضهم الأدب فى النكت والملح والنوادر واللطائف ومقطّعات الشعر غير الطويلة المُملة وسمّوا أديباً من أخذ نَتفاً ظريفة لطيفة من كلِّ علم وفنّ. ومن حرص منهم على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ووجد غاية الالتذاذ بما نُسج من الكلام على أحسن منوال حصر الأدب فى صناعتى النظم والنثر وسمّوا أديباً المتعاطى الفنون الكتابيّة المستزفة. فقصارى القول أنّ المتظرفين اتَّبَعُوا ثلاث طرائق مختلفة فى حدِّ الأدب موافقةً لما كان عنده أرجح من سائر أنواع الظرف.

وفى ذات القرن الثالث سلك صنفٌ من الناس منهجاً خاصاً فى تعريف الأدب وهم الذين بذلوا عنايتهم فى علوم الدين والشريعة. وذلك أنّهم لم يجدوا علماً من العلوم الإسلاميّة لا يتبيّن افتقاره إلى العربيّة وما يتعلّق بها من الأخبار والأشعار لأنّ بها الاحتجاج فى تفسير القرآن الكريم والحديث النبوى المتوقّف عليهما جميع الأحكام الشرعيّة ورأوا الكلام فى مُعظّم أبواب أصول الفقه وفروعه مبنياً على علم العربيّة والتفاسير مشحونةً (كما قال الزخشرى)^(١) بالروايات عن سيويه والأخفش والكسائى

والفرّاء وغيرهم من النحويّين البصريّين والكوفيّين والاستظهار في مآخذ النصوص بأقوالهم . فحملهم ذلك على التبجّر في أسرار اللغة ودقائق النحو وعلى جمع الأشعار القديمة وما يتّصل بها . ففريق منهم حصروا الأدب في الشواهد الشعرية والنثرية مع جملة المعارف النافعة لشرحها لغةً ومعنى . وفريق ذهب في القرن السادس وما يتلوّه إلى أنّ الأدب علم الصرف والنحو واللغة والبيان .

فمّا أَوْحَتْهُ ترون أنّ تشعّب لفظ من أصل معناه إلى معانٍ مغايرة له ربّما هو أيضاً خلاصة تاريخ ما عرّض للميئة الاجتماعية من التقلّب والتشعّب .

وبعد منتصف القرن المنصرم لما كثرت العلاقات وشدّت الارتباطات العامية والأدبية بين بلاد الشرق وأمّ الغرب ونقلت كتبٌ فرنسيّة وإنكليزيّة في كلّ فنّ إلى اللسان العربيّ أخذ المترجمون يستعملون لفظ الآداب استعمال *littérature* عند الإفرنج . فكان ذلك انحرافاً عن العرف العربيّ السابق من وجوه . أولاً لأنّ الإفرنج ومن يقدّم في الشرق يُطْلَقُون الآداب على ما تُرأى لغة خلافاً للسلف من العرب فإنّهم على وفرة المعاني التي وضعوا لها لفظ الآداب لم يستعملوه أبداً للدلالة على الكتب والعلوم العجميّة . وسبب مثل هذا الحصر أنّهم كما هو مشهور أغفلوا في كلّ وقت البحث عن آداب اللغات الأجنبية فلم نقف على أحد منهم ألف شيئاً في لغة اليونان والرومان والعبرانيّين والهند والسرّيان والقبط وأنّ الذين اعتنوا في غابر الزمان بلغة الترك والفرس قليلون جدّاً لا يكادون يجاوزون عدد أنامل اليد مثل أبي حيّان محمّد بن يوسف الغرناطيّ المتوفّى سنة $\frac{710}{1344}$ صاحب كتاب الإدراك للسان الأتراك^(١) والزّمخشريّ المتوفّى سنة $\frac{538}{1112}$ الذي وضع كتاب مقدّمة الأدب على صفة قاموس عربيّ فارسيّ^(٢) . نُقل إلى لسان العرب عدد وافر من كتب العلوم الرياضيّة

(١) L. BOUVAT, *Une grammaire turque du huitième siècle de l'hégire: "La pénétration dans la langue des Turcs" d'Abou Hayyân al-Gharnâti* (Actes du XIVème Congrès international des Orientalistes, Alger 1905), Paris 1907 suivv., III, p. 44-78.

وكتاب الإدراك هذا مطبوع بقسطنطينية سنة ١٣٠٩ [وسنة ١٩٣١] .

(٢) Samachsharii *Lexicon arabicum-persicum*, ed. J.G. Wetzstein, Leipzig 1844, 2 voll. (٢)

والفلسفية والطبية والكيمائية والفلاحية مما صُنّف بلغات الهند والفرس واليونان ولكن لم يُترجمَ لأحد أدباء اليونان والرومان والهند تاريخ (ما عدا تاريخاً مختصراً لهروسيوس^(١)) ولا خطبةً بليغة ولا شعر ولا رواية من رواياتهم المستظرفة . ومع أن العرب وجدوا في تأليفات أرسطوطاليس الثناء الوافر على شعراء اليونان وعلو مرتبة فنون البلاغة والخطابة عندهم واستفادوا من كتب أفلاطون قدر اعتبار اليونان للشعر والبلاغة وسائر الفنون المستظرفة في تربية الأطفال والأحداث لا رغبوا في معرفة تلك الآداب وبلغوا في شأنها غاية الجهل حتى إن أبا عثمان عمراً الجاحظ وهو من أحقق كتّاب العرب وأوسعهم علماً وأدقهم بحثاً قال في كتابه المسمى بالبيان والتبيين ما نصّه^(٢) : « إنا لا نعرف الخطبَ إلا للعرب والفرس ، وأما الهند فإنما لهم معانٍ مدوّنة وكتبٌ مخدّدة^(٣) لا تُضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف وإنما هي كتب متوارثة وآدابٌ على وجه الدهر سائرة مذكورة . ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق وكان صاحب المنطق نفسه يكيء اللسان غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس ولم يذكره بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة » . ١٠ هـ . وإن هذا الكلام من أغرب الأقوال حيث أنه من المشهور أن الخطب اليونانية صارت أنموذجاً لخطباء الرومان وجميع الأمم الإفرنجية وهي متداولة إلى الآن غير مجهولة لكل من له ذوق سليم في الأدب في بلاد الغرب^(٤) . — وكذلك ترجمت العرب بعض الحكايات

(١) هو من مؤلفي القرن الخامس بعد الميلاد .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣١٣ [أوج ٣ ص ٢٠ من طبعة مصر سنة ١٣٥١] وقول الجاحظ هذا موجود أيضاً في منتخبات البيان والتبيين للإمام الجاحظ المطبوعة في مجموعة خمس رسائل (ص ٢٢٣ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠١) وفي كتاب علم الأدب مقالات لمشاهير العرب للأب شيخو ج ٢ ص ٢٣١ من طبعة بيروت سنة ١٨٨٩ .

(٣) وفي طبعات مصر : مجلدة وهو تصحيف .

(٤) وكذلك ما ذكر أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري (المتوفى سنة ٣٨٢ هـ ٩٩٣ م) من الآداب الأجنبية إلا حكماً وجيزة نسبها إلى اليونان والفرس وبعض توقعات ملوك الفرس فانظر كتابه المسمى برسالة التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم وقد طبعت هذه الرسالة

والأمثال من تصانيف الهند والفرس ولكنهم لم ينقلوا حرفاً من أناشيدهم الشهيرة الطويلة . فلعدم اهتمامهم بالفنون الكتابية المستظرفة الأجنبية حصروا الآداب في علومهم العربية .

ثم إن المعاصرين لنا من أبناء الشرق قدوا الإفرنج في وضع معنيين للفظ الآداب معنى منهما عام ومعنى خاص . والمعنى العام عبارة عن جميع ما صُنّف في لغة ما سواء في العلوم أم من الشعر والنثر البليغ ، فالآداب حينئذ تشتمل على جملة ما قيّد في الكتب والدفاتر من نتائج أفكار علماء الأمة وأدباؤها . أمّا الآداب بمعناها الخاصّ فعبارة عمّا سبك في قالب ظريف وصيغ على نمط الإنشاء الأنيق من الكلام المنشور والمنظوم أعنى أنها عبارة عن حواصل الفنون الكتابية المستظرفة فتشتمل على أنواع الشعر والحكايات والروايات والقصص والأمثال والحكم والمحاضرات والمقامات والمناظرات والخطب مع ما أُلّف بفصيح العبارة وطلاوة الإنشاء من التواريخ ووصف الرّحل والأسفار وما يشاكل ذلك . — فإذا كان الأمر كذلك أصاب الأب لويس شيخو في قوله ^(١) : « تحيا الأمم بأدائها لأنّ الآداب تُرقي المرء فوق الحياة المادية وتسمّق به إلى المدارك الشريفة وتقرّبه إلى عالم الأرواح وإلى الجمال الذي منه يستعير كلُّ مخلوق جماله . وعليه فإن أراد العاقل أن يعرف درجة التمدّن التي بلغها شعب من الشعوب بحث عن انتشار الآداب بين أهله . ولذلك ترى المؤرّخين يقدّمون في تاريخهم تاريخ الآداب على تاريخ الوقائع وربما أفردوا للآداب تاريخاً قائماً بذاته يُثبت ما يختصّ بالعلوم والمعارف في كلّ ملة مُخبراً عن نشأة الآداب بينها واتّساع

في التحفة البهية والطرفة الشمية ص ٢١٨ — ٢٢١ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٢ وطُبعت أيضاً (بغير اسم مؤلفها وبالعنوان : في بلاغة كلام العرب وكلام العجم) في ج ٢ ص ١٢٦ — ١٣٦ من مقالات لمشاهير العرب المذكورة آنفاً وكان هذا العسكري معلّم أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل صاحب كتاب الصناعات المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وانهما توافقا في الاسم واسم الأب والنسبة (راجع بغية الوعاة للسيوطي ص ٢٢١ من طبعة مصر ١٣٢٦)

(١) الآداب العربية في القرن التاسع عشر ج ١ ص ١ (أُلّف) من طبعة بيروت سنة ١٩٠٨ — ١٩١٠ .

نطاقها وأسباب ترقّيها وتناجها الطيّبة في إصلاح القوم وتحسين أخلاقهم ودفعهم إلى المشروعات الأثيرة والمساعى الخطيرة .

٢ — أمّا تاريخ الآداب فما هو ؟ إذا أُتخذ الآدابُ بمعناها الخاصّ وبالنظر إلى العربيّة أجداد في وصفه رصيفي الأديب حضرة حُفني بك ناصف حين قال فيما طُبِع من محاضراته^(١) أن « يدخل في ذلك التاريخ وصفُ الكلام من شعر ونثر في كلِّ عصر من عصور التاريخ وذكرُ نوابغ الشعراء والخطباء والكتّاب والمؤلفين وبيانُ تأثير كلامهم في من بعدهم وتأثيرهم بمن قبلهم وما حولهم والموازنةُ بينهم والإمامُ بمؤلفاتهم » . — فإذا اتخذنا الآداب بمعناها العامّ فضروريّ أن ندخل في تاريخها أيضاً ذكر جميع أصناف من العلماء والحكّماء والمؤلفين البارعين مع بيان مشارب أفكارهم وشرح مناهج أعمالهم في العلوم وتقدير علوّ منزلتهم في الفنّ الذي تعاطوه . فيصف حينئذ تاريخُ الآداب سير العلوم في مدارج الترقّي وأحوال مشاهير أصحاب الحكمة والفلسفة والرياضيّات والفلك والطبّ وهلمّ جرّاً فلا يتميّز في قسمه هذا من التواريخ المحتصّة بعلم من العلوم أو فنّ من الفنون إلّا لقدّر التبجّر في تلك المباحث ولصفه النظر فيها . مثال ذلك أن مؤرّخ الحكمة والفلسفة يتوسّع في الشرح التامّ لمذاهب الفلاسفة وينتقدها ويقدرها تقديرًا دقيقًا ، أمّا مؤرّخ الآداب فيمتنع عن بُعد الخوض في المسائل الخاصّة والانتقاد العلميّ مقتصرًا على جوامع ما توصّل إليه مؤرّخ الفلسفة في أبحاثه المستقصاة ومقدّرًا تصانيف الحكّماء من حيث جنس إنشائهم أكثر منه من حيث أفكارهم العلميّة المحضة .

إنّ تاريخ الآداب علم جديد في بلاد الشرق لم يسيّق إليه علماء العرب اللّهمّ إلّا في نبذٍ وجيزة وأشياء قليلة جدًّا وردت في كتبهم مبغثرة دون أن استقصوا فيها بدقّة النظر والانتقاد . وسبب ذلك حال علم التاريخ عند العرب . فإنهم لم يتقنوه قدر ما أتقنه اليونان والرومان في الزمن القديم أو الأمّ الإفريقيّة منذ القرن

(١) تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربيّة المطبوع في مصر سنة ١٩١٠ — ١٩١١ ص ٦ .

الخامس عشر للمسيح بل اقتصر أكثرهم على تفصيل ذكر الحوادث والوقائع سنة سنة بدون البحث عن الأسباب والأحوال الاجتماعية وعن ارتباط الوقائع ببعضها وتتألفها ومن غير مدّ بصرهم إلى ماهو أسمى من محض ذكر ما طرأ على أمة من الطوارئ الظاهرة . فلا يخفى عليكم أن أكثر الذين حُكِمَ لهم بالتقدّم وحازوا قصب السبق في ميدان التاريخ عند العرب مثل أبي جرير الطبري وابن الأثير وأبي الفداء الحموي وزين الدين عمر بن الوردی لم يسلكوا في تصانيفهم غير هذا السلوك . ومن اتخذ منهجاً غيره ودوّن الحوادث مسرودة آخذة بعضها ببعض لم يؤلف إلا كتباً مختصرة ولم يُجرِ التحصيل والنقد في مصادره ولم يتأمل تأثير الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الحوادث السياسية ولم يدقّ النظر في سائر العوامل في ترقية العمران أو انحطاطه . ومن أغرب الغرائب أن ابن خلدون الذي أوضح في مقدّمته قواعد علم التاريخ الصحيحة وأمعن الفكر في كلّ مبحث يتعلّق بالاجتماع الإنساني إمعاناً يستوجب العجب العجيب انصرف عن أصوله تلك الجسيمة العالية لمّا صنّف سائر الأجزاء في تاريخ الأمم واتبع فيه طريقة لا تفوق طريقة الأقدمين قدراً جزيلاً .

وكذلك في تاريخ الآداب ما ألف العرب إلا كتباً تتضمّن التراجم المفردة المرتبة على حروف الهجاء أو على الطبقات بدون التعمّق في البحث عن أصل كلّ جنس من الفنون الأدبية وعن كيفية نموه أو انحطاطه وعن تأثير الأدباء بعضهم في بعض أسباب تغير الذوق والأميال . فأكثرنا مثلاً في رواية أخبار أفراد الشعراء وأقصروا عن بيان تقلّب أساليب الشعر وأغراضه بتقلّب الهيئة الاجتماعية وتمادى العصور .

أطلتُ الكلامَ في هذا الموضوع ليتبيّن لكم سبب تسكيفي بتدريس آدابكم مع أيّ رجل أجنبي بعيد أيّ بُعد عن إمكان مسابقة الوطنيين في معرفة اللغة والتضلع من علم أسرارها وخصائصها . إن المطلوب مني ليس إلا أن أطبق على الآداب العربية

أساليب البحث التاريخي التي عادت على تاريخ آدابنا الإفرنجية بطائل عظيم .
والمرجو أنكم في آخر السنة المكتبية لا تجدون عملي باطلاً مجرداً عن كل فائدة .

٣ — إن تاريخ الآداب العربية يجوز قسمته إلى ستة أطوار أو أعصر .

(١) عصر الجاهلية المنتهى من زمان لا ندرك أوائله إلى ظهور الإسلام .
وهو عصر عربي صريح لغةً وأدباً وبلاداً .

(٢) العصر العربي الإسلامي من ظهور الدين الإسلامي إلى انقراض الدولة
الأموية سنة ١٣٢ . وفيه انتشر استعمال اللغة العربية في بلاد متباعدة
بتوسّع حدود المملكة بالفتوحات المشهورة فأخذت الآداب العربية
تزدهر أيضاً فيما خارج جزيرة العرب لا سيما في بلاد الشام إلا أنها لم
تزل محصورة في ميدان آداب الجاهلية ما عدا العلوم المتعلقة بأمور الدين .

(٣) العصر العباسي الأول من سقوط الدولة الأموية وابتداء دولة العباسيين
إلى نحو سنة ٤٥٨ . وصار فيه للأمم الأعجمية القسم الأوفر من أمور
الدنيا والدين بل غلبت العجم على العرب في تكوين التمدن الإسلامي
فأدخلت كتب العلم العجمية القديمة واتسع التفنن في الآداب
وسلكت فيها مسالك جديدة وصيغت صناعة النظم والنثر في بعض
القوالب المستحدثة وبلغت العلوم والفنون وبعض أنواع الآداب مداها
الأقصى من الكمال والإتقان والرواق والبهاء . وذلك ثمرة ما سببه
الإسلام من تعاون الأمم المختلفة الأصل والأخلاق والأميال وتشاؤمهم
في العلم والعمل كأن لسان حالهم قول أبي تمام ^(١) : (من بحر الكامل)
إن يكدم طرف الإخاء فإننا نسرى ونغدو في إخاء تالد

(١) الأبيات مروية في إرشاد الأريب لياقوت ج ١ ص ١٨ من طبعة ليدن فراجع ديوان
أبي تمام ص ٧٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩ أو ص ٨٦ من طبعة بيروت ١٩٠٥ . أكدى : قل خير ،
واطرف الشيء : اشتراه حديثاً ، وتالد : (مال) قديم .

أو نفرق نسباً يؤلف بيننا أدبٌ أقناه مقام الوالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذبٌ تحدر من غمامٍ واحدٍ

(٤) العصر العباسي الثاني من نحو سنة ٤٩٠ إلى فتح التاتار مدينة بغداد وانقطاع دولة بني العباس سنة ٦٥٦/١٢٥٨. وفي هذا العصر أخذت الآداب والعلوم تنحطّ ممّا كانت عليه من الكمال تبعاً للانحطاط السياسي الذي قد ابتدأ في العصر السابق حين تجاسر الجند التركي على الخلافة في أيام المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧/٨٤٧) فاستولى على الدولة أمراء الجيوش مثل وصيف وبغا وأتامش كما قال الشاعر^(١): (من بحر الخفيف)
أصبح الترك مالكي الأمر والعالم ما بين سامع ومطيع
وزاد تفرع الدولة إلى دول صغيرة في أنحاء مختلفة فربّما تلاشت العلائق بينها فاختلفت أحوال الآداب على اختلاف البلاد.

(٥) عصر الانحطاط من انقطاع الدولة العباسية إلى استيلاء محمد على باشا على مصر سنة ١٢٢٠/١٨٠٥. وفيه خمدت جذوة الآداب والعلوم التي لم تزل مائلة إلى الهبوط حتى كادت تنطفئ جمرتها كليّة في بعض الأصقاع الإسلامية. وفترت همم أهل العلم فأصبحت أكثرهم ممسكين عن الاجتهاد المستقل في المباحث مقتنعين بالنظر في كتب من تقدّمهم بدون خروج عن رتبة التقليد وبغير طمع في مباراة السلف. وكذلك الشعراء والأدباء اقتصر أغلبهم على حذو السابقين فنجد أشعارهم كأنها تصدر عن المتصنع المتشبه الذي يكتفي بتنميق العبارة وزخرف الكلام وإشكال البديع ولا يهتم بالتعبير عن حقيقة ما يكنه صدره من العواطف والخواطر. فإن نجد بين أهل ذلك العصر من

(١) البيت مروي في الباب العشرين بعد المائة من مروج الذهب للسعودي ج ٧ ص ٤٠٠ من الطبعة الباريسية.

فاق غيرهُ فوقاً عظيماً (وحسبنا ذكر نصير الدين الطوسي وابن خلدون)
يصلحُ له بالنظر إلى معاصريه ما قيل عن انحطاط الدول إنَّهُ^(١) «ربما
يحدثُ عند آخر الدولة قوَّةٌ يُوهِمُ أنَّ الهرمَ قد ارتفع عنها ويومضُ
ذُبَالُهَا إِمَاضَةً الخُمُودِ كما يقع في الذُّبَالِ المشتعلِ فإنَّهُ عند مقاربة
انطفائه يومضُ إِمَاضَةً تُوهِمُ أَنَّهَا اشتعال وهي انطفاء»

(٦) النهضة الأخيرة من ابتداء ولاية محمد عليّ باشا سنة ١٢٢٠ إلى أيامنا
هذه . وفي هذا العصر شاعت العلوم الإفرنجية في كثير من بلاد الشرق
فكانت خميرة اختمرت بها العقول بعد مُدَّة العُقمِ والسُّقْمِ وانتاشت
أهل الإسلام ممَّا قد قضت الصروفُ لأغلبهم من الاستكانة والتفريط
في التعلُّم والتأليف والاعتناء بالفنون والصنائع . وانتشر فنُّ الطباعة
في الشام ومصر وغيرها من الأنحاء الإسلامية وذاعت الجرائد والمجلات
بنافع المعارف والأخبار وعادت أسواقُ الآداب والعلوم قائمةً وبضائعها
رائجةً لا سيما في القطر المصريّ وشقيقته الشام والقسطنطينية وبغداد
ففتحقق وتمَّ لأهاليها مرادُ قولِ الشاعر^(٢) : (من بحر البسيط) .
لعلَّ إلماماً بالجزع ثانيةً يدبُّ منها نسيمُ البرء في عللي

إلا أن إفراط التأثير الإفرنجي لم يخلُ عن الإضرار بآداب الشرق لأنَّهُ
ربما أبعد الناس عن شدَّة العناية بلغتهم وأدخل في تأليف بعض المحدثين
وفي بعض المجلات والجرائد العُجْمَةَ المستقبحة والتراكيب الشائنة

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٦ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٢٩٤ من طبعة بيروت
١٩٠٠ أو ج ٢ ص ١٢١ من الترجمة الفرنسية .

(٢) البيت مروى للطغرائي المولود سنة ٤٠٣ هـ والمتوفى سنة ٣١٢ هـ وهو البيت
السادس والعشرون من شعره المسمى بلامية العجم فانظر كتاب نشر العلم في شرح لامية العجم
للشيخ جمال الدين محمد بن عمر الحضرمي ص ٣٠ من طبعة مصر ١٣١٩ — وألم به نزل به . جزء
منعطف الوادي ومجلة القوم . دب سري . برء شفاء .

السقيمة وركاكة الكلام وسخافة الإنشاء وغير ذلك مما يستنكف منه صاحب الذوق السليم . فاتفق لبعض الكتبة ما اتفق لبعض الناس الذين قلّوا الإفرنج وعوائدهم بدون بصيرة وخلطوا الغت بالسمين والبخس بالثمين .

إن هذه الحدود التي ذكرتها لكل عصر من الأعصر الستة ليست إلا حدود صناعية اصطلاحية أثبتتها على التقريب فإن عصرًا ما سواه من التاريخ السياسي أم من تاريخ الآداب والعلوم لا يُحصّر في مواقيت معينة بدقّة . فذلك أسباب . أولاً أن كلّ حيّ وكلّ نوع أو فرع من الهيئة الاجتماعية لا تتغيّر أحواله بديهاً أبداً بل من المشهور أن الانتقال من حال إلى حال لا يحصل إلا بالتدريج البطيء حتّى لا يُشعر في الأغلب بالفرق بين الدرجة القادمة والدرجة التالية لها . فإن أعملنا الفكر فيما يظهر بادية نظر أنّه تقلّب فاجئ ألقينا أنّه في الحقيقة نتيجة عدّة أسباب مرتبطة بعضها ببعض عاملة منذ زمان طويل . قال إبقراط^(١) ومن اتبعه من أطباء اليونان والعرب إن الإنسان يبتدىء طفلاً ثمّ يصير صبيّاً إلى أربع عشرة سنة من عمره ثمّ غلاماً إلى إحدى وعشرين سنة ثمّ شابّاً ما دام يشبّ ويقبل الزيادة إلى خمس وثلاثين سنة ثمّ كهلاً إلى تسع وأربعين سنة ثمّ شيخاً ثمّ هراً ما إلى آخر العمر الذي ينقسم إلى سبع أسنان على هذا القول^(٢) . وظاهر أن هذه القسمة لمُدّة حياة الإنسان إنما هو اصطلاح محض لا يوافق حقيقة الأحوال الطبيعية إلا بالتقريب فلا يزعم أحد أن الإنسان عند انتقاله من سنّ إلى التالية لها على ذلك القول يتغيّر تغيراً محسوساً . وكذلك تقلّبات الأمم والدول إنما تقع قليلاً قليلاً فلا يُشعر بها إلا بعد مُضيّ أمدٍ مديد حين يمكن مقابلة الحال الحاضر بالحال الماضي البعيد . فمن قال من المؤرّخين بانتهاء القرون الوسطى وابتداء العصر الحديث سنة اكتشاف أمريكا أعنى

(١) يعني Hippocrates الطبيب اليوناني المشهور الذي عاش من أواخر القرن الخامس إلى منتصف القرن الرابع قبل المسيح .

(٢) انظر الباب الثاني والستين من مروج الذهب للمسعودي (ج ٤ ص ٣١ من الطبعة الباريسية) .

سنة $\frac{٨٩٧}{١٤٩٢}$ ما أراد أن الدنيا قد تغيرت أحوالها بَعَثَ في تلك السنة أو أن أهل ذلك العهد أحسوا بشيء من التغيير العام الواضح . ولا يخالف ذلك ما يقع في سير الآداب فإن أنواعها وفنونها بطيئة التحول فتختلط في الأغلب الأساليب القديمة بالجديدة في عصر واحد وتوازنت فيه مدة إلى أن يأخذ الأسلوب الجديد في الغلب على القديم شيئاً فشيئاً . فكم مرة ما انفرد به شاعر أو أديب طفق بعد مدة يتشبه به القليلون الذين استحسنوه واستطابوه ورأوا أنه تألفه الأسماع وتقبله النفوس ثم سائر الأدباء اتبعوه أيضاً وتعلموه فعمَّ ما كان يختص به أولاً الواحد . وفي أشعار الجاهلية تجدون أحياناً من التغزل^(١) ما يشبه الأسلوب الذي اشتهر به عمر بن أبي ربيعة^(٢) بعد منتصف القرن الأول وترون الهجاء في القرن الثاني كأنه متردد متحير فيما بين منهجه القديم الملائم لأحوال أهل الوبر وبين الطريقة الجديدة اللائقة بأمور أهل المدر . ويحتذى المتنبي^(٣) حذو القدماء حين يدعى في بعض أشعاره بالحماسة وابن المعتز^(٤) حين شرع في نوع الافتخار ومع ذلك إنهما من الشعراء المحدثين لا يفردان عن معاصريهما في المدح والغزل والوصف والطرديات . فإذا كيف يمكن أن سنة معينة تكون حداً حقيقياً طبيعياً بين عصرين من عصور تاريخ الآداب ؟ ثم لا يخفى عليكم أن آداب لغة ما إذا شاعت في أراض متباعدة وأقطار مختلفة ولم يساعد فنُّ الطباعة في انتشار الكتب انتشاراً سريعاً بعيداً لا يتغير أحوالها ولا يتقلب أميالها على كمط واحد في كل قطر لاسيما إن تشتت شمل

(١) راجع Th. NOELDEKE, *Fünf Mo'allaqât*, II, p. 43. *Encyclopédie de l'Islam*, I, p. 366 و (مادة عترة)

(٢) عمر بن أبي ربيعة ولد $\frac{٢٢٤}{٢٢٤}$ م وتوفي سنة $\frac{١٠١}{٧١٩-٧٢٠}$ على القول الأرجح وسيأتي ذكره في باب الشعراء الغزليين الذين عاشوا بمدن الحجاز في عصر بني أمية .

(٣) توفي المتنبي سنة $\frac{٣٠٤}{٣٠٤}$.

(٤) مات ابن المعتز سنة $\frac{٢٩٦}{٢٩٦}$ وفي افتخاره راجع إنجاز القرآن للباقلان ص ١٢٤ — ١٢٥ من طبعة مصر ١٣١٥ .

المملكة كما اتفق للأمم الإسلامية منذ قرون عديدة . فمثال ذلك اختصاص النهضة الأخيرة (التي جعلتها العصر السادس) بالقطر المصري والشام والعراق والهند لأن سائر الأجزاء الإسلامية العربية لم تزل بالنظر إلى الآداب على ما كانت عليه في العصر السابق الذي سميته عصر الانحطاط في عمان وحضرموت واليمن والمغرب الأقصى مثلاً لم ينبغ بعد عالم أو أديب أو شاعر طفق يشرع في الأساليب الجديدة فما هبت هناك الآداب العربية من كراها ولا نفقت غباراً نحوها . ودعوا عنكم ما وقع في المغرب الأوسط أي بلاد الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي فإن مصابيح العلوم العربية أطفئت هنالك وتلاشت الآداب كلياً حتى لا يجاوز عدد أنامل اليد من يتمكن من استعمال اللغة الفصحى في الكلام واندurst المكاتب العربية التي قد اشتهرت في الأجيال الخالية بالقسطنطينية وبجاية وتلمسان وكادت تضمحل معرفة الآثار العربية عند الوطنيين كيف لا وهناك الشبان في نفس مدارس القضاء الشرعي يتلقون أكثر العلوم بلسان الفرنسي . ومثال مقدار ما بلغه الناس في برّ الجزائر من إغفال درس لسانهم أن أحد الجزائريين وهو حضرة محمد صالح نشر قبل الآن بأربع سنين ترجمة باب أحكام صيام رمضان من رسالة ابن أبي زيد القيرواني^(١) في الفقه المالكي قائلاً في مقدمة الترجمة إنه رأى من المناسب نقل ذلك الباب إلى الفرنسية لكون أغلب الوطنيين المتأدبين أعرف بها منهم بالعربية^(٢) . وهذا لعمري عيب يعود على أهل البلد وعلى من تسلط عليهم معاً .

وقصارى القول أن قسمة تاريخ الآداب أقساماً محصورة محدودة إنما هي وسيلة لتسهيل بيان سير الآداب في مدارج الترقى أو رجوعها القهقري . فالحدود المعينة لكل عصر هي كالأعلام التي كانت أهل البدو ينصبونها في البرارى والقفار ليبتدى

(١) توفي سنة ٣٧٩ .

(٢) SOUALAH Mohammed, *Le jeûne chez les Musulmans Malékites* (Revue Africaine, vol. ٥٠, 1906, p. 393). عند ما ألف الأستاذ نلينو محاضراته هذه .

في تاريخ الآداب العربية] .

بها ابن السبيل ولا يضلّ في تلك الأراضي المستوية الجرداء والرمال المتساوية والكثبان
 المتشابهة المتوالية . فتكون فائدة استعمال تلك الحدود الاصطلاحية مثل منفعة بل
 ضرورة وضع خيوط السدى التي يُنسج عليها النسيج . — وربما زيادة لوضوح
 البيان وتسهيلاً لنظم درر الأخبار بأسلاك التاريخ ينبغي قسمة تلك العصور الأساسية
 أقساماً أخرى صغيرة وذلك بالنظر إلى اختلاف البلدان أو أهمية بعض الوقائع السياسية
 والأدبية . لكنني أمتنع الآن عن الخوض في تعريف تلك الأقسام الفرعية التي
 سأذكرها في دروسي عند سنوح المناسبة إن شاء الله .

الباب الثاني

العصر الجاهلي

- ١ شعر أهل البادية — ٢ شعر الوثنيين الملازمين ملوك الحيرة وغسان —
٣ شعر النصارى بالحيرة وفي مملكة بني غسان — ٤ شعر أهل الحضرة
في مدن الحجاز — ٥ النثر الجاهلي — ٦ المسائل المتعلقة بالقرآن

أما بعد هذه المقدمات وقبل الشروع في المواضيع الخاصة التي ستدور محاضراتي على البحث عنها بالتوسع أرى من المناسب لمحة في أحوال الآداب العربية أثناء كل عصر من الأعصر الستة السابق تحديدها بالإجمال . فأبتدئ بالعصر الجاهلي^(١) .
لا شك أن ما وصل إلينا من آثار الجاهلية نظماً ونثراً شيء يسير جداً بالإضافة إلى جميع ما أنشدته العرب أو روتته في مسامراتهم ومواسمهم ومفاخراتهم وتهاجيهم وما قالوه ارتجالاً في غزواتهم وحروبهم وغيرها من الحوادث . ومن المشهور أن العرب القدماء من أكثر الأمم شعراً لهم فيه التصرف العجيب والاقتدار اللطيف دونوا فيه عواطفهم وأعمالهم ومفاخرهم فأجاد أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ حين قال^(٢) :
« لا تعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ورقائعها إلا من جملة أشعارها فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ومستنبط آدابها ومستودع علومها » . وقال الجاحظ^(٣) المتوفى سنة ٢٥٥ : « قال الهيثم وابن الكلبي وأبو عبيدة فكل أمة تعتمد في

(١) [في الشعر الجاهلي انظر (فضلاً عن المؤلفات المذكورة في الحواشي التالية) الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين طبعة مصر ١٩٢٧ وم E. BRÄUNLICH, *Versuch einer literargeschichtlichen Betrachtungsweise altarabischer Poesien* (Der Islam, XXIV, 1937, p. 201-269); G. VON GRUNEBaum, *Die Wirklichkeit der früh-arabischen Dichtung*, Wien 1937; G. VON GRUNEBaum, *Zur Chronologie der früh-arabischen Dichtung* (Orientalia, VIII, 1939, p. 328-345).

(٢) كتاب الصناعتين ص ١٠٤ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٠ .

(٣) كتاب الحيوان ج ١ ص ٣٦ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ .

استيفاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال وكانت العرب في جاهليّتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المتقن وكان ذلك هو ديوانها وعلى أن الشعر يفيد فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح وفضيلة المآثرة على السيّد المرغوب إليه والممدوح به . وذهبت العجم على أن تُقيّد مآثرها بالبُنيان فبنوا مثل كرد بيدا^(١) و بنى اردشير بيضاء اصطخر و بيضاء المدائن والحضر والمدن والحصون والقناطر والجسور والنوايس قال ثم إن العرب أحبّت أن تشارك العجم في البناء وتنفرد بالشعر فبنوا غمّدان وكعبة نجران وقصر مارد وقصر مارب وقصر شعوب والأبلق الفرد ومارد قالوا تَمَرَّدَ مَارِدٌ وَعَزَّ الْأَبْلَقُ^(٢) وغير ذلك من البنيان . — ولكن كثيراً ممّا سارت به الركبان إلى أطراف بواديهم وأقاصي أنحائهم من المنظوم والمنثور ضاع منذ زمان مديد فلم تطق الحصول على معرفته أهل اللغة في القرن الثاني للهجرة . إن أوائل آداب اللغات المتفرّعة من اللاتينية مثل الإيطالية والفرنسية والإسبانية معروفة فنستطيع وصف تدرّج تلك الآداب من ابتدائها إلى وقتنا . أمّا الآداب العربيّة فليست على مثل هذا الحال فلا تتمكّن من الحصول على أوائلها لا بروايات العرب أنفسهم ولا بواسطة ما نعثّر عليه من الأخبار في تصانيف اليونان والرومان . ولم يُنقل إلينا بيت عربي غير مرّتاب بصحّته أقدم من أواخر القرن الخامس للمسيح أعنى سابقاً للهجرة بأكثر من مائة وثلاثين سنة تقريباً . وقولى هذا الذى سأتى بالبرهان عليه فيما بعد لا يبعد عن رأى علماء العرب بكثير . فقال مثلاً الجاحظ في كتاب الحيوان^(٣) : « وأمّا الشعر فحديث الميلاد صغير السن أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حُجر ومهلل بن ربيعة

(١) في هذا الاسم تحريف وذكر السعوى « بيت النار بسجستان يقال له كرا كراكان » (مروج الذهب في الباب الثامن والستين ج ٤ ص ٧٣ من الطبعة الباريسية)

(٢) المثل مروى في مجمع الأمثال للميداني ج ١ ص ٨٤ من طبعة مصر ١٣١٠ (راجع G.W. FREITAG, Arabum Proverbia Sententiaeque proverbiales, Bonn 1838-1843, I p.218. للمفضل الضبي ص ٦٤ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ .

(٣) كتاب الحيوان ج ١ ص ٣٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ .

وكتب أرسطاطاليس ومعلمه أفلاطون ثم بطليموس وذى بقراط^(١) وفلان وفلان قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور والأحقاب قبل الأحقاب ويدل على حداثة الشعر قول امرئ القيس بن حُجر^(٢) :

إِنَّ بَنِي عَوْفٍ ابْتَنَوْا حَسَبًا^(٣) ضَيَّعَهُ الدُّخْلُونُ^(٤) إِذْ غَدَرُوا
أَدَّوْا إِلَى جَارِهِمْ خُفَارَتَهُ وَلَمْ يَضِعْ بِالْمَغِيبِ مِنْ نَصْرُوا
لَا حِمِيرِيٍّ وَفَى وَلَا عُدْسُ وَلَا اسْتُ عَيْرٍ يَحْكُمُهَا الثَّفَرُ
لَكِنْ عَوَيْرٌ وَفَى بِذِمَّتِهِ لَا قَصْرَ عَابَهُ وَلَا عَوْرَ^(٥)

فانظر كم كان عُمرُ زُرارةٍ وكم كان بين موت زُرارة ومولد النبي عليه الصلاة والسلام فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فئاتي عام . قال وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب والشعر لا يُستطاع أن يُترجم ولا يجوز عليه النقل الخ — ولكن في كلام الجاحظ هذا نظر . فإنه خطأ أولاً لما قابل عهد الآداب اليونانية النثرية بعهد الشعر العربي ولم ينتبه لعدم كل علاقة بينهما . ثم لو أدق البحث في تاريخ الآداب لوجد أن الشعر سبق سائر الفنون الأدبية المستظرفة عند كل أمة متمدنة كانت أو همجية . ثم لا يلوح كيف تُستنتج حداثة الشعر من الأبيات التي أنشدها لامرئ القيس لأنه لا دلالة فيها على سابقة تلك الأبيات غيرها . ولعله اغترَّ بقول كثير من علماء اللغة أن مُهلهلاً وهو خال امرئ القيس أول من

(١) [لعله Hippocrates الطبيب اليوناني المشهور] .

(٢) راجع ديوان امرئ القيس ص ٣٩ من طبعة باريس ١٨٣٧ أو ص ١٤٢ — ١٤٣ من طبعة مصر ١٣٠٧ مع شرح أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي أو عدد ٢٧ (ص ١٣٣) من طبعة لندن ١٨٧٠ : AHLWARDT, *The Divans of the six ancient Arabic poets.*

(٣) في كتاب الحيوان : حسناً وهو تصحيف .

(٤) في كتاب الحيوان : الداخلون وهو غلط — قال البطليوسي الدُخل والدخل والدخيل الذي يداخل الرجل في أمره ويصاحبه عليه وهم الخاصة

(٥) وروى الشطر في الديوان كذا « لا عور شانه ولا قصر »

قصد القصائد^(١) وهذا القول ولو صح لا يدل على عدم وجود أنواع غيرها من الشعر عند من تقدم مهلهلاً من العرب . والحق يقال إن من يسرح أبصاره في رياض الشعر الجاهلي لا يجد في شذراته التي نجت من أيدي الضياع ما يدل على كونه فنّاً صغير السن فإن جميع ما نُقل إلينا منه يظهر لنا في غاية الإتقان وزناً وتقنيةً وفي نهاية التفنن من الافتخار والتحضيض والزجر والإغراء والوعد والوعيد والتأديب والمدح والغزل والهجاء والوصف والثناء وهو يجمع رقة العبارة إلى دقة الإشارة ومثانة التراكيب إلى رشاقة الأساليب . فليس من الممكن مثل هذا الكمال في صناعة حديثة لأنه من العلوم أن كل مبتدئ لشيء لم يسبق إليه وكل مبتدع لأمر لم يتقدم فيه عليه لا بد من أن يكون قليلاً ثم يكثر وصغيراً ثم يكبر وضعيفاً ثم يتقوى . ومصادقاً لقولنا هذا الإجمالي تأتي فيما بعد بنصوص قديمة غير عربية تدل على أن الكلام المنظوم عند أهل البادية سبق عهد شعر مهلهل وامرئ القيس بمدة مديدة . وخلاصة الأمر أن العلماء من العرب الذين قالوا بمدة مائة وخمسين سنة تقريباً للشعر الجاهلي لا بعدوا عن الصواب إذا فرضنا أنهم إنما أرادوا بذلك ما وصل إلينا من الأشعار القديمة .

ثم من الجدير بالذكر أن جميع ما نعرفه من شعر الجاهلية إنما هو لأهل نجد والحجاز والبحرين أو لمن سكن في هذه الأنحاء وإن أصله من قبائل اليمن . أما أهل الحضر من سكان اليمن ومهرة وحضرموت وعمان فلا يعرف لهم أبيات صحيحة الرواية لا بالعربية ولا بالحميرية . فعلى مؤرخ الآداب أن يفحص عن سبب ذلك باعتبار كيفية النقل وأحوال عرب الجاهلية في السياسة وفي نظامهم الاجتماعي . — ثم على الباحث عن آداب العرب القديمة حل مسائل أخرى خطيرة الشأن أذكرها هنا سريعاً . أكانت أصلاً علاقة بين الكلام المسجع والكلام المنظوم؟ وما السجع في أوائله؟ وكيف نشأ الكلام الموزون المقفى؟ أكان الشعر أولاً ذا وزن معين

(١) راجع كتاب العمدة لابن رشيقي ج ١ ص ٥٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ مثلاً .

وقافية ؟ وما أصل الوزن والقافية ؟ وكيف توصّلت العرب إلى اختراع القصيدة على نمطها الكامل المُتَقَنِّ ؟ ولماذا جعلوا النسيب أوّل القصيدة ؟ وما كان الشاعر عند العرب القدماء ؟ أكانت لغة الأشعار لغةً واحدةً ؟ وكيف تكونت هذه اللغة ؟ وعلى أىّ وجه وصلت أشعارُ الجاهليّة إلينا ؟ أيجوز لنا أن نشقّ بصحّة رواياتها ؟ وأن نعتدّ على الحكايات المروية لشرح الأبيات القديمة ؟ — إن هذه المسائل المهمّة وغيرها التي لا نستطيع أن نحلّها جميعها حلّاً نهائياً قاطعاً تكون موضوعَ جملة من محاضراتي بعد إنجاز بيان المقدّمات التي نحن بصددّها .

نستفيد من كتب الأدب واللغة أسماء ثمانين شاعراً عاشوا في عصر الجاهليّة ولكلّ واحد منهم تُنشدُّ أبياتٌ وصلت إلينا متفرّقةً في جملة من التصانيف . ولكن أكثر ما رُوي من أحوال حياتهم وسبب إنشادهم الأبيات المنقولة ذوشبّه واختلافات وأخبار متناقضة فضلاً عن الخرافات التي إن عرضناها على نار الانتقاد وجدناها لا تصبر عليها هنيئةً من الزمان . فلا نستطيع ترتيب تراجمهم على توالى الأزمنة اللهمّ إلّا للقليلين منهم ولا نتمكن من تعيين سنة المولد أو الوفاة لأحد منهم فمن أغرب الغرائب أنّ بعض كتب عربيّة في آداب لغتكم صُنّفت حديثاً وطُبعت بمصر وهي متداولة في المدارس تروى لكلّ شاعرٍ تذكُّره من شعراء الجاهليّة تاريخ وفاته كأنّه معيّن ثابت ولا شكّ فيه وذلك من غير دلالة على مصدر تلك التواريخ . فالظاهر أنّ منبع تلك الأخبار كان أصلاً كتاب روضة الأدب في طبقات شعراء العرب تأليف إسكندر أغا ابكاريوس الذي مات سنة ١٣٠٢^١/_{١٨٨٥} ونشر كتابه في بيروت سنة ١٨٥٨ م دالاً فيه لكلّ شاعر على عام وفاته من غير أن يبيّن كيف استخرج تلك السنين . والمحمّل أنّه توصّل إليها بالحدّس والتخمين مستنداً إلى إشارات غير كافية وجدها في الكتب القديمة ولا فحماً لمقطعات الأخبار^(١) . ثم على جرى عادة كثير من

(١) راجع R. GEYER, Beiträge zur Kenntnis altarabischer Dichter II. (Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, XVIII, 1904, p. 5, n. 1).

المُحدِّثين الناقلين كلام من تقدّمهم بغير بصيرة وتمحيص و بغير ذكر مصادرهم أخذ بعض الكتبة في بيروت يقبل تلك التواريخ بلا انتباه ثمّ اتّبِعهم في مثل ذلك النقل بعض المتأدّبين بمصرفشاعت تلك الأوهام ودخلت في الكتب المدرسيّة بعدما زيدت عليها غير مرّة أغلاط طبع في أرقام الأعداد . — ولكن عدم تعيين التواريخ المومأ إليها ليس ضرراً عظيماً لسببين : الأوّل أن المدّة التي عاش فيها شعراء الجاهليّة المنقول إلينا شيء من أبياتهم لا تتجاوز مائة وثلاثين سنةً تقريباً كما تقدّم .

والثاني أننا نقدر على تعيين تتابع أكثر الفحول بإشارات وردت في نفس أشعارهم أو بأخبار محقّقة نُقلت إلينا من الزمان القديم .

إذا أطلنا النظر والتأمّل في شذرات الشعر الجاهليّ التي سلّمت من التلف واعتبرنا خصائصها من جهة الصيغة والمعاني وجدناها تنقسم إلى أربعة أصناف أساسيّة : الصنف الأوّل ما نسجه أهل البادية أو من تقرّب منهم سواء كانوا وثنيّين أم يهوديّين . الثاني أشعار الوثنيّين الذين قصدوا ملوك الحيرة و بنى غسان و جالسوهم . الثالث أشعار النصارى بالحيرة أو في مملكة بنى غسان . الرابع أشعار أهل الحضرة الوثنيّين في مدن الحجاز . — لا تستغربوا عدم الفرق بين الوثنيّين واليهود من أهل البادية ووجوده بين الوثنيّين والنصارى من أهل الحضرة لأنكم إذا اطّلعتم على ما وصل إلينا من أشعار اليهود قبل الإسلام ما أقيمت فيها شيئاً أو عبارة يميّزها من سائر أهل البادية . فمن طالع مثلاً أبيات السّموّء بن عادِيَاء (مع قطع النظر عن قصيدة وانحمة التزوير منسوبة إليه لم تُعرَف ولم تُطَبّع إلّا حديثاً) لما توهّم أنّ صاحبها تابع لدين اليهود . والأمر كذلك أيضاً في سائر أشعار يهود جزيرة العرب مثل شعْبة^(١)

(١) [إن شعْبة تصحيف سبعة (بفتح السين المهملة وسكون الياء) . انظر ما قال الأستاذ

الإيطالي Levi Della Vida في المجلة . 1919-21, p. VIII, Roma. *Rivista degli Studi Orientali*,

627-628, فليراجع أيضاً ما قال الأستاذ المذكور في سبعة بن غريض في مقالته *A proposito di*

as-Samaw'al المطبوعة بالمجلة . 1931-32, p. 62. *Rivista degli Studi Orientali*, XIII,

ابن غريز والربيع بن أبي الحقيق وغيرهما التي اعتنى بجمعها نولديك وفرانز ديلتش^(١) ليس من المستحيل أن ما فقد من أشعارهم (وهو كثير بالإضافة إلى ما حفظ) قد حوى أشياء مما يختص بدينهم وليس من المحال أيضاً أن الرواة المسلمين امتنعوا عن نقلها لهذا السبب ولكن لا يجوز لنا الحكم إلا في الموجود المعروف الذي لا يختلف عن شعر أهل البادية الوثنيين لا لغة ولا أسلوباً ولا مأخذاً كأن دينهم لم يؤثر في شعرهم البتة .

١ — وإيضاحاً لما قلته من قسمة أشعار الجاهلية أربعة أصناف أذكر هنا أسماء أكبر الشعراء صنفاً صنفاً مع دلالات على خصائصهم بغاية الإيجاز . فأبتدى بالصنف الأول أى أشعار أهل البادية . لا يخفى على أحد وجود رجال بين قدماء العرب كانت أخلاقهم وعوائدهم أقرب للهمجية المحضة منها لأحوال أهل ذات نظام إجتماعي متين فسُموا أولئك الرجال صعاليك أى فقراء ولصوصاً معاً وكانوا يعيشون متعزّلين عن نفس قبائلهم جائلين في القفار والبادى بغاية الاستقلال طالبين رزقهم من الصيد والغصب والغزو كما يفعلون فى أيامنا المعروفون بالبواقين عند أهل شمر والحجاز الشمالية^(٢) . ومنهم من نبغ فى الشعر على توخش عيشتهم فأشهرهم اثنان ضرب بهما الأمثال لكونهما من محاضير العرب ومغاويرهم^(٣) فكثرت فيهما الأخبار العجيبة والروايات الغريبة . وهما تَابَطَ شَرًّا الْفَهْمَى^(٤) وَالشَّنْفَرَى الْأَزْدَى عاشا فى القرن السادس للمسيح وتشاركا أحياناً فى غزواتهما . وافتخر تَابَطَ شَرًّا فى

NOELDEKE, Beiträge zur Kenntniss der Poesie der alten Araber, p. 52-86; F. (١)

DELITZSCH, Jüdisch-arabische Poesien aus vormuhammedanischer Zeit, Leipzig 1874.

JACOB, Altarabisches Beduinenleben, 2 éd., Berlin 1897, p. 225. (٢) انظر :

(٣) محضير: كثير العدو . ومغوار: مقاتل كثير الغارات .

(٤) جمع المستشرق الإنكليزي LYALL أربعة أشعار لتَابَطَ شَرًّا فى المجلة Journal of the Royal Asiatic Society

قصيدة بلقائه الغولة ومخاطبتها واتخاذها جارة في ليلة مظلمة^(١) :

وأدْهَمَ قَدْ جُبْتُ جِلْبَابَهُ كما اجْتَابَتِ الكاعْبُ الخَيْعَلَا
إلى أَنْ حَدَا الصُّبْحُ أَثْنَاءَهُ ومَزَّقَ جِلْبَابَهُ الْإِيْلَا
على شَيْمٍ نَارٍ تَنَوَّرَتْهَا فَبِتُّ لَهَا مُدْبِرًا مُقْبِلَا
فَأَصْبَحْتُ وَالْغُولُ لِي جَارَةٌ فَيَا جَارَتَا أَنْتِ مَا أَهْوَلَا
وطالبتُهَا بَضْعَهَا فَالتَوْتُ بوجهٍ تَهَوَّلَ فَاسْتَعْوَلَا

وما أحسن وصف حال حياته في قصيدة مدح بها عمه شمس بن مالك^(٢) :
(من بحر الطويل)

قليلُ التشكِّي للمُهمِّ يُصِيبُهُ كثيرُ الهوى شتى النوى والمسالِكِ
يظلُّ بمَوَمةٍ وَيُمْسِي بغيرِهَا جَحِيشًا وَيَعْرُورِي ظُهورَ المَهَالِكِ
ويسبقُ وفَدَّ الرِّيحَ مِنْ حَيْثُ يَنْتَحِي بِمُنْخَرِقٍ مِنْ شِدَّةِ المُتْدَارِكِ
إذا حَاصَ عَيْنِيهِ كَرَى النُّومِ لَمْ يَزَلْ لَهُ كَالِيٍّ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانٍ فَاتِكِ
وَيَجْعَلُ عَيْنِيهِ رَبِيبَةً قَلْبِهِ إِلَى سَلَّةٍ مِنْ حَدِّ أَحْلَقَ صَائِكِ
إذا هَزَّهَ فِي عَظْمٍ قَرْنٍ تَهَلَّلَتْ نَوَاجِدُ أَفْوَاهِ الْمَنَايا الضَّوَاحِكِ
يرى الْوَحْشَةَ الْأُنْسَ الْأُنَيْسَ وَيَهْتَدِي بِحَيْثُ أَهْتَدَتْ أُمُّ النُّجُومِ الشَّوَابِكِ

أما الشَّنْفَرَى الْأَزْدِيُّ فصاحب اللامية المشهورة التي يفخر فيها بانفراده من قومه
وَوَحْشَةَ عَيْشِهِ فِي الْبَرَارِي كَأَنَّهُ لَمْ يَعَاشِرْ إِلَّا السَّبَاعَ . وهي قصيدة غاية الجمال تنطق
بلسان حال الشاعر وإن كان بعض النحويين يزعمون أنها من مصنوعات حماد

(١) الأبيات مروية في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٧٦ من طبعة ليدن ١٩٠٤ والباب
التاسع والأربعين من مروج الذهب للمسعودي (ج ٣ ص ٣١٠ - ٣١٤ من طبعة باريس) وإعجاز
القرآن للباقلاني ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣١٥ . خيل : قيص بدون اكماء — تنوره : تطلع
نحوه ببصره .

(٢) الأبيات مروية في حماسة أبي تمام ص ٤١ - ٤٤ من طبعة بن أوج ١ ص ٤٦ - ٤٩
من طبعة بولاق . — اعروري الفرس : ركه عرياً ليس تحته شيء — منخرق : سريع — فاتك :
فاجئ . — وقيل إن أم النجوم الشمس وقيل إنها الحجرة .

الراوية المتوفى سنة ١٥٥ . ومما يدل أيضاً توخُّش عيشته شعر آخر له قال فيه ^(١) :
(من الطويل)

[و] لَا تَقْبُرُونِي إِنْ قَبِرَى مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرٍ
إِذَا أَحْتَمَلُوا رَأْسِي فِي الرَّأْسِ أَكْثَرَى وَغَوْدَرَ عِنْدَ الْمُلتَقَى ثَمَّ سَائِرِي
هُنَالِكَ لَا أَرْجُو حَيَاةً تَسُرُّنِي سَجِيسَ اللَّيَالِي مُبْسَلًا بِالْجَرَائِرِ
ثَمَّ مِنَ الصَّنْفِ الْأَوَّلِ مَعَ بَعْضِهِمْ عَنْ هَمْجِيَّةٍ تَأْبِطُ شَرًّا وَالشَّنْفَرَى أَصْحَابُ سِتِّ
مِنَ الْمُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ الشَّهِيرَةِ أَعْنَى أَمْرَ الْقَيْسِ وَهُوَ أَقْدَمُهُمُ وَالْحَارِثُ بْنُ حِلْزَةَ وَعَمْرُو
ابْنُ كَثُومٍ وَعَنْتَرَةُ الْعَبْسِيُّ وَزُهَيْرٌ وَلَبِيدٌ وَهُوَ أَحْدَثُهُمْ . أَمَّا طَرَفَةٌ مِنْ شُعْرَاءِ الصَّنْفِ
الثَّانِي الْمَجَالِسِينَ لِلْمُلُوكِ . وَامْرُؤُ الْقَيْسِ بْنُ حُجْرٍ مِنْ آلِ مُلُوكِ كَنْدَةَ عَاشَ فِي النِّصْفِ
الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ السَّادِسِ لِلْمَسِيحِ وَيُقَالُ إِنَّهُ أَمِيرُ الشُّعْرَاءِ أَدْرَكَ فِيهِ مِنَ الْإِتْقَانِ
فَقَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ ^(٢) الْمَتُوفَى سَنَةَ ٢٧٠ أَوْ ٢٧٦ إِنَّهُ « سَبَقَ إِلَى أَشْيَاءَ ابْتَدَعَهَا وَاسْتَحْسَنَهَا
الْعَرَبُ وَاتَّبَعَتْهُ عَلَيْهَا الشُّعْرَاءُ مِنْ اسْتِيقَافِهِ صَحْبَهُ فِي الدِّيَارِ وَرَقَّةَ النَّسِيبِ وَقُرْبَ
الْمَأْخِذِ » . وَأَجُودَ أَيْضاً الْوَصْفِ وَالتَّشَابِيهِ فَكَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالشُّعْرِ فِي
الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ يَفْضَلُونَهُ عَلَى سَائِرِ الشُّعْرَاءِ وَاخْتَصَرَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ ^(٣)
حُكْمَهُمْ فِيهِ هَكَذَا ^(٤) : « وَأَنْتَ لَا تَشْكُ فِي جَوْدَةِ شُعْرِ أَمْرِ الْقَيْسِ وَلَا تَرْتَابُ
فِي بَرَاعَتِهِ وَلَا تَتَوَقَّفُ فِي فَصَاحَتِهِ وَتَعْلَمُ أَنَّ قَدْ أَبْدَعَ فِي طَرُقِ الشُّعْرِ أُمُوراً اتَّبَعَ فِيهَا
مِنْ ذِكْرِ الدِّيَارِ وَالْوُقُوفِ عَلَيْهَا إِلَى مَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنَ الْبَدِيعِ الَّذِي أَبْدَعَهُ وَالتَّشْبِيهِ
الَّذِي أَحْدَثَهُ وَالتَّمْيِيزِ الَّذِي يَوْجَدُ فِي شِعْرِهِ وَالتَّصَرُّفِ الْكَثِيرِ الَّذِي تُصَادِفُهُ فِي قَوْلِهِ

(١) الأبيات مروية في حماسة أبي تمام ص ٢٤٢ — ٢٤٣ من طبعة بن (أوج) ص ٢٤ —
٢٥ من طبعة بولاق) وفي NOELDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*, Berlin 1890, p. 30 — [في تأبط شرًّا والشنفري راجع أيضاً مقالني المستشرق الإيطالي Francesco GABRIELI المسماتين *Ta'abbata Sharr an Shanfarà e Khalaf al-Ahmar (Rendiconti dell' Accademia dei Lincei, classe scienze morali, serie VIII, vol. I, Roma 1946, p. 40—69); Sul l'Autenticità della « Lâmiyyat al-'Arab » (Rivista degli Studi Orientali) XV, Roma 1934, 35 p. 358-361.*

(٢) كتاب الشعر والشعراء ص ٤٠ من طبعة ليدن ١٩٠٤ .

(٣) توفى الباقلاني سنة ٤٠٣ هـ ١٠١٣ م .

(٤) إعجاز القرآن ص ٧٤ من طبعة مصر ١٣١٥

والوجود التي ينقسم إليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومثانة ورقة وأسباب
تُحَمَّد وأُمُورٍ تَوَثَّرَ وتَمَدَّح . وقد ترى الأدباء يوازنون بشعره فلاناً وفلاناً إلخ .
إلا أن القاضي الباقلاني يقول بوجود ما يُعَاب أيضاً في شعر امرئ القيس فيوضح
ما يزعمه عواراً في معلقته بالتفصيل المفرط^(١) وربما عدل عن الإنصاف في أقواله لأن
غرض كتابه إنما هو البرهان على عدم إعجاز الشعر وإن كان صاحبه من فحول الشعراء
وعلى أن^(٢) « طريقة الشعر شريعة مورودة ومنزلة مشهودة يأخذ منها أصحابها على
مقادير أسبابها ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم وأنت تجد للمتقدم معنى قد
طمسه المتأخر بما أبرَّ عليه فيه وتجد للمتأخر معنى قد أغفله المتقدم وتجد معنى قد توافدا
عليه وتوافيا إليه فهما فيه شريكا عنان وكأنهما فيه رضيعا لبان » . أما معلقة
امرئ القيس وسائر قصائد ديوانه فأشهر من أن يجب الإطناب في الكلام عليها في
هذه النبذة الإجمالية الوجيزة .

ثم الذي يتبع امرأ القيس من أصحاب المعلقات على الترتيب التاريخي هو الحارث
ابن حِلْزَة الشُّكْرَى البَكْرَى الذي ألف قصيدته المشهورة في أيام عمرو بن هند ملك
الحيرة (٥٥٤ — ٥٦٨ أو ٥٦٩ م) ولا ارتجالاً بين يديه كما يقولونه خطأ أكثر
كتبة العرب . وغرضها سياسى أعنى حث بني بكر بن وائل وبني تغلب بن وائل على
ترك التشاكى الباطل لئلا تعود تضرهم جذوة العداوة والحرب بينهما ولا يُنْقَضَ الصُّلْحُ
المنعقد عند المنذر بن ماء السماء^(٣) ملك الحيرة (نحو ٥٠٦ — ٥٥٤ م) بعد الحرب
الطويلة الشهيرة بحرب البسوس . وبعد الحارث بمدة غير مديدة ألف عمرو بن كلثوم

(١) إعجاز القرآن ص ٧٥ — ٨٥ من طبعة مصر ١٣١٥ م .

(٢) إعجاز القرآن ص ٨٦ .

(٣) ولا عند عمرو بن المنذر بن ماء السماء كما يقال أيضاً فليراجع في هذه المسألة ما كتب

المستشرق NOELDEKE في كتابه . (Fünf Mo'allaqat, I, Wien 1899, p. 54)

التغلب^(١) معلقته التي تشير أيضاً إلى ما كان قديماً بين حيّ بكر وتغلب من العداوة .
ويُنذِر فيها الشاعر بل يرعب عمرو بن هند الملك ليله إلى بكر ويوعِد البكرين ووثوب
بنى تغلب عليهم إن لم ينقطعوا عن التحريض . وهي قصيدة غائية في الفخر لا تكاد
تفوق فيه عليها غيرها فلا عجب أن بني تغلب لم تزل تعظمها جداً يرويها صغارها
وكبارها في القرن التالي لظهور الإسلام حتى قال بعض الشعراء يهجوهم^(٢) :

أَلْهَى بَنِي تَغْلِبٍ عَنْ كُلِّ مَكْرَمَةٍ قَصِيدَةً قَالَهَا عَمْرُو بْنُ كَلْثُومٍ
يُفَاخِرُونَ بِهَا مُذْ كَانَ أَوَّلُهُمْ يَا لِلرَّجَالِ لِفَخْرٍ غَيْرِ مَسْئُومٍ
ومما تنفرد به معلقتنا الحارث وعمرو عن أغلب سائر قصائد الجاهلية أن مُعْظَمَهَا
يدور على الموضوع الأساسي فلا تبقى فيهما للغزل والوصف وسائر لواحق القصائد
إلا أبيات قليلة جداً . ثم تتشابهان أيضاً خلافاً للمعلقات الأخرى لأن صاحبيهما
كأنهما يقولان الشعر باسم قومهما جميعاً وهما يخاطبان ملكاً ذا شأن عظيم ولا يدخلان
في أمورهما أو أهوائهما الشخصية ما عدا النسب الذي تبتدى القصيدتان به .

وفي السنين العشرين الأخيرة من القرن السادس للمسيح قال عنتر بن شدّاد
العَبْسِيُّ معلقته في الفخر والحماسة وصف فيها فضله وأفعاله المجيدة في الحرب وبسالته
في القتال وقدر ما أهان هائل الأخطار والموت . كيف لا وهو من أشجع العرب
وأعلامهم همّة وأعزهم نفساً ضرب به الأمثال واتخذ كأنموذج الفتي الكامل المروّة
والشجاعة فلم يزل صيته يطير في كل الأنحاء لما أُلِف فيه من القصص والروايات
العجيبة المتداولة بين العوام حتى الآن المعروفة بسيرة عنتر . وديوان أشعاره أيضاً
كلّه فخر وحماسة مع العَرَض فيه عن توحّش الشنفرى وعن كل تنافر الألفاظ
وخشونة المعاني .

(١) [طبع ديوانا الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم في مجلة المشرق ص ٥٩١ — ٦١١ من
السنة العشرين ١٩٢٢] .

(٢) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٢٠ من طبعة ليدن والبيتان مرويان أيضاً في
الأغاني ج ٩ ص ١٨٣ من طبعة بولاق وكتاب الاشتقاق لابن دريد ص ٢٠٤ من طبعة غوتنجن
سنة ١٨٥٤ .

ونحو سنة ستائة للمسيح أى اثنتين وعشرين قبل الهجرة أنشد زهير بن أبى سلمى المزنّى معلقته يمدح فيها هَرَمَ بن سنان والحارث بن عوف من سَرَوَاتِ العرب اللذين بتحمّلهما أعباء الدّئة إزالا للحرب^(١) وأتمّ الصلح بين قبيلتي عبس وذبيان ويحثّ الناس على الخير والمحبة . وهذه المعلقة تختلف عن المعلقات السابق ذكرها لما تحويه من عبارات الحلم والورع ومن النصائح والحكم تجنّب زهير فيها وفي سائر أشعاره عن الوحشية والفخر . فأحسن ما قيل فيه إنه لم يمدح أحداً إلا بما فيه . قال أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٣٠ في كتاب خاصّ الخاص^(٢) : « إنه أجمع الشعراء للكثير من المعاني في القليل من الألفاظ وأبياته التي في آخر قصيدته التي أولها * أَمِنْ أَوْفَى دِمْنَةٍ لَمْ تَكَلَّمْ * تُشْبِهُ كَلَامَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهي غُرّة حكم العرب ونهاية في الحُسن والجودة تجري مجرى الأمثال الرائعة الرائقة وهي^(٣) :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْتَغِلْ بِفَضْلِهِ	على قومه يُسْتَعْنَ عنه وَيُذَمَّ
وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُوًّا صَدِيقَهُ	وَمَنْ لَا يَكْرِمُ نَفْسَهُ لَا يُكْرَمُ
وَمَنْ لَا يَذُدُّ عَنْ حَوْضِهِ بَسْلَاحَهُ	يُهْدَمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يَظْلَمُ
وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ	لَوْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ
وَمَنْ لَا يُصَانَعُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ	يُضْرَسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسَمٍ »

فترون من كل ما تقدّم كم فرق بين أكثر أشعار زهير وبين أكثر أشعار السابقين له كأن زهيراً أحسن بتقرّب عهد جديد أعنى عهد الإسلام الذي بدّل فيه التوحّش والجهل القديم بتهديب الأخلاق والحلم . — وممن اتبع من هذه الجهة طريقة زهير ونظم في شعره درر المواعظ والحكم والتأمل لبيد بن ربيعة العامريّ

(١) يعني الحرب المعروفة بحرب داحس والغبراء .

(٢) كتاب خاصّ الخاص ص ٧٥ من طبعة مصر ١٣٢٦ وانظر أيضاً كتابه الإعجاز والإيجاز

ص ٣٧ من القسطنطينية سنة ١٣٠١ .

(٣) هكذا روى أبو منصور الثعالبي الأبيات في كتابه المذكور فليراجع معلقه زهير .

الذى أدرك الإسلام إلا أنه لم يقل في عهده إلا بيتاً واحداً اختلفت الرواة فيه .
ومات على القول المرجح سنة $\frac{٤١}{٦٦١-٦٦٣}$ وهو كبير السن وألف معلقته بين سنة ٦١٠
و٦٢٥ م تقريباً . ومن طالعتها وجد فيها الفخر بيد أن هذا الافتخار ليس بالشجاعة
والأفعال الحربية مثل ما ورد في معلقة عنتره بل إنما هو بالمكرمات ومكارم الأخلاق
ومن المشهور ما في ديوانه من العبارات الدينية بل الشبيهة بالعقائد الإسلامية مثل ^(١)
(من بحر الرمل) .

إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفَلُ وَيَا ذَنْ اللَّهَ رَيْئِي وَعَجَلُ
أَحْمَدُ اللَّهَ فَلَا نَدَّ لَهُ بِيَدِيهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلُ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ أَهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلُ

ولكن ليس كل ما يُنسب إليه في ديوانه من هذا الباب صحيحاً بل لا اختلاف
في بعض الأشعار أنها مصنوعة .

إن أصحاب المعلقات الست (أى ما عدا معلقة طرفه) أشعر الشعراء من الصنف
الأول مع أن شعراء آخرين نبغوا في عهدهم في قبائل العرب فوصلت إلينا جملة من
مآثرهم . منهم عروة بن الورد وهو عبسى مثل عنتره ومات قبيل الإسلام . واشتهر
مثل عنتره بالشجاعة والفضل ومن أحسن شعره أبيات وصف فيها فضيلة الفقير الحر
الباسل وذم الذى يُستأجر شغلُهُ ^(٢) :

لَحَى اللَّهُ صُغُلُوكَا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ مُصَافِي الْمَشَاشِ أَلْفَا كُلَّ حَجَزَرِ
يَعُدُّ الْغَنَى مِنْ دَهْرِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ أَصَابَ قَرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مُكَيِّسَرِ

(١) ديوان ليلى المطبوع بليدين سنة ١٨٩١ عدد ٣٩ بيت ١ - ٣ .
(٢) ديوان عروة بن الورد المطبوع بغوتجن سنة ١٨٦٣ عدد ٣ بيت ١٣ - ٢١ . والأبيات
مروية أيضاً في الأصمعيات عدد ٣١ (ص ٢٩ - ٣٠ من طبعة برلين سنة ١٩٠٢) وحامسة أبى
تمام ص ٢٠٨ - ٢٠٩ من طبعة بن (أوج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠ من طبعة بولاق) وخزانة
الأدب ج ٤ ص ١٩٤ - ١٩٦ من طبعة بولاق ١٢٩٩ . ومما يدل على كراهة العرب
للعمل اليدوى بيت جرير في ديوانه ج ١ ص ١١٧ سطر ١٣ من طبعة مصر سنة ١٣١٣ [ج ١
ص ٢٦٢ سطر ٨ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ طَاوِيًا يَحِبُّ الْحَصَى عَنْ جَنْبِهِ الْمُتَعَفِّرِ
 قَلِيلَ التَّمَّاسِ الزَّادِ إِلَّا لِنَفْسِهِ إِذَا هُوَ أَمْسَى كَالْعَرِيشِ الْمُجَوَّرِ
 يُعِينُ نِسَاءَ الْحَيِّ مَا يَسْتَعْنَهُ فَيُمْسِي طَلِيحًا كَالْبَعِيرِ الْمُحَسَّرِ
 وَلَكِنَّ صُلُوكًا صَحِيفَةً وَجْهَهُ كَضَوْءِ شَهَابِ الْقَابِسِ الْمُتَنَوَّرِ
 مُطْلًا عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ الْمَنِيحِ الْمُشَبَّرِ
 فَإِنْ بَعُدُوا لَا يَأْتُمُونِ اقْتِرَابَهُ تَشَوُّفَ أَهْلِ الْغَائِبِ الْمُتَنْظَرِ
 فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَ الْمَنِيَّةَ يَلْقَاهَا حَمِيدًا وَإِنْ يَسْتَعْنِ يَوْمًا فَأَجْدِرِ

ومن الشعراء المجيدين حاتم بن عبد الله الطائي المصروب المثل بجوده الوافر قليل إن بنته وصفته بين يدي النبي على هذه الصفة: «كان أبي يفك العاني ويخفي الدمار ويقري الضيف ويشبع الجائع ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة قط»^(١). وقال ابن الأعرابي إنه «كان جواداً يشبه شعره جوده ويصدق قوله فعله».... إذا غنم أنهب وإذا سئل وهب..... وإذا أسر أطلق»^(٢). عاش بعد منتصف القرن السادس للمسيح وأدرك أوائل السابع وله ديوان مشهور إلا أن في صحة بعض أشعاره نظراً فظاهر أن أبياتاً مجهولاً اسمُ مُنشدها إنما عزيت إلى حاتم لما فيها من مدح الجود والكرم.

ومن كان بعد منتصف القرن السادس الأفوه الأودي سيد قومه وقائدهم في حروبهم عدّه العرب من حكمائها لما ورد من الحكم في أبياته منها^(٣) (من بحر البسيط):
 لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهّاهم سادوا
 والبيت لا يبتنى إلا له عمُد ولا عماد إذا لم تُرْس أوتاد

(١) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٩٧ من طبعة بولاق.

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٩٧ — ٩٨ من طبعة بولاق.

(٣) الأبيات مروية في العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٥ من طبعة مصر ١٣٠٢. وروى القالي في أماليه القصيدة كلها (راجع ج ٢ ص ٢٢٨ — ٢٢٩ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أوج ٢ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ من طبعة مصر ١٣٤٤]). [أما ديوان الأفوه فهو مطبوع في كتاب الطرائف الأدبية بمصر سنة ١٩٣٧].

وَأَنْ تَجْمَعَ أَوْتَادٌ وَأَعْمِدَةٌ يَوْمًا فَقَدْ بَلَّغُوا الْأَمْرَ الَّذِي كَادُوا
وَمَنْ كَانَ وَفَاتُهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِقَلِيلٍ ذُو الْإِصْبَعِ الْعَدَوَانِيَّ صَاحِبَ الْغَارَاتِ
الْكَثِيرَةِ وَالْوَقَائِعِ الْمَشْهُورَةِ وَالْحِكْمِ وَالْوَصَايَا . وَمِنْهُمْ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلِ التَّمِيمِيِّ مِنْ
فَرَسَانَ الْعَرَبِ الَّذِي يَرَوِي عَنْهُ دِيْوَانُ صَغِيرٍ^(١) أَكْثَرَهُ فِي الْحِمَاسَةِ وَالْفَخْرِ مَعَ شَيْءٍ
جَمِيلٍ مِنَ الْوَصْفِ وَالتَّشْبِيهِ .

وَمَنْ أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ مَعَ وَقُوعِ جَمِيعِ شَعْرِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ الْجَشْمِيُّ
أَحَدُ الشُّجْعَانِ الْمَشْهُورِينَ وَذَوِي الرَّأْيِ الَّذِي شَهِدَ يَوْمَ حُنَيْنٍ سَنَةَ ٦٣٩ - ٦٤٠ هـ فَقُتِلَ
فِيهِ (وَهُوَ كَبِيرُ السِّنِّ جَدًّا) فَيَمِنْ قُتِلَ مِنَ الْوَثْنِيِّينَ . وَمِنْهُمْ أَيْضًا شُعْرَاءُ غَيْرِ
الْمَذْكُورِينَ لَا فَائِدَةَ فِي سَرْدِ أَسْمَائِهِمْ فِي هَذِهِ النُّبْذَةِ .

وَقَبْلَ أَنْ نَخْتِمَ الْكَلَامَ عَلَى هَذَا الصَّنْفِ الْأَوَّلِ مِنْ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا بَدَّ مِنَ
الْإِشَارَةِ إِلَى جَرَى النِّسَاءِ أَيْضًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فِي مِيدَانِ الشَّعْرِ لَا سِيَّمَا فِي الْمَرَاثِي
فَإِنَّهُنَّ اسْتَنْبَطْنَ « فِي هَذَا الْبَابِ أَسَالِيبَ بَدِيعَةٍ لَمْ يَتَنَبَّهْ لَهَا الْفَحْوَلُ لِمَا طُبِعْنَ عَلَيْهِ
مِنْ رِقَّةِ الطَّبَاعِ وَشِدَّةِ الْجَزَعِ فِي الْمَصَائِبِ وَصَدَقَ الْحَسُّ فَيُبْرِزْنَ عَوَاطِفَهُنَّ بِشَعْرِ
سَلَسٍ وَكَلَامٍ لَيِّنٍ قَرِيبٍ الْمَأْخَذِ يَكَادُ يَسِيلُ رِقَّةً وَانْسِجَامًا^(٢) » . فَتَعْلَمُونَ أَنَّ الْأَبَّ
لَوْيسَ شَيْخُو أَفْرَدَ لَهُنَّ كِتَابًا جَمَعَ فِيهِ كُلَّ مَا تَبَسَّرَ لَهُ مِنْ مَرَاثِي إِحْدَى وَسِتِّينَ
شَاعِرَةً مِنْ عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ مَا عَدَا دِيْوَانَ الْخَنْسَاءِ الَّذِي نَشَرَهُ عَلَى حِدَةٍ^(٣) . أَمَّا أَشْعَارُ
الْخَنْسَاءِ فِي رِثَاءِ أَخَوَيْهَا صَخْرٍ وَمَعَاوِيَةَ فَشَهِيرَةٌ قَالَتْهَا جَمِيعُهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ مَعَ أَنَّهَا
أَدْرَكَتْ خِلَافَةَ عَمْرِ^(٤) .

(١) — [عَنِ بَطْنِهِ الْمُسْتَشْرِقِ HUART فِي الْمَجَلَّةِ الْفَرَنْسِيَّةِ *Journal Asiatique*, série X, vol. 15, 1910, p. 71-105] وَالْأَبُّ لَوْيسُ شَيْخُو فِي بَيْرُوتِ سَنَةِ ١٩٢١ هـ .

(٢) رِيَاضُ الْأَدَبِ فِي مَرَاثِي شَوَاعِرِ الْعَرَبِ لِلْأَبِّ لَوْيسِ شَيْخُو ص ١ مِنْ طَبْعَةِ بَيْرُوتِ
سَنَةِ ١٨٩٧ هـ .

(٣) بَيْرُوتُ سَنَةِ ١٨٨٦ هـ وَطُبِعَ أَيْضًا دِيْوَانُ الْخَنْسَاءِ فِي بَيْرُوتِ سَنَةِ ١٨٨٨ وَ ١٨٨٩ هـ
(وَبَلِيهِ التَّرْجُمَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ) وَفِي مِصْرَ سَنَةِ ١٨٨٨ وَ ١٣٢٦ [وَ ١٣٤٨] .

(٤) وَفِي الْخَنْسَاءِ رَاجِعِ G. GABRIELI, *I tempi, la vita e il canzoniere della poetessa araba al-Khansa* Firenze 1899 (2 ed., Roma 1944); N. RHODOKANAKIS, *al-Khansa und ihre Trauerlieder*, Wien 1904.

٢ — فلننتقل إلى الصنف الثاني من شعراء الجاهلية أعنى إلى الشعراء الوثنيين الذين لازموا أبواب ملوك الحيرة وغسان ومدحهم وامتنعوا عن خشونة أهل البادية لتقربهم من أحوال سكان المدن والرفاهية والترّف . فمدحهم للملوك ليس كمَدح شعراء الصنف الأوّل لسادة قومهم لما أدخلوا فيه من إفراط المَلَقِ وافتخارهم ليس بالحماسة إلّا قليلاً ووصفهم يجرى أحياناً في مجالٍ مختلف عن مجال وصف أهل البرارى والغزل وذكر الظمر في قصائدهم يتبعان مذهب أهل المدن . وربما أخذوا عن نصارى الحيرة وغسان معانى وعبارات دينية جديدة لم يسبق إليها أحد شعراء الصنف الأوّل .

لكان زهير بن جناب الكلبي من أقدم شعراء الصنف الثاني لو صحت قطعة شعر منسوبة إليه وردت في كتاب الأغاني لأبي الفرج على الأصفهانى^(١) وفي كتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني^(٢) المتوفى فيما بين سنتي ٢٥٠ و ٢٥٥ وفي عدة كتب أخرى :

لقد مُعِمَّتْ حَتَّى لَا أُبَالَى أَحْتَفِي فِي صَبَاحِي أَوْ مَسَائِي
وَحَقٌّ لِمَنْ أَتَتْ مَائَتَانِ عَامًا عَلَيْهِ أَنْ يَمَلَّ مِنَ النَّوَاءِ
شَهِدْتُ الْمُوقِدِينَ عَلَى خَزَازَى وَبِالسَّلَانِ جَمْعًا ذَا زُهَاءِ
وَنَادَمْتُ الْمُلُوكَ مِنْ آلِ عَمْرِو وَبَعْدَهُمْ بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ

والمراد بآل عمرو على المحتمل ملوك كندة أى بنى عمرو بن حُجْر والمرادُ ببني ماء السماء المنذر بن ماء السماء الذى تولى مُلْك الحيرة من سنة ٥٠٥ أو ٥٠٦ م إلى شهر يونيو سنة ٥٠٤ م . ولكن مع قطع النظر عما في صحة تلك الأبيات من الشك لا نجد فيما نُقل إلينا من أشعاره وأخباره شيئاً غير هذه الأبيات يدل على ملازمته ملوك الحيرة

(١) الأغاني ج ٢١ (المطبوع بليدن سنة ١٣٠٦ هـ ١٨٨٨ م) ص ١٠٠ .

(٢) كتاب المعمرين ص ٢٦ — ٢٧ من طبعة ليدن ١٨٩٩ . أما خزازى والسّلان فهما من أيام العرب قبل حرب البسوس بقليل أى في أواخر القرن الخامس للميلاد .

بل إنَّ شعره شعرٌ بدوىُّ محضٌ كما يصلحُ لمن قيل أنه « كان سيِّدَ بنى كَلْبٍ وفائدهم في حروبهم وكان شجاعاً مظفراً ميمون النقيبة في غزواته »^(١).

فأوَّل من نتحقَّق ملازمته ملوكُ الحيرة من الشعراءِ الوثنيِّين عبيد بن الأبرص الأسديُّ مجالس المنذر بن ماء السماء السابق ذكره . وشعره سلس اللفظ ووصفه مصيب وهو يفتخر أحياناً على منوال أهل البادية فلمَّا قُتل والد امرئ القيس الشاعر بيد بنى أسد ورثاه امرؤ القيس وقال إنه يأخذ ثأر أبيه بقتل جَمَّة من الأسديِّين أنشد عبيد في قصيدة طويلة^(٢) :

يا ذا المُخَوِّفِنا بقتل أبيه إذلالاً وَحِينَا
أَزَعَمْتَ أَنْكَ قَدْ قَتَلْتَ سَرَاتِنَا كَذِباً وَمَيْنَا
هَلَّا عَلَى حُجْرٍ بَنٍ أُمَّ قَطَامٍ تَبْكِي لَا عَلَيْنَا
إِنَّا إِذَا عَضَّ الثِّقَا فُ بِرَأْسِ صَعْدَتِنَا لَوَيْنَا
نَحْمِي حَقِيقَتِنَا وَبَعْضُ الْقَوْمِ يَسْقُطُ بَيْنَ يَدَيْنَا
هَلَّا سَأَلْتَ جُمُوعَ كَنَسْدَةٍ يَوْمَ وَلَّوْا أَيْنَ أَيْنَا
أَيَّامَ نَضْرِبُ هَامَهُمْ بِيَوَاتِرٍ حَتَّى أُنْحِنَا

ولكن أكثر ما وصل إلينا من شعره يجرى في الحكمة والاعتبار فمن هذا الباب مُعْظَمُ قصيدته البائيَّة الشهيرة التي عدّها بعضُ اللغويِّين من المعلَّقات . وفيها أيضاً من الوصف ما يدلُّ على معرفة الشاعر بنهر الفرات وترعَّيه القريبة من الحيرة حين قال في الدموع^(٣) :

- (١) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٩٣ — ٩٤ . [وفي صحة شعر زهير بن جناب نظر فليراجع ما قال الأب Lammens في كتابه المسمى [*Le berceau de l'Islam*, Roma 1914, p. 319-321] .
(٢) رويت الأبيات في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤٣ — ١٤٤ من طبعة ليدين ١٩٠٤ والأغاني ج ١٩ ص ٨٥ من طبعة بولاق [وديوان عبيد قصيدة عدد ٧ بيت ١ إلى ٧ من طبعة ليدين ١٩١٣] .
(٣) كتاب شرح القصائد العشر تصنيف أبي زكرياء التبريزي طبعة كلكتة سنة ١٨٩٢ — ١٨٩٣ بيت ٩ و ١٠ من شعر عبيد [وديوان عبيد قصيدة عدد ١ بيت ٩ و ١٠] .

أَوْ فَلَجَ بِيْطُنٍ وَادٍ لِّمَاءٍ مِنْ تَحْتِهِ قَسِيْبٌ
أَوْ جَدُوْلٌ فِي ظِلَالِ نَخْلٍ لِّمَاءٍ مِنْ تَحْتِهِ سُكُوْبٌ

فظاهر أن هذا الوصف لا يوافق أحوال أقاليم جزيرة العرب المتوسطة التي ليس فيها أنهار . وعبيدُ أمر الملك المنذر بن ماء السماء بقتله في حكاية مشهورة يطول ذكرها هنا^(١) .

ومثني جالس عمرو بن هند (٥٥٤ — ٥٦٨ أو ٥٦٩) طرفة بن العبد أحد أصحاب المعلقات السبع وأقلهم عُمرًا لأنه قُتل بأمر الملك وهو ابن ست وعشرين سنة . وهو يفتخر في شعره بشرب الخمر أكثر منه بالشجاعة والحاسة ويعتبر زوال كل أمور الدنيا كما يعتبره لبيد ولكنه لا يستنتج من ذلك الاعتبار وجوب الزهد فإثما يقصد لذات العيش . وفي معلقته أبيات تدل على قربيه من الفرات والبحر (من الطويل)^(٢) .

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوَّةٌ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ
عَدَوِيَّةٍ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنْ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْرُومَهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التَّرْبُ الْمَفَائِلُ بِالْيَدِ
وَفِي نَفْسٍ مَعْلَقَتَهُ عِنْدَ وَصْفِ نَاقَتِهِ قَالَ^(٣) :

وَأَتْلَعُ نَهَاظًا إِذَا صَعِدَتْ بِهِ كَسُكَّانٍ بَوْصَى بِدَجَلَةٍ مُضْعِدِ

ومن حاملي لواء الشعر أيضًا المتلمس خال طرفة وحكايته مع الملك عمرو بن هند أشهر من أن أذكرها . وعاصره أوس بن حجر التميمي الذي قال فيه أبو عمرو بن العلاء^(٤) : « كان أوسٌ فحلَّ مُضَرٌ حَتَّى نَشَأَ النَّابِغَةُ وَزَهَيْرٌ فَأَخْلَاهُ » . وقال

(١) [راجع في عبيد مقالة الأستاذ FRANCESCO GABRIELI المسماة 'Abid Ibn al-Abras La poesia di

(Rendiconti dell'Accademia d'Italia, classe scienze morali, serie VII, vol. I, Roma

1940, p. 240 - 251.)]

(٢) معلقة طرفة بيت ٣ إلى ٥

(٣) معلقة طرفة بيت ٢٨ .

(٤) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٩٩ من الطبعة الليدينية .

أبو ذؤيب: « وكان أوس عاقلاً في شعره كثير الوصف لمكارم الأخلاق وهو من أوصفهم للحمير ولا سيما للقوس وسبق إلى دقيق المعاني وإلى أمثال كثيرة ». وإذا اطلعنا على ما نقل إلينا من شعره وجدناه غير بعيد من أسلوب شعراء الصنف الأول المعاصرين له مع تقربه من الملوك والمدن . ومن الجدير بالذكر أنه ربما استعمل في أبياته عبارات أقرب لدين النصارى منها لمذاهب الوثنيين ثم إن زهير بن أبي سلمى كان راوى شعره .

ولكن الذي فاز في قريضه بالرثبة العليا من شعراء ملوك الحيرة وغسان وكان من أبرز المبرزين في ميدان الشعر هو النابغة الذبيانيّ فقدّمه بعض أهل الأدب والشعر على امرئ القيس^(١) وقالوا إنه أوضح الشعراء القدماء معنى وأبعدهم غاية وأكثرهم فائدة^(٢) . وقيل أيضاً إنه « أحسنهم^(٣) ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلم بيتاً كان شعره كلاماً ليس فيه تكلف ونبغ بعد ما احتك وهلك قبل أن يهتر ». — كان مع المنذر بن ماء السماء (نحو ٥٠٦ — ٥٥٤ م) والمنذر بن المنذر (نحو ٥٧٦ — ٥٨٠ م) وأبي قابوس النعمان بن المنذر (نحو ٥٨٠ — ٦٠٢ م) فلهما وشي به إلى النعمان هرب منه إلى عمرو بن الحارث من ملوك غسان في الشام ومدحه بقصائد مشهورة ذكر فيها شجاعة الغسانيين في الحرب وكثرة من يقتلونهم من الأعداء^(٤) :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
عصائب طير تهتدى بعصائب

(١) [راجع أيضاً كتاب فحولة الشعراء للأصمعي المطبوع في *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, LXV, 1911, p. 492.]

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٢٦ من طبعة بولاق سنة ١٣٠٨ — ١٣١٠

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٠ من طبعة ليدن. — واحتكك : أحكمته التجارب أي جعلته حكيمًا . واهتر : فقد عقله من الكبر والمرض .

(٤) ديوان النابغة الذبياني عدد ١ بيت ١٠ و ١٧ من طبعة لندن ١٨٧٠ (*The Divans of the six Arabic poets*) وعدد ٣ بيت ١٠ و ١٧ من طبعة باريس ١٨٦٩ و ص ٤٣ و ٤٤ من طبعة مصر سنة ١٣٢٨ [وانظر ما قاله في هذه الطبعة الأستاذ نلينو في *Raccolta di scritti editi e inediti*, vol. III, Roma 1941, p. 174-176].

.... فهم يستاقون المنية بينهم بأيديهم يبيض رفاق المضارب
ووصف فيها أيضاً ما كان لهم من الترف والرفقة^(١) :

محلّتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب
رقيق النعال طيب حُجراتهم يُحيون بالريحان يوم السباب
تُحييهم يبيض الولائد بينهم وأكسية الإضريح فوق المشاجب
يصنون أجساداً قديماً نعيمها بخالصة الأزدان خضر المناكب
ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لأرب
حبوت بها غسان إذ كنت لاحقاً بقومي وإذ أعت على مذهب

فترون ما بين هذا المدح وبين مدح شعراء البادية من البون التاسع . — وبعد إقامة سنين عند بني غسان رجع إلى الحيرة وجالس الملك النعمان ثانياً إلى موت الملك سنة ٦٠٢ م ثم عاش في قبيلة ذبيان ومات قبل ظهور الإسلام . ووصف بديع الزمان الهمداني في مقالته الأولى^(٢) شعر النابغة فقال : « ينسب إذا عشق ويثلب إذا حنق ويمدح إذا رغب ويعتذر إذا رهب » . وقال الأصمعي^(٣) : « كفالك من الشعراء أربعة زهير إذا طرب والنابغة إذا رهب والأعشى إذا غضب وعنترة إذا كلب » — أمّا ما يلام النابغة عليه فإنه أوّل فحول الشعراء لم يقل الشعر إلا طمعاً في الكسب . قال ابن رشيّق القيرواني المتوفى سنة ٤٦٣ في كتاب العمدة^(٤) : « كانت العرب لا تتكسّب بالشعر وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهاة أو مكافأة عن يد لا يستطيع على أداء حقّها إلا بالشكر إعظاماً لها ... حتى نشأ النابغة الذبياني فمدح الملوك وقبل

(١) ديوان عدد ١ بيت ٢٤ إلى ٢٩ من طبعة لندن أو عدد ٣ بيت ٢٤ إلى ٢٩ من طبعة باريس ١٨٦٩ أو ص ٤٥ من طبعة مصر ١٣٢٨ .

(٢) ص ٢ من طبعة بيروت ١٨٨٩ .

(٣) جهرة أشعار العرب ص ٢٦ من طبعة بولاق والزهر للسيوطي ج ٢ ص ٢٩٧ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٤) كتاب العمدة ج ١ ص ٤٩ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

الصلة على الشعر وخضع النعمان بن المنذر وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار إليه من ملوك غسان فسقطت منزلته وتكسب مالا جسيما حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيهِ من عطاء الملوك . وتكسب زهير بن أبي سُلمى بالشعر يسيراً مع هَرَم بن سنان . فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلدان .

والأعشى هذا هو ميمون بن قيس من شعراء الصنف الثاني أيضاً المشهور بركة شعره لفظاً وتفننه مجراً نادم ملوك الحيرة وكثر في وصف القيان والخمر كأنه من شعراء عصر العباسيين الأول في زمان هارون الرشيد . وفي أبياته أيضاً أقوال تتقرب من اعتقادات النصارى فجاء في ذلك في كتاب الأغاني^(١) ، ما نصه : « قال لي يحيى بن متى راوية الأعشى وكان نصرانياً عبادياً وكان معمرًا قال كان الأعشى قدرياً وكان ليبد مثبثاً قال ليبد :

من هداه سُبُل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضلَّ

وقال الأعشى :

إِسْتَأْثَرَ اللهُ بالوفاء وبال عدل وولى الملامة الرجل^(٢)

قلت فمن أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال من قبل العباديين نصارى الحيرة كان يأتهم يشتري منهم الخمر فلقتنوه ذلك . — وأدرك الأعشى الإسلام فقصيدته الجميلة التي مدح فيها النبي مشهورة .

ممن يدخل جزئياً في الصنف الثاني من شعراء الجاهلية ملازمته ملوك بني غسان مدة سنين وذلك قبل الهجرة النبوية هو حسان بن ثابت المولود ببئر (المدينة) المتوفى سنة ٥٤ بعد ما طعن في السن . فإن أجمل شعره ما قاله في الجاهلية واصفاً ملاذ عيشته في جلق وغيرها من قرى الشام ومادحا الملوك الغسانيين الذين كان يفد

(١) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٧٩ من طبعة بولاق .

(٢) استأثر به : استبد به وخص به — ولى : جعله والياً عليه .

عليهم لينال منهم الهدايا والجوائز . ففي كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٠ أو ٢٧٦ ما نصّه: ^(١) « قال الأصمعيّ الشعرُ تَكِيدُ بَابُهُ الشَّرُّ فإذا دخل في الخير ضعف . هذا حسّان بن ثابت فحل من فحول الجاهليّة فلمّا جاء الإسلام سقط شعره . وقال مرّة أخرى شعرُ حسّان في الجاهليّة من أجود الشعر فُقطعتُ منه في الإسلام لحال النبيّ صلعم ^(٢) . ومن جيد شعره وأشهره قصيدة أوّلها « أسألت رسم الدار أم لم تسأل ^(٣) » مدح فيها ملوك بني غسّان ووصف لذيذ عيشه في الشام وافتخر بعشيرته من الخزرج . وهي لينة الألفاظ أسهل فهمًا من قصائد شعراء الصنف الأوّل بكثير وفيها من المدح ما يليق بملوك أهل المدر المتمتّعين بأنواع الترف والرفاهية ثم إن إطناب الشاعر في وصف الخمر يبعد عن أسلوب شعراء أهل البادية كما يبعد عنه أيضًا الافتخار بقومه المقصور في بلاغة خطّابهم ووفدّهم على أبواب الملوك . — أمّا أشعار حسّان في عهد الإسلام فهي على نمط غير هذا فسيأتي الكلام عليها فيما بعد إن شاء الله .

٣ — وهذا أوان ذكر الصنف الثالث من الشعر الجاهليّ أعنى شعر النصارى المقيمين في مملكة اللخميّين بالحيرة وما يليها وفي مملكة بني غسّان فيما بين الشام والبادية . — لا يخفى عليكم أنّ الأب لويس شيخو بما له من اليد الطولى في الآداب العربيّة نشر سنة ١٨٩١ م في بيروت القسم الأوّل من كتابه المسمّى بشعراء النصرانيّة

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٧٠ من طبعة ليدن .

(٢) وهذا الحكم الذي أثرت فيه كراهة بعض أهل الدين للشعر يوافق قول أبي منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٣٠ في كتاب خاص الخاص ص ٨٠ من طبعة مصر سنة ١٣٢٦ « من عجائب أمر حسّان أنّه كان رضى الله عنه يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جداً ويغير في نواصي الفحول ويدعى أنّ له شيطاناً يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء في ذلك . . . فلما أدرك الإسلام وتبدل الشيطان الملك تراجع شعره وكاد يرك قوله ليعلم أنّ الشيطان أصلح للشاعر وأليق به وأذهب في طريقة من الملك » . [وراجع كتاب الموشح للبرزباني ص ٦٥ من طبعة مصر ١٣٤٣] .

(٣) ديوان حسّان بن ثابت ص ٥٧ — ٥٨ من طبعة بمبيّ سنة ١٢٨١ أو ص ٧٢ — ٧٣ من طبعة تونس سنة ١٢٨١ أو ص ١٦ — ١٧ من طبعة ليدن ١٩١٠ [أو ص ٣٠٧ — ٣١٣ من طبعة مصر ١٣٤٧] .

وهو عبارة عن مجلد ضخيم جمع فيه من عدّة كتب جملة وافرة من أشعار عهد الجاهليّة زاعماً أنّ أصحابها كانوا يدينون بدين النصارى . ولكنّه بالغ في ظنّه هذا أىّ مبالغة كأنّه زعم نصرانياً كلّ شاعر جاهليّ لم يوصف صريحاً باليهوديّة وورد في شعره شيء ممّا يتقرّب من اعتقاد وحدانيّة الله أو من التأمّلات والاعتبارات الدينيّة فعُدّ من النصارى أمراً القيس والنابعة وطرفة وغيرهم من شعراء الصنف الأوّل والثانى الذين لا شكّ لكلّ مُنصِف في أنّهم من أصحاب الوثنيّة . أمّا المؤكّد المُثبت فإنّما هو أنّ دين النصرانيّة ذاع في القرن السابق للهجرة في شماليّ جزيرة العرب^(١) فاعتنقه بعض القبائل مثل بنى تغلب وقسم غير صغير من بنى تميم فضلاً عن أكثر المقيمين بمملكة بنى غسان وأكثّر سكّان مدينة الحيرة وسمّيت نصارى الحيرة بالعباد^(٢) ولعلّ المقصود عباد الله أو عباد المسيح ونصرايتهم (وهي على مذهب النسطورية) قديمة لأنّنا نعرف أسماء أساقفة الحيرة من سنة ٤٠٠ م تقريباً إلى نحو سنة ٦٠٤ م. — ومن أقدم شعراء النصارى وصل إلينا شيء من أشعارهم أبو دُوَاد الإياديّ قد ولاه المنذر ابن ماء السماء ملك الحيرة (نحو ٥٠٦ — ٥٥٤ م) على خيله « فكان وصافاً للخيل وأكثّر أشعاره في وصفه وله في غير وصفه تصرّف بين مدح وفخر وغير ذلك إلّا أنّ شعره في وصف الفرس أكثر^(٣) . ولانت ألفاظه لقربه من حضارة ريف الفرات وبعد شعره عن أساليب عرب البادية . — وأشهر منه عدّيّ بن زيد العبادي^(٤)

(١) [انظر ما قاله في هذا الموضوع الأستاذ نلينو في ج ٣ ص ١٢١ — ١٦٨ من كتابه *Raccolta di scritti editi e inediti*, Roma 1941] .

(٢) راجع G. ROTHSTEIN, *Die Dynastie der Lahmidien in al-Hira*, Berlin 1899, p. 19-28

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٩٥ من طبعة بولاق — أما أبيات له فهي مروية في حماسة البحترى ص ١٣١ من طبعة ليدن أو ص ٨٧ عدد ٣٩٦ من طبعة بيروت سنة ١٩١٠ (وفي هذه الأبيات يذكر الشاعر السلف من الناس) والأصمعيّات عدد ٢٩ ص ٢٧ — ٢٨ (١٥ بيتاً في الطرد) وعدد ٧٢ ص ٦٨ — ٧٠ (٤٠ بيتاً) من طبعة برلين ١٩٠٢ وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١١٨ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ .

(٤) J. HOROVITZ, *Adi ibn Zaid the poet of al-Hirah* (Islamic Culture, IV, 1930, : راجع)

p. 31-69); F. GABRIELI, *Adi ibn Zaid il poeta di al-Hirah* (Rendiconti Accademia dei Lincei, classe scienze morali, VIII serie, vol. III, 1948, p. 81-96).

من عائلة قديمة بالحيرة تعلم الفارسية وتولّى الأمور العربية بديوان كسرى أبرويز (٥٩٠ — ٦٢٨ م) من ملوك بني ساسان بالمداين فأرسله مرة كسرى إلى ملك الروم بهديّة من طرفه ثم استدعاه النعمان بن المنذر (نحو ٥٨٠ — ٦٠٢ م) من المداين إلى الحيرة وولاه على جميع أمور المملكة إلى أن قتله لما وشت إليه به الحساد . وشعره أقرب إلينا من شعر أهل البادية وأسهل فهمًا فذلك لم يعدّوه علماء اللغة العربية من الفحول « وكان الأصمعيّ وأبو عبيدة يقولان : عدىّ بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم ^(١) يعارضها ولا يجرى معها مجراها » ^(٢) . وعلى قول الأصمعيّ « كانت الرواة لا تروى شعر أبي دؤاد ولا عدىّ بن زيد لخالفتهما مذاهب الشعراء » ^(٣) أو كما قيل « لأنّ ألفاظه ليست بنجدية » ^(٤) . والحق يقال إنّ الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ كثيراً ما روى أبياتاً لعدىّ بن زيد في كتاب المعرب وذلك دليل قاطع على تأثير الحضارة الأرامية والفارسية في كلام عدىّ ومعاني شعره . وهو يخالف أيضاً شعراء نجد في استنكافه من الأعاريض الطويلة واختياره القصيرة ثمّ في أسلوب خمرياته الشبيهة بخمرّيات الأعشى وحسان بن ثابت . ومن المشهور أنّ الخليفين الأمويّين هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥) والوليد بن يزيد (١٢٥ — ١٤٦) كانا يحبّان سماع شعر عدىّ بن زيد في الشراب ^(٥) . ولكن مع حبّه لوصف القيّان والصهباء كعين الديك والصّبوح حمّله دينه مراراً عديدة على اعتبار زوال أمور الدنيا كلّها وذكر ما هو قريب من الزهد في بعض قصائد لطيفة قلّدها غير مرّة المتأخرون

(١) يعني الكواكب السيارة .

(٢) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٨ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٩٧ سطر ١٥ — ١٦ من طبعة بولاق .

(٤) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١٥ من طبعة ليدن .

(٥) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٦٧ وج ٦ ص ١٢٣ من طبعة بولاق .

فقال مثلاً بلسان حال المقابر^(١) : (من بحر الرمل)

مَنْ رَأَا فَلْيُحَدِّثْ نَفْسَهُ أَنَّهُ مَوْفٍ عَلَى قَرْنٍ زَوَالٍ
وصروفُ الدهر لا يَبْقَى لها وَلَمَّا تَأْتَى بِهِ صُمُّ الْجِبَالِ
رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِنْدَنَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالمَاءِ الرَّثَالِ
وأباريقُ عليها فُذُمٌ وَجِيَادُ الْخَيْلِ تَرْدِي فِي الْجِلَالِ
عَمَرُوا دَهْرًا بَعِيشٍ حَسَنٍ أُمْنَى دَهْرِهِمْ غَيْرُ عِجَالٍ
ثُمَّ أَخْخَوْا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ وَكَذَاكَ الدَّهْرُ يُودِي بِالرَّجَالِ
وكذاك الدهر يرمى بالفتى فِي طِلَابِ الْعَيْشِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ

فظاهر ما في هذا الشعر من مشابهة زُهديات بعض الشعراء الإسلاميين لاسيما أبي العتاهية فليس من البعيد أن شعر عدى بن زيد ومن سلك منهجه من القدماء صار أنموذجاً للمتأخرين في وصف فناء الأمور الدنيوية وذكر عواطف الزهد الناشئة عن اعتباره. ثم من الجدير بالذكر أن عدى بن زيد أحب في زهدياته الإشارة إلى الحوادث العظيمة الماضية فكثير إيراد أبياته كأنها شواهد تاريخية في كتب التاريخ مثل كتاب الطبري المشهور. ومن هذا الباب ما قاله نحو سنة ٦٠١ م وهو في الحبس^(٢) : (من بحر الخفيف)

(١) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٣٤ من طبعة بولاق والأبيات مروية أيضاً في كتاب شعراء النصرانية ص ٤٤١ - ٤٤٢ من طبعة بيروت سنة ١٨٩٠. - قرن: طرف. وردى الفرس: رجمت الأرض بحوافرها. وأدى به الموت: ذهب به. وقدم: جمع فدام المصفاة تجعل على فم الأبريق ليصفى به ما فيه من شراب. وأبريق وفدام كلمتان فارسيتان معربتان وأصل الأولى آب ريز وأصل الثانية pandam. راجع S. FRAENKEL, *De vocabulis in antiquis Arabum carminibus et in Corano peregrinis*, Lugduni Batavorum 1880, p. 3.

(٢) الأبيات مروية في كتاب الأغاني ج ٢ ص ٣٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١١ - ١١٢ من طبعة ليدن وشعراء النصرانية ص ٤٥٥ - ٤٥٦ وخماسة البحتری عدد ٣٩٤ ص ١٢٩ - ١٣٠ من طبعة ليدن أو ص ٨٦ - ٨٧ من طبعة بيروت. ضام يضم: ظلمه وقهره. معرضاً: ممتداً أمامه. إمة: رخاء العيش. أما كسرى أنوشروان فكان ملك الفرس بين سنتي ٥٣١ - ٥٧٩ م. أما سابور فهو اسم ثلاثة من ملوك الفرس تولى الأمر أولهم من سنة ٢٤١ إلى سنة ٢٧٢ م. والثاني من ٣٠٩ إلى ٣٧٩ والثالث من ٣٨٣ إلى ٣٨٨. ويروى البحتری في خمسته عدد ٣٩٣ و ٣٩٥ مثل هذه الأبيات وهي أيضاً من أبيات زيد.

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعَيَّرُ بِالدهْرِ أَأَنْتَ الْمَبْرَأُ الْمَوْفُورُ
 أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَثِيقُ مِنَ الْأَيَّامِ بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورٌ
 مَنْ رَأَيْتَ الْمَنُونَ خَلَدْنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ
 أَيْنَ كَسْرَى كَسْرَى الْمُلُوكِ أَنْوَشَرُ وَأَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ
 وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكَرَامُ مُلُوكُ الرُّومِ لَمْ يَنْقَ مِنْهُمْ مَذْكَورُ
 وَأَخُو الْخَضِرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَّ جَلَّةُ تُجْنِي إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ
 شَادَهُ مَرْمَرًا وَجَلَّهَ كَلَسًا فَلَطِيفٌ فِي ذِرَاهُ وَكُورُ
 لَمْ يَهَبْهُ رَبُّ الْمَنُونَ فَبَادَ الْمُلْكُ عَنْهُ فَبَابَهُ مَهْجُورُ
 وَتَذَكَّرَ رَبَّ الْخَوَرَنْقِ إِذْ شَرَّفَ يَوْمًا وَلِلْهَدَى تَفْكِيرُ
 سَرَّهُ مَالُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْلِكُ وَالْبَحْرُ مُعْرِضًا وَالسَّدِيرُ
 فَأَرْعَوَى قَلْبَهُ فَقَالَ وَمَا غَبَطَةُ حَيٍّ إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ
 ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْإِلَاقَةِ وَارْتَهَمُ هُنَاكَ الْقُبُورُ
 ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَفَّ فَأَلَوَتْ بِهِ الصَّبَا وَالْدَبُورُ

وخلاصة القول أنَّ شعر العباديين أصبح ذا تأثير لا ينكر في المعاصرين المجاورين
 لهم من الوثنيين مثل الأعشى وفي بعض المتأخرين الإسلاميين لاسيما في مجال
 الزهديات والخرجات .

٤ — يبقى على أن أتكلّم بالإجمال في الصنف الرابع من شعراء الجاهلية أي
 في شعراء أهل المدّر الذين لا يدخلون في الصنف الثاني والثالث فأقصر قولي على اثنين
 منهم : قيس بن الخطيم وأمّية بن أبي الصلت .

وُلد قيس بن الخطيم الأوسى بالمدينة بعد منتصف القرن السادس للمسيح فقتل
 أبوه وهو صغير السن جدًّا في حروب جرت بين الأوس والخزرج فلما شبّ قيس
 وعرف أخبار قومه وأبيه أراد أخذ ثأر قتل والده ولم يزل يتربّص بذلك في المواسم

حَتَّى ظَفِرَ بِقَاتِلِ أَبِيهِ وَقَاتِلَ جَدَّهُ فَقَتَلَهُمَا . فَهِيَ فِي ذَلِكَ قَصِيدَةٌ يَقُولُونَ أَنَّهَا مِنْ نَسَجِ
أَهْلِ الْبَادِيَةِ^(١) : (مِنْ بَجْرِ الطَّوِيلِ)

طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةً ثَائِرَةً
مَلَكَتْ بِهَا كَفَى فَأَنْهَرْتُ فَتَقَهَّأَ
يَهُونَ عَلَى أَنْ تَرُدَّ جِرَاحُهَا
كُنْتُ أُمْرًا لَا أَسْمَعُ الدَّهْرَ سُبَّةً
فَاتَنِي فِي الْحَرْبِ الصَّرُوسُ مَوْكَلٌ
مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا تُتْلَفَ حَاجَةٌ
ثَارَتْ عَدِيًّا وَالْخَطِيمَ فَلَمْ أُضِغْ
لَهَا نَفَذٌ لَوْلَا الشَّعَاعُ أَضَاءَهَا
يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا
غُيُونَ الْأَوَاسِي إِذْ حَمِدْتُ بَلَاءَهَا
أُسَبِّ بِهَا إِلَّا كَشَفْتُ غِطَاءَهَا
بِاقْدَامِ نَفْسِي مَا أُرِيدُ بَقَاءَهَا
لِنَفْسِي إِلَّا قَدْ قَضَيْتُ قِضَاءَهَا
وَلَايَةَ أَشْيَاحٍ جُعِلَتْ إِزَاءَهَا

وَلَكِنَّهُ مَدَنِيٌّ لَا بَدْوِيٌّ فِي نَوْعِ التَّغَزُّلِ إِذَا قَالَ الْقَصَائِدَ الْمَشْهُورَةَ فِي عَمْرَةٍ بَنَتْ
رَوَاحَةً وَمَاتَ قَبْلَ الْمُهْجَرَةِ بِقَلِيلٍ .

أَمَّا أُمِّيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ الثَّقَفِيُّ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ رَغِبَ عَنْ
عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَيُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ وَلَهُ أَشْعَارٌ مَلِيخَةٌ حَكِي فِيهَا قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتَى بِالْفَافِ
لَمْ يَعْرِفْهَا الْعَرَبُ أَخَذَهَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا أَخَذَ مِنْهُمْ أَيْضًا الْأَحَادِيثَ الَّتِي جَاءَ بِهَا
فِي شِعْرِهِ . وَيَكْثُرُ فِي آيَاتِهِ ذِكْرُ اللَّهِ وَالِاسْتِدْلَالُ عَلَى وَجُودِهِ وَحِكْمَتِهِ بِاعْتِبَارِ عَجَائِبِ
الْمَخْلُوقَاتِ وَوَصْفِ رَحْمَتِهِ تَعَالَى وَعَدَدِ الْآيَاتِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَيْهِ الْمُتَفَرِّقَةِ فِي كُتُبِ إِسْلَامِيَّةِ
سَتَّى يَزِيدُ عَنِ الْأَرْبَعِائَةِ إِلَّا أَنْ لَا شَكَّ فِي كَوْنِ كَثِيرٍ مِنْهَا مُخْتَلَقَةً لَا سِيَّامُ الْمَرْوِيَّةِ فِي
كِتَابِ الْبَدْءِ وَالتَّارِيخِ لِمُطَهَّرِ بْنِ طَاهِرِ الْمُقَدِّسِيِّ مِنْ عُلَمَاءِ الْقُرْنِ الرَّابِعِ لِلْمُهْجَرَةِ فَإِنَّهَا
مَمْلُوءَةٌ بِعِبَارَاتٍ وَأَلْفَاظٍ قَرَأَتِيَّةٍ . وَمِنْ الْمَشْهُورِ أَنَّ أُمِّيَّةً لَمْ يُسَلِّمْ بَلْ رُئِيَ مِنْ قَتْلٍ مِنْ

(١) حماسية أبي تمام ص ٨٥ — ٨٧ من طبعة بن أو ج ١ ص ٩٤ — ٩٧ من طبعة
بولاق فراجع أيضاً كتاب الأغاني ج ٢ ص ٦٠ من طبعة بولاق . [توجد قصيدته هذه في ديوانه
ص ٣ — ٥ من طبعة ليبسك ١٩١٤ بعناية الأستاذ Kowalski (انظر في ص ١ — ٦ الترجمة
الألمانية والحواشي)] .

قريش في وقعة بدر ومات في السنة الثامنة للهجرة^(١). وإني أمتنع عن إيراد أمثلة من أشعاره لأنها معروفة .

قد آنضح مما تقدم أن الشعر الجاهلي مصدر أكثر فنون الشعر العربي في عهد الإسلام . وفيه المدح والفخر والحماسة والثناء والهجاء والوصف والزهديات والطرديات والتشبيب والخمريات وهو غاية الجمال والإتقان لفظاً وعروصاً حتى لا يخفى أن الشعراء المتأخرين لم يزدوا على البحور القديمة إلا شيئاً قليلاً جداً . كان الشعر ديوان أفكار العرب وخواطرهم وعواطفهم كأنه دفتر عظيم قيّدوا فيه عوائدهم واعتقاداتهم وأمثالهم ومآثرهم . ولولا الشعر الذي نشأ في نجد ثم شاع في سائر أنحاء جزيرة العرب الشمالية كما تهيات قبل الإسلام وحدة اللغة الأدبية مع اختلاف شعوب العرب وقبائلهم وتباين لهجاتهم^(٢) . وإن قابلنا فضائل شعر الجاهلية بفضائل الشعر بعد الإسلام استصوبنا قول ابن رشيّق القيرواني في كتاب العُمدة^(٣) : « إنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتداء هذا بناء فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن » .

٥ — تقدّمت لمحة في شعر عرب الجاهلية قبل الشروع في الوصف الإجمالي للآداب بعد ظهور الإسلام يبقى على أن أقول كلمة في حال كلامهم المنشور . إني ذكرت في أحد الدروس السابقة أن ابتداء الآداب عند كل أمة كان بالشعر مع كون الكلام المرسل المعتاد أقدم من المنظوم بكثير . وذلك أن الكلام العادي لا يأخذ بمجامع القلوب فليس كفيئاً بالتعبير عن حُمَيّا العواطف وشدة الطرب .

(١) [اعتنى الدكتور Schulthess بجمع بقايا ديوان أمية (وحي ٥٠٠ بيت) ونقلها إلى اللغة الألمانية وبطبعها في ليبسك سنة ١٩١١ (Beiträge für Assyriologie, vol. VIII, 3) ثم في سنة ١٩٣٥ ١٩٣٤م طبع في بيروت ديوان أمية بن أبي الصلت يحتوي ٣٠٠ بيت فاعتنى بجمعه بشير يموت . لا توجد في طبعة ليبسك كل الأبيات المروية في طبعة بيروت] .

(٢) [في هذا الموضوع انظر مقالة الأستاذ نلينو « كيف نشأت اللغة العربية » في مجلة الهلال سنة ٢٦ عدد أكتوبر ١٩١٧ ص ٤١ — ٤٨] .

(٣) كتاب العُمدة ج ١ ص ٥٧ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

أما الشعر فبانسجامه ووزنه يحرك أهواء النفس ويثير كامن حركاتها وهو الذ في
 الأسماع وأشد وقعاً في القلوب من الكلام المنشور لا سيما إذا أنشد على الغناء وآلات
 الطرب كما كانت العادة فيه عند كل الأمم القديمة فالنثر أجدر من الشعر بإظهار
 بنات الأفكار والشعر أجدر من النثر بإبداء ما يكنه القلب أو يتصوره النفس بلا تفكر
 وتعمد . وبما أن القوة الخيالية عند كل أمة غلبت أولاً على القوة الفكرية والنظرية
 ومال الإنسان إلى ما استحسنته قبل ميله إلى إدمان الفكر في الأشياء لا عجب في سبق
 الشعر لسائر الفنون الأدبية المستظرفة . أما الإنشاء المنمق البعيد عن الكلام المرسل
 المعتاد فلم ينشأ إلا وقت بلوغ الأمم درجة أعلى في سير ترقّيها في المدنية والآداب .
 ثمّ لسبق الشعر سبب ثانٍ وهو أن الغرض من الشعر أو المنشور المستظرف ليس
 فقط إبراز العواطف والأفكار بل هو أيضاً تخليدها وتداولها على ألسنة الناس . فإذا
 كانت صناعة الخطّ مجهولة أو قلّ استعمالها لا سبيل إلى إبقاء المنشور وحفظه من
 ورود التغيير والنقص والزيادة في ألفاظه وعبارته فبتغير العبارة والألفاظ يضع ما كان
 فيه من العذوبة والرشاقة والأناقة ولا يبقى إلا كلام ركيك معتاد لا يعدّ من
 المستظرف ولا تهشّ إليه الأسماع ولا ترتاح له القلوب . أما الكلام المقيّد بالوزن
 والقافية فأسهل حفظاً وأكثر صبراً على توالى الزمان وأخفّ على ألسنة الرواة فيمكن
 أن يشيع في الآفاق ذكره ويعظم في الناس خطره وإن لم يحطّ بالتخليد في
 بطون الصحف .

فلهذين السببين كان معظم براعة كلام العرب في الشعر على كثرة ما كانوا يروونه
 في أسماهم ومواسمهم من الحكايات المتعلقة بأنسابهم وغزواتهم وآبائهم (أي حروبهم
 ووقائعهم) فضلاً عن الروايات التي كانوا يشرحون بها أصل أمثالهم ومعانيها وهي
 من قبيل ما يوجد في كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال الحسن العسكري المتوفى
 سنة ٣٩٠ وفي كتاب مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد الميّداني المتوفى سنة ٥١٨ .
 وربما حفظوا شيئاً من تواريخ الأمم المجاورة لهم مثل أهل تدمر والفرس والروم

والعبرانيين كما يظهر من إشارات إليها وردت في أشعارهم وإن كانت الأحاديث الخرافية قد انسربت إلى تلك الحكايات ولعلها هي أساطير الأولين التي كانت كفار مكة يشبهون بها إنذارات القرآن وقصصه^(١). والذين ساعدوا على إشاعة الروايات الأعجمية في مدن الحجاز هم أهل الكتاب المقيمون بها أو ناس مسافرون إلى الشام والعراق للتجارة ومنهم النضر بن الحارث بن كدّة الذي قتله النبي صبراً بأنثيل بعد وقعة بدر وهو قد أتى الحيرة وأخذ من أهلها أخبار العجم ثم رجع إلى مكة وعلم سكانها ضرب العود والغناء فإذا جلس النبي مجلساً دعا فيه الناس إلى الله قال هلموا إلى أحدثكم أحسن من قصص محمد ثم حدثهم أحاديث ملوك الفرس وأخبار رؤسهم وإسقنديار ويُلهمهم من القرآن ومن ذكر الله فيه نُزلت الآية^(٢): «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي كُفُورَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ». وإذا تُنلى عليه آياتنا ولى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ». — وعند الكلام على آداب الجاهلية بالتفصيل سأشير إلى حكايات متداولة عند أُمم أجنبية اتخذها العرب وخصصوها ببعض رجالهم المشهورين.

إلا أن أغلب المقصود من تلك الحكايات والروايات كان المنفعة أو التفكه فرأى العرب فيها المضمون ولم يروا وشى الكلام وحلى المعاني ودرر الألفاظ. أما الذي قصدوا فيه رقة الكلام وتنميق الإنشاء وغاية البلاغة فالحكم النثرية والخطب. ومن حكمهم لم يصل إلينا إلا شيء قليل جداً أغلبه على صورة أمثال قصيرة فلا شك أنها من قبيل وصايا لقمان المروية في القرآن الشريف^(٣). — أما فن

(١) انظر القرآن : ٦ : ٢٥ و ٨ : ٣١ و ١٦ : ٢٤ و ٢٣ : ٨١ — ٢٥ : ٤ — ٢٧ و ٢٧

٦٧ — ٦٨ و ٤٦ : ١٧ و ٦٨ : ١٥ و ٨٣ : ١٣ .

(٢) سورة ٣١ (لقمان) آية ٦ — ٧ .

(٣) سورة ٢١ (لقمان) ١٢ — ١٩ .

الخطابة فله عند العرب مقامٌ عالٍ جداً فلو جمعنا الآيات القديمة التي يُحمَد فيها خطيبٌ لملاًنا بضعة صحائف . ولذلك أسباب مرتبطة بنظامهم السياسي المبني على الحرية ونوع من مجلس الشورى^(١) . فكان رجال كل قوم من أهل الوبر يباحثون أهم أمور القوم في مجلسهم كما كان كبار أهل مكة يتفاوضون فيها في دار الندوة المنسوب تأسيسها إلى قُصَي بن كلاب . فكان للخطيب البليغ شأنٌ عظيم . ومن الحرية بالذكر أن الألفاظ التي كان العرب يعبرون بها عن متولّي حكم قوم من أقوامهم أعنى السيّد والأمير عند عرب نجد والحجاز والقيظ في أنحاء اليمن إذا بحثنا عن اشتقاقها بمقارنة سائر اللغات السامية وجدنا أن معناها الأصلي إنما كان القائل أو المتكلم^(٢) . ثم أثرت في ارتقاء فن الخطابة سياسة العرب الخارجية أعنى العلاقات بين قوم وقوم أو بين قبيلة وملوك اليمن والحيرة والفرس وغسان فكان حينئذ الخطيب وكيل جميع قبيلته يخطب باسمها في المواسم والوفود للمفاخرة والمشاجرة والدفاع عن حقوق قومه . فوصف أوس بن حجر منصب الخطيب في داخل قومه وخارجه حين قال^(٣) وهو يرثي أبا دُلَيْجَة فضالة بن كَلْدَة : (من بحر البسيط)

أبا دُلَيْجَة مَنْ يَكْفِي العشيرة إِذْ أَمْسَوْا مِنَ الْخَطْبِ فِي لَبْسٍ وَبَلْبَلِ
أَمْ مَنْ يَكُونُ خطيبَ القومِ إِذْ حَفَلُوا لَدَى الملوكِ ذَوِي أَيْدٍ وَأَفْضَالِ
ولهم عوائد خاصة عند إلقاء الخطب الاحتفالية وعند أهل المدن الحجازية في أواخر القرن السادس للمسيح نوعان من الخطابة جاري في أمور الدين والأخلاق والزهد

(١) في نظام قبائل العرب قبل الإسلام راجع C.A.NALLINO *Sulla costituzione delle tribù arabe prima dell'islamismo. Raccolta di scritti editi e inediti*, vol. III, Roma 1941, p. 64-86.

(٢) قال التبريزي في شرحه على حماسة أبي تمام (ص ٧٠٥ من طبعة «بن» أوج ٤ ص ٧٧ من طبعة بولاق) ما نصه : «وسمى الرئيس زعيماً لأنه يزعم عنهم أى يقول كما قيل له قيل ومقول» وانظر أيضاً ما قاله المستشرق الكبير Th. Noeldeke في *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft* vol. 42, 1888, p. 481. وراجع أيضاً ما قاله Hommel في نفس المجلة الألمانية ج ٤٦ سنة ١٨٩٢ ص ٥٢٩ و GOLDZIEHER, *Muhammedanische Studien*, II, p. 52 note 4.

(٣) عدد ٣٢ بيت ٤ و ٥ من ديوان أوس بن حجر المطبوع بمدينة وينا سنة ١٨٩٢ اعنتي بجمعه ونشره ونقله إلى اللغة الألمانية الأستاذ R. Geyer وراجع ما قاله في هذا الطبع J. Barth (*Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, vol. 47, 1893, p. 323-334).

وهو نوع اشتهر به زيد بن عمرو بن نُفَيْل من أهل مكة وقُسَّ بن ساعدة الإياديّ النصرانيّ أسقف مدينة نجران الذي ضُرب به المثل في الفصاحة والبلاغة . يبيد أن القليل الذي بَلَّغَنَا من خطب زيد بن عمرو مختلفٌ من غير شك^(١) وما يُروى عن قُسَّ ليس إلّا قطع صغيرة لا نعرف أهي ألفاظه أم لباب كلامه فقط . وما يُنسب إلى قُسَّ هوكله بالكلام المسجع الذي كان يألفه الكُهانُ لارتباطه الأصليّ بالسحر القديم حسبما سَأْبَيْنَهُ إن شاء الله .

وقصارى الأمر أن العرب في الجاهليّة لم يخرجوا في النثر عن قدر الإنشاء القصير والمقطّعات فلو جاز قياسُ كتاب دينيٍّ جليل بسائر التصانيف لقلتُ إنَّ أوّل كتاب مطوّل صدر بلغة الناطقين بالضاد كان القرآن الشريف .

٦ — لا بدّ للباحث عن تاريخ الآداب العربيّة من الفحص عمّا يتعلّق بالقرآن من المسائل اللغويّة والأدبيّة منها مسألة لغته أهي لغة أهل قریش المعتادة أم لا ومسألة إنشائه الذي اجتمع أكثر العلماء المسلمين على أنه كلام منشور خارجٌ عن نوعي المنشور المتداولين لا يسمّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا ولا مسجّعًا ومسألة جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق وفي عهد عثمان بن عفّان ثمّ مسألة تواتره وقراءته ومسألة بلاغته وإعجازه وهلمّ جرّاً . ولكنّي في هذه المقدّمة المختصرة لا أريد بيانها ولا حلّها قاصراً على التلميح إليها والإشارة إلى ما كان للقرآن من التأثير العظيم الذي لا يُقدّر مقداره في حياة الأمم الإسلاميّة وآدابهم وعلومهم وهو أكبر من تأثير الإنجيل في النصراني لأنّ مدار الإنجيل ليس إلّا على العقائد والأخلاق خلافاً للقرآن الذي يتضمّن أيضاً أحكاماً فقهية مهمّة أساسيّة لا يجوز للمسلم الانصراف عنها في التشريع . فالتشريع عند النصراني عمَلٌ بشريّ ليس له ارتباط متين بأقوال الإنجيل أمّا التشريع في

(١) انظر Th. NOELDEKE, *Geschichte des Qorans*, 2ème édition, 1ère partie, Leipzig 1909, p. 18-19.

الإسلام فلا يُتصور إلا كفرع من العلوم النقليّة الدينيّة أصوله في القرآن والسنة والاجماع . فلهذا السبب أيضاً تنطوى كتب الفقه الإسلاميّة على العبادات التي لا مكان لها في فقه الأمم النصرانيّة . وكفى ذلك برهاناً على عظيم شأن القرآن في الهيئّة الاجتماعيّة الإسلاميّة ودخول أحكامه في أمور تكون دنيويّة فقط عند النصارى . ثم لا شك في أنّ القرآن كان أشدّ العوامل في انتشار لغة العرب في غير بلادهم القديمة وصيرورتها لغة العلم عند كافّة المسلمين مهما كان بُعد مساكنهم عن أقطار الحجاز . ولا ريب أيضاً أنّ القرآن كان مصدر علوم شتى اختصّ بها المسلمون أو ساعدتهم على التقدّم في علوم أخرى فقال جلال الدين السيوطي^(١) في النوع الخامس والستين من كتاب الإتيقان في علوم القرآن نقلاً عن تفسير ابن أبي الفضل المُرسيّ ما نصّه^(٢) : « ثمّ [أى بعد التابعين] تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه فاعتنى قوم بضبط لغاته وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه وعددها وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه وعدد سجدياته والتعليم عند كل عشر آيات إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المتماثلة من غير تعرض لمعانيه ولا تدبر لما أودع فيه فسُمّوا القراء واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبنى من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال واللازم والمتعدّي ورسوم خط الكلمات وجميع ما يتعلق به حتى أن بعضهم أعرب مشكله وبعضهم أعرب به كلمة واعتنى المفسرون بألفاظه فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد ولفظاً يدل على معنيين ولفظاً يدل على أكثر فأجروا الأول على حكمه وأوضحوا معنى الخفي منه وخاضوا في ترجيح أحد احتمالات ذى المعنيين والمعانى وأعمل كل منهم فكره وقال بما اقتضاه نظره

(١) توفى السيوطي سنة ٩١١ / ١٥١٥ .

(٢) الإتيقان ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ من طبعة مصر ١٣١٨ .

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مثل قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده وبقائه وقدمه وقدرته وعلمه وتنزيهه عما لا يليق به وسمّوا هذا العلم بأصول الدين وتأمّلت طائفة منهم معاني خطابه فرأت منها ما يقتضى العموم ومنها ما يقتضى الخصوص إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز وتكلموا في التخصيص والإخبار والنص والظاهر والجمل والحكم والمتشابه والأمر والنهي والنسخ إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحب الحال والاستقراء وسمّوا هذا الفن أصول الفقه وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام فأسسوا أصوله وفرّعوا فروعه وفسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً وسمّوه بعلم الفروع وبالفقه أيضاً وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء وسمّوا ذلك بالتاريخ والقصص وتنبيه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تُقلّل قلوب الرجال وتُكاد تُدَكِّدُ الجبال فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير وذكر الموت والمعاد والنشر والحشر والحساب والعقاب والجنة والنار فصولاً من المواعظ وأصولاً من الزواجر فسمّوا بذلك الخطباء والموعظ واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير مثل ما ورد في قصة يوسف في البقرات السماء وفي منامى صاحبي السجن وفي رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة وسمّوا تعبير الرؤيا واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التي هي شارحة للكتاب فإن عسر فمن الحكم والأمثال ثم نظروا إلى اصطلاح العوام في مخاطبتهم وعرف عاداتهم الذي أشار إليه القرآن بقوله وأمرُ بالعُرف وأخذ قوم مما في آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك علم الفرائض واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث والرابع والسادس والتمن حساب الفرائض ومسائل العول واستخرجوا منه أحكام الوصايا ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم

الباهرة في الميل والنهار والشمس والقمر ومنازله والنجوم والبروج وغير ذلك فاستخرجوا
 منه علم المواقيت ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم
 وحسن السياق والمبادئ والمقاطع والمخالص والتلوين في الخطاب والإطناب والإيجاز
 وغير ذلك واستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب
 الحقيقة فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق جعلوا لها أعلاماً اصطالحوا عليها مثل الفناء
 والبقاء والحضور والخوف والهوية والأنس والوحشة والقبض والبسط وما أشبه ذلك
 هذه الفنون التي أخذتها الملة الإسلامية منه .

الباب الثالث

الآداب في صدر الإسلام وفي أيام الخلفاء الراشدين

- ١ الشعر في مدح النبي — ٢ شعراء المشركين الحاقدون على النبي —
- ٣ الشعراء الذين أساموا من غير أن يهتموا في أبياتهم بأمور دينية —
- ٤ شعر الفتوحات — ٥ الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب — ٦ النثر

أما حال الآداب العربيّة الدنيويّة في صدر الإسلام وأيام الخلفاء الراشدين فهو^(١)؟ قال ابن خلدون في مقدمته^(٢) : « ثمّ انصرف العرب عن ذلك [أى عن الشعر] أوّل الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ثمّ استقرّ ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسمعه النبي صلعم وأتاب عليه فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه » . وقال عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلو بالجهاد وغزوا فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته »^(٣) — هذان القولان لا يوافقان حقيقة الأمر البتّة فما أوردتهما لم أعثر على مثل هذا الفكر في تواريخ

(١) [في هذا الموضوع انظر أيضاً OMAR A. FARRUKH, *Das Bild des Frühislam in der arabischen Dichtung von der Hīgr bis zum Tode des Kalifen 'Umar* Leipzig 1937.

(٢) مقدمة لابن خلدون ص ٥٨١ من طبعة بيروت ١٩٠٠ اوج ٣ ص ٤٠١ من الترجمة الفرنسية .

(٣) المزهري للسيوطي ج ٢ ص ٢٩٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ عن محمد بن سلام الجمحي [فراجع طبقات الشعراء للجمحي ص ١٠ من طبعة ليدن سنة ١٩١٦] .

لآداب العربية المتداولة في المدارس المصرية مثل أدب اللغة العربية لمحمد حسن المرصفي^(١) وأدبيات اللغة العربية لمحمد عاطف بك وصاحبيه^(٢) وخلاصة أدب اللغة لإبراهيم عبد الخالق^(٣). فإذا طالعتم كتب التاريخ القديمة المطوّلة مثل سيرة الرسول لابن هشام وكتاب المغازي للواقدي وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري وجدتم كثرة ما يروونه من أشعار صدر الإسلام ثم إذا تصفّحت كتب الأدب القديمة مثل كتاب الأغاني وغيره الفيتّم أنّ الآداب العربية لم تزل في ذلك العصر زاهية وأنّ الشعراء لم ينصرفوا عن أنواع قريضهم ولا الخطباء عن نسج نثرهم.

انّ الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في أوائل ظهور الإسلام أو في أيام الخلفاء الراشدين يجوز تقسيمهم إلى ثلاثة أصناف بالإضافة إلى الدين الإسلاميّ : ١ الذين قالوا الشعر في مدح النبيّ سواء أساموا أم لم يُسَلِّموا فكثرهم وأشهرهم من أهل المدر الذين كانوا يقدون في الجاهليّة على الملوك . ٢ الشعراء الذين قالوا الشعر في رثاء قتلى الكفار وهجاء النبيّ وأغلبهم من أهل مكة . ٣ شعراء أساموا ولم يهتموا في أبياتهم بأمور النبيّ والدين وهم أكثر شعراء أهل البادية .

١ — ومن الصنف الأول كعب بن زهير والأعشى وحسان بن ثابت السابق ذكره . فإن تأملتُم أشعارهم وجدتم بينهم فرقاً بالإضافة إلى الإسلام . لأنّ كعباً وهو بدويّ الأصل مدح النبيّ سنة ٩ هـ بقصيدة شهيرة ألفها على منوال قصائد أهل البادية في مدح سادتهم فلولا البيتان :

نُبئتُ أنّ رسولَ الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمولُ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيه مواعيطُ وتفصيلُ

(١) أدب اللغة العربية للمرصفي ج ١ ص ٩٣ — ٩٤ و ١٢١ و ١٤١ — ١٤٢ من طبعة

مصر ١٣٢٦ .

(٢) أدبيات اللغة العربية ج ١ ص ٢٨ من طبعة مصر ١٩٠٦ .

(٣) خلاصة أدب اللغة لإبراهيم عبد الخالق ص ٤٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

والبيت الثالث :

انَّ الرسولَ لنورٌ يُستضاءُ به مَهْدٌ من سيوف الله مسلولٌ
 قلنا إِنَّه إِنَّمَا أراد قائدًا أو سيدًا من قومه لا نبيًّا جليلاً أتى بدين جديد . ثم في
 نفس تلك القصيدة مدح المهاجرين فلم يصفهم إلا بالحماسة والشجاعة . فشتان ما بين
 أسلوب هذه البردة البدويَّة وبين العواطف والعبارات الدينيَّة التي تتحلَّى بها بردة
 الشيخ البوصيري^(١) ! وفي قصيدة أخرى^(٢) مدح كعب الأنصار ولم يجعل فيها
 بيتًا يخرج عن منهج المدح البدويّ ويشير إلى محاسن الدين الإسلاميّ .
 — أمّا الأعشى فدح النبي (مع أنه لم يُسَلِّم) في سنة ٧ فلتقرَّبه من نصارى نجران
 والحيرة استعمل بقصيدته ما دلَّ به علو منزلة النبيّ في الأمور الدينية فقال مثلاً^(٣) :

نبيٌّ يرى ما لا تروُنْ وذَكَرَه أغارَ لعمري في البلاد وأنجدا
 ولكن أول من يصلح له اسمُ شاعر إسلاميٍّ هو حسان بن ثابت الأنصاريّ الذي
 مرَّ ذكر شعره في عهد الجاهليَّة . وهو بعد الهجرة النبويَّة ربَّما هجا الكُفَّار على
 الأسلوب القديم حسبما كانوا هم يهجون النبيّ ومن هذا القبيل مثلاً ما قاله في الهذليّين
 لما أسروا بعض المسلمين وباعوهم من قریش^(٤) : (من بحر البسيط)

لو خُلِقَ اللّوْءُ إِنْسَانًا يُكَلِّمُهُمْ لَكَانَ خَيْرَ هُذَيْلٍ حِينَ يَأْتِيهَا
 تَرَى مِنَ اللّوْءِ رَقْمًا يَبْنِ أَعْيُنُهُمْ كَمَا كَوَى أَذْرُعَ الْعَانَاتِ كَلْوِيهَا
 تَبْكِي الْقُبُورَ إِذَا مَا مَاتَ مَيِّتُهُمْ حَتَّى يَصْبِيحَ بَيْنَ فِي الْأَرْضِ دَاعِيهَا
 مِثْلُ الْقَنَافِذِ تَحْزَى أَنْ تُفَاجِئَهَا شَدَّ النَّهَارِ وَيُلْقَى اللَّيْلُ سَارِيهَا

(١) توفي شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري فيما بين سنتي ٦٩٤ و ٦٩٦ هـ .

(٢) نقل الأستاذ R. Basset معظمها إلى اللغة الفرنسية في كتابه *La Bânat So'ad ... de*

Ka'b ben Zohair Alger, 1910, p. 51-53. — أما ديوان كعب بن زهير فهو غير مطبوع .

(٣) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٨٥ من طبعة بولاق [أو ديوان الأعشى قصيدة ١٧ بيت ١٤ من طبعة لندن ١٩٢٨] .

(٤) ديوان حسان ص ١٠٣ من طبعة تونس سنة ١٢٨١ أو ص ٨١ من طبعة بمبي سنة ١٢٨١ أو عدد ٦٧ من طبعة لندن ١٩١٠ [أو ص ٤٢٤ — ٤٢٥ من طبعة مصر ١٣٤٧] .

ولكن حُسْن إسلامه ظاهر في جملة من أشعاره مثل قصيدة أنشدتها بعد يوم أُحُد مجيباً لعبد الله بن الزبير القرشي قال في آخرها^(١) :

فلا تذكروا قتلى وحمزة فيهم قتيلاً ثوى لله وهو مطيع
فإن جناب الخلد منزلة له وأمر الذي يفتي الأمور سريع
وقتلًا كم في النار أفضل رزقهم حميم معاً في جوفها وضريع
وما أحلى وأرق القصيدة التي رثا بها النبي ومطاعها^(٢) :

ما بال عينك لا تنام كأنما كحلت ماقيها بكحل الأرم
وهي على سداجة نظمها وألفاظها واقعة في القلوب ظاهرة التفجع بينة الحسرة والتلهف والأسف .

ليست هذه المقدمة الوجيزة مكاناً يصلح لذكر سائر الشعراء الذين قاموا بمدح النبي وحمائه وحماء الصحابة في صدر الإسلام . كانت عرب البادية في الجاهلية لا يغزون ولا يتحاربون إلا وشعراؤهم أنشدوا الأبيات في هجاء الأعداء والإفتخار وورثاء القتلى وتخليد ذكر الوقائع فسلكت شعراء المسلمين والمشركون هذا المنهج أيضاً في المديح والرثاء والتهاجي . وتناولت شعراء الكفار النبي ومن معه بالهجاء ومشوه بالأذى فانتصرت شعراء النبي له وأجابوا المشركون عنه . ويروى أن النبي قال

(١) ديوان حسان ص ٦١ من طبعة تونس أو ص ٤٨ من طبعة بمبيء أو عدد ١٧٥ بيت ١٦ إلى ١٨ من طبعة أوربا [أو ص ٢٥٩ من طبعة مصر] . فليراجع أيضاً سيرة الرسول لابن هشام ص ٦٢١ من طبعة غوتنجن ١٨٥٩ وقال ابن هشام إن « بعض أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان وابن الزبير » .

(٢) ديوان ص ٢٤ من طبعة تونس أو ص ١٩ من طبعة بمبيء أو قصيدة ١٣٣ من طبعة أوربا [أو ص ٩٧ — ٩٩ من طبعة مصر ١٣٤٧] وسيرة الرسول لابن هشام ص ١٠٢٤ — ١٠٢٥ .

لحسان بن ثابت أَهْجَهُمْ يَعْنِي قُرَيْشًا فَوَاللَّهِ لَهْجَاؤُكَ عَلَيْهِمْ أَشَدُّ مِنْ وَقَعِ السَّهَامِ فِي غَلَسِ الظَّلَامِ أَهْجَهُمْ وَمَعَكَ جَبْرِيلُ رُوحُ الْقُدُسِ^(١) . وَفِي كِتَابِ الْأَغَانِي مَا نَصَّهُ^(٢) : « كَانَ يَهْجُوهُمْ يَعْنِي قُرَيْشًا ثَلَاثَةَ نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يُحِبُّونَهُمْ : حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ . وَكَانَ حَسَّانُ وَكَعْبُ يِعَارِضَانِهِمْ بِمِثْلِ قَوْلِهِمْ بِالْوَقَائِعِ وَالْأَيَّامِ وَالْمَآثِرِ وَيَعِيرَانِهِمْ بِالْمِثَالِ وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَعِيرُهُم بِالْكَفْرِ وَيَنْسِبُهُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ شَرٌّ مِنَ الْكُفْرِ فَكَانُوا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَشَدُّ شَيْءَ عَلَيْهِمْ قَوْلُ حَسَّانَ وَكَعْبٍ وَأَهْوَنُ شَيْءَ عَلَيْهِمْ قَوْلُ ابْنِ رَوَاحَةَ فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَفَقِهُوا الْإِسْلَامَ كَانَ أَشَدَّ الْقَوْلِ عَلَيْهِمْ قَوْلُ ابْنِ رَوَاحَةَ » .

وَرَبَّمَا تَفَاخَرَ شُعْرَاءُ الْفَرِيقَيْنِ وَخَطَبَاؤُهُمَا أَمَامَ النَّبِيِّ عَلَى جَرَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ كَمَا اتَّفَقَ حِينَ وَفَدَتْ بَنُو تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِلْجَهْرَةِ . قَالَ ابْنُ سَعْدٍ الْكَاتِبُ^(٣) الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٢٣٠/٨٤٥ : « فَقَالَ الْأَقْرَعُ [بْنُ حَابِسٍ مِنْ رُؤَسَاءِ بَنِي تَمِيمٍ] يَا مُحَمَّدُ ايْذَنْ لِي فَوَاللَّهِ إِنْ جُهِدِي لَزَيْنَ وَإِنْ ذَمَّنِي لَشَيْنَ . فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ كَذَبْتَ ذَلِكَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى . ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ فَجَلَسَ وَخَطَبَ خُطْبَهُمْ وَهُوَ عُطَارِدُ بْنُ حَاجِبٍ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ أَجِبْهُ . فَأَجَابَهُ . ثُمَّ قَالُوا يَا مُحَمَّدُ ايْذَنْ لَشَاعِرِنَا . فَأَذِنَ لَهُ فَقَامَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَدْرٍ فَأَنشَدَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ أَجِبْهُ فَأَجَابَهُ بِمِثْلِ شِعْرِهِ . فَقَالُوا وَاللَّهِ لَخَطْبِيُّهُ أُبْلَغَ مِنْ خُطْبِينَا وَلَشَاعِرُهُ أَشْعَرُ

(١) العمدة لابن رشيقي ج ١ ص ١٢ من طبعة مصر ١٣٢٥ وانظر الأغاني ج ٤ ص ٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٢٩ من طبعة بولاق .

(٣) أنظر الطبقات الكبرى لابن سعد في

WELLHAUSEN, *Skizzen und Vorarbeiten*, vol. IV, Berlin 1889, p. ٣١ [الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٤٠ سطر ١٧ — ٢٤ من طبعة ليدن] ونص الخطبتين والشعرين مروى في كتاب الأغاني ج ٤ ص ٨ — ٩ من طبعة بولاق وفي السيرة لابن هشام ص ٩٣٤ — ٩٣٨ من طبعة أوروبا وتاريخ الطبري ج ١ ص ١٧١٠ — ١٧١٧ من طبعة ليدن .

من شاعرنا ولهم أحلم منا . ونزل بهم^(١) « إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ كَثُرْهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » . — فتروون أن الشعر عند أهل المدينة ومكة في غرة الإسلام قد أصبح ذا شأن عظيم كأنه من وسائلهم السياسية .

٢ — أما شعراء الصنف الثاني أى الذين رثوا القتلى من المشركين وهجواهم بنبيهم والمهاجرين والأنصار وأكثرهم من أهل مكة فأسماءهم وأبياتهم مروية في سيرة الرسول لابن هشام وغيرها من المصنّفات القديمة في المغازى والتاريخ . وأشهرهم عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطّاب الفهري والحارث بن هشام بن المغيرة وأبو سفيان بن حرب .

٣ — وممن نبغ من شعراء الصنف الثالث أى الذين أسلموا بغير أن يؤثر إسلامهم في شعرهم تأثيراً شديداً جلياً وأغلبهم من أهل البادية متمم بن نويرة [يربوعى] صاحب المراثى المشهورة في أخيه مالك الذى قُتل في جملة العرب المرتدين بعد موت النبي في أيام خلافة أبي بكر . فرثاه متمم بأشعار تُثير الأشجان وتقدح سرر النيران فضربت الشعراء الأمثال به وبأخيه مالك في أشعارهم . ومما قال :^(٢)

أرى كلَّ حَبَلٍ بعد حَبْلِكَ أَقْطَعَا	أَبَى الصَّبْرَ آيَاتُ أَرَاهَا وَأَنْنَى
وَكُنْتُ جَدِيراً أَنْ تُجِيبَ وَتُسَمِعَا	وَأَنْنَى مَتَى مَا أَدْعُ بِأَسْمِكَ لَا تُجِيبُ
مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَّصِدَعَا	وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَذِيمَةَ حَقِيبَةٍ
لِطُولِ اجْتِمَاعِ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا	فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا
فَقَدْ بَانَ مَحْمُوداً أَخَى يَوْمَ وَدَّعَا	فَإِنْ تَكُنِ الْإَيَّامُ فَرَقْنَ بَيْنَنَا
وَعَيْثُ يَسْخُجُ الْمَاءُ حَتَّى تَرِيْعَا	أَقُولُ وَقَدْ طَارَ السَّنَا فِي رَبَابِهِ

(١) القرآن سورة ٤٩ (الحجرات) آية ٤ .

(٢) المفضليات ج ٢ ص ٣٢ من طبعة مصر ١٣٢٤ [أو عدد ٦٧ بيت ١٧ إلى ٣٥

ما عدا بيت ١٩) من طبعة اكسفورد ١٩٢١] .

سقى الله أرضاً حَلَّها قبرُ مالكٍ دِهَابَ الغَوادِي المَدْحِنَاتِ فَأَمْرَعَا
وَأَثَرَ سَيْلِ الوَادِيَيْنِ بَدِيمَةٍ تُرَشِّحُ وَسَمِيًّا مِنَ النَّبْتِ خِرْوَعَا

ومن النابغين أيضاً أبو مِحْجَنَ الثَّقَفِيِّ من فُرْسَانَ العرب شهيد يومَ القادسية
سنة ١٦٧/٣٣٧^(١) وقصته فيه مشهورة. وكان مولعاً بالخمر الذي يدور عليه مُعْظَمُ شعره
ومن بين أبياته الشهيرة^(٢) :

إِذَا مِتُّ فَأَذِفْنِي إِلَى أَصْلِ كَرَمَةٍ تَرْوِي عِظَامِي فِي التُّرَابِ عُرُوقَهَا
وَلَا تَدْفِنْنِي بِالْقَلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَنْ لَا أَذُوقَهَا

ومنهم جَرُولُ بن أَوْسِ الحُطَيْيَّةِ « من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم
متصرف في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب كجيد في ذلك
أجمع^(٣) » ولكنه دنىء الطبع لئيم النفس كثير الطمع^(٤) جعل الشعر متجراً فكان
له من الهجاء معاشٌ ومكسب لأن الناس كانوا يهدون له الهدايا خوفاً من شره فقال
الأصمعي: « كان الحطيمية جَسَعاً سَوْلاً مُلْحِفاً دنىء النفس كثير الشر قليل الخير
بخيلاً قبيح المنظر رث الهيئة مغموز النسب فاسد الدين وما تشاء أن تقول في شعر
شاعرٍ من عَيْبٍ إِلَّا وَجَدْتَهُ وَقَلَّمَا تَجَدُّ ذَلِكَ فِي شعره^(٥) ». فمن غريب الاتفاق أن
هذا الشاعر الموصوف بدناءة الخلق كان راوية كعب بن زهير بل إن صحَّ الخبر
راوية زهير بن أبي سُلمى الذى شعره في طلب العلى والمكارم . وكان الحُطَيْيَّة قد

(١) أما تاريخ يوم القادسية فانظر ما قاله فيه VELLHAUSEN, *Prolegomena zur besten Geschichte des Islam (Skizzen und Vorarbeiten VI)*, Berlin 1899, p. 72-74; CAETANI, *Annali dell'Islâm*, III, p. 629-633.

(٢) ديوان ص ١٤ من طبعة ليدن ١٨٨٧ بعناية Abel و ص ٧٢ من طبعة ليدن ١٨٨٦
(في I, *Primeurs arabes*, LANDBERG) و عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٣٨ من طبعة مصر
١٣٢٤ [أوج ١ ص ٣٨ من طبعة مصر ١٣٤٣ — ١٣٤٨] .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٤٣ من طبعة بولاق .

(٤) انظر أيضاً كتاب العمدة لابن رشيقي ج ١ ص ٥٠ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٥) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٤٦ من طبعة بولاق .

ارتدّ فيمن ارتدّ بعد وفاة النبيّ وهما حينئذ الخليفة أبا بكر في بيتين مشهورين^(١)
ثمّ أسلم ثانية إلّا أنّه لم يزل يهجو أكابر الناس حتّى أمر عمر بن الخطّاب بحبسّه
فقال في الحبس أبياتاً أشار فيها إلى حال أولاده الصغار المقيمين بذي مرّخ (وهو وادّ
من أودية اليمن)^(٢) :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرّخ مُجرّ الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسيهم في قعرٍ مظلمةٍ فأغفر عليك سلامُ الله يا عمر
أنت الأمينُ الذي من بعد صاحبه ألقى إليه مقاليد النّهي البشّر
لم يؤثروك بها إذ قدّموك لها لكنّ لأنفسهم كانت بها الخير
فعفا عمر عنه . ولا يُعرّف تاريخ وفاته الذي جعله أبو الفداء سنة ٦٩ بدون إيراد
مصدر هذا الخبر . والمحتمق إنّما هو أنّه أدرك خلافة عثمان على الأقلّ . وكان الخطيئة
رقيق الإسلام فكثرت في ذلك الحكايات .

ومن معاصريه الشّماخ بن ضرار الذّببانيّ صاحب ديوان طبع بمصر سنة ١٣٢٧ هـ
بعناية الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطيّ وقيل إنّهُ أوصف الشعراء للحمير والقوس
وأرجز الناس على البديهة . وهو كثير الهجاء أيضاً مات بعد قتل عمر بن الخطّاب .
وكان له أخوان شاعران أعنى مزّرداً وجزءاً اللذين لم يُنقل إلينا إلّا مقطّعات
صغيرة من شعرهما .

ومن أشهر الشعراء المخضرمين أيضاً عمرو بن معديكرب الرّبيديّ من سادات
أهل اليمن وأشجع العرب أسلم في يدي النبيّ في السنة العاشرة وشهد وقعة القادسيّة
فله فيها أثر . وعلى أرجح الأقوال مات ببلاد العجم في آخر خلافة عمر . وأكثّر
شعره في الحماسة وذكر الفتوح ولشجاعته وشهرته كثرت فيه وفي سيفه المسّى

(١) ديوان عدد ٣٤٤ بيت ٥-٦ من الطبعة بعناية Goldziher في - Zeitschrift der deutschen morgen

ländischen Gesellschaft, 47, 1893, p. 43.

(٢) ديوان عدد ٤٧ من الطبعة المذكورة .

الصَّمَامَة وفي كَبَرِ سَنَةِ الحِكَايَاتِ المَخْتَلَقَةِ مِنْهَا مَا رَوَى فِي كِتَابِ الْأَغَانِي ^(١) فِيهِ مَعَ عَيْنِيَّةِ بْنِ حِصْنٍ فِي تَحْرِيمِ الخَمْرِ وَتَحْلِيلِهِ ^(٢) .

وَمِنْهُمْ أَيْضاً هَذَلْيَانِ أَحَدُهُمَا أَبُو خِرَاشٍ خُوَيْلِدِ بْنِ مُرَّةَ الَّذِي مَاتَ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ « وَكَانَ يَمْنُ يَعْدُو فَيَسْبِقُ الْخَيْلَ فِي غَارَاتِ قَوْمِهِ وَحُرُوبِهِمْ » ^(٣) .
وَالثَّانِي وَهُوَ أَشْعَرُ مِنْهُ أَبُو ذُوَيْبٍ خُوَيْلِدِ بْنِ خَالِدِ الَّذِي غَزَا إِفْرِيقِيَّةَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ سَنَةَ ٢٦٧ هـ فَأَخَذَهُ الْمَوْتَ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْغَزَا سَنَةَ ٢٨٨ هـ تَقْرِيباً .
وَلَهُ دِيْوَانٌ لَمْ يُطْبَعَ بَعْدَ ^(٤) . وَمِمَّا يُسْتَجَادُ مِنْ شِعْرِهِ قَصِيدَةُ طَوِيلَةٍ يَرُويهَا صَاحِبُ كِتَابِ جَهْرَةِ أَشْعَارِ الْعَرَبِ ^(٥) رَثَابَهَا بَنِيهِ الْخَمْسَةَ أَوْ الثَّمَانِيَةَ الَّذِينَ قُتِلُوا لَهُ أَوْ هَلَكُوا بِالطَّاعُونَ فِي عَامٍ وَاحِدٍ . وَأَوَّلُهَا :

أَمِنْ الْمُنُونِ وَرَيْيِبِهَا تَتَوَجَّعُ وَالدهرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مَنْ يَجْزَعُ
قَالَتْ أُمَيْمَةُ مَا لَجَسْمُكَ شَاحِبًا مِنْذُ ابْتَدَلْتَ وَمِثْلُ مَا لَكَ يَنْفَعُ
أَمْ مَا لَجَسْمُكَ لَا يَلَاثِمُ مَضْجَعًا إِلَّا اقْضَ عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ

(١) كِتَابُ الْأَغَانِي ج ١٤ ص ٣٠ — ٣١ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاق .

(٢) وَفِي ذَلِكَ الْخَبَرِ ذِي إِسْنَادٍ ضَعِيفٍ جِدًّا تَرُونَ عُمَرَ بْنَ مَعْدِيكَرِبٍ وَعَيْنِيَّةَ يَتَبَاخَثَانِ كَأَنَّهُمَا فُقِيهَانِ وَيَذْكُرَانِ الْمُتَكَفِّفَ بِمِرَاعَاةِ أَحْكَامِ الدِّينِ وَهَذَا لَا يَقُولُ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ عِنْدَ رَجُلَيْنِ فَارِسِينَ فِي الْحَرْبِ قَلِيلِي الْإِسْلَامِ بَعِيدِينَ عَنِ الْمِيلِ إِلَى الْبَحْثِ عَنْ أُمُورِ الدِّينِ فَظَاهِرٌ أَنَّ الْخَبَرَ كُلَّهُ مِنَ الرِّوَايَاتِ الَّتِي اخْتَرَعَتْ فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةٍ لَمَّا أَخَذَتْ أَهْلَ التَّقْيِ وَالدِّينِ وَالْفُقَهَاءَ يَبْذُلُونَ جَهْدَهُمْ فِي النَّفْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ الشَّائِعِ مِنْ شَرْبِ الْخَمْرِ وَإِهْمَالِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ الْعَادِيَّةِ فَأَشَاعَ أَوَّلُو الْأَغْرَاسِ عِدَّةَ حِكَايَاتٍ مَصْنُوعَةٍ عِزْرًا لِأَمِيَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمِ الْمَكْرُوهَةِ . رَاجِعْ — GOLDZIHNER Muham — *medanische Studien*, I, p. 30-31.

(٣) كِتَابُ الْأَغَانِي ج ٢١ ص ٥٤ . [طَبْعُ دِيْوَانِهِ فِي مَدِينَةِ لَيْسِكِ سَنَةِ ١٩٣٣ بَعْنَايَةِ J. Hell]

فِي الْمَجْمُوعَةِ *Neue Hudhailiten-Diwāne* ج ٢ .

(٤) [طَبْعُ دِيْوَانِهِ فِي مَدِينَةِ هَانُوفِرِ سَنَةِ ١٩٢٦ بَعْنَايَةِ J. Hell] .

(٥) جَهْرَةُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ ص ١٢٨ — ١٣٣ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاقِ سَنَةِ ١٣٠٨ — ١٣١٠

[وَمُفَضَّلِيَّاتِ عَدَدِ ١٢٦ مِنْ طَبْعَةِ اكْسْفُورْدِ سَنَةِ ١٩٢١] وَتَوْجَدُ ١٥ بَيْتًا مِنْ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ فِي شَرْحِ شَوَاهِدِ الْغَنِيِّ لِلْسِمُوطِيِّ ص ٩٢ — ٩٣ مِنْ طَبْعَةِ مِصْرَ ١٣٢٢ وَتَرَوِي ثَلَاثَةَ عَشَرَ بَيْتًا فِي كِتَابِ الْاِسْتِيعَابِ لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ ج ٢ ص ٦٦٧ عَدَدِ ٢٩١٤ مِنْ طَبْعَةِ حَيْدَرِ أَبَادِ ١٣١٩ وَفِيهِ أَيْضًا تَرْجُمَةُ الشَّاعِرِ (ص ٦٦٥ — ٦٦٧) وَ ٧ أَيْيَاتٍ مِنْ شِعْرِ يَبْكِي أَبُو ذُوَيْبٍ فِيهِ النَّبِيُّ وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْأَيْيَاتِ تَفَاوُلٌ يَشْبَهُ تَفَاوُلَ الْجَاهِلِيَّةِ .

فَأَجَبْتَهَا أَمَّا لَجَسَمِي أَنَّهُ أَوْدَى بَنِيَّ مِنْ الْبِلَادِ فَوَدَّعُوا
 أَوْدَى بَنِيَّ فَأَعَقَبُونِي حُسْرَةً بَعْدَ الرُّقَادِ وَعِبْرَةً مَا تُقْلَعُ
 سَبَقُوا هَوَىَّ وَأَعَنَقُوا لَهْوَاهُمْ فَتُخَرِّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ
 فَعَبَّرْتُ بَعْدَهُمْ بَعِيشَ نَاصِبٍ وَإِخَالَ أَنِي لَاحِقٌ مُسْتَتَبِعُ
 وَلَقَدْ حَرَصْتُ بَأَنْ أَدَافِعَ عَنْهُمْ وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ
 وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

ولو أردتُ سرِّدُ أسماءَ جميع الذين زهَّوْا في ذلك العصر من شعراء الصنف الثالث لضاق المكان . فإن سأل سائل لأيِّ سبب لا يُظهِر شعْرهم على وفْرته تأثير الدين الإسلامي في أفكارهم وعواطفهم وموضوع قريضهم كأن أحوالهم ما تغيّرت منذ انتهاء عصر الجاهليّة قلتُ إنَّ أهل البادية كانوا من أبعد الناس عن روح الإسلام ولا ميل لهم إلى تأمّل أمور الدين وفهمها فصعُب دخول الإيمان في قلوبهم فلم يزالوا إلى أيّامنا موصوفين بقلّة عواطفهم الدينيّة . ونُزِّلَ فيهم في سورة التوبة ^(١) : « الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ . . . » . ولكن قلّت الأعرابُ من هذا النوع الثاني فأغلب أهل الوَبَرِ لم يُسَلِّمُوا إلَّا كارهين أو طامعين فيما كانوا يرجونه من الرِّبْحِ والمنفعة والغنيمة فلم يعتبروا النبيَّ إلَّا كأنه ملك من الملوك القادرين الأعزّاء الذين لا يمكن مُعاداتهم . وحال أكثرهم كحال بني عامر بن صعصعة الذين لَمَّا وفدوا على النبيِّ قال رئيسهم ^(٢) : يا مُحَمَّدُ ما لي إن أسلمتُ ؟ قال لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين . قال أتجعل لي

(١) القرآن ٩ (سورة التوبة) : ٩٧ - ٩٩ فراجع أيضاً ٤٩ (سورة الحجرات) : ١٤ .

(٢) وهو عامر بن الطفيل الشاعر المشهور .

الأمر من بعدك؟ قال ليس ذاك لك ولا لقومك . قال أفتجعل لي الوبر ولك المدر؟ قال لا ولكنني أجعل لك أعنة الخيل فإنك امرؤ فارس . قال أو ليست لي لأملائها عليك خيلاً ورجالاً . ثم ولي^(١) . — ومع قطع النظر عما رأيناه من قلة ميلهم إلى جلالة الدين لا شك في أن كبراهتهم تلك أسباباً خاصة . قد مر في إحدى الصحائف السابقة أن مراعاة سنة أجدادهم كانت عند عرب الجاهلية أفضل الفضائل ومُعظم الأدب فظهر لهم الإسلام بدعةً مكروهةً لا يتبعونها نبال الناس كما قالت زوجة العباس بن مرداس حين بلغها خبر إسلامه^(٢) : (من الطويل)

لَعَمْرِي لَيْنَ تَابَعْتَ دِينَ مُحَمَّدٍ وفارقتَ إخوانَ الصِّفا والصَّنَاعِ
لَبَدَّلْتَ تِلْكَ النَّفْسَ ذُلًّا بَعِزَّةً غداةَ اختلافِ المُرْهَفَاتِ القَوَاعِ
أو كما قال كعب بن زهير وهو حينئذ وثني يذمُّ أخاه بُجَيْرًا حين أسلم^(٣) :
(من الطويل)

ففارقتَ أسبابَ الهدى واتَّبَعْتَهُ على أيِّ شيءٍ ويبُ غيرُكَ دَلَكَا
على مذهبٍ لم تُنَلِّفِ أُمَّ وَلَا أَبَا عليه ولم تعرفْ عليه أَخَا لَكَ
ففي تمسك العرب بسنن آبائهم نُزِلَتْ بضعة آيات منها في سورة البقرة^(٤) :
« إِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » .
وفي سورة المائدة^(٥) : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » . وفي سورة الأعراف^(٦) : « وَإِذَا فَعَلُوا

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد في ٤٢، p. 96، IV, *Skizzen und Vorarbeiten*, WELLHAUSEN, [الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٥١ سطر ١٩ — ٢٣ من طبعة ليدن] .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٦٦ من طبعة بولاق فراجع أيضاً GOLDZIHNER *Muhammedanische Studien*, I, p. 9-10.

(٣) انظر شرح بانث سعاد للشيخ جمال الدين ابن هشام الأنصاري ص ٤ من طبعة ليبسك سنة ١٨٧١ — ١٨٧٤ بغناية I. Guidi (٤) القرآن ٢ (سورة البقرة) : ١٧٠ .

(٥) القرآن ٥ (سورة المائدة) : ١٠٤ .

(٦) القرآن ٧ (سورة الأعراف) : ٢٨ .

فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا . وفي سورة الزُّحْرَفِ^(١) :
 « بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ » . وفي سورة
 لقمان^(٢) : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
 آبَاءَنَا » . — وفي بعض الأشياء إنَّ الشريعة الإسلامية خالفت سنن العرب القديمة
 مخالفة شديدة . كانت العرب أفخرَ الناس بأنسابهم محتقرين من لم يكن منهم
 أو كان مغموز النسب متكبِّرين بالحسب الطويل فجاء القرآن بما يدلُّ على مساواة
 الناس عند الله^(٣) : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ
 شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » . — كانت العرب
 يُبْذِلُونَ من لم يأخذ ثأر أقاربه ولا ردَّ الشرِّ بمثله أو بأكثر منه كما قال عمرو بن
 كلثوم في معلقته^(٤) :

أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجَهْلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

أما الإسلام فنصَّح للناس العفو والحلم ومدح « الْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ
 النَّاسِ »^(٥) بل أمر المؤمنين : « إِدْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ »^(٦) . — وكانت
 الأعراب مولعين بشرب الخمر ولعب الميسر فجاء القرآن بتحريمهما وأمرهم بالصلاة
 والصيام وغير ذلك من الأحكام المتعبدية لأبناء الفياق . فخلاصة الأمر أنه كان البون
 الواسع بين قواعد المروءة على رأى الأعراب وبين كثير من أحكام الإسلام^(٧) فلا
 عجب أن أهل البادية لم يعتنقوا الدين الجديد إلَّا رغماً عنهم .

(١) القرآن ٤٣ (سورة الزخرف) : ٢٢

(٢) القرآن ٣١ (لقمان) : ٢١ .

(٣) القرآن ٤٩ (الحجرات) : ١٣ .

(٤) معلقة عمرو بن كلثوم بيت ٥٣ .

(٥) القرآن ٣ (آل عمران) : ١٣٤ .

(٦) القرآن ٢٣ (المؤمنين) : ٩٥ .

(٧) راجع ما قاله الأستاذ Goldziher في المروءة والدين في كتابه *Muhammedanische Studien*

٤ - ولإتمام هذا الوصف الإجمالي لأدب العرب في أيام النبي والخلفاء الراشدين يبقى على أن ألمح إلى نوع خاص من الشعر تليق به تسمية شعر الفتوحات. قد تقدم أن عرب الجاهلية كانوا يخلدون مآثر قبائلهم وذكر أيامهم في أبيات توارثها أهل كل قبيلة خلفاً عن سلف. فكذلك لما فاضت الجيوش الإسلامية بأموالها على ما خارج أنحاء جزيرة العرب وخفقت ألوية الجنود المظفرة في أطراف النواحي الأعجمية وأقصى الآفاق أخذت الأعراب الكائنون في جملة المجاهدين يقولون الشعر وينشدون القوافي وضغاً لما قاسوا من المتاعب وما شهدوا من الوقائع وما قطعوا من البلدان وما كان لهم من البأس وثبات الجنان. فقال مثلاً قيس بن المكشوح المرادي مفتخراً بقتله رستم أمير جيوش الفرس في يوم القادسية سنة ١٦٠ هـ (١) :

حَلَبْتُ الْخَيْلَ مِنْ صَنْعَاءَ تَرْدِي	بِكُلِّ مُدَجِّجٍ كَاللَّيْثِ سَامِ
إِلَى وَادِي الْقُرَى فِدْيَارِ كَلْبٍ	إِلَى الْيَرْمُوكِ فَالْبَلَدِ الشَّامِ
وَجِئْنَا الْقَادِسيَّةَ بَعْدَ شَهْرٍ	مُسَوِّمَةً دَوَابِرُهَا دَوَامِ
فَنَاهَضْنَا هُنَالِكَ جَمْعَ كَسْرَى	وَأَبْنَاءَ الْمَرَاذِبِ الْكَرَامِ
فَلَمَّا أَنْ رَأَيْتُ الْخَيْلَ جَالَتْ	قَصَدْتُ لِمَوْقِفِ الْمَلِكِ الْهَمَامِ
فَأَضْرَبُ رَأْسَهُ فَهَوَى صَرِيحاً	بِسَيْفٍ لَا أَفْلَ وَلَا كَهَامِ
وَقَدْ أَبْلَى إِلَهُهُ هُنَاكَ خَيْراً	وَفَعَلُ الْخَيْرِ عِنْدَ اللَّهِ نَامِ

فلو جمعنا ما ورد من مثل هذه الأشعار في كتاب فتوح البلدان للبلاذري وفي تاريخ الطبري وفي كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي لألّفنا منها ديواناً.

٥ - ومن الكتب الكثيرة التداول حتى في أيامنا ديوان محتوي على قصائد ومقطعات دينية منسوب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. لكنه كتاب مختلق وهو ممّا صنعه أهل الشيعة لأغراضهم الخاصة. وعلى قول بعض أهل السنة المتأدّبين

هو تأليف الشريف المرتضى أبي القاسم علي بن طاهر المتوفى سنة ٤٣٦هـ . ونُسبت أيضاً أحياناً إلى الخليفة علي القصيدة الزينية في الحكم والمواعظ التي من قريض صالح بن عبد القدوس المقتول في سنة ١٦٧ هـ في أيام المهدي . أما ما روى من شعر علي بن أبي طالب في كتب التاريخ وفي كتاب العمدة^(١) لابن رشيقي فشيء يسير كله في الحماسة ووصف الحروب .

٦ — أما المنشور المستظرف في عهد النبي والخلفاء الراشدين فلم يخرج عما كان عليه في زمان الجاهلية من الحكم والمواعظ والوصايا والحكايات ما عدا الأحاديث النبوية . ولم يدون في ذلك العصر كتاب وإن كان بعض الناس يقيّدون في بطون الصحائف شيئاً من أحاديث النبي ومن الحكم . وفن الخطابة لم يزل في رونقه القديم حتى أن نبغ فيه نفس النبي والخلفاء فمرّ فيما سبق ذكر نص مأخوذ من كتاب ابن سعد دال على ارتفاع منزلة الخطيب البليغ عند عرب القبائل وأهل المدن . ولكن لقلة استعمال الكتابة لتسجيل المنشور لم يصل إلينا من خطب ذلك العصر إلا شيء يسير جداً وربما وقع في هذا القليل نقص أو زيادة أو تغيير أو اختلاق . فخطبة الوداع مثلاً على عظمت شأنها وعلو أفكارها ورفعة قائلها إنما نقلت بروايات مختلفة وعلى قطع متفرقة . وأقبح الأمر ما عرض لأمر المؤمنين على ابن أبي طالب فإن أصحاب الأهواء من الفرق الإسلامية اجتروا على تزوير أقواله وعزّوا إليه جمّاً غفيراً من المواعظ والحكم التي ليست له البتة . فقال المسعودي في مروج الذهب^(٢) إن « الذي حفظ الناس عنه من خطبه في سائر مقاماته أربعائة خطبة وثيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة تداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً » . ومما نسب إليه أيضاً كتاب نهج البلاغة الذي اختلف فيه بعض أهل السنة أهو للشريف المرتضى أبي القاسم علي بن طاهر المتوفى سنة ٤٣٦هـ أم لأخيه

(١) كتاب العمدة ج ١ ص ١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٢) في الباب الرابع والثمانين ج ٤ ص ٤٤١ — ٤٤٢ من الطبعة الباريسية .

الشریف الرضی^(١) وعلى كل حال أنه ليس من كلام علیّ وإنما الذى جمعه ونسبه إليه هو الذى وضعه . وقال أبو عبد الله محمد الذّهَبیّ المتوفى سنة ٧٤٨/١٣٤٨ فى كتاب میزان الاعتدال^(٢) : « ومن طالع كتاب نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علیّ رضه فإنّ فيه السبّ الصريح والخطّ على السیّدين أبی بكر وعمر » . — وأحياناً عُزى إليه كتاب الجفّر والحجاب العظیم وغير ذلك ممّا هو برىّ منه كلّیّاً .

ومن خطباء ذلك العصر سَحَبَان بن زُفَر الوائلىّ من قبيلة وائل باهلة وُلِدَ فى زمان الجاهلیّة ومات مسلماً سنة ٥٤ وضُرِبَ فيه المثل فى البلاغة والبيان فقیل أَخْطَبُ مِنْ سَحَبَانَ وَائِلٍ أَوْ أَنْطَقُ مِنْ سَحَبَانَ . وما روى عنه فى كتاب الأمثال للمیّدانىّ وفى شرح الشّریشىّ على المقامات الحریریّة أشهر من أن احتاجَ إلى ذكره هنا .

(١) انظر وفيات الأعیان لابن خلیکان عدد ٤٥٤ من طبعة غوتنجن أو عدد ٤١٦ من الطبعات المصریّة .

(٢) كشف الظنون لحاجی خليفة ج ٢ ص ٦٢٢ من الطبعة القسطنطنیّة سنة ١٣١١ فى مادة « نهج البلاغة » .

الباب الرابع

الشعر في عصر بني أمية

- ١ الغزل في مدن الحجاز — ٢ النسيب عند الأعراب — ٣ الشعر على أسلوب خولة الجاهلية — ٤ الأراجيز — ٥ شعر الجنود — ٦ شعر الفتن السياسية والدينية — ٧ شعر أهل الحضرة في مدن العراق والشام — ٨ الشعر القصصي المني — ٩ المراثي .

فلنلقِ الآن نظرةً على الآداب العربيّة في أيّام دولة بني أميّة .

لا ريب في أنّ نقل دار الخلافة من الحجاز إلى دمشق سنة ٤٠١ هـ كان ذا عواقب متبوّعة مهمّة يصعب تقديرها حقّ القدر ولكن البحث عنها وبيانها يحقّ من يعتنى بتاريخ الأمم الإسلاميّة . فاقصر هنا على ذكر أنّ ذلك النقل الذي غيّر به مركز السياسة الإسلاميّة ثمّ الفتن التي حدثت بين بني أميّة وبين أهل الحجاز في أيام الحسين وعبد الله بن الزبير وتوسيع حدود المملكة واشتغال كثير من أهل البادية بالفتوح والقتال في الأنحاء البعيدة كانت سبباً في وقوع اختلاف محسوس بين سيّر الآداب في جزيرة العرب لا سيّما الحجاز وسيرها في الشام والعراق والجهل من قبل منتصف القرن الأوّل إلى أواخره . فلتحصّل الوضوح في هذا البيان المختصر أرى من المناسب تقسيم الشعر في أيّام الدولة الأمويّة تسعة أقسام أو أصناف : ١ الغزل في مدن الحجاز ٢ الشعر الغراميّ والتشبيب عند الأعراب . ٣ الشعر على الأسلوب القديم المألوف عند فحول شعراء الجاهليّة . ٤ الأراجيز . ٥ الشعر المتعلّق بالاعتراب والفتوح وهو شعر الجنود . ٦ الشعر المتعلّق بالفتن والخلافات الدينيّة والسياسيّة . ٧ الغزل والمخاريّات والمديح بدمشق . ٨ الشعر القصصيّ المنيّ . ٩ المراثي .

١ — فابتدى بالصنف الأول أى الغزل فى المدن الحجازية .

إنَّ محبةَ إلفِ النساءِ وهواهُنَّ وفراطَ الصَّباةِ والشَّوقِ كانت فى كلِّ زمنٍ وعند كلِّ أمةٍ مجالاً واسعاً وميداناً أفيحَ لقريضِ الشعرِ فلم تخلُ الأممُ الساميةَ عن أشعارٍ معبّرةٍ عمّا فى نفوسهم وقلوبهم من شدّةِ الغرامِ أو الميلِ إلى التشبيبِ والتغزّلِ بل ضربوا فى ذلك بسهمٍ مُصيبٍ كما يتّضح مثلاً من سفرِ نشيدِ الأناشيدِ المُدرّجِ فى كتبِ العبرانيين المقدّسة . فمن طالعِ أشعارِ العرب القديمة استغرب قلة ما فيها من الأبياتِ المختصة بالتشبيب لأنّ أكثرَ ما يُروى من هذا الباب الّيق بتسمية النسيب منه بتسمية الغزل إذا امتثلنا فى تعريفهما قولَ أبى زكرياء يحيى التبريزى فى شرح حماسة أبى تمام^(١) : « النسيب ذكرُ الشاعرِ المرأةَ بالحُسنِ والإخبارُ عن تصرّفِ هواها به وليس هو الغزلُ وإنّما الغزلُ الاشتهار بمودّاتِ النساءِ والصّبوةِ إليهنّ والنسيبُ ذكرُ ذلك والخبر عنه^(٢) » . ومن الجدير بالذكر أنّ فحول شعراء الجاهلية لم يُفردوا للنسيب أشعاراً طويلة خاصة فاقترضوا على جعله فى أول قصائدهم يشكّون فيه شدّةَ الوجدِ وألمَ الفراقِ أو يصفون ما لمعشوقهم من الجمال . فإن ذهب أحدهم أحياناً إلى التغزّلِ الحقيقى حصره فى بيتين أو ثلاثة من نسيب القصيدة ولم يدرّجْهُ فى وسطها إلّا بأندرِ النادر كما فعله عنتره بن شدّاد فى معلقته حين قال نحو أوآخرها :

يا شاةَ ما قنصٍ لِمَن حَلَّتْ لَهُ حَرُمْتُ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ
فبعثتُ جاريَتِي فَقُلْتُ لَهَا أَذْهَبِي فَتَجَسَّسِي أَخْبَارَهَا لِي وَأَعْلَمِي
قَالَتْ رَأَيْتُ مِنْ الْأَعَادِي غِرَّةً وَالشَّاةُ مُمَكِّنَةٌ لِمَن هُوَ مُرْتَمِ
وَكأَنَّمَا أُلْتَفَقَتْ بِجِيْدٍ جَدَايَةٍ رَشَاءٍ مِنَ الْغِزْلَانِ حُرٍّ أُرْتَمِ

(١) شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ص ٥٣٨ من طبعة بنّ أوج ٣ ص ١١٢ من طبعة بولاق .

(٢) راجع أيضاً نقد الشعر لقدامة ص ٤٢ — ٤٣ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٢ .

وبعد هذه الأبيات الأربعة يرجع موضوعُ المعلقة إلى غير الغزل والنسيب . —
 أمّا مقطّعات الشعر الجاهليّ المختصّة بالتشبيب المتقولة إلينا في كتب الأدب واللغة
 قليلة جداً وهي كما قلته من باب النسيب لا من باب التغزل^(١) . فلهذا الأمر الغريب
 على رأي سبّان : الأوّل أنّ التعبير عمّا في القلب من الهوى والعشق والشوق
 يستدعى كلاماً ليناً سهلاً المأخذ بعيداً عن الألفاظ الغريبة قريب المعاني فاستكتفت
 من جمعه علماء اللغة في القرن الثاني والثالث للهجرة لأنّ غرضهم من لمّ الأشعار
 القديمة وحفظ شذراتها كان خصوصاً الغريب من الألفاظ والمهم من الأخبار .
 والسبب الثاني وهو الأخطر أنّ الشعر في التشبيب الحض كان على ظنيّ عند عرب
 الجاهليّة نوعاً عاميّاً تعاطاه أيضاً رعاّعُ الناس فأهانوه نوابغُ الشعراء وأهملوه وامتنعوا
 عن قوله قانعين بوضع أبيات النسيب في أوّل قصائدهم . ولعلّ سبباً ثالثاً أيضاً عمل
 في كراهة الشعراء المجدّدين المُفلقين للغزل وهو علوّ منزلة النظم في حياة العرب
 الاجتماعيّة لأنّ غاية الشعر العالی إنّما كان عندهم تعظيم الأكابر وتخليد ذكر ماثر
 القبائل والافتخار بالحماسة أو المكرّمات وهجاء الأعداء فلذلك لم يكن التشبيب
 المحض ممّا عدّ من مقاصد الشعر السامية .

أمّا في خلافة عليّ بن أبي طالب وما يتبعها من الزمان فنجدُ بمكّة والمدينة نوعاً
 جديداً من الشعر أخذ يزهو بهما بفتّة بل يغلب على سائر الأنواع فكادت أجيد
 الشعراء في مدن الحجاز لا يتعاطون غيره خلافاً لعرفهم فيما قبل . وهذا النوع
 الجديد هو الغزل ولعلّ أوّل من اشتهر به أبو دَهْبل الجُمَحِيّ من أشرف الناس

(١) كذلك نجد في أبيات عامر بن الحارث النميري الشاعر الجاهلي الملقب بجران العود غزلاً يشابه
 غزل عمر بن أبي ربيعة الشاعر الأموي الذي سيأتي ذكره فراجع القصيدة المروية في آخر ديوان
 جرير المطبوع بمصر سنة ١٣١٣ ج ٢ ص ١٩٩ — ٢٠٠ [أو ديوان جرّان العود ص ١٣ — ١٩
 من طبعة مصر ١٣٥٠] وراجع أبياته المروية في أمالي القالي ج ٣ ص ١٠٣ — ١٠٤ من طبعة
 بولاق ١٣٢٤ [أوج ٣ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٤٤] . أمّا سبب لقبه بجران العود فانظر
 ما قاله عبد القادر البغدادي في خزائنه ج ٤ ص ١٩٨ وابن قتيبة في كتاب الشعر ص ٤٥٠ من طبعة
 لندن .

بمكة قال الشعر في آخر خلافة عليّ ومَدَح معاوية وعبد الله بن الزبير وغيرهما من الأَكابر . وهواه لعمرة مشهور قيل في كتاب الأغاني^(١) إنه كانت تتحدّث به أشراف قريش في مجالسها وسوق الحجاز في أسواقها والسُّقاة في مواردها « وما صاغه أبو دَهبل من الشعر فيها رقيقٌ ظريف بعيد عن أسلوب نسيب أهل البادية المعروف . ويُروى أنه نظر عَرَضاً إلى عاتكة بنت الخليفة معاوية في حجّتها وقال فيها أبياتاً شاعت بمكة وشُهرت فغنى فيها المغنون . فلما صدرت عاتكة عن مكة « خرج معها إلى الشام ونزل قريباً منها فكانت تُعاهدُه بالبَرِّ واللطف حتّى وردت دمشق وورد معها فانقطعت عن لقائه^(٢) » . فأنشد شعراً مشهوراً بلغ معاوية الذي أحضر أبا دَهبل ولامه وقال له : « أمّا من جهتي فلا خَوْفَ عليك لأني أعلم صيانة ابنتي نفسها وأعرف أن فتیان الشعر لم يتركوا أن يقولوا النسيب في كلّ من جاز أن يقولوه فيه وكلّ من لم يجزُ وإنّما أكره لك جوار يزيد^(٣) وأخاف عليك وثباته » . وإنّما أراد معاوية أن يهرُب أبو دَهبل . وفي ذلك قصّة طويلة وأشعار^(٤) جارية مجرّى غير مجرى نسيب الجاهلية . ثمّ سلك غيره من نوابع الشعراء بمكة هذا المسلك المبتدع فقيل : « كانت العرب تفضّل قريشاً في كلّ شيءٍ إلّا الشعر فلما نجم في قريش عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد المخزوميّ والعرجيّ وأبو دَهبل وعبد الله ابن قيس الرُّقيّات أقرّت لها العرب بالشعر أيضاً^(٥) » .

وإن سألتموني عن سبب هذا التقلّب الشديد في أساليب الشعر في المدن الحجازيّة قلت : لا يخفى على أحد أنّ أكثر رجال السياسة والحرب قد تركوا جزيرة العرب في أواخر خلافة عليّ بن أبي طالب فبقيت بالمدينة أهل التقى والعبادة

(١) كتاب الأغاني ج ٦ ص ١٥٦ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٦ ص ١٥٨ — ١٥٩ من طبعة بولاق .

(٣) وهو ابن معاوية وأخو عاتكة .

(٤) كتاب الأغاني ج ٦ ص ١٥٩ — ١٦١ من طبعة بولاق .

(٥) كتاب الأغاني ج ٣ ص ١٠١ وراجع أيضاً ج ١ ص ٣٥ من طبعة بولاق .

والنَّسك من الأنصار والمهاجرين كأنَّ الدنيا في الشام والدين بمدينة النبي . وكثرت في ذلك العصر ثروة الحرمين ولا سيما مكة لاتساع العلائق والمصارف التجارية ولزيادة الوافدين عليهما تأدية لفريضة الحج . فزيادة الثروة والنعمة واتساع العيش زاد أيضاً ما تنزع النفوس إليه من الشهوات والملذذ والتنعُّم بأنواع الترف وفسدت أخلاقُ الشُّبان من البيوتات الكبيرة الذين لم يكن لهم بالحجاز مجال واسع للاعتناء بأمور السياسة والحرب ولا بالعلوم العقلية التي لم تزل مجهولة عند العرب في ذلك الزمان فاشتد ميلهم إلى التطرُّف والتغرُّل وسماع الغناء وحضور الملاحى . وجلبت إلى مكة والمدينة التينات المغنّيات بالرومى أو بالفارسيّ ثم أخذت الموالى يغنون بالعربيّ أيضاً فقليل إنَّ « أصل الغناء أربعة نفر مكِّيَّان ومدنيَّان فالـمكِّيَّان ابن سُرَيْج وابن مُحَرَّر والمدنيَّان مَعْبِد ومالك [بن أبي السَّمْح] » ^(١) . ومنهم بل أقدمهم طُوَيْس المولود يوم وفاة النبيّ وهو أوّل من غنّى بالعربيّ بالمدينة وأوّل من ألقى الخنث بها وكان ظريفاً علماً بأمر المدينة وأنساب أهلها ^(٢) . ومنهم أيضاً الغريض المغنّى بمكة والمدينة صاحب عمرو بن أبي ربيعة كثرت فيه الحكايات ومات في خلافة سليمان بن عبد الملك ($\frac{96}{715} - \frac{99}{717}$) ومنهم كثيرون لا أحتاج إلى سرّد أسمائهم هنا . ومما يدلّ على سعة العيش بمكة في النصف الثاني من القرن الأوّل ما يروى في كتاب الأغاني ^(٣) أنَّ عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله الجعفيّ

(١) كتاب الأغاني ج ١ ص ٩٨ من طبعة بولاق . — وابن سريج كان مولاه في خلافة عمر ابن الخطاب وأخذ يغنى في زمن عثمان بن عفان ومات في خلافة هشام بن عبد الملك $\frac{100}{724} - \frac{120}{743}$ وابن محرز معاصر له — ومعبد ابن وهب غنّى في أول دولة بني أمية ومات في أيام الوليد بن يزيد $\frac{126}{744} - \frac{126}{744}$ بدمشق — ومالك بن أبي السَّمْح مات في أيام المنصور $\frac{136}{754} - \frac{158}{775}$.

(٢) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٧٠ من طبعة بولاق — ويقال في كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٨٨ أن سائب خاثر أول من غنى بالعربية ولم يكن يضرب بالعود إنما كان يقرع بقضيب وأخذ عنه ابن سريج وجميلة ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم — كان سائب مولى بني ليث وقتل في يوم الحرة $\frac{63}{783}$.

(٣) كتاب الأغاني ج ٤ ص ٥٢ .

« قد اتَّخَذَ بيتاً فجعل فيه شطرنجات ونَرَدَات^(١) وقرَّقات^(٢) ودفاتر فيها من كلِّ علم وجعل في الجدار أوتاداً فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ثم جرَّ دفترًا فقرأه أو بعض ما يُلَعَبُ به فلعِبَ به مع بعضهم » . وفي وادي العقيق الذي كان منزله أهل المدينة في أيام الربيع والمطر^(٣) أو في مِنَى وسائر نواحي مكَّة كان المتظرفون من الفتيان لا سيَّما في موسم الحجَّ ينتظرون ويلتقون النساء والبنات الحرائر ويحدِّثونهنَّ ويتغزلون بهنَّ . فإن أردتم مثلاً ممَّا كان قدر كريمات النساء عند أكبر مكَّة والمتغزلين فهناكم ما يُروى في كتاب الأغاني من أخبار الحارث بن خالد بن العاصي الخزوميّ وهو أحد نوابغ شعراء قریش الغزاليين السابق ذكرهم أخو عكرمة بن خالد الخزوميّ وهو محدِّث جليل من وجوه التابعين . إن عبد الملك سنة ٧٥ ولي الحارث أمانة مكَّة « فحجَّ بالناس وحجَّتْ عائشة بنت طلحة عامئذ وكان الحارث يهواها فأرسلتْ إليه آخرَ الصلاة حتَّى أفرغ من طوافي . فأمر المؤدِّنين فأخروا الصلاة حتَّى فَرَغَتْ من طوافها . ثم أُقيمت الصلاة فصلى بالناس . وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه فعزله وكتب إليه يُؤدِّبُه فيما فعل فقال ما أهون والله غضبه إذا رَضِيتُ والله لو لم تفرِّغْ من طوافها إلى الليل لأخَّرتُ الصلاة إلى الليل »^(٤) . وله في ذلك شعر مشهور^(٥) . وربما كان فتيان مكَّة من الأغنياء الظرفاء يتحلون إلى المدينة لالتقاء ظرفائها وظرائفها ومن هذا القبيل ما روى مُصعب الزبيريّ قال^(٦) : « اجتمع نسوةٌ فذكرن عمر بن أبي ربيعة^(٧) وشعره وظرفه ومجلسه وحديثه فتشوّقنَّ إليه وتمنَّينه

(١) الرد هو ما يعرف اليوم بالطاولة .

(٢) قرقات جمع قرق وهو لعبة للصبيان فراجع لسان العرب ج ١٢ ص ١٩٨ من طبعة بولاق ١٣٠٠ - ١٣٠٧ وأقرب الموارد لسعيد الشرتوني ص ٩٩٠ من طبعة بيروت ١٨٩٩ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٧٢ سطر ٢٤ فراجع أيضاً ج ١ ص ٦٦ سطر ٧ من طبعة بولاق .

(٤) كتاب الأغاني ج ٣ ص ١٠٣ وراجع ج ٣ ص ١١٣ من طبعة بولاق .

(٥) كتاب الأغاني ج ٣ ص ١١٣ - ١١٤ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الأغاني ج ١ ص ٤٧ .

(٧) وهو مقيم بمكة .

فَقَالَتْ سُكَيْنَةُ [بِنْتُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ] أَنَا لَكُنَّ بِهِ . فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ رَسُولًا أَنْ يُوَافِيَ الصَّوْرَيْنِ^(١) لَيْلَةً سَمَّتْهَا فَوَافَاهُنَّ عَلَى رَوَاحِلِهِنَّ فَخَدَّهِنَّ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ وَحَانَ انْصِرَافُهُنَّ . فَقَالَ لَهُنَّ وَاللَّهِ إِنِّي لَمُحْتَاجٌ إِلَى زِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى صَلَاحُ وَالصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِهِ وَلَكِنِّي لَا أَخْلِطُ بِزِيَارَتِكُنَّ شَيْئًا ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى مَكَّةَ فَقَالَ فِي ذَلِكَ شِعْرًا مَعْرُوفًا^(٢) . وَمِمَّا يُرْوَى أَيْضًا مِنْ هَذَا الْبَابِ^(٣) : « وَاعِدَ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَيْعَةَ نِسْوَةً مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى الْعَقِيقِ لِيَتَحَدَّثَنَّ مَعَهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِنَّ وَمَعَهُ الْغَرِيضُ فَتَحَدَّثُوا مَلِيًّا وَمُطَرُوا فَقَامَ عَمْرُ وَالْغَرِيضُ وَجَارِيَتَانِ لِلنِّسْوَةِ فَأَظْلَمُوا عَلَيْهِنَّ بِمِطْرَةٍ^(٤) وَبَرْدَيْنِ لَهُ حَتَّى اسْتَتَرْنَ مِنَ الْمَطَرِ حَتَّى سَكَنَ ثُمَّ انْصَرَفْنَ » فَقَالَ عَمْرُ فِي ذَلِكَ أَحَدَ أَشْعَارِهِ^(٥) . — وَحَسْبُنَا هَذَا بَيَانًا لِأَحْوَالِ عَيْشَةِ الظُّرَفَاءِ بِالْحَرَمَيْنِ . فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَا عَجَبَ فِي ابْتِدَاءِ نَوْعٍ جَدِيدٍ مِنَ الشَّعْرِ لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهِ فُحُولُ الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا أَهْلُ الْبَادِيَةِ ثُمَّ لَا عَجَبَ أَنَّ أَكْثَرَ شُعْرَاءِ الْمَدَنِ الْحِجَازِيَّةِ لَمْ يَتَجَاوَزُوا الْغَزَلَ إِلَى الْمَدِيحِ وَلَا الْمَهْجَاءِ وَتَرَكُوا أَسْلُوبَ الْقَصِيدَةِ الْقَدِيمَةِ . ثُمَّ شَاعَ حُبُّ التَّشْبِيهِ فِي الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ عَنِ الْحِجَازِ وَغَلَبَ فِي شَعْرِ بَعْضِ مَنْ أَرَادَ حِفْظَ الْأَسَالِيبِ الْقَدِيمَةِ وَالتَّكْسُّبَ بِالْمَدِيحِ فَيُرْوَى فِي كِتَابِ الشَّعْرِ وَالشُّعْرَاءِ لِابْنِ قَتَيْبَةَ^(٦) أَنَّ « بَعْضَ الرُّجَّازِ أَتَى نَصْرَ بْنَ سَيَّارٍ وَالِي خِرَاسَانَ ابْنِي أُمِّیَّةَ فَمَدَحَهُ بِقَصِيدَةٍ تَشْبِيهِهَا مِائَةَ بَيْتٍ وَمَدِيحُهَا عَشْرَةَ آيَاتٍ فَقَالَ نَصْرُ : وَاللَّهِ مَا بَقِيَتْ كَلِمَةٌ عَذْبَةٌ وَلَا مَعْنَى لَطِيفَةٌ إِلَّا وَقَدْ شَغَلْتَهُ عَنْ مَدِيحِي بِتَشْبِيهِكَ فَإِنْ أَرَدْتَ مَدِيحِي فَاقْتَصِدْ فِي النَّسِيبِ . فَأَتَاهُ فَأَنشَدَهُ .

هَلْ تَعْرِفُ الدَّارَ لَا مَ الْغَمْرِ دَعَا ذَا وَخَبَرَ مِدْحَةً فِي نَصْرِ

- (١) الصُّورَانِ مَوْضِعٌ بِمِجْوَارِ الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ .
 (٢) دِيوَانُ عَمْرِ بْنِ أَبِي رَيْعَةَ عَدَدُ ٢١٨ مِنْ طَبْعَةِ لَيْبْسِكِ ١٩٠٢ .
 (٣) كِتَابُ الْأَغَانِي ج ١ ص ٦٦ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاقِ .
 (٤) رَدَاءُ مِنْ حَزْ مَرْبِعِ ذُو أَعْلَامِ .
 (٥) دِيوَانُ عَدَدُ ٥٢ مِنْ الطَّبْعَةِ الْمَذْكُورَةِ .
 (٦) ص ١٥ مِنْ طَبْعَةِ لَيْدِنٍ وَرَاجِعٌ أَيْضًا كِتَابُ الْعُمْدَةِ لِابْنِ رَشِيقٍ ج ٢ ص ٩٩ مِنْ طَبْعَةِ مِصْرَ ١٣٢٥ .

فقال نصر لا ذلك ولا هذا ولكن بين الأمرين .

وأشهر شعراء الحرمين في ذلك العصر وأنسبهم عمر بن أبي ربيعة الخزومي المذكور
وُلِدَ في ليلة قُتِلَ عمر بن الخطاب أَعْنَى في ٢٦ ذى الحِجَّة من سنة ٢٣ ومات على
القول الأرجح سنة ١٠١ . أمّا قول البعض إنَّ عمر بن عبد العزيز نفاه إلى جزيرة
دَهْلَك القريبة من مدينة مصوَّع على سواحل البحر الأحمر الغربيَّة فخطأ نشأ من خلط
وقع بينه وبين صاحبه الأَخوص . وكان عمر مفرطاً في التشيب بالنساء فكلَّ جميلة
رأها في الشوارع أو في الحجَّ وقعت في نفسه فذهب عقله عليها فلم يقل شيئاً من الشعر
إلاَّ في النسيب والغزل فكثيراً ما أظهر في أبياته أسماء الحرائر اللواتي هوأهنَّ مثل
زينب بنت موسى ولُبابة بنت عبد الله وكلثوم بنت سعد وفاطمة بنت عبد الملك وثرثراً
بنت عليَّ وبعوم وأسماء وغيرهنَّ وربما كاد يشين عِرْضهنَّ . وفي القرن الثاني خاف
بعضُ الناس على الفتيات ما يمكن أن يهيج به شعره لقلوبهنَّ فتنسَّب في ذلك إلى
الزبير بن بكار هذه الرواية^(١) : « قال حدَّثني ظُبيَّة مولاة فاطمة بنت عمر بن مُصعب
قالت : مررتُ بِجَدِّكَ عبد الله بن مصعب وأنا داخلةٌ منزله وهو بفنائِه ومعى دفتر
فقال ما هذا معك ودعاني فجئتُه وقلت شعر عمر بن أبي ربيعة فقال ويحكِ تدخلين
على النساء بشعر عمر بن أبي ربيعة إنَّ لشعره لَمَوْعاً من القلوب ومدَّخلاً لطيفاً
لو كان الشعرُ يسحر لكان هو فارجعي به . قالت ففعلتُ » . ولكن قال أيضاً
الزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٥٦/٨٧ : « أدركتُ مشيخة من قريش لا يزنون بعمر
ابن أبي ربيعة شاعراً من أهل دهره في النسيب ويستحسنون منه ما كانوا يستقبحونه
من غيره من مدح نفسه والتحلَّى بمودِّته والابتيار^(٢) » . وجماعة من الأدباء أثنوا على
شعره كلَّ الثناء وقالوا إنَّ عمر أشعر قريش لأنَّه « رَقَّ معناه ولطُف مدخله وسهَّل

(١) كتاب الأغاني ج ١ ص ٣٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ٥٢ - ٥٣ من طبعة بولاق وقال صاحب كتاب الأغاني بعد هذا

النص « والابتيار أن يفعل الإنسان الشيء فيذكره ويفخر به والابتهار أن يقول ما لم يفعل » .

مُخْرِجُهُ وَمَتْنٌ حَشَوُهُ وَتَعَطَّفَتْ حَوَاشِيهِ وَأَنَارَتْ مَعَانِيهِ وَأَعْرَبَ عَنْ حَاجَتِهِ ^(١) .
 وَمَنْ بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْإِطْرَاءِ مُصْعَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُصْعَبٍ حَيْثُ قَالَ ^(٢) : « رَاقِ
 عَمْرَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ النَّاسَ وَفَاقِ نَظْرَاءَهُ وَبَرِّعْهُمْ بِسَهُولَةِ الشَّعْرِ وَشَدَّةِ الْأَسْرِ وَحَسَنِ
 الْوَصْفِ وَدَقَّةِ الْمَعْنَى وَصَوَابِ الْمَصْدَرِ وَالْقَصْدَ لِلْحَاجَةِ وَاسْتِنَاطَاقَ الرَّبْعِ وَإِنَاطَاقَ الْقَلْبِ
 وَحَسْنَ الْعِزَاءِ وَمَخَاطَبَةَ النِّسَاءِ وَعِفَّةَ الْمَقَالِ وَقَلَّةَ الْإِتْقَالِ وَإِثْبَاتَ الْحُجَّةِ وَتَرْجِيحَ الشَّكِّ
 فِي مَوْضِعِ الْيَقِينِ وَطِلَاوَةَ الْاعْتِدَارِ وَفَتْحَ الْغَزْلِ وَنَهْجَ الْعِلَلِ وَعُطْفَ الْمَسَاءَةِ عَلَى الْعُدَالِ
 وَحَسْنَ التَّنَجُّعِ وَبُخْلَ الْمَنَازِلِ وَاخْتِصَارَ الْخَبَرِ وَصِدْقَ الصِّفَاءِ إِنْ قَدَحَ أَوْ رَى وَإِنْ
 اعْتَذَرَ أَوْ بَرَى وَإِنْ تَشَكَّى اشْجَى وَأَقْدَمَ عَنْ خِبْرَةٍ وَلَمْ يَعْتَذِرْ بِغُرَّةٍ وَأَسَرَ النَّوْمَ وَغَمَّ
 الطَّيْرَ وَأَغْذَا السَّيْرَ وَحِيرَ مَاءَ الشَّبَابِ وَسَهَلَ وَقَوْلَ وَقَاسَ الْهَوَى فَا رَبَّنِي وَعَصَى وَأَخْلَى
 وَحَالَفَ بِسَمْعِهِ وَطَرَفَهُ وَأَبْرَصَ بِنَعْتِ الرُّسُلِ وَحَذَرَ وَأَعْلَنَ الْحُبَّ وَأَسَرَّ وَبَطَنَ بِهِ
 وَأَظْهَرَهُ وَأَلْحَ وَأَسَفَ » إلخ . وَمَنْ الْحَرَى بِالْإِعْتِبَارِ أَنَّ شَعْرَ عَمْرِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ
 وَأَصْحَابِهِ الْحِجَازِيِّينَ مَعَ مَدَارِهِ عَلَى الْغَزْلِ فَقَطْ وَمَعَ قَرْبِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ مِنَ الْخَلَاعَةِ لَمْ
 يَنْحَطَّ أَبَدًا إِلَى الْفَحْشِ وَالْجَوْنِ الْحَضِّ الْكَثِيرِ وَجُودِهِ فِي غَزْلِ شُعْرَاءِ عَهْدِ الْعَبَّاسِيِّينَ
 وَلَكِنْ لَيْسَ هُنَا مَوْضِعٌ لِيُضَاحَ سَبَبُ ذَلِكَ . ثُمَّ مِنَ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَيْضًا أَنَّ عَمْرَ
 بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ وَأَكْثَرَ شُعْرَاءِ الْحِجَازِ لَا سِيَّمَا مَكَّةَ فِي زَمَنِ الْأُمَوِيِّينَ إِلَى أَوَائِلِ
 الْقَرْنِ الثَّانِي امْتَنَعُوا عَنْ بَابِ الْخَمْرِيَّاتِ فِي شُعْرِهِمْ امْتِنَاعًا تَامًّا وَلَمْ يَذْكُرُوا الْخَمْرَ
 إِلَّا فِي التَّشَابِيهِ مِثْلَ قَوْلِ عَمْرِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ^(٣) :

تَنَكَّلُ عَنْ وَاضِحِ الْأَنْيَابِ مُنْسَقٍ عَذَبَ الْقَبْلَ مَصْقُولٌ لَهُ أَشْرُ
 كَالْمِسْكِ شَيْبَ بَذُوبِ النَّجْلِ يَحْلِطُهُ تَأَخَّجَ بِصَهْبَاءٍ مِمَّا عَتَقَتْ جَدْرُ

(١) كتاب الأغاني ج ١ ص ٤٨ من طبعة بولاق وأملى القالى ج ٢ ص ١٧ من طبعة بولاق

١٣٢٤ [أوج ٣ ص ١٥ من طبعة مصر ١٣٤٤] .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ٥٣ من طبعة بولاق .

(٣) ديوان عدد ٥ بيت ١٣ - ١٤ من الطبعة المذكورة . وجدر قرية بين حمص وسلمية

نسب إليها الخمر . انظر معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣٩ من طبعة أوروبا .

أو مثل قوله^(١) :

إذا ابتسمت قلت أنك لال غمامة خفى برقها في عارض متهلل
 كأن سحيق المسك خالط طعمه وريح الخزامى في جديد القرنفل
 بصهباء درياق المدام كأنها إذا ما صفأ راووقها ماء مفصل

وذلك مع أن شرب الخمر غير مجهول في ذلك العصر بالمدينة^(٢) فكان مثلاً
 الوليد بن عثمان بن عفان والوليد بن عتبة بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن أرطاة
 المعروف بابن سيحان وجبیر بن أيمن وغيرهم من الخواص معاقرين للخمر متنادمين
 على الشراب . بيد أن لم يذهب إلى مدحه إلا من ليس من الفحول المشهورين مثل
 ابن سيحان المذكور القائل الشعر في الشراب والغزل والفخر والمدح وله مع ابن عمه
 في شرب الخمر قصة غريبة وأبيات^(٣) أو مثل عبد الله بن أبي معقل بن نهيك بن
 إساف الانصاري القائل^(٤) :

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجديك لم أحفل متى قام رامس
 فمنهن سبقي العاذلات بشربة كأن أخاها مطلع الشمس ناعس
 ومنهن تجريد الكواكب كالدمى إذا أبتز عن أكتافهن الملابس
 ومنهن تقریط الجواد عنانه إذا استبق الشخص الخفي الفوارس

ويروى محمد بن سلام الجمحي ما نصه^(٥) : « وكان السري بن عبد الرحمن
 ينادم [بالمدينة] عتير بن سهل بن عبد الرحمن بن عوف وجبیر بن أيمن بن أم

(١) ديوان عدد ١٩٧ بيت ١١ إلى ١٣ من الطبعة المذكورة .

(٢) LAMMENS, *Etudes sur le règne du calife omayyade Mo'awia Ier*, Beirut, 1908, p. 412-415. راجع

(٣) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٨٦ من طبعة بولاق .

(٤) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٩٣ من طبعة ليدن وراجع كتاب الأغاني ج ٢٠
 ص ١١٨ من طبعة بولاق .

(٥) كتاب الأغاني ج ١٨ ص ٦٦ من طبعة بولاق .

أَيُّمْنَ مَوْلَى النَّبِيِّ (صَلَّمَ) وَخَالِدُ بْنُ أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ وَكَانُوا يَشْرَبُونَ النَّبِيذَ وَكُلَّهُمْ
كَانَ عَلَى ذَلِكَ مَقْبُولُ الشَّهَادَةِ جَلِيلُ الْقَدْرِ مُسْتَوْرًا فَقَالَ السَّرِيُّ :

إِذَا أَنْتَ نَادَمْتَ الْعَتِيرَ وَذَا النَّدَى جَبْرًا وَنَازَعْتَ الزُّجَاجَةَ خَالِدًا
أَمِنْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنْ تُقَرَعَ الْعَصَا وَأَنْ يُنْبَهُوا مِنْ نَوْمَةِ الشُّكْرِ رَاقِدًا

فَقَالُوا قَبِّحَكَ اللَّهُ مَاذَا أَرَدْتَ إِلَى التَّنْبِيهِ عَلَيْنَا وَالْإِذَاعَةَ لِسِرِّنَا إِنَّكَ لِحَقِيقَ أَنْ
لَا تَنَادِمُكَ . قَالَ وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ بِكَ سُوءًا وَلَكِنَّهُ شَعْرٌ طَفَحَ فُقُتَّتُهُ عَنْ صَدْرِي .
قَالَ وَخَالِدُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ الَّذِي يَقُولُ :

أَلَا سَقِّنِي كَأْسِي وَدَعْ قَوْلَ مَنْ لَحَى وَرَوَّ عِظَامًا قَصَرَ هَنْ إِلَى بَلَى
فَإِنَّ بَطْوَاءَ الْكَاسِ مَوْتٌ وَحَبَسَهَا وَإِنْ دِرَاكُ الْكَاسِ عِنْدِي هُوَ الْحَيَا »

فَلَنَرْجِعَ إِلَى سِيَاقِ الْكَلَامِ . لَوْ أَرَدْنَا ذِكْرَ شَيْءٍ مِنْ أَخْبَارِ جَمِيعِ الَّذِينَ ذَهَبُوا
مَذْهَبَ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ فِي مَدَنِ الْحِجَازِ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ لَاحْتِجْنَا إِلَى اسْتِغْرَاقِ
مُدَّةٍ دُرُوسٍ . فَحَسَبْنَا ذِكْرَ أَسْمَاءَ بَعْضِهِمْ مِنْهُمْ الْأَخْوَصَ الْمَدَنِيَّ الْأَنْصَارِيَّ الَّذِي
مَاتَ جَدَّهُ شَهِيدًا يَوْمَ الرَّجِيعِ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ لِلْهِجْرَةِ وَخَالَهُ يَوْمَ أُحُدٍ فَلَمَّا سَمِعَ يَوْمًا
سُكَيْنَةَ بِنْتَ الْحُسَيْنِ تَفْتَخِرُ بِقَرَابَتِهَا بِالنَّبِيِّ قَالَ ^(١) :

فَخَرَّتْ وَانْتَمَتْ فَقُلْتُ ذَرِينِي لَيْسَ جَهْلٌ أَتَيْتُهُ بِبَدِيعِ
فَأَنَا ابْنُ الَّذِي سَمَتْ لَحْمَهُ الدَّبَّ رُقَيْلُ اللَّحْيَانِ يَوْمَ الرَّجِيعِ
غَسَلْتُ خَالِيَّ الْمَلَائِكَةُ الْأَبَ رَارُ مَيْتًا طُوبَى لَهُ مِنْ صَرِيعِ

وَلَكِنْ إِنْ قَطَعْنَا النَّظَرَ عَنْ مَرِثَتِهِ لِمَاوِيَةَ الَّتِي قَالَ فِيهَا ^(٢) :

مَلِكٌ تَدِينُ لَهُ الْمُلُوكُ مَبَارَكٌ كَادَتْ لَهَيْبَتُهُ الْجِبَالَ تُرْوِلُ
تُجْبِي لَهُ بَلَخٌ وَدَجَلَةٌ كُلُّهَا وَلَهُ الْفَرَاتُ وَمَا سَقَى وَالنَّيْلُ

(١) كِتَابُ الْأَغَانِي ج : ص ٤٣ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاق .

(٢) مَرُوجُ الذَّهَبِ لِلْمَسْعُودِيِّ فِي الْبَابِ الثَّانِي وَالتَّسْعِينَ ج ٥ ص ١٥٨ مِنْ الطَّبْعَةِ الْبَارِيسِيَّةِ .

وعن أبيات يعاتب بها عمر بن عبد العزيز^(١) لم يكن عيشه وشعره إلا في الغزل .
فمن المعروف أن عمر بن عبد العزيز نفاه إلى جزيرة دَهْلَك لفرط تشبيهه بنساء ذوات
الاضطراب من أهل المدينة . ثم عُفِيَ عنه . ومات بدمشق بعد المائة بسنين قليلة .
ولسان حال عيشته ما قاله في أحد أشعاره^(٢) :

أَلَا لَا تَلُمُهُ الْيَوْمَ أَنْ يَتَبَلَّدَا فَقَدْ غَلِبَ الْحَزُونُ أَنْ يَتَجَدَّدَا
وما العِشُّ إِلَّا مَا تَلَدُّ وَتَسْتَهِي وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ ذُو الشَّانِ وَفَدَا
بَكَيْتُ الصَّبَا جَهْدًا فَمَنْ شَاءَ لَأَمَتِي وَمَنْ شَاءَ وَاسَى فِي الْبُكَاءِ وَأَسْعَدَا
وَإِنِّي وَإِنْ عُرِّتُ فِي طَلَبِ الصَّبَا لَأَعْلَمُ أَنِّي لَسْتُ فِي الْحُبِّ أَوْحَدَا
إِذَا كُنْتَ عِزُّهَاةً عَنِ اللَّهِ وَالصَّبَا فَكُنْ حَجَرًا مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلَدَا

ومن شعراء قریش بمكة المشهورين بالغزل الناحين نحو عمر بن أبي ربيعة في ذلك
المُجِيدِينَ العَرَجِيَّ^(٣) وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان من نَسْلِ
عثمان أمير المؤمنين وهو أيضاً ممن ذكروا نساء قریش في شعرهم وشَبَّهُوا بِالْحَاجَّاتِ كما
قال^(٤) (من بحر الطويل) :

أَمَاطَتْ رِكَاءَ الْخَزْزِ عَنْ حُرِّ وَجْهَهَا وَأَدْنَتْ عَلَى الْخَدَّيْنِ بُرْدًا مَهْلَهْلَا
مِنَ اللَّاءِ لَمْ يَحْجُجْ بِنِيبَعِينَ حِسْبَةً وَلَكِنْ لِيَقْتُلْنَ الْبَرِيءَ الْمَغْفَلَا
أَوْ كما قال^(٥) في جِذَاءِ أُمِّ مُحَمَّدٍ بْنِ هِشَامٍ أَعْنَى أُمِّ خَالِ الْخَلِيفَةِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ
(١٢٥ — ١٠٥)
٧٢٤ ٧٤٣

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٠ — ٣٣١ من طبعة ليدن .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٣١ وكتاب الأغاني ج ١٣ ص ١٥٩ من طبعة بولاق .

(٣) مات بمكة في أيام هشام بن عبد الملك .

(٤) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦١ من طبعة بولاق — مَاطُ أَبْعَدَ وَحَرَّ الْوَجْهِ مَا بَدَأَ مِنْ كَلَمَةٍ

الْوَجْنَةُ وَحِسْبَةُ الْأَجْرِ وَالْثَوَابِ .

(٥) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٢ و ج ٣ ص ١١٦ من طبعة بولاق وفي السكامل للمبرد

ص ٣٩١ من طبعة ليبسك سنة ١٨٦٤ إلى ١٨٩٢ أوج ٢ ص ٢٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ —
١٣٢٤ الأبيات مروية بغير اسم الشاعر .

لأمنس : « أمّا النّواحي التي كانوا يحلّون فيها فكانت غالباً في بادية الشام أو ما كان بجوارها . فإنّ معاوية كان يشتهر بالصّنبرة^(١) في الأردنّ . . . وكذلك عبد الملك سكن الصّنبرة مدّة . إلّا أنّ أكثر الأمويّين اتخذوا لهم منازل في بادية الشام كما روى صاحب الأغاني والطبريّ وابن عساكر فإنّ هؤلاء المؤرخين وغيرهم أيضاً لا يكادون يذكرون خليفة منهم إلّا ذكروا أيضاً تبدّيه . فإنّ يزيد بن معاوية كان يقضى معظم سنته في حواريّين^(٢) . وسكن ابنه خالد في البلقاء في قصر فدين حيث كان أيضاً سعيد أحد أقاربه . وكان عبد الملك بعد رجوعه عن الصّنبرة يقضى شهر إذار في الجابية وكان له منزله آخر في دومة الجندل . وكان خلفاء عبد الملك مواظبين على التبدّي إلا عمر بن عبد العزيز [٩٩ - ١٠١] الذي سكن بلدة خصاصة . — أمّا منزل الخلفاء في البادية فكان يختلف فمنهم من كان يكتفي بضرب الخيم والسكن في المضارب كما أخبر . . . عن هشام بن عبد الملك [١٠٥ - ١٢٥] . . . لكنّ تلك المنازل إنّما كانت موقّنة فلم يرض بها الخلفاء فأثروا بناء الدّور الرّحبة والقصور الجميلة . والمرجّح أنّ بعضهم لم يعمدوا إلى أبنية جديدة واكتفوا بأنّ يصلحوا ما وجدوه من الأبنية القديمة في طرف البادية حيث كانت تخوم الرومان . . . إلّا أنّهم احتلّوا تلك المباني التي سبقتهم إلى تشييدها الروم زادوها جمالاً بما ألحقوا بها من القصور وزينوها بالزخارف والمحسنات فاتخذوا الحمامات وجعلوا فيها الأحواض شيّدوا لها المشارب^(٣) والعليّيات وازداناو المعاهد بالنقوش والتصاوير . »

ليس هذا موضع وصف قصور بني أميّة في البادية لاسيّما في البلقاء عن شرقيّ بحيرة لوط التي اكتشفها في العشر السنين الأخيرة علماء المشرقيات وآلّفوا فيها من كتب الضخمة النفيسة . وبعض تلك الأبنية والقصور ورد أسماؤها في نفس

(١) الصنبرة موضع بين طبرية ونهر الأردن عند محل خروج النهر من بحيرة طبرية .

(٢) حواريّين موضع بين دمشق وتدمر على مرحلتين من تدمر وبها مات يزيد بن معاوية

(٣) مشارب جمع مشربة وهي الغرفة العليا .

تأليفات العرب القديمة وأشعارهم مثل الموقر والقسطل والزيزاء وفدين وأبائر والنجرأ والأزرق والأعدف وبعضها لا نعرف إلا أسماءها المتداولة في أيامنا عند أهل تلك البرارى وأخرها وأفخمها قصير عمرة المزخرف حيطانها بالتصاوير الملونة العجيبة وهو ممّا بناه الوليد بن عبد الملك ($\frac{86}{700} - \frac{96}{710}$) والمشتى (أو المشتى على نطق الأعراب) ذو النقوش البديعة المحفوظة الآن في أحد متاحف برلين وهو على الرأى المرجح المقبول قصر بناه يزيد بن عبد الملك ($\frac{101}{720} - \frac{105}{724}$) ليعيش فيه مع جاريته حباة ولم يُتمّه لموت عشيقته الذى سبق قتله بيسير^(١) . فمن اعتبر تلك الأبنية استجداد قول عثمان بن الوليد بن عمارة القرشى بعد ما ذكر فعل الدهر بملوك بنى أمية^(٢) :

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم قمرًا سوى الذكر والآثار إن ذكرُوا

اسطردت قليلًا بهذا البيان لأهميته ولا أرى في ذلك ضررًا لأننى في هذا المختصر الصغير السابق للبحث المستقصى عن بعض المسائل الخاصة أحبّ إيجاز الكلام فيما هو معروف والإطناب فيما هو غير متداول وإن عدت موازنة أجزاء البيان . — أمّا خلاصة ما شرحته في الصحف السابقة فإثبات ما أتت : ١ أن معظم الذين انتقلوا من جزيرة العرب إلى بلاد الشام للإقامة بها في زمان الفتح وبعده كان من أهل القبائل لا سيمًا اليمينية أو المنسوب أصلها إلى اليمين . ٢ إن رجال قريش المرتحلين إلى أنحاء الشام كانوا من أهل العقد والحل مشغولين بأمور السلطان والسياسة والحرب لا يتعاطون الشعر على محبتهم له وتعظيمهم لقائليه ٣٠ إن سكان المدن الشامية الكبرى وهم سريان وروم لم يزلوا مدّة طويلة بعد الفتح قليلي المعرفة باللغة

(١) خطأ جرجى أفندى زبدان حين نسب بناء المشتى والقسطل وقصور غيرها إلى بنى غسان (كتاب العرب قبل الإسلام ج ١ ص ١٩٥ من طبعة مصر ١٩٠٨ ثم في مقالته في حوران المدرجة في مجلة الهلال السنة التاسعة عشرة عدد ديسمبر ١٩١٠ ص ١٤٣ — ١٤٤) وإنما اغتر برجم رجبه دوسو (Dussaud) في أول اكتشاف تلك المباني وهو ظن فاسد كما أظهره بعد دوسو علماء المشرقيات . (٢) حماسة البحرى ص ١٣٤ سطرًا من طبعة ليدن أو ص ٨٩ عدد ٤٠٠ من طبعة بيروت .

العربية غير معتنين بشعرها وعلى مثل ذلك في العراق إلا أن سكانها الأصليين فرس وارانميون . ثم إن الأعراب المهاجرين إلى الشام والعراق سواء كانوا من الخواص أم من العوام لم تزالوا هامين بيوادى أوطانهم كارهين عيشة المدن والإقامة بها . — فإن كان الأمر كذلك لم نتعجب أن الشعراء الوافدين إلى خلفاء بني أمية وأمرائهم في القرن الأول صاغوا نظمهم في قالب شعر من سلف من فحول شعراء الجاهلية ونهجوا طريقتهم في عمل القصائد على الأسلوب القديم في المديح والافتخار والحماسة والنسيب والهجاء وذكر النمر .

اجمع علماء اللغة والأدب على أن الذين أدركوا أسمى منزلة في الشعر العربي في أيام بني أمية ثلاثة : الأخطل والفرزدق وجريروهم من أهل القبائل ومن شعراء الصنف الثالث الذي نحن بصدده . وأقدمهم سنّا الأخطل^(١) الذي لا نعرف سنة ولادته ولا سنة موته على وجه التحقيق^(٢) وما يستخرج من المصادر القديمة الموثوق بها إنما هو أن الأخطل أخذ يشتهر في الشعر وهو شاب على عهد معاوية (٦٦١-٦٨٠) كما يظهر أيضاً من ديوانه . وأنه مات في خلافة الوليد بن عبد الملك الذي تولى الأمر من سنة ٧٠٥ إلى سنة ٧١٥ . وكان نصرانياً كمعظم بني تغلب^(٣) وهم قبيلة عظيمة من ربيعة سكنت في القرن الأول قسماً كبيراً من برية الجزيرة أعنى القسم المحدود بمدار الموصل وسنجار شمالاً ونهر دجلة شرقاً ومدار تكريت وعانة ونهر الفرات جنوباً ونهر الخابور غرباً وهي برية متسعة جداً يقطعها نهر الترتار . ولكن لولا ما يروى في كتاب الأغاني من تمسكه بدينه ومن احترامه وخضوعه التام لرؤساء ديانتهم^(٤) ولولا الأبيات الثلاثة التي قالها انكاراً لدعاء عبد الملك إياه إلى

(١) واسمه غياث بن غوث بن الصلت التغلبي .

(٢) قال الأب صالحاني في مقالته التي سماها الأخطل ومصقلة بن هبيرة (في مجلة المشرق ج ١٤ سنة ١٩١١ ص ٨٣٣ - ٨٤٣) إن الأخطل ولد في سنة ٦٢٩ - ٦٣٠ بالتقريب ومات سنة ٦٩١ تقريباً وفي هذه المقالة أيضاً بحث تقدي في فن الأخطل .

(٣) وهم من الذين وصفوا المسيح بالطبيعة الإلهية فقط (Monophysites) .

(٤) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٣ من طبعة بولاق .

الإسلام^(١) ثم لولا ما قال فيه جرير معروضاً به^(٢) حاجياً له لتشككنا فيه بعد مطالعة ديوانه أهو مسلم أم نصراني . فإنه مزج أحياناً الديانتين فقال^(٣) :

إني وربّ النصراني عند عيدهم والمسلمين إذا ما ضمّهما الجمعُ
وربّ كلّ حبيسٍ فوق صومعة يمسي ولا همه الدنيا ولا الطمعُ
لقد مدحت قرشاً واستعنت بهم إذا ما أنام إذا ما صحتي هجعوا

وقال يهجو بني أسد^(٤) :

فأما تمنّيكُم قرشاً فإنّها مصايحُ يرّمها بعينيه ناظرُ
فما أتم منها ولكنكم لها عبيدُ العصا مادام الزيت عاصرُ
فما ختمت أكتافكم لنبوّة وأستاهكم قد أنكرتها المنابرُ

وقال أيضاً^(٥)

إني خلقت ربّ الراقصات وما أضحتي بمكة من حُجبٍ وأسْتارِ
وبالهدى إذا احمرت مذارعُها في يوم ذبحٍ وتشريقٍ وتنحارِ

(١) ديوان الأخطل ص ١٥٤ سطر ٢ — ٤ من طبعة بيروت سنة ١٨٩٢ [١٩٢٥ —]
(٢) ديوان جرير ج ١ ص ١١ سطر ٤ و ص ١١٧ و ١٣٤ ، ج ٢ ص ٢٩ و ٥٦ و ١٠
و ١٤٩ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢١ سطر ٢ و ص ٢٦٢ و ٢٩١ — ٢٩٢ و ١٤ و
و ٤٥٠ و ٤٧٤ و ٥٧٦ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٣) ديوان ص ٧١ — ٧٢ من الطبعة المذكورة .

(٤) ديوان الأخطل ص ٣١٦ وانظر أيضاً حواشي الأب صالحاني ص ٥٠٠ . أما الشطر الثاني
من البيت الثاني فراجع بيت جرير :

يا خزر تغلب إن اللؤم حالفكم ما دام في ماردين الزيت يعصر

في ديوانه ج ١ ص ١١٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٦٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٥) ديوان ص ١١٩ — هدى ما أهدى إلى الحرم من النعم وقيل هو جمع هدى —
مذارع قوائم — أشمط الذي شعر رأسه أبيض وأسود — العون جمع العوان وهي المرأة النصف
سناها والتي كان لها زوج .

وما بِرَمَزَمَ مِنْ شُطْطٍ مُحَلَّقَةٍ وما بِبَثْرَبَ مِنْ عُونٍ وَأَبْكَارٍ
لَأَلْجَأَتْنِي قُرَيْشٌ خَائِفًا وَجِلًّا ومَوَّلَتْنِي قُرَيْشٌ بَعْدَ إِقْتَارٍ
وقال أيضاً^(١) :

وقد حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ كَاذِبَةٍ باللهِ رَبِّ سُبُورِ الْبَيْتِ ذِي الْحُجُبِ
وقال في الوليد بن عبد الملك^(٢) :

خَلِيفَةُ اللَّهِ يُسْتَسْقَى بِسُنَّتِهِ الْغَيْثُ مِنْ عِنْدِ مُوَلِيِّ الْعِلْمِ مُنْتَخِبِ
وقال حالفًا^(٣) :

حَلَقْتُ بَمَنْ تُسَاقُ لَهُ الْهَدَايَا وَمَنْ حَلَّتْ بِكَعْبَتِهِ النُّذُورُ
ولعلَّ لسانَ حال هذه الأبيات في شعر الأخطل قولُ القاضي عبد الوهاب بن عليّ
البغداديّ في مدينة بغداد^(٤) :

ظَلَلْتُ حَيْرَانَ أَمْشَى فِي أَرْقَتِهَا كَأَنَّنِي مَصْحَفٌ فِي بَيْتِ زَنْدِيقٍ
ولكنها وإن كانت من أغرب الغرائب باديةً نظرًا تعقل إذا تذكرنا ما شرحتهُ
في إحدى الصحف السابقة من قلةِ العواطف الدينية عند أهل الورع ثم إذا افتكرنا
في ورود مثل تلك العبارات والأيمان في شعر الأقدمين الذين أراد الأخطل أن ينهج
مناهجهم ويحذو حذوهم ثم إذا لاحظنا أن جميع تلك الأبيات الإسلامية المذكورة
وردت في قصائد في مدح بني أمية . ومن الجدير بالذكر أيضاً أن عدى بن زيد
العباديّ النصرانيّ الذي عاش في عهد الجاهلية حسباً مرّ ذكره قد سبق الأخطل
في مزج ديانتين حيث قال^(٥) :

(١) ديوان ص ١٨٤ . — (٢) ديوان ص ١٨٥ — بسنّته بوجهه وطرائقه — مولى

العلم معطيه — منتخب يعني الله . (٣) ديوان ص ٢٠٤ . (٤) التوفي سنة ٤٣٧

— البيت مروي في وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٤١١ من طبعة غوتنجن أو ٣٧٣ من

الطباعات المصرية وفي فاكهة الخلفاء لابن عربشاه ص ٢٠٨ من طبعة موصل سنة ١٨٦٩ .

(٥) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٢٤ من طبعة بولاق أو شعراء النصرانية ص ٤٥١ .

سعى الأعداء لا يألون شرًّا عليك وربِّ مكة والصليب

ويروى أبو الحسن عليّ بن محمّد المدائنيّ المتوفّى سنة ٢١٥ وقيل ٢٢٥ أو ٢٣١ أن بنى بكر بن وائل بالكوفة كانت إذا تشاجرت في شيء رضيت بالأخطل وكان يدخل المسجد فيقدّمون إليه^(١). فمن هذا القبيل أيضاً قصّة الأخطل مع عكرمة بن ربّعيّ الفيّاض في مسجد الكوفة رواها صاحب الأغاني عن نفس المدائنيّ^(٢)، وليس ذلك بغريب في ذلك العصر لأنّ من أدمن الفكر في النصوص والشواهد القديمة عرف أنّ المساجد لم تُخصّصْ أولاً بالأمور الدنيويّة بل كانت أيضاً مجالس للقوم وأندية يتباحث فيها الناس عن مصالح الجماعة السياسيّة وغيرها من الأمور الدنيويّة فلم يُمنع النصارى عن المرور والوقوف بها^(٣). أمّا تخصيص المساجد بالصلاة وما يتعلّق بالدين فابتدأ في أيام بنى العبّاس وهو أيضاً زمان حَضَر الخطبة على المنبر في أمور الدين^(٤). أمّا اتّصال الأخطل بخلفاء بنى أميّة وأمرائهم فأشهر من أن احتاج إلى وصفه في هذا المختصر فأقتصر على ذكر سبب ابتداء ذلك الاتّصال لما فيه من الدلالة الواضحة على بقاء كثير من عوائد القدماء وأميلهم عند العرب المهاجرين إلى بلاد الشام في القرن الأوّل. قد تشبّب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاريّ أو بالأحرى أظهر أن يتشبّب برملة بنت الخليفة معاوية وقال فيها شعراً مروياً في كتاب الأغاني^(٥) كاد يهتِك به عرضها والمرجّح أنّه فعل ذلك لِبَغْضه للأمويّين. فغضب يزيد بن معاوية وطلب من كعب بن جُعيل التغلبيّ أن يهجو الأنصار كلّهم فأبى خوفاً منهم ودلّ على الأخطل. فأحضره يزيد وأمره بهجاء الأنصار فقال فيهم الأبيات

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٧٩. (٢) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٨٧.

(٣) LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'awia Ier*, p. 8 n., 13 n., 58 n., 205 n., راجع 372, 435-436.

(٤) GOLDZIHHER, *Der Chatib bei den alten Arabern* (Wiener Zeitschr. der راجع

Kunde des Morgenlandes, VI, 1892) p. 99-101; C.H. BECKER, *Die Kanzel im Kultus des alten Islam* (Orientalistische Studien Th. Noldeke gewidmet, Giessen 1906) p. 331-351.

(٥) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ١٤٨ و ج ١٤ ص ١٢٢ من طبعة بولاق.

الشهورة^(١) . وإنّ في ذلك لنظراً لأنكم لو سمعتم هذا الخبر مجرّداً عن أسماء أصحابه لظنتم أنّه من روايات عرب الجاهليّة لما فيه من استعمال الهجاء مدافعةً عن العِرض بل من عمّ قوم الخصم قاطبةً بالهجاء والإفداع . — وفي ديوان الأخطل أبيات أخرى يهجو بها الأنصار والسبب في ذلك سياسيّ لأنّ الأنصار سوى نفر قليلين تحزّبوا لعلّ بن أبي طالب وقاتلوا معاوية في يوم صفّين ثمّ لم يزالوا مُبغضين بنى أميّة إلى أواخر القرن الأوّل .

إنّ الأقطاب التي يدور عليها ديوانه هي مدح الخلفاء والأمراء من بنى أميّة وهجاء أعدائهم من العلويّين والأنصار وأصحاب عبد الله بن الزُّبير والافتخار بحروب جرت بين قومه وقوم القيسيّين وذكر الخمر وما في شربها من اللذات . أمّا المراثي فلا يوجد منها في ديوانه إلّا قطعة واحدة وهي أربعة أبيات يرثي بها يزيد بن معاوية وهذا عجيب^(٢) . ومن مدائحها الشهيرة القصيدة التي مطلعها^(٣) :

خَفَّ القَطِينُ فراحوا منك أوبكروا وأزعجتهم نوّى في صرّفيها غيرُ
وهي آخر ما قيل من الشعر باللغة العربيّة .

من المشهور أنّ الأخطل كان معاقراً للخمر كأنّه رأى أنّها تجوّد قريحة الشاعر فقال مرّةً للمتوكّل اللّيثيّ الشاعر: « لو نَبَحَتِ الخمرُ في جوفك كنت أشعر الناس » . وفي ديوانه ما نصّه^(٤) : « قال له عبد الملك وما بلغ منك الشراب . قال يا أمير المؤمنين

(١) ديوان الأخطل ص ٣١٤ وبسبب المراقبة العثمانية ألغيت الأبيات في نسخ الديوان المطبوع غير المرسلة إلى أوروبا مع ورودها في الأغاني ج ١٣ ص ١٤٨ وج ١٤ ص ١٢٢ وفي كتاب العقد الفريد ج ٣ ص ١١٢ من طبعة ١٣٠٥ فنقلها الأب لامنس إلى اللغة الفرنسية في مقالته *Le chantre des Omiades (Journal Asiatique, sér. IX, t. IV, 1894) p. 135.*

(٢) ديوان ص ٢٨٩ ونقلها الأب لامنس في مقالته المذكورة سابقاً ص ١٣٩ — ١٤٠ وأول من ناله إلى ذلك هو الأب ١ . صالحاني ص ٣٤٥ في ترجمة الأخطل .

(٣) ديوان ص ٩٨ — ١١٢ .

(٤) ديوان ص ١٥٤ .

إذا شربتها فالموت أهونُ عليَّ من شِسْعِ نعلِي . فقال له قل فيه شعراً وإلا ضربت عنقك » . فقال (١) .

إذا ما ندِمْ عَليَّ ثم عَليَّ ثلاثَ زُجَاجاتٍ لهن هديرُ
 جعلتُ أجْرُ الدَّيْلِ مَنِي كَأَنِّي عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمِيرُ
 أَمَا عَلَى ظَنِّي فالمرجح أَنَّهُ لم يتعاطَ الخمرِيَّاتَ لمحضِ حُبِّهِ للخمرِ وَأَنَّ غَرَضَهُ في
 نعوتِ الحَمِيَا وأوصافِها كان أيضاً الاقتداءَ بكثيرِ من شعراءِ الجاهليَّةِ البارعين كما اقتدى
 بهم في سائرِ أفانينِ شعره . ولعلَّه إلى ذلك أشار بقوله في أوَّلِ إحدى خمرِيَّاتِهِ (٢) :

شربنا فَمَتْنَا مِيتَةً جَاهِلِيَّةً مَضَى أَهْلُهَا لم يَعْرِفُوا مَا مُحَمَّدُ

وعلى منوالِ القدماءِ النوابعِ لم يأتِ بالنسيبِ إلا في أوائلِ القصائدِ غير أَنَّهُ في نسيبه
 سلكَ أحياناً مَسَلَكاً غيرَ المألوفِ في قصائدِ الجاهليَّةِ البارعين فبدلاً من أطلالِ قوم
 معشوقته ذكر فيه الفتياتِ ذواتِ شكلٍ ودلالٍ مثل قوله في قصيدةِ مهاجرتها جريراً
 وافتخر على قَيْسٍ (٣) :

وتغَوَّاتٍ لَتَرُوعَنَا جَنِيَّةً والغاياتُ يُرِينَاكَ الأَهْوَالَا

(١) ديوان ص ١٥٤ . والبيتان مرويان أيضاً في الأغاني ج ٢١ ص ٤ سطر ٢٢ — ٢٣ وفيه
 زياد (يعني زياد ابن أبيه المتوفى سنة ١٥٦ و ١٥٧) بدلاً من ندِمْ وزهواً بدلاً من مَنِي وخرجت بدلاً
 من جعلت و ص ٥ سطر ٨ — ٩ بروايي خرجت وزهواً — ويوجد معنى مثل معنى الشطر الأخير
 في بيتي المنخل اليشكري من شعراء الحيرة (كتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٤٨ — ١٤٩ من طبعة
 مصر ١٣١٣ وشعراء النصرانية ص ٤٢٤ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٣٩ من طبعة ليدن
 وحاسة أبي تمام ص ٢٦٦ — ٢٦٧ من طبعة بن أوج ج ٢ ص ٤٨ من طبعة بولاق) :

فإذا سَكَبَتْ فَايَنِي رَبَّ الحورنق والسدير

وإذا صَحَّوتُ فَايَنِي رَبَّ الشويهة والبعير

أما جر ذيلِ المطرف فهو دليل على الغضب والافتخار فراجع ما يروى في كامل المبرد ص ٢٧
 من طبعة ليبسك أو ج ١ ص ٢٢ — ٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ من الأبيات
 والأحاديث النبوية [وغير ذلك مما أورده الأستاذ نلينو في *Raccolta di scritti* ج ٢ ص ٢٦٠
 حاشية ١] . (٢) ديوان ص ٣٢١ .

(٣) ديوان ص ٤٢ — ٤٣ وانظر أيضاً ص ٩٩ — ١٠٠ في القصيدة التي قالها يمدح
 بني أمية .

يَمْدُدْنَ مِنْ هَفَوَاتِهِنَّ إِلَى الصَّبِيِّ سَبِيًّا يَصِدْنَ بِهِ الْعَوَاةَ طَوَالًا
مَا إِنْ رَأَيْتُ كَمْ كَرِهْنِ إِذَا جَرَى فِينَا وَلَا كَحِبَالِهِنَّ حَبَالًا
الْمُهْدِيَاتُ لِمَنْ هَوَيْنَ مَسَبَّةً وَالْمُحْسِنَاتُ لِمَنْ قَلَيْنَ مَقَالًا
يَرْعَيْنَ عَهْدَكَ مَا رَأَيْتُكَ شَاهِدًا وَإِذَا مَدَلْتَ يَصِرْنَ عَنْكَ مِذَالًا الْح

ثم من الحري بالاعتبار قول عمر بن شبة المتوفى سنة $\frac{262}{876}$: كان مما يقدم به الأخطل أنه كان أخبثهم هجاء في عفاف من الفحش . وقال الأخطل ما هجوت أحدا قط بما تستحي العذراء أن تُنشدَه أباه^(١) . وهذا القول صحيح إن تركنا أربعة أو خمسة أبيات من هجائه فخالف الأخطل في عفافه هذا أساليب كثير من السلف ومعاصريه الشهيرين جرير والفرزدق والذين ملؤوا هجاءهم ما يستنكف ذو أدب من إنشاده وتنبؤ عنه الأذان .

قد سبق تلميح إلى نقائص الأخطل وجرير وكان سبب اضطرام نار العداوة بينهما مناضلة الأول عن الفرزدق لما أخذ جرير هاجاه . والفرزدق واسمه همام بن غالب كان من بني دارم حتى من تميم أقامت بنواحي البصرة بعد الفتح الإسلامي فولد في أواخر خلافة عمر بن الخطاب المتوفى سنة $\frac{23}{44}$ أما سنة ماته بالبصرة فاختلفت فيها الرواة فقال بعضهم سنة ١١٠ وبعضهم سنة ١١١ أو ١١٢ أو ١١٤^(٢) . وكان

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٧٨ من طبعة بولاق .

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٧٨٨ من طبعة غوتنجن أو عدد ٧٥٥ من الطبقات المصرية وقال صاحب كتاب الأغاني (ج ١٩ ص ٦) في رواية عن أبي زيد النحوي : « وتوفي الفرزدق في سنة عشر ومائة في خلافة هشام $[\frac{125}{734} - \frac{105}{724}]$ وجرير والحسن وابن سيرين في ستة أشهر . وحكى ذلك عن جماعة منهم الغلابي عن ابن عائشة عن أبيه » وقال في نفس الجزء (ص ٤) « وقال أبو زيد مات الحسن وابن سيرين والفرزدق وجرير في سنة عشر ومائة... وهذا غلط من أبي زيد وابن شبة لأن الفرزدق مات بعد يوم كاطمة وكان ذلك في سنة اثنتي عشرة ومائة وقد قال فيه الفرزدق الشعر وذكره في مواضع من قصائده ويقوى ذلك أيضاً ما أخبرنا به وكيع قال : حدثنا عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات قال : حدثني ابن النطاح عن المدائني عن أبي اليقظان وأبي همام المجاشعي أن الفرزدق مات سنة أربع عشرة ومائة » ثم قال في ص ٤٦ : « وقال ابن زكرياء الغلابي عن ابن عائشة قال : مات الفرزدق وجرير في سنة عشرة

كأكثر أهل البادية رحلاً ينتقل من موضع إلى موضع ويكره الإقامة الطويلة بمحل
فنجده تارة بالبصرة وتارة بالكوفة ومرّة بالمدينة ومرّة في أرض البلقاء من الشام وافداً
على خلفاء بني أمية مثل الوليد وسليمان ابني عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . ويلوح
مما جاءنا من أخباره وأشعاره العديدة أنه كان على جيد شعره ذنء النفس فمدح من
نال منه الجوائز وهجا من لم يشذف منه ما رجا فرّبما بعد الثناء الوافر على أحد
الكبار في قصيدة أخذ يشتمه شتماً قبيحاً في قصيدة أخرى . فأطراً مرّةً عمر
ابن هبيرة الفزاريّ والي العراق بعد موت الحجاج بن يوسف وعدّ مفارقه قومه ثم
بدّل المدح سبّاً فقال فيه وفي بني فزارة شعراً بشعاً^(١) وهجا في بضعة قصائد آل
المهلب بن أبي صفرة الأزديّ من أشهر بيوتات البصرة وقال مثلاً^(٢) .

وَجَدْنَا الْأَزْدَ مِنْ بَصَلٍ وَثُومٍ وَأَذْنَى النَّاسِ مِنْ دَنْسٍ وَعَارٍ
صَرَارِيُونَ يَنْضِخُ فِي لِحَاهِمُ نَفْيُ الْمَاءِ مِنْ خَشَبٍ وَقَارٍ

مع ما يليها من الكلام القدير الذي يُستقبح إيرادُه هنا . ولكن لم يمنع هذا وهجاء

[كذا] ومائة ومات جرير بعده بستة أشهر ومات في هذه السنة الحسن البصري وابن سيرين
وفي ص ٤٨ : « قال أبو عبيدة ومات المرزوق في سنة عشر ومائة » . ويقال في كل الروايات
أن جريراً توفي بعد خصمه .

(١) في المدح : ديوان ص ١٧٨ — ١٧٩ من طبعة باريس ١٨٧٠ بعناية Boucher
الذي نقل أيضاً القصائد إلى اللغة الفرنسية [أو ص ٢٨٠ — ٢٨٢ من طبعة مصر ١٣٥٤]
ولا توجد هذه القصيدة في طبعة مصر ١٢٩٣ — في الهجاء : ديوان ص ١٧٩ — ١٨١ من
طبعة باريس [أو ص ٢٨٢ — ٢٨٦ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا توجد في طبعة مصر ١٢٩٣ .
وروى التبريزي في شرحه على حاسة أبي تمام (ص ١٩٢ من طبعة بن أوج ١ ص ٢٠٥ من
طبعة بولاق) بيتين من هذه القصيدة التي تحتوى على ٣٧ بيتاً .

(٢) ديوان ص ٨٥ — ٨٦ من طبعة باريس أو ١٧٥ — ١٧٦ من طبعة مصر ١٢٩٣
[أو ص ٢٥٢ — ٢٥٤ من طبعة ١٣٥٤] وانظر HELL, *al-Farzadak's Lieder auf die*
Muhallabiten (*Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, 59, 1905, p. 595-600)
[et SCHWARZ, *al-Farzadak's Lieder auf die Muhallabiten* (*Zeitsch. d. deutschen morgenl. d.*
Gesell., 73, 1919, p. 80-85)]. البحر في العمان.

آخر مثله عن الثناء على آل المهلب حين تغيرت منزلته عندهم فقال مثلاً^(١):

لَأَمْدَحَنَّ بَنِي الْمَهْلَبِ مِدْحَةً غُرَاءَ ظَاهِرَةً عَلَى الْأَشْعَارِ
مِثْلَ النُّجُومِ أَمَامَهَا قَمَرٌ لَهَا يَجْلُو الدُّجَى وَيُضِي لَيْلَ السَّارَى
وَرِثُوا الطَّعَانَ عَنِ الْمَهْلَبِ وَالْقِرَى وَخَلَاتِقًا كَتَدْفُقُ الْأَنْهَارِ
كُلَّ الْمَكَارِمِ عَنْ يَدَيْهِ تَقَسَّمُوا إِذْ مَاتَ رِزْقُ أَرَامِلِ الْأَمْصَارِ
كَانَ الْمَهْلَبُ لِلْعِرَاقِ سَكِينَةً وَحَيَا الرِّبْعِ وَمَعْقِلَ الْفُرَارِ

وكان علويًا فلما حجَّ هشام بن عبد الملك في أيام أبيه والتقى في الطواف زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وقال هشام لا أعرفه مخافة أن يرغب فيه أهل الشام، قال الفرزدق وهو كبير السن قصيدة غرَّاء مدح بها زين العابدين وأولها^(٢):

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيتُ يعرفه والحلُّ والحرمُ

(١) ديوان ص ٤٦٥ من طبعة ليدن ١٩٠١ بعناية Hell [ص ٣٧٤ - ٣٧٥ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا تروى هذه القصيدة في الطبعتين الآخرين . وجمع J. Hell كل القصائد التي يمدح الفرزدق فيها آل مهلب أو يهجوهم في المقالة المسماة *al-Farazdak's Lieder auf die Muhallabiten* المطبوعة في المجلة *Zeitschrift der deutschen morgenländische Gesellschaft* ج ٥٩ ص ٥٨٩ - ٦٢١ وج ٦٠ ص ١ - ٤٨ . [وقد اعتنى P. Schwarz بتصحيح هذه المقالة في المجلة نفسها ج ٧٣ سنة ١٩١٩ ص ٨٠ - ١٢٦] .

(٢) ديوان ص ١٩٨ - ١٩٩ من طبعة مصر ١٢٩٣ (٢٧ بيتاً) [أو ص ٨٤٨ - ٨٤٩ من طبعة سنة ١٣٥٤ (٦ أبيات)] ولا توجد هذه القصيدة في طبعة باريس فانظر أيضاً كتاب الأغاني ج ١٩ ص ٤٠ - ٤١ (٢٠ بيتاً) ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٧٨٨ من طبعة غوتنجن أو ٧٥٥ من طبعات مصر (٢٧ بيتاً وترتيبها غير ترتيب أبيات الديوان) ومن الغريب أن هذه القصيدة منسوبة إلى الحزین الليثي (وهو عمرو بن عبد بن وهيب) الذي « قالها في علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب » في حماسة أبي تمام ص ٧١٠ - ٧١١ من طبعة بن أوج ج ٤ ص ٨٢ - ٨٣ من طبعة بولاق (٦ أبيات) وكتاب الأغاني ج ١٤ ص ٧٧ (٣ أبيات) ولكن صاحب الأغاني في نفس هذا الجزء ص ٧٨ يقول إنها للفرزدق ويروى ٧ أبيات فقال التبريزي في شرحه على الحماسة : « ويقال إنها للفرزدق » .

وروى بيتان منها في كتاب الشعر لابن قتيبة (ص ٧ من الطبعة الليدينية) هكذا : « كقول

هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله
هذا التقي النقي الظاهر العلم
بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره
العرب تعرف من انكرت والعجم

ومنها :

إذا رآته قريش قال قائلها
يغضي حياء ويغضي من مهابته
إلى مكارم هذا ينتهي السكرم
فما يكلم إلا حين يتسهم

فغضب هشام وحبس الفرزدق بين مكة والمدينة . بيد أن ميله هذا إلى العلويين
وعبد الله بن الزبير لم يمنعه عن سبك الأشعار الرائقة في مدح الأمويين ووصفهم
أحياناً فيها عبارات دينية أصبحت كأنها ضالة في أثناء مثل تلك القصائد المنسوجة
على أساليب عرب الجاهلية . فقال في سليمان بن عبد الملك $\frac{96}{717} - \frac{99}{730}$ (١) :
وبالمسجد الأقصى الإمام الذي أهدى
به من قلوب الممترين ضلالها
به كشف الله البلاء وأشرق
له الأرض والآفاق نحس هلالها
ومنها :

وجدنا بني مروان أوتاد ديننا
وأتم لهذا الدين كالقبة التي
كما الأرض أوتاد عليها جبالها
بها أن يضل الناس يهدى ضلالها
وقال يمدح هشام بن عبد الملك $\frac{100}{724} - \frac{120}{743}$ (٢) :

وما تركت كفاً هشام مدينة
بها عوج في الدين إلا تقوّمًا

القائل « وقيل في بعض النسخ : « في بعض بني أمية » والأبيات مروية أيضاً لداود بن سلم أو خالد
ابن يزيد في قثم بن العباس أو علي بن الحسين (كتاب الأغاني ج ١٤ ص ٧٨ — ٧٩) وروى
الجاحظ في كتاب الحيوان ج ٣ ص ٤١ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ أربعة أبيات قالها
« الشاعر في بعض بني مروان » . (١) ديوان ص ١٣ و ص ١٦ سطر ٩ — ١٠ من طبعة
باريس أو ص ١٤٣ و ١٤٤ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٦١٩ و ٦٢٣ من طبعة ١٣٥٤] .
(٢) ديوان ص ٣٢ من طبعة باريس [أو ص ٧٥١ من طبعة ١٣٥٤] ولا توجد القصيدة في
طبعة ١٢٩٣ .

يُوَدِّي إِلَيْهِ الْخُرْجَ مَنْ كَانَ مُشْرِكًا وَيَرْضَى بِهِ مَنْ كَانَ لِلَّهِ مُسْلِمًا
وقال في يزيد بن عبد الملك (١) $(\frac{1}{734} - \frac{1}{724})$:

ورثت ابن حرب وابن مروان والذي به نصر الله النبي محمدًا
تري الوحش يستحييه إذ عرفه له فوق أركان الجرائم سجدا
ومنها :

ولو صاحبته الأنبياء ذوو النهي رأوه مع الملك العظيم المسودا
وقال يمدح هشام بن عبد الملك (٢) :

رأيت بني مروان يرفع ملكتهم ملوك شباب كالأسود وشيها
يهم جمع الله الصلاة فأصبحت قد اجتمعت بعد اختلاف شعوبها
ومن ورث العودين والخاتم الذي له الملك والأرض الفضاء رحيها
أما سائر مدائح بني أمية فخار في قالب المدح الجاهلي الخالص وربما اجتزا الفرزدق
مهاجاء نفس الخلفاء مثل قوله حين أعطى معاوية الحنات بن يزيد الجاشعي من
صدقاء الشاعر أربعين ألف درهم فلم يخرج الحنات من دمشق حتى مات فرد المال
إلى بيت المال فقال الفرزدق (٣) :

أتأكل ميراث الحنات ظلامه وميراث حرب جامد لك ذائبه
أبوك وعمي يا معاوي أورثا ترثا فيحتاز التراث أقاربه

(١) ديوان ص ١٨٤ من طبعة باريس [أو ص ١٦٩ - ١٧٠ من طبعة ١٣٥٤] والقصيدة غير موجودة في طبعة ١٢٩٣ .

(٢) ديوان ص ١٥٤ من طبعة باريس [أو ص ٦٣ من طبعة ١٣٥٤] العودان منبر النبي وعصاه .

(٣) ديوان ص ٧٠ من طبعة باريس أو ص ١٦٧ - ١٦٨ من طبعة ١٢٩٣ [أو ص ٤٩ من طبعة ١٣٥٤] وراجع أيضاً كتاب الأغاني ج ١٩ ص ٣٧ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٩٧ من طبعة لندن . ويروى في ديوان ص ١٢٤ من طبعة باريس أو ص ١٩٣ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٧٨١ من طبعة ١٣٥٤] بيتان يهجو بهما هشام بن عبد الملك الذي تولى الأمر وهو ابن أربع وثلاثين سنة ولذلك قال الشاعر إنه « غلام » .

فلو كان هذا الدين في جاهلية عرفت من المولى القليل حلائية
ولو كان هذا الأمر في غير ملككم لا بديته أو غص بالماء شاربته
وكم من أب لي يا معاوي لم يكن أبوك الذي من عبد شمس يقاربه

إن هذا الكلام السفيه غريب جداً من رجل جعل شعره مكسباً وطعم في هدايا
الملوك والأكابر ولكنه على ذلك معقول إذا تأملنا أحوال الملك والمسلمين المنتقلين
إلى أراضي الشام والعراق بعد الفتوح . كان معظم العرب المسلمين في تلك الأنحاء
من أهل القبائل فلم يزالوا هناك على ما كانوا اعتادوه منذ الزمان القديم من العوائد
والأخلاق والأفكار والآراء سوى الدينية فما برح ينبض منهم عرق العصبية فما
فتنوا مولعين بالحرية والاستقلال التام قليل الطاعة غير منقادين لا يفهمون وجوب
قوة شديدة وحيدة وأمر متين مطاع لإثبات مملكة واسعة محتوية على أم مختلفة ولدفاع
سطوات العدو عنها . إنهم كانوا يعتبرون منزلة الخليفة في جملة الأمة الإسلامية
كمنزلة السيد البدوي في قومه أعنى أن أمير المؤمنين على رأيهم إنما كان رجلاً وكتبته
الجماعة به بالسود وتولى مصالحها فلا يطاع إلا فيما رضيته الجماعة به . فلو أراد
الخليفة إلزامهم مثل ما ألزم أهل الحضرة المتمدين لما بلغ مرامه بل أثار الفتن والعصيان
وعرض المملكة على خطر عظيم . وفطن بذلك معاوية لما جبل له من البراعة والحيلة
في أمور السياسة فتحمل من أعرابه ما لم يتحمل من غيرهم كما يتضح من عدة أخبار
متفرقة في كتب قديمة مثل تأليفات الجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد
لابن عبد ربّه وتاريخ الطبري وغيرها . فجعل الحلم والصبر أساس معاملته الأعراب
كأن حكمة سيرته القول المنسوب إلى علي بن أبي طالب : « حاكم على السفيه يكسر
أنصارك عليه ^(١) » . ولكن حله ذلك الذي وصّف به في القصائد والكتب لم يكن
عنده الشفقة والرحمة بل إنما كان العقل وقهر الغضب كلما صلح له قهره . فلهذا
السبب لم يكن يحنق إن خاطبه أحد الأعراب قائلاً يا ابن عمي مكان يا أمير المؤمنين

(١) انظر العقد لابن عبد ربّه ج ١ ص ١٦٥ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

لصاهرة معاوية في قبائل قيس وكتب ولا غضب إذا ردّ كلامه بما يُحمَل على قوانين
أدب أهل البادية وإن لم يُحمَل على مقتضى أدب المتمدنين . وكان معاوية يقول :
« إني لا أحملُ السيفَ على مَنْ لا سيفَ معه وإن لم تكن إلا كلمةً يَشْتَفِي بها
مُسْتَفٍ جعلتها تحت قدّمي ودُبُرِ أذُنِي ^(١) » . والحقّ يقال إنَّ هذا النوع من الحلم
كان له أوثقُ الوسائل وأنفعها لاستمئال أهل القبائل وقيادتهم والنجاح فيما لم ينجح
فيه قبله على بن أبي طالب ^(٢) . فاقتدت به كثير من الخلفاء والأمراء الأمويين فقال
عبد الله بن الزبير الشاعر في بشر بن مروان ^(٣) :

وطلّدت لنا دينَ النبيّ محمّدٍ بحِمْلِكَ إذ هَرَّتْ سَفَاهًا كلابها
وقال أيضاً ^(٤) :

أقام لنا الدينَ القويمَ بحِلمِهِ ورأيي له فضلٌ على كلِّ قائلٍ
فإذا يُعْقَل إمكان قول الفرزدق المذكور سابقاً ويُعْقَل أيضاً قول الأخطل لما شكّا
إلى عبد الملك بن مروان $(\frac{٦٥}{٦٨٥} - \frac{٨٦}{٧٠٥})$ إغارة سُلَيْمٍ على تغلب يوم البشر ^(٥) :

لقد أوقع الحَجَافُ بالبشرِ وقعةً إلى الله منها المُشْتَكِي والمعوّلُ
فسائلُ بني مروانَ ما بالُ ذِمّةٍ وحَبَلٍ ضعيفٍ لا يزالُ يُوصَلُ
فإنْ لا تُغَيِّرْها قريشُ بمُلْكِها يكنُ عن قريشٍ مُسْتَمَارٌ ومَرْحَلُ

فلنرجع إلى الفرزدق . ومن الجدير بالذكر من شعره لندرة ورود مثله في قصائد
شعراء هذا الصنف أبياتٌ دينيّةٌ أدرجها في قصيدة مدح بها الوليد بن عبد الملك

(١) كتاب الكامل للمبرد ص ٤٠ من طبعة ليبسك أو ج ١ ص ٣٣ من طبعة مصر
١٣٢٣ — ١٣٢٤ .

(٢) راجع LAMMENS, Etudes sur ... Mo'âwia Ier. chap. V, p. 66-108.

(٣) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٤٥ من طبعة بولاق .

(٤) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٤٥ .

(٥) ديوان الأخطل ص ١٠ — ١١ ، الحجاف شاعر بني سليم ورئيسهم — يرجع الضمير
في يغيرها إلى حال محذوف — استمار انتقل من مكان إلى مكان .

(٩٦/٧١٥ — ٨٦/٧١٥) وذَكَرَ هَدَمَهُ بَيْعَةَ النصارى بدمشق وجَعَلَهُ إِيَّاهَا مَسْجِدًا^(١) :

فَرَقَّتْ بَيْنَ النصارى فِي كُنَائِسِهِمْ وَالْعَابِدِينَ مَعَ الْأَسْحَارِ وَالْعَتَمِ
وَهُمْ مَعًا فِي مَصَلَّاهُمْ وَأَوْجُهُهُمْ شَتَّى إِذَا سَجَدُوا لِلَّهِ وَالصَّنَمِ
وَكَيْفَ يَجْتَمِعُ الناقوسُ يَضْرِبُهُ أَهْلُ الصَّلِيبِ مَعَ الْقُرَّاءِ لَمْ تَتَمِ
فُهِمَتْ تَحْوِيلُهَا عَنْهُمْ كَمَا فَهِمَا إِذْ يَحْكُمَانِ لَهُمْ فِي الْحَرْثِ وَالْغَنَمِ
دَاوُدُ وَالْمَلِكُ الْمَهْدِيُّ إِذْ حَكَمَا أَوْلَادَهَا وَاجْتِازَا الصُّوفِ بِالْجَلَمِ
فَهَمَّكَ اللَّهُ تَحْوِيلًا لِمَبِيعَتِهِمْ عَنْ مَسْجِدٍ فِيهِ يُتَلَى طَيْبُ الْكَلَمِ

وخلافًا للأخطأ قد تعاطى الفرزدق الرثاء وسبك فيه عدّة قصائد . وعذله جرير^(٢)
لحبّه لشرب الخمر ولكنه لم يقل فيها إلا شعراً قليلاً جداً أغنى ثلاثة أبيات وردت في
ديوانه^(٣) وتُسَبِّحُ خَرِيَّاتُ أَبِي نَوَاسٍ ثُمَّ أَرْبَعَةُ أَبِياتٍ رُوِيَتْ فِي كِتَابِ الشَّعْرِ وَالشَّعْرَاءِ
لأَبْنِ قَتَيْبَةَ^(٤) وَخَزَانَةُ الْأَدَبِ لِعَبْدِ الْقَادِرِ الْبَغْدَادِيِّ^(٥) . أمّا الغزل فله فيه قصيدة طويلة^(٦)

(١) ديوان ص ١٠٨ من طبعة باريس أو ص ١٨٥ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٧٦٨
من طبعة مصر ١٣٥٤] — الملك المهدي هو سليمان عم فراجع القرآن سورة ٢١ (الأنبياء)
٧٨ — ٧٩ .

(٢) ديوان ج ١ ص ١٢٢ سطر ٢٠ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٧١ سطر ٢ من
طبعة ١٣٥٤] والنقائض ص ٥٤٣ سطر ١٥ من طبعة لندن .

(٣) ديوان ص ٦٦ من طبعة باريس أو ص ١٦٥ — ١٦٦ من طبعة مصر ١٢٩٣
[أو ص ١٥ من طبعة ١٣٥٤] وهذا نص الأبيات :

وَإِجَانَةٌ رِيًّا الشُّرُوبِ كَأَنَّهَا إِذَا اغْتَمَسَتْ فِيهَا الرُّجَاجَةُ كَوَكْبُ
مُخْتَمَةٍ مِنْ عَهْدِ كَسْرَى بْنِ هُرْمُزٍ بَكَرْنَا عَلَيْهَا وَالْفَرَارِيحُ تَنْعَبُ
سَبَقْتُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ دَنَا وَمَا لِلصَّبَا بَعْدَ الْقِيَامَةِ مَطْلَبُ
(٤) ص ٢٩٤ من طبعة لندن .

(٥) ج ٢ ص ٩٠ من طبعة بولاق ١٢٩٩ . وراجع أيضاً لسان العرب ج ١٨ ص ٦ من
طبعة بولاق .

(٦) ديوان ص ٩٩ — ١٠٢ من طبعة باريس أو ١٨٢ — ١٨٤ من طبعة مصر ١٢٩٣
[أو ٢٥٥ — ٢٦٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

ومقطّعتان^(١) غير أنّها جميعها في غاية الخلاعة والفسق لا سيما المقطّعتان الشبيهتان
بمجنون أبي نواس . فختم القصيدة قائلاً^(٢) :

فيا ربّ إن تغفر لنا ليلة النقا فكلّ ذنوبي أنت ياربّ غافرة

وربّما افتخر بقبيلته وهي تميم فجعلها فوق سائر الناس حتى قال^(٣) :

وأفضل من يمشى على الأرض حيناً وما ضمنت في الذاهبين قبورها...
ولو أنّ أرض المسامين يحوطها سوانا من الأحياء ضاعت تغورها
لنا الجنّ قد دانت وكلّ قبيلة يدين مصلوها لنا وكفورها

وأراد أيضاً الفخر بنفسه حيث أنّه كان من أجهن الناس لم يقدر على تخليد ذكر
مآثره في الحرب فاكتمى بوصف ذبحه الغنم للقرى كأنّه واصل قتالاً شديداً وملحماً
هائلاً مرعباً^(٤) . وكان الفرزدق من أهجى الشعراء فكاد الهجاء يملأ نصف ديوانه
وهو هجاء بشع قبيح كلّ شتم سافل وتعيير وابتهاز في الأخوات والأمّهات وقذف
للمخصّصات الغافلات توافق بذاءة ألفاظه دناءة معانيه . ولعلّه تاب إلى الله أحياناً
وهو مُسنّ في سوء هجائه فيروى في ديوانه أن رجلاً من موالى باهلة يقال له حُمّام
أعطى الفرزدق نجيماً من سمن بشرط أن يهبّ له أعراض قومه ففعل الفرزدق وهجا
إبليس في قصيدة كأنّه^(٥) ملهم ما قد مرّ من أهاجيه . ومن هذه القصيدة :

(١) ديوان ص ٢٢٩ — ٢٣٠ من طبعة باريس [أو ٣٠٨ — ٣٠٩ و ٨٩٤ — ٨٩٥ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا توجد المقطعتان في طبعة مصر ١٢٩٣ .

(٢) ديوان ص ١٠٢ سطر ٥ من طبعة باريس [أو ص ٢٦٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] وهذا البيت غير موجود في طبعة مصر ١٢٩٣ .

(٣) ديوان ص ١٦٧ من الطبعة الباريسية [أو ص ٢٧٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا تروى القصيدة في طبعة مصر ١٢٩٣ .

(٤) ديوان ص ٥٨ من طبعة باريس أو ص ١٦٣ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٨٩٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٥) ديوان ص ١٠٩ — ١١١ من طبعة باريس أو ١٨٦ — ١٨٧ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٧٦٩ — ٧٧١ من طبعة مصر ١٣٥٤] ويروى البيت الأول والثاني والثالث في ديوان جرير (ج ٢ ص ٦٩ من طبعة

أَلَمْ تَرَنِي عَاهَدْتُ رَبِّي وَإِنِّي لَبَيْنَ رِتَاجٍ قَاسِمٌ وَمَقَامٍ
 عَلَى قَسَمٍ لَا أَشْتَمُ الدَّهْرَ مَسَامًا وَلَا خَارِجًا مِنْ فِي سَوْءِ كَلَامٍ
 أَلَمْ تَرَنِي وَالشُّعْرَ أَصْبَحَ بَيْنَنَا دُرُوءَ مِنَ الْإِسْلَامِ ذَاتُ حَوَامٍ....
 ومنها :

لَعَمْرِي لِنِعَمِ النَّحْيِ كَانَ لِقَوْمِهِ عَشِيَّةَ غَبِّ الْبَيْعِ نَحْيِي حُمَامٍ
 بَتُوبَةٍ عَبْدٍ قَدْ أَنَابَ فَوَادُهُ وَمَا كَانَ يُعْطَى النَّاسَ غَيْرَ ظَلَامٍ
 أَطَعْتُكَ يَا إِبْلِيسُ سَبْعِينَ حِجَّةً فَلَمَّا انْتَهَى شَيْبِي وَتَمَّ تَمَامِي
 فَرَرْتُ إِلَى رَبِّي وَأَيَقَنْتُ أَنَّي مُلَاقٍ لَأَيَّامِ الْمَنُونِ حِمَامِي....
 ومنها :

أَلَا طَالَ مَا قَدِ بَتُّ يُوْضَعُ نَاقِي أَبُو الْجَنِّ إِبْلِيسُ بَغِيرِ خِطَامٍ
 يَظْلُ يُمْنِنِي عَلَى الرَّحْلِ فَارِكًا يَكُونُ وَرَائِي مَرَّةً وَأَمَامِي
 يَبْشِرُنِي أَنْ لَنْ أَمُوتَ وَأَنَّهُ سَيُخْلِدُنِي فِي جَنَّةٍ وَسَلَامٍ
 وَلَكِنْ لَا شَكَّ أَنَّ إِبْلِيسَ عَادَ يَزُورُ الشَّاعِرَ بَعْدَ مَدَّةٍ قَلِيلَةٍ لِأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَهْجُو
 النَّاسَ إِلَى مَمَاتِهِ .

قال يونس بن حبيب النحوي المتوفى سنة ١٣٢ أو ١٣٣ : « لولا شعر الفرزدق
 لذهب ثلث لغة العرب ^(١) ». والحق يقال إن شعره أوفر ألفاظاً من شعر الأخطل ^(٢) .
 إلا أن الفرزدق كان أيضاً أكثر الشعراء تنحلاً فسرق أبيات السابقين والمعاصرين

مصر ١٣١٣) وفي شرح الزبيدي على النقاظ ج ١ ص ١٢٦ من طبعة ليدن أما الأحوال التي قال
 الشاعر فيها هذه القصيدة فما يحكى فيها في الديوان مختلف عما يحكى في النقاظ . — الرتاج الباب
 العظيم وهنا باب الكعبة ومقام مقام إبراهيم — دروء جمع درء وهو نادر يندر من الجبل — حوام
 جمع حامية ونحى زق السمن .

(١) كتاب الأغاني ج ١٩ ص ٤٨ .

(٢) J. HELL, *al-Farazdak's Lieder auf die Muhallabiten* (Zeitschrift der deutschen

morgenländischen Gesellschaft, 59, 1905) p. 590,2.

بدون حياء بل اضطر أحياناً بعض الشعراء إلى ترك شيء من شعرهم له^(١) كأنه أحقُّ به. لا يتصور الكلام على الأخطل والفرزدق بدون ذكر معاصرها وخصمهما الشهير أعنى جريراً. وهؤلاء الثلاثة كلهم من شعراء الصنف الثالث على ترتيبنا وهم الذين حكم لهم إجماع أهل الأدب بحوز قصب السبق في أيام بني أمية. وجرير بن عطية ابن الخطمي من بني كليب حتى من تميم كان على المحتمل من أهل اليمامة^(٢) وبها مات وقبره ولكنه عاش على الغالب بالبصرة وغيرها من مدن العراق ولازم الحجاج ابن يوسف وكان من جملة الشعراء الذين أكثروا الثناء عليه. وأختلف في تاريخ مماته فقيل إنه توفي سنة ١١٠ وقيل سنة ١١١ وقيل أيضاً إنه مات بعد الفرزدق بشهور قليلة^(٣). ومن المثلث^(٤) أنه قد صاغ أشعاره الأولى في مدة خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤١ — ٦٠) ففي قصيدة نسجها في هذه المدة وصف نفسه كأنه قد أدرك آخر الشباب^(٥):

لقد حَبَّرَتْنِي النفسُ أنِّي مُزَايِلُ شَبَابِي وَوَصَلَ الْمُنْفِسَاتِ الْأَوَانِسُ

وموضوع جميع ديوانه ثلاثة: الهجاء والمديح والريثاء. والريثاء يسير وكل مقطعة منه لا تشمل إلا على أبيات قليلة لا تتجاوز أحياناً عدد اثنين أو ثلاثة^(٦). والمديح

(١) انظر كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١١٦ و ج ١٩ ص ٢٢ — ٢٣ (فيه أربعة أبيات لدى الرمة) و ج ١٩ ص ٣٦ (بيت لشمر دل) و ج ١٩ ص ٧ (بيتان لابن ميادة) والعمدة لابن رشيح ج ٢ ص ٢١٨ — ٢١٩ من طبعة مصر ١٣٢٥ (الفرزدق وجيل).

(٢) كتاب الأغاني ج ١٩ ص ٤٦: «ونسبت جريراً إلى البصرة لكثرة قدومه إليها من اليمامة وقبر جرير باليمامة وبها مات».

(٣) كتاب وفیات الأعيان عدد ١٢٩ من طبعة غوتنجن أو ١٢٧ من الطبعات المصرية وكتاب الأغاني ج ١٩ ص ٦ و ٤٥ و ٤٦ وانظر أيضاً ما قلته في تاريخ موت الفرزدق ص ١٣٧ حاشية ٢. (٤) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٥٩ من طبعة بولاق ومقدمة الأستاذ Bevan للنقائض ص ١٧ حاشية ١.

(٥) النقائض عدد ١٦ بيت ٢ (ج ١ ص ٢٦) وديوان جرير ج ١ ص ١٥٣ سطر ٤ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٣٢٨ من طبعة مصر ١٣٥٤] — النفس كل شيء له قدر وخطر وقال شارح النقائض أن المنفسات هي العظيمات الأقدار.

(٦) ديوان ج ١ ص ٨٢ و ٩٢ — ٩٣ و ٩٦ و ٩٨ و ١٢٥ و ١٣٧ و ١٤١ و ١٥١

في الحجاج بن يوسف حين كان والياً على العراق بعد أن أطفأ لهيب الفتن هناك فقال فيه جرير مثلاً^(١) :

دعا الحجاجُ مثلَ دعاءِ نوحٍ فأَسْمَعَ ذا المعارجِ فاستجابا
ولولم يَرْضَ رَبُّكَ لم يُنْزِلْ مع النصر الملائكة الغضابا
إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حربٍ رأى الحجاجَ أَتَقَبَّهَا شهابا
ترى نصرَ الإمامِ عليك حقًّا إذا لبسوا بدينهم ارتيابا
عفاريتُ العراقِ شُفِيتَ منهم فأمسوا خاضعين لك الرقابا
وأعاد تشبيه الحجاج بأحد الأنبياء المنذرين في قصيدة أخرى قال فيها^(٢) :

رأى الحجاجُ عافيةً ونصرًا على رغم المناقِقِ والحسودِ
دعا أهلَ العراقِ دعاءَ هودٍ وقد ضلّوا ضلالةَ قومِ هودِ
كأنَّ المُرجِفِينَ وهمُ نَشَاوَى نصارى يلعبون غداة عيدِ
وظنّوا في اللقاء لهم رَواحًا وكانوا يصعّقون من الوعيدِ

ومدح عبد الملك بن مروان (٦٥٠ - ٨٦٠) وَمَنْ خَلَفَهُ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ
إلى هشام بن عبد الملك (٧٢٤ - ١٢٥) فأدرج في تلك المداخل أحياناً عبارات دينية
وإشارات قرآنية مثل ما فعل الفرزدق فمن هذا القبيل ما قال في عمر بن عبد العزيز^(٣) :

خليفةَ الله ماذا تأمرون بنا لسنا إليكم ولا في دار منتظر
أنت المبارك والمهدي سيرته تعصى الهوى وتقوم الليل بالسورِ
أصبحت المنبر المعمور مجلسه زيناً وزين قباب الملك والحجرِ

— ١٥٢ و ١٦٩ — ١٧٠ و ج ٢ ص ٢١ — ٢٢ و ٣٩ و ٤١ و ١٠١ و ١١٣ من
طبعة ١٣١٣ [ورويت في طبعة مصر ١٣٥٤ اثنتان وعشرون مرثية فانظر ص ه من الفهرست] .
(١) ديوان ج ١ ص ٩ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ١٦ من طبعة ١٣٥٤] .
(٢) ديوان ج ١ ص ٤٦ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ١٢٠ من طبعة ١٣٥٤] .
(٣) ديوان ج ١ ص ١٢٥ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٢٧٥ من طبعة ١٣٥٤] .

نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربّه موسى على قدر

وقال يمدح الوليد بن عبد الملك^(١) :

فأنت لربّ العالمين خليفة وليّ لعهد الله بالحقّ عارف
هداك الذي يهدي الخلائق للتقى وأعطيت نصراً لم تنله الخلائف
وأدّت إليك الهند ما في حصونها ومن أرض صينستان تُجبي الطرائف
وأرض هرقل قد قهرت وداهرا وأسعى لكم من آل كسرى النواصف
وذلك من فضل الذي جمعت له صفوف المصلّي والهدى العواكف

وفي قصيدة أخرى يمدح الوليد بن عبد الملك أيضاً قال^(٢) معرضاً بهدم كنيسة
النصارى بدمشق الذي تقدّم قول الفرزدق فيها :

ولقد سموت إلى النصارى سموةً رجفت لوقعها جبال الديلم
إن الكنيسة كان هدمُ بنائها نصراً فكان هزيمة للأخرم
فأراك ربك إذ كسرت صليبهم نور الهدى وعلمت ما لم تعلم

ولكن أكثر مدائحه لا تنفك أن تجرى مجرى شعر الجاهلية في مدح سادة
القبائل والأشراف. ومما نتعجب منه في نظم شاعر مثل جرير هو نوع الافتخار الوارد
في إحدى قصائده بعد ما ذكر فخر الفرس والروم بملوكهم السالفين فقال وهو افتخار

(١) ديوان ج ٢ ص ١٣ — ١٤ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٢٨٤ — ٢٨٥ من طبعة
١٣٥٤] ونجد مثل هذه العبارات الدينية في قصائد قالها في الخلفاء وأمرائهم (راجع ديوان ج ١
ص ٦١ و ٦٥ و ٧٣ و ١٠٧ من طبعة ١٣١٣ [أو ١٥٣ و ١٥٩ و ١٧٦ و ٢٤٣ من طبعة
مصر ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ج ٢ ص ٨٥ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٤٩٣ من طبعة ١٣٥٤] — أخرم
الذي شق وترّة أنفه وهو لقب ملك من ملوك الروم واسمه Justinianus الثاني فليراجع ما يحكي
المسعودي في الباب السادس والتسعين من مروج الذهب (ج ٥ ص ٣٨١ — ٣٨٢ من طبعة باريس)
في هدم البيعة والأخرم .

إسلامي محض^(١) فريد في ديوانه المصوغ في قالب القدماء :

أبونا أبو إسحاق يجمع بيننا أب^١ كان مهدياً نبياً مطهراً
ومنا سليمان النبي الذي دعا فأعطى تبياناً ومُلْكاً مسخرًا
وموسى وعيسى والذى خرّ ساجداً فأنت زرعاً دمعُ عينيه أخضرا
ويعقوبُ منّا زاده اللهُ حكمةً وكان ابنُ يعقوب أميناً مصوراً
فيجمعنا والغرّ أبناءُ سادةٍ أب^٢ لا نبأى بعده من تعذراً
أبونا خليل الله والله ربنا رضينا بما أعطى الإلهُ وقدراً
بنى قبلته الله التي يهتدى بها فأورثنا عزّاً ومُلْكاً معمرًا

وشتان ما بين هذا القول وبين الافتخار المعتاد في سائر أشعار جرير المقتفى أثر
الأقدمين مثل أبياته في الأخطل^(٢) :

إنّ الذى حرّم المكارم تغلباً جعل النبوة والخلافة فينا
مُضرّ أبى وأبو الملوك فهل لكم يا خُزّرَ تغلبَ من أبٍ كأبينا
هذا ابنُ عمّى في دمشق خليفة لو شئتُ ساقكمُ إلى قَطينا

وكمثل الأخطل لم يصُغ جرير الشعر في الغزل أبداً لبعده عن أساليب أهل
القبائل فيروى في كتاب الأغاني^(٣) أنّه قال في شعر عمر بن أبي ربيعة : شعرُ تَهاى
إذا أنجد وجد البرد . وسمِع مرّةً بعض الأبيات لعمر بن أبي ربيعة فأعجبته فقال :

(١) ديوان ج ١ ص ١٠٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٤٣ من طبعة ١٣٥٤] أو
النقائض عدد ١٠٤ بيت ٢٧ - ٣٤ ج ٢ ص ٩٩٤ - ٩٩٥ من طبعة ليدن .
(٢) ديوان ج ٢ ص ١٥١ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٥٧٨ - ٥٧٩ من طبعة ١٣٥٤]
وانظر أيضاً الكامل للبرد ص ٥٢٦ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١١٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ٣٨ و ٧٢ من طبعة بولاق وراجع العقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٣٣
سطر ٢ - ٤ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفيه تحريف - تهاى يعنى مكيا ومن المشهور أن مكة في
التهمة ، وهذى تكلم بغير معقول لمرض أو غيره .

ما زال هذا القرشيَّ يَهْدِي حتَّى قال الشعر . وهذا يوافق ما أوضحت في أحد الصفحات السابقة من الفرق بين شعر المدن الحجازية وشعر أهل الوب في القرن الأوّل للهجرة . — أمّا النسيب في أوائل القصائد فعاظه جرير في الأغلب على منوال أشعار الجاهلية وذكر الأطلال والدِّمْن والاسَى والعاذلات ولكِنَّه ربّما عدل عنه كأنّه مقتدٍ ببعض قصائد الأخطل فجاء بذكر الغواني الفاتنات ذوات دلال وجمال . ومن هذا القبيل ^(١) :

إنَّ الغوانيَّ قد قطعن مودتي بعد الهوى ومنعن صفوَّ المشربِ
وإذا وعدتك نائلاً أخلفنه وجعلن ذلك مثل برق الخلبِ
يُبديَن من خلل الحِجال سوالفاً يبيصاً تُزيَن بالجمان المذهبِ
أعناقُ عاطيةِ الغصون جوازيُّ يبعثن بالأدُمى عروقَ الخلبِ

ولعلَّ ثلثي شعر جرير في المهجاء وهو في الأغلب هجاء لا ذع جداً لا تخلو إحدى مقطعاته أو قصائده عن قذف النساء بالفواحش وعن الكلام السافل البذيء المستقبّح مثل الوارد في أهاجى الفرزدق . قال ابن رشيق القيروانيّ في كتاب العمدة ^(٢) : « وأنا أرى أنّ التعريض أهدى من التصريح لاتّساع الظنّ في التعريض وشدة تعلّق النفس به والبحث عن معرفته وطلب حقيقته فإذا كان المهجاء تصريحاً أحاطت به

(١) ديوان ج ١ ص ١٠ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ١٨ — ١٩ من طبعة ١٣٥٤] — الخلب السحاب لا مطر فيه كأنه يمدح الشام ويقال لمن يعد ولم ينجز : إنما أنت كبرق خلب (كبرق الخلب) — حلل جمع خلّة وهي الثقبه — حجال جمع حجلة وهي ستر العروس في جوف البيت وفي الصحاح : « بيت يزين بالثياب والأسرّة والستور » — سواف جمع سافلة وهي صفحة العنق وقيل ناحية مقدمها من لدن معلق القرط إلى قلت الترقوة وهما سالفتان — الجوازيّ الوحش بأسره لاستغنائها بالكلا عن كثرة الماء — الأدمي موضع في أواسط جزيرة العرب — حلب نبت ينبت في القيط بالقيعان وشيطان الأودية ويلتق بالأرض حتى يكاد يسوخ وإنما يأكله الشاء والظباء ويدبغ بها . وفي البيت الثالث قرأت « بالجمان » بدلا من « بالجمال » كما في الديوان — فانظر نسياً ثانياً في ديوانه ج ١ ص ١١٣ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٢٥٤ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) كتاب العمدة ج ٢ ص ١٤٠ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

النفسُ علماً وقبيلته يقيناً في أوّل وهلة فكان كلّ يوم في نقصانٍ لِنِسيانٍ أو مللٍ .
ولكن لم يكن هذا رأى شعراء الصنف الذي نحن بصدده فقال نفس ابن رشيق :
« وجميع الشعراء يرون قِصر الهجاء أجودَ وتركَ الفُحش فيه أصوبُ إلا جريراً
فإنّه قال لبنيه إذا مدحتم فلا تُطيلوا المادحة وإذا هجوتهم فخالفوا » . ومن المشهور
أنّ جريراً لم ينفك يهجو غيره من الشعراء وعشائهم طولَ عمره فقال الأصمعي^(١) :
« كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً فينبذهم وراء ظهره ويرمي بهم واحداً واحداً
ومنهم من كان ينفخه^(٢) فيرمي به وثبت له الفرزدق والأخطل » . فذكر بضع
أخصامه من الشعراء في قصيدة قال فيها^(٣) :

خزى الفرزدقُ والأخطلُ قبله والبارقُ وراكبُ القِصواءِ
ولأعورَى نَبهانَ كأسُ مرّةٍ ولتيمَ برزّةٍ قد قضيتُ قضائي
ولقد تركتُ أباك يا ابنَ مسحَبٍ حَظَمَ القوائمَ داميَ السِّيساءِ
والمستنيرُ أجيرُ برزّةٍ عائداً أمسى بالأُم منزلَ الأحياءِ
وبنو البعيثِ ذكرتُ حمرةَ أمِّه فشفيتُ نفسي من بني الحمراءِ

وإذا تأملنا حكاية ابتداء التحام التهاجي بين جرير والفرزدق خلناها من روايات
زمان الجاهليّة . فهي أنّ الأهاجي كانت تدور بين جرير والبعيث من بني مجاشع رهط

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٤٠ من طبعة بولاق .

(٢) [وفي طبعة دار الكتب المصرية ج ٨ ص ٨ ينفعه بالخاء المهمله بدلا من ينفخه بالخاء
المعجمة وهو على ظني الأصح] .

(٣) ديوان ج ١ ص ٦ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ١١ من طبعة ١٣٥٤] . — البارقي
هو سراقه بن مرداس البارقي — القِصواء ناقة للمرار بن منقذ من بني العدوية (انظر كتاب الأغاني
ج ٧ ص ٤٦) — أعور نهبان اسمه نعيم بن شريك وقيل جرّيث بن عناب وقيل سحمة بن نعيم
وقيل سحيم بن شريك (انظر النقائض ج ١ ص ٣١ — ٣٢ والاشتقاق لابن دريد ص ٢٣٦ سطر
٦ ولسان العرب ج ١٧ ص ٢١٥) — تيم برزّة يعني عمر بن لجأ التيمي وبرزّة اسم أمه (انظر
لسان العرب ج ٧ ص ١٧٤ سطر ٦) — المستنير بن سبرة الغنوي — البعيث المجاشعي ويقال له
ابن حمراء العجنان (انظر نقائض عدد ٣٣ بيت ٢٩ و ٣١ و ٣٦ و ٦٣ و ٦٥ مثلاً) .

الفرزدق فامّا أحسّت بنو مجاشع بغلبة جرير على شاعرهم وبلغهم فحش جرير بنسأهم اضطروا الفرزدق إلى الدخول بينهما ففعل كارهاً فاكثف أَوْلاً بالدفاع عن عشيرته بدون ذكر جرير ولا شتم بنى كليب فأجابه جرير وصالوه وعشيرته صولةً شديدةً فالتهب نيران شرّ العداوة بين الشاعرين . ومن بعض الأخبار ونفس القصائد يُستخرج أنّ ابتداء ذلك كان بعد موت يزيد بن معاوية (٦٤٣) بقليل وقد مضى لكليهما عُنْفوان الشَّباب^(١) . أمّامدة هذا التهاجي بينهما فأطولُ من أربعين سنةً لأننا نعرّف في إحدى قصائد الفرزدق فيه على ذكر خلافة هشام بن عبد الملك الذي ابتداءً يتولّى الأمر سنة ١٠٢/٧٢٤^(٢) .

من المشهور أنّ نقائض جرير والفرزدق قد جُمعت بعناية أبي عبيدة معمر ابن المثنى التميمي المتوفى سنة ٢٠٧ ثمّ انكسب على شرحها غيره من علماء اللغة حتّى وصلت إلينا بشرح أبي عبد الله محمد بن العباس اليزيدي المتوفى سنة ٣٠٠ روايةً عن الحسن بن الحسين السُّكَّريّ المتوفى سنة ٢٧٥ عن أبي جعفر محمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥^(٣) . فلا أحد يجهل أنّ النقيضة في اصطلاح علماء اللغة والأدب هي قصيدة ينسجها شاعر نقضاً لما قاله شاعر آخر بشرط أن يحفظ بحرَ وروى القصيدة التي يخالفها ويعارضها . ونقائض جرير والفرزدق بالرواية المذكورة عبارة عن كتاب ضخم يتضمّن ١١٣ قصيدة منها ٦٢ لجرير و٣٨ للفرزدق و٦ للبعيث المجاشعيّ وه لغسان بن دُهَيْلٍ واحدى لعُقبة بن مُلَيْصٍ واحدى لُنَعِيم بن شَرِيكٍ وذلك ما عدا الأشعار العديدة المروية في الشرح الوافي الوافر الآتى بقصص الحوادث وأيام العرب الوارد ذكرها في متن النقائض . وأكثر هذه النقائض لا توجد في ديوانيّ الشاعرين . وأهميتها يتجاوز

(١) انظر ما قاله الأستاذ Bevan في مقدمته للنقائض ص ١٧ .

(٢) انظر مقدمة النقائض ص ١٨ — ١٩ .

(٣) انظر مقدمة النقائض ص ١١ — ١٣ . وأدخلت بعض النقائض في ديوان جرير المطبوع بمصر سنة ١٣١٣ فراجع ما قاله Bevan في ص ١٩ — ٢٠ من مقدمته [وأدخل محمد إسماعيل عبد الله الصاوي كل نقائض جرير والفرزدق الشاعرين في ديوانيّ الذين اعتنى بطبعهما سنة ١٣٥٤] .

حدود علم الآداب لأنَّ الشاعرَ في مثلها دفاعاً عنه وعشيرةً وهُجوماً على أخصامه « يضطرُّ إلى تعداد مساوئ أعدائه وذكر الأيام التي تواليت بين قومه وقبائل الذين يهجوهم موضِّحاً ما آلت إليه أمورهم من التضعُّع . فمثل هذه القصائد هي كتار يخ منها نعلم أحوالهم ونطلع على أخبارهم ونعرف رجالهم المشهورين وفرسانهم المذكورين ونتحقَّق الأزمنة والأمكنة التي عاشوا فيها . فكم من الأماكن والبلدان والجبال والوديان والمياه والقرى ورد ذكرها في تلك القصائد وكم من الأبطال لم نكن نعرف أسماءها لو لم نُعلِّمهم لنا النقائض »^(١).

وفي مكتبة جامع بايزيد بالقسطنطينية نسخة خطية من نقائض الأخطل وجريير جمعها وشرحها شرحاً صغيراً أبو تمام صاحب الحماسة المتوفى على القول المرجح سنة ٢٢٨^(٢) . ولكن خلافاً لمجموعة نقائض الفرزدق وجريير لا يتضمَّن هذا الكتاب إلا قصائد مثبتة في ديواني الشعراء لم يتَّضح أنَّها من النقائض إذا راجعنا كلَّ ديوان على حدة . — ومما يجدر ذكره أنَّ جرييراً في نقائضه للأخطل كثيراً ما استعمل عبارات وإشارات إسلامية كأنه من أتقى الناس وسبَّ دين النصارى فقال مثلاً^(٣):

لَعَنَ الْإِلَٰهَ مِنَ الصَّلِيبِ إِلَٰهَهُ وَاللَّابِسِينَ بَرَانِسَ الرَّهْبَانِ

(١) قاله الآب أنطون صالحاني في مجلة المشرق السنة الثالثة عشرة ١٩١٠ ص ٩٧

(٢) راجع ما قاله فيها N. RHODOKANAKIS, Über einige Handschriften der öffentlichen Bibliotheken in Konstantinopel (Orientalische Studien Th. Noeldeke...gewidmet, Giessen 1906, p. 385-392) . مقالته المسماة بنقائض جريير والأخطل في المشرق السنة الثامنة ١٩٠٥ ص ٩٧ — ١٠٧ [وطبعت نقائض جريير والأخطل عن نسخة الأستانة الوحيدة في بيروت سنة ١٩٢٢] .

(٣) ديوان ج ٢ ص ١٤٩ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٥٧٦ من طبعة ١٣٥٤] . أما مارسرجس المذكور في البيت الأخير فهو قدس أكرم بنو تغلب انظر ديوان جريير طبعة ١٣١٣ ج ١ ص ١٣٤ سطر ١٧ و ص ١٣٥ سطر ٨ (حج بنو تغلب لمارسرجس) و ص ١٤٣ سطر ١٥ (استنصر بنو تغلب لمارسرجس وابنه) ثم ج ٢ ص ٢٩ سطر ١٠ (استنصر التغلبيون لمارسرجس) و ص ٥٦ سطر الأخير (دعا الأخطل لمارسرجس) [وهذه الأبيات كلها موجودة في طبعة ١٣٥٤]

والداحين إذا تقارب فصَحُّهُمْ
من كل ساجي الطرف أعصل نابه
تَغَشَى الملائكة الكرام وفاتنا
يُعْطَى كتابَ حسابِه بِشِمالِه
أَيَصْدَقُونَ بمارِ سِرِّجِسَ وأبنه
شُهِبَ الجلود خَسِيسَةَ الأثمان
في كلَّ قائمة له ظِلْفانِ
والتَّغَلَّبَى جِنَازَةُ الشَّيْطَانِ
وكتابُنَا بأَكُفْنَا الإِيْمَانِ
ويكذَّبُون مُحَمَّدَ الْفُرْقَانِ

وغير مرة عَيَّبَ الفرزدق لما كان بينه وبين الأخطل من الصداقة فجعله من
الكفار على أنه مسلم^(١):

إنَّ الفرزدق حين يدخلُ مسجدًا
إنَّ الفرزدق لا يبالي مَحْرَمًا
إنَّ الفرزدق في جُلَاجِلِ كَرَجِ
رهطُ الفرزدق من نصارى تغلبِ
حُجَّوُ الصَّليبِ وَقَرِّبُوا قُرْبَانَكُمْ
ومن هذا الضرب أيضاً^(٢):

أَلَا قَبِّحَ اللهُ الْفِرْزَدَقَ كُلَّمَا
فَلَا يَقْرَبَنَّ الْمَرْوَتَيْنِ وَلَا الصِّفَا
أَهْلَ الْمُصَلَّى لِلصَّلَاةِ وَكَبَّرَا
وَلَا مَسْجِدَ اللهِ الْحَرَامَ الْمُطَهَّرَا

ص ٢٩٢ سطر ١ و ص ٢٩٣ سطر ٢ و ص ٣٠٨ سطر ٣ . و ص ٤١٤ سطر ٣ و ص ٤٥١
سطر ٢ . وراجع أيضاً بيت الأخطل في ديوانه ص ٣٠٩ :

لما رأونا والصليب طالعا ومار سرجيس وسمّا ناقعا

فيسبَّ جرير دين النصارى أيضاً في أبيات أخرى فراجع ديوانه ج ١ ص ١١ و ١١٦ و ١١٧
و ١٣٤ و ١٣٥ و ج ٢ ص ٥٦ و ٨٠ و ٨١ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٢١ و ٢٦١ و ٢٦٢
و ٢٩١ و ٢٩٣ و ٤٥٠ و ٤٧٤ و ٤٧٦ من طبعة ١٣٥٤] . وكل الأبيات موجودة في قصائد
يهجو فيها الأخطل .

(١) ديوان ج ١ ص ٨١ من طبعة ١٣١٣ [أو ١٩٣ — ١٩٤ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ج ١ ص ١١٠ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٢٤٨ من طبعة ١٣٥٤] .

فإنَّكَ لو تُعْطِيَ الفرزدقَ درهمًا على دينِ نصرانيَّةٍ لَتَنَصَّرَا
وقوله (١):

وقد احقَّ الفرزدقُ بالنصارى لِيَنْصُرَهُمْ وليس به انتصارُ
ويسجدُ للصليب مع النصارى وَأَفْلَجَ سَهْمُنَا فلنا الخيارُ
ولكن واضح أنَّ مثل هذا الكلام عند جرير تعصَّب قومي في الحقيقة
ولا تعصَّب ديني .

اختلفت العلماء في تفضيل بعض هؤلاء الثلاثة على بعض وفي أيَّهم المتقدم
وأغزروهم بحراً وأرقَّهم شعراً وأهتكمهم لعدوِّه فلو أردت إيراد جميع أقوالهم لأَحْتَجَّتْ إلى
إفراد درس لهذا الموضوع بغير أن نحصل بعده على نتيجة لا تنازع في صحتها (٢) . —
والذي يجتمع على رأي من مراجعة دواوينهم ونقائضهم أنَّ الأخطل فاق معاصريه
في التصرُّف في النسيب الخالي عن التكلف الصادر عن القلب ثم في خِر المدائح
وفي العفاف عن الفُحْش . وهو انفراد بتعاطي الخمر يات لأنَّ ما للفرزدق من هذا
الضرب إنَّما شيء قليل جداً كاد لا يُدْكَر وله الفضل أيضاً في وصف المناظر
الطبيعيَّة يصورها بغاية الإتيقان والقوَّة في التعبير مع وجيز الكلام فيخال القارىُّ
أن يشاهدها فلم يُدْرِك الفرزدق ولا جرير براعته في ذلك (٣) . والفرزدق فاق
سائر الثلاثة في وفرة المراثي وجودتها ورشاقها ثم في التصرُّف في اللغة لكنَّه
أخبثهم فيما يمجِّه الذوق السليم من الكلام القذع وأوقعهم تنحُّل أبيات غيره

(١) ديوان ج ١ ص ١٠٥ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٢٣٨ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) راجع الحكاية الغريبة عن تشاجر الناس في عسكر المهلب بن أبي صفرة (حين كان
يقاتل الأزارقة بفارس) في مسألة أجرير أشهر أم الفرزدق (كتاب الأغاني ج ٧ ص ٣٩ و ٥٥
من طبعة بولات) .

(٣) انظر في الديوان ص ١٥ مثلاً وصف الأبن الوحشية تشرب من مجرى المياه العذبة وألاحظها
إلى الغيضة حيث تخشى الصيد متوارياً يترصدها وفي ص ٢٣٥ سطر ٢ إلى ٢٣٦ سطر ١ وصف
الحجر الوحشية وفي ص ٢٣٠ سطر ٢ إلى ٢٣١ سطر ٧ وصف رحلة الثور في الليل وقتاله للضراء .

أَمَّا هجاء الفرزدق وجريير فقليل إنَّ أهاجى جرير كلّها تدور على أربعة أشياء هي القَيْن^(١) والزناء وضرب الرومى بالسيف^(٢) والنفي من المسجد^(٣) ولا يهجو الفرزدق بسوى ذلك . فهو حكمٌ غير منصف قد سبق إلى إبطاله ضياء الدين نصر الله بن الأثير الجزرى وإن بالغ قليلاً في مدافعتة عن جرير^(٤) .

ومن الشعراء المجيدين من هذا الصنف الثالث غيلان بن عُقبة الشهير بذى الرمة الذى حُكِمَ له في الشعر بمنزلة لا تنحطّ عن منزلة الثلاثة المتقدمين إلّا بشيء يسير . والمعروف من أحوال حياته قليل جداً أعنى أنّه كان من قبائل أواسط جزيرة العرب وكان يأتى الحضر فيقيم بالكوفة والبصرة ومدح بلال بن أبى بُردة بن أبى موسى الأشعرى وشبّب في شعره بميّة وخرّفاء . أمّا موته فقال صاحب كتاب الأغاني^(٥) إنّ ذا الرمة توفى في خلافة هشام بن عبد الملك ($\frac{100}{724} - \frac{120}{743}$) وهو ابن أربعين سنة وقال ابن خلدكان^(٦) إنّّه مات سنة ١١٧ . ودُفن برمال حُرّوى في وسط الدهناء بأرض اليمامة . وله ديوان وصل إلينا بروايتين كبرى وصغرى وكلتاها غير مطبوعتين^(٧) والكبرى عبارة عن نحو ثمانين قصيدة ومقطعة وعشر منها أراجيز .

(١) لقب جرير الفرزدق وأصحابه بالقين أى الحداد احتقاراً لهم وفي النقائض عدد ٣٣ بيت ٤٩ القين العراق هو البعث المجاشعى .

(٢) أشار إلى الحكاية المروية في كتاب الأغاني ج ١٤ ص ٨٥ — ٨٨ من طبعة بولاق حين ضرب الفرزدق أسيراً رومياً ضربات بالسيف فلم يصنع شيئاً : انظر أبيات جرير والفرزدق في حماسة البحترى ص ٧١ من طبعة ليدن أو ص ٤٤ — ٤٥ من طبعة بيروت (عدد ٢٠٣ و ٢٠٥) والنقائض ص ٤١٣ من طبعة ليدن ومفتاح العلوم للسكاكى ص ٣٠٤ من طبعة مصر ١٣١٧ .

(٣) ديوان ج ١ ص ٥٠ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ١٢٨ من طبعة ١٣٥٤] .

(٤) المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر ص ٤٩٠ — ٤٩١ من طبعة بولاق ١٢٨٢ أو ص ٣١٥ — ٣١٧ من طبعة مصر ١٣١٢ .

(٥) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٢٦ من طبعة بولاق .

(٦) وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٣٥ من طبعة غوتنجن أو ٤٩٦ من الطبعات المصرية . (٧) [طبعت رواية الديوان الكبرى في مدينة Cambridge سنة ١٩١٩

بعناية C.H.M. Macartney وطبع أيضاً الديوان في بيروت سنة ١٣٥٢ بعناية بشير ميوت] .

قال أبو عمرو بن العلاء النحوي^(١) المتوفى سنة ١٥٤ : « إن الشعر فُتِحَ بأمرى القيس وختم بذي الرمة » ويُنسب أيضاً إلى أبي عمرو بن العلاء هذا القول^(٢) : « إنما شعره نُقِطَ عروس تضمجلاً عما قليل وأبعار طباء لها شَمٌّ في أوّل شَمِّها ثمَّ تعود إلى أرواح الأبعاد »^(٣) . ولعلكم تسألون كيف يجتمع هذان القولان مع ما فيهما من التناقض الظاهر . فأقول : الواضح على ظني أن أبا عمرو بقوله الأوّل إنّما أراد الشعر على منوال قصائد الأعراب في أيام الجاهلية فإن كان هذا مراده لأصاب قوله لأنّ ذا الرمة آخر النوايع الذين تمسكوا بأساليب القريض القديم لغة ومعنى وموضوعاً . فلو قرأ مثلاً أحد قصيدته الشهيرة التي مطلعها^(٤) :

ما بال عينك منها الماء ينسكبُ كأنه من كلى مفرية سربُ
وفراء غرْفية أثأى خوارزها مشلّش ضيعته بينها الكتبُ

ولم يعرف اسم قائلها لخالها من نسج فحول الجاهلية . فبين شعر ذى الرمة وبين شعر الأخطل والفرزدق وجريز فرق لا يُنكر فإنّ هؤلاء الثلاثة متوسطون بين مسلك القدماء المشهور وطريقة الذين عاشوا بعد ابتداء الدولة العباسية وعلى أنّهم من أهل القبائل أخذوا من عواطف أهل الحضرة شيئاً فاتوا أحياناً بمعانٍ لم يسبق إليها شعراء الجاهلية ووصفوا ما لم يصفه القدماء لعدم معرفتهم به وعدلوا عن أنواع التوحّش في كثير من أبياتهم وليّنوا كلامهم وإن كانت مُعظم أشعارهم تدور على المدار القديم . أما ذو الرمة فلم يزل بدويّاً محضاً فأفكاره وأمياله وأنواع وصفه ومواقع

(١) كتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ [أوج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة مصر ١٣٥١] والوفيات لابن خلكان في الموضع المذكور سابقاً .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١١٥ (مرتين) وفي الوفيات لابن خلكان في الموضع المذكور .

(٣) قال صاحب خزائن الأدب ج ١ ص ٥٢ من طبعة بولاق : « قال المبرد معنى قوله نُقِطَ عروس أنها تبقى أول يوم ثم تذهب ويعبر الطباء إذا شمته من ساعته وجدت فيه كرائحة المسك فإذا غب ذهب ذلك منه ... وقال الأصمعي إن شعر ذى الرمة حلوا أوّل ما تسمعه فإذا كثّر إنشاده ضعف ولم يكن له حسن » .

(٤) جهرة أشعار العرب ص ١٧٧ - ١٧٨ من طبعة بولاق ١٣٠٨ .

كلامه جارية مجرى أمثالها عند أعراب الجاهليّة لا غير فتعثرون في شعره على كثير من الوحش وغريب الألفاظ وتجدون فيه أحياناً التراكيب الصعبة الفهم لما فيها من التقديم والتأخير مثل قوله^(١) :

كأَنَّنا على أولادٍ أَحَقَبَ لَاحِها وَرَمَى السَّفا أكَفَها بِسَها
دَبُورٌ ذَوَتْ عنها التَّناهى وَأَلَحَقَتْ بها يَوْمَ ذَبَّاتُ السَّيِّبِ صِيا

وتعاطى الأراجيز مع القصائد وذلك دلالة أخرى على سلوكه مسلك القدماء حسباً يأتي بيانه عند الكلام على شعراء الصنف الرابع . وكل قصيدة له لا تخلو عن الوقوف على المنزل الدائر والرسم العافي وعن ذكر الأسى على ذهاب القوم بمعشوقة الشاعر وانسجام الدموع لذلك ثم عن الكلام على السفر الشاق الطويل في الرمال والكُثبان والمفاوز الهائلة مع الإطناب في وصف للمهامه والليل المرعب وزيف الجن^(٢) في البوادي والحمير الوحشية والصيد والناقة والأنساع والأزمة وهلمَّ جرّاً فبعد ذلك يبتدىء الشاعر بالمديح أو الهجاء . وخلاصة القول أنه لم يخرج عن مناهج فحول الشعراء الوثنيين إلا في النادر حين قال مثلاً في آخر أرجوزة^(٣) :

فقلت لا والمُبْدِئُ المُعِيدُ اللهُ أَهْلُ الحُمدِ والتَّحْمِيدِ

(١) البيتان مرويان في شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ص ٥١١ من طبعة بن أوج ٣ ص ٨٧ من طبعة بولاق — أما معناه فـ « كأننا على أولاد أحقب لآحها دبور ذوت عنها التناهى ورمى السفا أكفها بسها وألحقت بها يوم صيام ذبات السيب » - لآحه غيره - ذوى ذبل - تناء جمع التنهاى من الوادى حيث ينتهى إليه الماء من حروفه - سفا شوكة البهمى والبهمى نبت يشبه الشعير - سهام حر السموم - أ كفال جمع كفل وهو الردف أو العجز - سيب شعر الذنب والعرف - ويوجد أحياناً مثل هذا التركيب الغريب في شعر الفرزدق فراجع ما قاله Noeldeke في كتابه *Zur Grammatik der klassischen Arabisch*, Wien 1896, p. 86-87

(٢) جمع الجاحظ في كتابه الحيوان (ج ٦ ص ٥٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥) GOLDZIHNER, *Abhandlungen zur arabisch Philologie*, Leiden 1896, I, p. 211.

(٣) كتاب مشارف الأفاويز في محاسن الأراجيز بعناية R.Geyer عدد ٢٣ بيت ٧٩ - ٨٥ من طبعة ليبسك ١٩٠٨ .

مادون وقتِ الأجلِ المعدودِ موعودِ ربِّ صادقِ الوعودِ
هلْ أغدُونُ في عيشةٍ رغيدٍ واللَّهُ أَدْنَى لِي مِنَ الْوَرِيدِ
والموتُ يَلْقَى أَنْفُسَ الشُّهُودِ

فمن عرف نوع شعر ذى الرمة وصناعته وأفكاره لما صدق صحة البيتين المرويين
لدى الرمة في كتاب الحاسن والاضداد المنسوب إلى الجاحظ خطأ^(١) :

تَعْصِي الألهَ وَأَنْتَ تَظْهَرُ حُبَّهُ هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لَمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

ولدى الرمة الحظّ الأوفر في التشبيه الجيّد فاق فيه أكثر الشعراء وإن كان ربّما
يُطِيلُهُ بِإِفْرَاطٍ . وكان مثل الفرزدق كثير أخذ الأبيات من غيره فوفرة سرقاته
مشهورة^(٢) .

ثمّ من شعراء هذا الصنف الثالث عُبيد بن حُصَيْن (وقيل عُبيد بن معاوية)
من بنى نُمَيْرَ لُقَبَ بِالرَّاعِي أَوْ رَاعَى الْإِبِلَ لَكثَرَةِ وَصْفِهِ الْإِبِلَ وَجُودَةِ نَعْتِهِ إِيَّاهَا .
كان في الأغلب يسكن فيما هو قريب من البصرة ووالده وأهل بيته سادة وأشراف
بالبادية . وكان مائلاً إلى الفرزدق فهجاه جرير . وأجاد المديح والهجاء ولكن ما عدا
قصيدة طويلة يمدح بها عبد الملك بن مروان (٦٨٥ — ٨٦٠) ^(٣) ما وصل إلينا من
شعره إلا قليل متفرّق في كتاب الأغاني وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وخزانة
الأدب لعبد القادر البغدادي وحماسة أبي تمام وحماسة البُحْتَرِيِّ وغيرها^(٤) . ومن

(١) في باب حاسن الزهد ص ١٨٣ من طبعة ليدن ١٨٩٨ .

(٢) راجع كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٨ — ٣٤٠ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني

ج ١٦ ص ١٢١ من طبعة بولاق .

(٣) القصيدة مروية في جمهرة أشعار العرب ص ١٧٢ — ١٧٦ من طبعة بولاق وفي

ذيل ديوان جرير ج ٢ ص ٢٠٢ — ٢٠٥ من طبعة مصر ١٣١٣ وروى صاحب خزانة الأدب

(ج ١ ص ٥٠٢ — ٥٠٣ من طبعة بولاق) ٢٦ بيتاً لها وقال إنها من ٨٠ بيتاً — أما الأبيات

المروية في الجمهرة فهي ٨٥ . (٤) راجع حماسة أبي تمام ص ٦٦٠ — ٦٦٢ و ٦٦٣ —

٦٦٤ من طبعة بنّ أو ج ٤ ص ٣٥ — ٣٧ و ٣٨ من طبعة بولاق .

المشهور أن غير بيت له سرقة لجودته بعض الشعراء لا سيما الطرمّاح^(١).

ومن معاصري الفرزدق وجريراً أيضاً مرة بن محكان السعديّ سيّد بني ربيع قتله صاحب شرط مضعب بن الزبير افتخر في أشعاره بالتضيف والجود فمن قوله^(٢):

أَلَا فَاسْقِيَانِي قَبْلَ أَغْبَرَ مُظْلِمٍ بَعِيدٍ عَنِ الْأَحْبَابِ مَنْ هُوَ نَازِلُهُ
رَأَيْتُ الْفَتَى يَبْلَى وَيَتَلَفُ مَالَهُ وَتَنْسَكِحُ أَزْوَاجاً سِوَاهُ حَلَالَتُهُ
ذَرَيْنِي أُنَعِّمْ فِي الْحَيَاةِ مَعِيشَتِي فَأَكُلُ مَالِي دُونَ مَنْ هُوَ آكِلُهُ

ومنهم العدّيل بن الفرخ العجليّ الذي هجا الحجاج بن يوسف ففرّ خوفاً منه إلى بلاد الروم ثم طلب منه العفو بأبياته المشهورة^(٣):

فَلَوْ كُنْتُ فِي سَلَمَى أَجَا وَشَعَابِهَا لَكَانَ لِلْحَجَّاجِ عَلَيَّ ذَكِيلُ
خَلِيلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيْفُهُ لِكُلِّ إِمَامٍ مُصْطَفًى وَخَلِيلُ
بَنَى قَبَّةَ الْإِسْلَامِ حَتَّى كَأَنَّمَا هَدَى النَّاسَ مِنْ بَعْدِ الضَّلَالِ رَسُولُ

ومنهم العجيز السلوليّ الذي مدح عبد الملك بن مروان ولعله أدرك خلافة هشام ابن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥) وكان من المشهورين بالإسراف^(٤). — ومنهم

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٤٦ — ٢٤٧ من طبعة ليدن.

(٢) حماسة البحتري ص ٣٤٤ من طبعة ليدن أو ص ٢٣٨ عدد ١٢٩٩ من طبعة بيروت. وأبيات مروية له في كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ٩ — ١١ وفي كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٣١ — ٤٣٢ من طبعة ليدن وحماسة أبي تمام ص ٦٨٧ من طبعة بن أوج ٤ ص ٥٩ — ٦٣ من طبعة بولاق [ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٣٨٣ من طبعة مصر ١٣٥٤].

(٣) رويت له أبيات في كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٤٥ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٣ وحماسة أبي تمام ص ٣٤٧ — ٣٥١ من طبعة بن أوج ٢ ص ١٢٦ — ١٣٠ من طبعة بولاق — والفرخ بفتح أوله وسكون الثاني راجع ما قاله الأستاذ De Goeje في حاشية ١ من ص ٢٤٤ من كتاب الشعر والشعراء.

(٤) كتاب الأغاني ج ١١ ص ١٥٢ — ١٥٩ وحماسة أبي تمام ص ٤١٦ — ٤١٧ و ٧٠٦ — ٧٠٧ من طبعة بن أوج ٢ ص ١٩٣ — ١٩٤ وج ٤ ص ٧٩ — ٨١ من طبعة بولاق والبيان للجاحظ ج ١ ص ٥٣ من طبعة ١٣١٣ [أوج ١ ص ١١٦ من طبعة ١٣٥١ وفي الحاشية أبيات أخرى للشاعر] أو أمالي القالي ج ١ ص ٢٧٨ من طبعة مصر ١٣٢٤ [أوج ١ ص ٢٧٥ من طبعة مصر ١٣٤٤ وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٣٤ — ١٣٥ من طبعة ليدن ١٩١٦].

عَقِيل بن عُلْفَةَ المُرِّي^(١) من أشرف قومه فكانت قریش ترغّب في مصاهرته
فتروّج يزيد بن عبد الملك ابنته الجُرْبَاء . — ومنهم البعيث الجاشعي الذي كان خصماً
من خصوم جرير وخطيباً بليغاً^(٢) — ومنهم الصلتان العبدى^(٣) واسمه قثم بن خبيثة
الذي اجتمع اليه في الحكم بين جرير والفرزدق — ومنهم عمر بن لجأ^(٤) وهو من
خصوم جرير أيضاً وكان راجزاً مقصداً . — ومنهم يَعْلَى الأَحْوَل بن مسلم
الْيَشْكُرِيّ الأزدي الذي كانت عيشته تُشَبِّه عيشة الشَّنْفَرِيّ وتَأَبَّطَ شَرّاً لَّأنَّهُ « كان
لُصّاً فاتكاً خارباً وكان خليعاً يجمع صعاليك الأزد وخُلعاءها فيغيّرهم على أحياء
العرب ويقطع الطريق على السابلة » فيروى له قصيدة قالها وهو محبوس بمكة في
خلافة مروان بن الحكم (٦٤ — ٦٥) ^(٥) . — ومنهم عُويْف القَوَافِي الفَرَازِيّ
من ساكني الكوفة وبيته من البيوتات العرب المَقْدَمَة تعاطى الهجاء والمدح والرثاء في
أيام عبد الملك بن مروان ومن تبعه من بني أميّة حتى أدرك خلافة عمر

(١) كتاب الأغاني ج ١١ ص ٨٥ — ٩٣ من طبعة بولاق وخماسة أبي تمام ص ١٩٦ —
١٩٨ و ٤٤٥ — ٤٤٦ و ٥١٠ من طبعة بن اوج ١ ص ٢٠٩ وج ٣ ص ٢٣ — ٣٤ و ٨٦
من طبعة بولاق [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٥ — ١٤٦ من طبعة ليدن] .
(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣١٢ — ٣١٣ من طبعة ليدن وأبيات مروية له في
كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٦٢ و ١٦٩ وج ٦ ص ٥٧ و ١٣٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ —
١٣٢٥ فراجع كتاب البيان لنفس الجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ .

(٣) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣١٤ — ٣١٦ من طبعة ليدن وراجع كتاب الأغاني
ج ١٤ ص ١٠٢ — ١٠٣ وج ٢١ ص ٤١ ورويت أربعة أبيات من مراثيه للمغيرة المهلب في أمالي المرتضى
(ج ٤ ص ١٠٧ — ١٠٨ في المجلس الثامن والستين) من طبعة مصر ١٢٢٥ [راجع J. KRENKOW ,

The Elegy upon al-Mughirah ibn al-Muhallab (Islamica, II, 1927, p. 344-354)] .

(٤) كتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ وكتاب الشعر لابن
قتيبة ص ٤٢٨ — ٤٢٩ من طبعة ليدن [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٣١ — ١٣٢ من
طبعة ليدن] .

(٥) كتاب الأغاني ج ١٩ ص ١١١ — ١١٢ .

عبد العزيز (٩٩/٧١٧ - ١٠١/٧٢٠) (١).

إن سرّ حتم أنظاركم في كتاب حماسة البُحْتَرِيّ عثرتم على ثلاثة أبواب (٢) مترجمة هذه التراجم: الباب الحادي والسبعون والمائة فيما قيل في مَطل الديون وكسرها على غرماء. الباب الثاني والسبعون والمائة فيما قيل في اليمين وامتناعهم منها بدءاً ليُغَرَّوا غرماء هم بذلك ثمّ مساحتهم بها وتسهيلها عليهم عند المطالبة وتصميمهم عليها. الباب الثالث والسبعون والمائة فيما قيل فيمن تنجّح باليمين وبذلكها لغريمه من غير تمعُّع. — أكثر الشعراء المروية أبياتهم في هذه الأبواب الثلاثة غير المذكورين في سائر المصادر ولكن يتّضح من الإشارات الإسلامية الواردة في عدّة أشعار ومن ذكر الكوفة وفُرس العراق ومن الأسماء الإسلامية أنّهم كانوا بعد ظهور الإسلام وأنّ قسماً منهم ذكروا أواخر القرن الأوّل أو تجاوزها وعلى كلّ حال هم بأسرهم من أهل البادية فيليق بهم جعلهم في هذا الصنف الثالث من الشعر. وأبياتهم حريّة بالاعتبار لما فيها من الدلالة على بعض الأحوال الاجتماعيّة والاقتصاديّة في جزيرة العرب وما يليها من العراق في القرن الأوّل. « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً » (٣): هذا هو الحكم الصالح الكريم الوارد في القرآن الشريف. ولكنّ أولئك التجّار من أهل الحضرة الذين اعتادوا الرِّبْح العظيم بقرض المال في زمان الجاهليّة لم يرضوا بالامتناع عمّا كان يعود عليهم بالفائدة الماليّة العظمى فأتوا

(١) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ١٠٥ - ١١٨ وحماسة أبي تمام ص ١٢٧ - ١٢٨ و٢٦٣ و٦٧٢ من طبعة بن أوج ١ ص ١٣٩ - ١٤٠ و ج ٢ ص ٤٤ و ج ٤ ص ٤٨ من طبعة بولاق وحماسة البُحْتَرِيّ ص ٢٦ و ١٦٠ و ٣٧٨ من طبعة ليدن أو ص ١٤ و ١٠٨ و ٢٦٣ (عدد ٢٨ و ٥٠٠ و ١٤١٥) من طبعة بيروت [وكتاب البيان للجاحظ ج ١ ص ٢٨٨ من طبعة ١٣٥١].

(٢) حماسة البُحْتَرِيّ ص ٢٧٦ - ٣٨٧ من طبعة ليدن أو ص ٢٦١ - ٢٦٨ عدد ١٤١٠ - ١٤٣٤ من طبعة بيروت فراجع LAMMENS, *La république marchande de la Mecque* (Bulletin de l'Institut d'Egypte, V série t. IV, 1911, p. 38-40). [LAMMENS, *La Mecque à la veille de l'hégire*, Beyrouth 1924, p. 145 sgg.]

(٣) القرآن ٣ (آل عمران): ١٣٠.

بالحيل للحصول على ما قد حرمه دين الاسلام فعند البيع لاسيا بالدين صاروا يفتش
أهل البادية مراراً لما وجدوا فيهم من الاحتياج إلى المال ومن السذاجة والجهل
وبما أن الخداع كثيراً ما يدعو الخداع صارت أهل البدو يُبغضونهم ويحاولون
ويردّون الغش بالغش مفتخرين بعملهم هذا لا سيما إن كان ربُّ المال من غير أولاد
العرب . وكل ذلك موصوف في الأشعار المشار إليها بصفة أن يجعلوا التجار المحتدّين
هدفاً لضحك السامعين^(١) .

٤ — فلنخض الآن في الكلام الموجز على الشعر من الصنف الرابع في أيام الدولة
الأموية أعنى الأراجيز . إن هذا النوع من الشعر لا يختلف عن شعر الصنف الثالث
من حيث اللغة والموضوع والمعاني والمبدأ والخروج والاستطراد والنهاية فإنما الفرق
بينهما في القلب الذي صيغاً فيه وهو بحر الرجز المشطور لأشعار الصنف الرابع وسائر
الأبحر لأشعار الصنف الثالث . فلكم أن تعترضوا على سائلين أهذا الفرق المحدود في
جنس العروض يستلزم إثبات صنفين على اتفاقهما في أغلب الأمور . فأقول إن الذي
حملني على مثل هذا التمييز ثلاثة أشياء : ١ إن أراجيز هذا الصنف الرابع نوع
خاص لم يسبق إليه شعراء الجاهلية ولا استعمله شعراء الدولة العباسية . ٢ إن
أكثر الذين تعاطوا الأراجيز انفردوا بها عن سائر أنواع الشعر . ٣ إن أراجيز
الرجز أثر في صناعة الشاعر وأوجب فيها أساليب خاصة لا يوجبها أحد الأعاريف
الباقية المشتمل كل بيت منها على مصراعين .

لا يخفى أن أغلب علماء صناعة الشعر ميّزوا الرجز والشعر (أو القريض) تمييزاً
تاماً وذلك ابتداءً من لغويي القرن الثاني مثل أبي عمرو بن العلاء المتوفى سنة ٥٤٠

(١) ومن أطف هذه الأشعار ما قاله رديني بن عبس الفقعسي مرتجزاً فراجع حساسة البحتري
ص ٣٨٦ — ٣٨٧ من طبعة ليدن أو ص ٢٦٨ عدد ١٤٣٤ من طبعة بيروت .

وتلامذته حسبما يتضح من عدة نصوص قديمة^(١). ففي كتاب النوادر المشهور فترق دائماً أبو زيد الأنصاري المتوفى سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦ ما بين باب شعر وباب رجز. ثم لا أحد يجهل أن نوابغ الشعراء في زمان الجاهلية قلما استعملوا الرجز كأنه ليس أهلاً لمنزلتهم ففي ديوان امرئ القيس لا نعثراً إلا على أربع مقطعات صغيرة منه أعنى اثنتين من المشطور واثنين من غير المشطور^(٢). وأكثر من امرئ القيس ارتجازاً لبيد بن ربيعة من الذين أدرکوا الإسلام تُنسب إليه خمس عشرة مقطعة في الرجز المشطور^(٣) تدور على المفاخرة والحكمة والمعاتبة والمديح والثناء وتشتمل إحداها وهي أطولها على ستة عشر بيتاً.

أما دواوين النابغة الذبياني^(٤) وزهير بن أبي سلمى وعنتر بن شداد وطرفة ابن العبد^(٥) وعلقمة الفحل فلا شيء فيها من الرجز. وعلى كل حال لم يكن الارتجاز

(١) راجع النصوص المروية في J. GOLDZIER, *Abhandlungen zur arabischen Philologie*, I, p. 75 n. 2 وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٣ [أوج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١] وكتاب الأغاني ج ٢١ ص ٨٩ ولسان العرب ج ٧ ص ٢١٦ -- ٢١٧ و ٢١٨ وكتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢١ -- ١٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ فيز أيضاً الأغلب العجلى الرجز والقريض في بيت مروى في لسان العرب ج ٩ ص ٨٤.

(٢) عدد ٤٤ و ٦٠ (رجز غير مشطور) و ٥٣ و ٥٤ (رجز مشطور) من طبعة بعناية

Ahlwardt.

(٣) راجع Die Gedichte des Lebîd... aus dem Nachlasse von A. Huber herausgegeben von

C. Brockelmann, Leiden 1891 عدد ٢٦ و ٣٠ و ٣١ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ و ٤٥ ومقطعات

عدد ١ و ١١ و ١٢ و ١٤ و ٢٣ و ٣١ و ٣٢.

(٤) وفي كتاب الأغاني ج ٩ ص ١٧٦ من طبعة بولاق تنسب إلى النابغة خمسة أبيات في بحر الرجز المشطور قالها مرتجلاً مادحاً جود النعمان بن المنذر والأبيات أيضاً في عدد ١٠ من ذيل ديوان النابغة المطبوع في المجموعة المسماة The Divans of the six ancient Arabic poets بعناية Ahlwardt فراجع R. GEYER, *Beiträge zum Dîwân des Ru'bah* Wien 1910, p. 2 فقال المستشرق Geyer إن موضوع هذه الأبيات يشابه موضوع القصائد.

(٥) أما طرفة فتنسب إليه أيضاً أبيات في بحر الرجز المشطور قالها وهو صبي ولعله استشهد بها فقط وتنسب هذه الأبيات إلى غيره (إلى كليب أخى مهلهل مثلاً) فراجع شعراء النصرانية ص ٢٩٨ وعدد ١١ من ذيل ديوان طرفة في المجموعة المذكورة في الحاشية السابقة.

في زمان الجاهلية إلا بصفة قطع صغيرة يقولها الناس غالباً في الهجاء أو في الحرب وعند اللقاء . أما في القرن الأوّل للهجرة فأخذ بعض الشعراء من الفحول ينظّمون الشعر في ذلك البحر المحتقر فإلى هذا التغيّر أشار ابن رشيق القيروانيّ في كتاب العمدة حين قال ^(١) : « قال أبو عبيدة إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك إذا حارب أو شاتم أو فاخر حتّى كان العجّاجُ أوّل من أطاله وقصّده ونسب فيه وذكر الديار واستوقف الركّاب عليها ووصف ما فيها وبكى على الشباب ووصف الراحلة كما فعلت الشعراء بالقصيد فكان في الرّجّاز كأمريّ القيس في الشعراء . وقال غيره أوّل من طوّل الرجز الأغلب العجّليّ وهو قديم وزعم الجعّحيّ ^(٢) وغيره أنّه أوّل من رجز ولا أظنّ ذلك صحيحاً لأنّه إنما كان على عهد رسول الله صلعم ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك » .

ولكن لا شكّ في وقوع سهو في آخر كلام ابن رشيق لأنّه من الواضح أنّ الجعّحيّ إنما أراد بقوله استعمال بحر الرجز في نظم الشعر مثل القصائد فليس من الممكن أن رجلاً عالماً بتاريخ الشعر ودقائقه مثل الجعّحيّ جهل ما هو متداول عند كلّ العلماء إنّ الرجز من أقدم فنون الشعر عند عرب الجاهلية . وقول الجعّحيّ صواب تؤيّدّه عدّة نصوص منها شهادة العجّاج من أشهر شعراء الأراجيز الذي قال مفتخراً ^(٣) :

وإنّ يكنْ أُمسَى شِيبَانِي قد حَسِرَ وَقَتَرَتْ مِنِّي الْبَوَانِي وَقَتَرَ . . .
إِنِّي أَنَا الْأَغْلَبُ أَصْحَى قد نُشِرَ

(١) كتاب العمدة ج ١ ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٢٥ وهذا القول كله مروي في المزهر للسيوطي نوع ٤٩ ج ٢ ص ٣٠١ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٢) يعني محمد بن سلام الجعّحي المتوفى سنة ٢٣٢ . [انظر كتاب طبقات الشعراء ص ١٤٨ من طبعة ليدن] .

(٣) انظر مجموع أشعار العرب : الجزء الثاني المشتمل على ديوان الأراجيز للعجاج والزيفان بعناية Ahlwardt من طبعة برلين ١٩٠٣ ص ٧٦ عدد ١٥ من الأبيات المفردات ، فالبيت الثاني مروي في لسان العرب ج ١٨ ص ١٠٤ والثالث مروي في كتاب الأغاني ج ١٨ ص ١٦٤ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨٩ من طبعة ليدن .

يعني أنه أحياء طريقة شعر الأغلب . وهو الأغلب بن جُشَم العجلىّ عاش في الجاهليّة مدّة وأدرك الإسلام وأسلم وله شعر في سجاح لما تزوّجت مُسَيِّلمة الكذاب . قال صاحب كتاب الأغاني : « كان فيمن توجه إلى الكوفة مع سعد بن أبي وقاص فنزلها واستشهد في واقعة نهْآوَنَد^(١) فقبّره هناك في قبور الشهداء ويقال إنه أوّل من رجز الأراجيز الطوال من العرب قال ابن حبيب^(٢) كانت العرب تقول الرجز في الحرب والحداد والمفاخرة وما جرى هذا الجرى فتأتى منه بأبيات يسيرة فكان الأغلب أوّل من قصّد الرجز ثمّ سلك الناس بعده طريقته » . وقال ابن قتيبة^(٣) : « وهو أوّل من شبّه الرجز بالقصيد وأطاله » . وفي الحقيقة كلّ ما وصل إلينا من شعره وهو قليل جدّاً منظوم في الرجز . فالواضح أن الذي ابتدعه الأغلب الأرجوزة أغنى القصيدة المصوّغة في بحر الرجز المشطور وهي غير الأرجاز القديم استعمالها عند العرب . والمحتمل أن نوابغ الشعراء امتنعوا عن سلوك أسلوب الأغلب مدّة ولم يذهبوا إلى نظم الأراجيز إلّا في منتصف القرن الأوّل أو بعده بقليل فإلى ذلك الفتور في هذا النوع من النظم لَمَحَ على المحتمل العجّاج في أبياته المذكورة آنفاً . وعلى كلّ حال ما عثرتُ على ذكر شعراء أراجيز سوى الأغلب والشمّاخ بن ضرار^(٤) فيما قبل خلافة

(١) في سنة ٢١ هجرية فراجع J. WELLHAUSEN, *Prolegomena zur ältesten Geschichte des Islams* (Skizzen und Vorarbeiten, Band VI, Berlin 1899) p. 108 n. 2; L. CAETANI, *Annali dell' Islam*, IV, p. 474-505.

(٢) يعني أبا جعفر محمد بن حبيب الهاشمي المتوفى في ذى الحجة سنة ٢٤٥ .

(٣) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٨٩ من طبعة ليدن - انظر أيضاً ما قيل فيه في كتاب الأغاني ج ١٨ ص ١٦٤ - ١٦٧ وكتاب المعمرين للسجستاني ص ٩٨ عدد ١٠٧ من طبعة ليدن ١٨٩٩ وخزانة الأدب ج ١ ص ٣٣٢ - ٣٣٤ من طبعة بولاق وأسد الغابة لابن الأثير ج ١ ص ١٠٥ من طبعة مصر ١٢٨٠ وخولة الشعراء للأصمعي (في مجلة *Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft* ج ٦٥ سنة ١٩١١) ص ٤٩٦ - ٤٩٧ .

(٤) وقال أيضاً قصائد غير مرتّجزة . أما أراجيزه فهي مروية في ديوانه المطبوع في مصر سنة ١٣٢٧ وأيضاً في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٧ - ٢٨ و ١٧٨ - ١٧٩ من طبعة ليدن وفي مشارف الأفاويز في محاسن الأراجيز (Altarabische Diiambeni) بعناية R. Geyer عدد ٤٧ و ٤٨ و ٥١ و ٥٢ من طبعة ليبسك ١٩٠٨ وقال الشمّاخ كلها إما هاجباً وإما مرتّجلاً في السفر فتتضمن هذه الأخيرة كل الأشياء الموجودة في القسم الأول من القصائد كالنسب وذكر

يزيد بن معاوية . أمّا بعد منتصف القرن الأوّل فكثيرون اتخذوا بحر الرجز لسبك القصائد مع قطع النظر عن الذين ارتجزوا قليلاً في الهجاء مثل الأخطل^(١) والفرزدق والبعيث^(٢) فهم أصحاب أرجاز لا أصحاب أراجيز . وبعض الذين اتبعوا مسلك الأغلب تعاطوا القصيد والأرجوزة مع غلبة الأوّل على الثانية عندهم وهم جرير^(٣) ذو الرمة^(٤) وعمر بن لَجَأ^(٥) السابق ذكرهم . ومنهم أيضاً الشمرّدل بن شريك اليربوعي^(٦) من معاصري الفرزدق كان ذا كَلَفٍ بالصيد فقلّ في الصقر والكلب والقنص أراجيز كثيرة . وبعض الشعراء غلب فيهم الأراجيز على القصائد ومنهم حميد

ما مضى من الزمان ووصف الباقية وذكر الرحلة والطرّد والافتخار — قال ابن قتيبة (ص ٢٧) أن السماخ ارتجل مرة بالرجز « ثم قطع به الروى وتذر عليه فتركه وسمح بغيره على أثره » فظن الأستاذ Geyer (p. 105-107) أن تلك الأبيات ليست من قصيدة وحيدة بل من قصيدتين ولذلك قسمها في عدد ٤٧ و ٤٨ . غير أننا نجد تغير الروى في رجز منسوب إلى بعض الأعراب في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٥١ — ١٥٢ .

(١) ديوان الأخطل ص ٣٠٧ — ٣١٠ و ٣١٠ و ٣١١ .

(٢) انظر كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٣ [وج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١] .

(٣) جمع R. Geyer ما اشتهر من رجز جرير في مشارف الأقاوير في محاسن الأراجيز (*Altarabische Diiamben*) عدد ٢٥ — ٤٤ وكلها مقطعات أرجوزة كما قال Geyer ص ٣ — ٤ وراجع أيضاً كتاب أراجيز العرب ص ٥٥ — ٥٦ من طبعة مصر ١٣١٣ (وفيها مديح) .

(٤) جمع R. Geyer ما عثر عليه من رجز ذي الرمة في كتابه المذكور عدد ١٥ — ٢٤ فالأعداد ١٩ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ كلها أرجوزة كاملة أما غير هذه الأعداد فهي مقطعات وبعضها مروية في أراجيز العرب ص ٥ — ١٠ و ٣٩ — ٤٨ و ٦٢ — ٧٠ و ٩٧ — ٩٨ و ١٣٨ — ١٣٩ (أى خمسة أعداد) .

(٥) قال الجاحظ في كتاب الحيوان ج ٤ ص ٨ إنه « ممن جمع الرجز والقصيد » وقال ابن رشيقي في كتاب العمدة ج ١ ص ١٢٣ : « وكذلك عمر بن لجَأ كان راجزاً ومقصداً » .

(٦) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ١٢ ص ١١٧ — ١٢٣ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٤٣ من طبعة ليدن — وتروى له في الأغاني ج ١٢ ص ١٢٢ أرجوزة تشابه الطرديات وفي ص ١٢٢ — ١٢٣ أرجوزة يذكر فيها ذنباً « قد لازم مرعى غنم الشمرّدل فلا يزال يفرس منها شاة بعد الشاة فرصده ليلة حتى جاء لعادته ثم رماه بسهم فقتله » .

ابن مالك بن ربيع التميمي المعروف بحُميد الأرقط^(١) معاصر الحجاج بن يوسف (المتوفى سنة ٩٥/٧١) ومنهم أبو النجم العجلي^(٢) واسمه الفضل بن قدامة كان ينزل بسواد الكوفة ويحيد القصيد والأرجوزة ويراجز العجاج وهو القائل في نفسه^(٣) :

إني وكلُّ شاعرٍ من البشرِ شيطانهُ أنثى وشيطاني ذَكَرٌ
فما رآني شاعرٌ إلَّا أُسْتَتَرَ فِعْلَ نجومِ الليلِ عَيْنَ القمرِ

وعاش في أيام عبد الملك بن مروان (٦٥/٦٨٥ — ٨٦/٧٠٥) وخلفائه وأدرك خلافة هشام بن عبد الملك (١٢٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٤٣) واستعمل الرجز في المديح والهجاء ووصف الصيد والفهود وغير ذلك فيعدُّ من الشعراء النوانغ.

أمَّا بعض الشعراء فتركوا سائر الأعاريز كلياً ولم يصوغوا القصيدة إلَّا بقلب الرجز. ولعلَّ أوَّل من فعل ذلك أبو الشعثاء عبد الله بن روبة بن لبيد من بني سعد نعيم الشهير بالعجاج الذي وُلد على المحتمل في أوائل خلافة عثمان بن عفان

(١) انظر خزائن الأدب ج ٢ ص ٤٥٤ من طبعة بولاق وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ [اوج ٣ ص ٢٧٢ من ١٣٥١] وكتاب العمدة لابن رشيقي ج ١ ص ١٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ وخولة الشعراء للأصمعي (في المجلة الألمانية المذكورة) ج ٦٥ ص ٤٩٩ — تروى له أرجيز في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٤٢ وحماسة أبي تمام ص ٧٩٥ — ٧٩٦ من طبعة بن اوج ٤ ص ١٦١ — ١٦٢ من طبعة بولاق .

(٢) راجع كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨١ — ٣٨٦ من طبعة ليدن وخزائن الأدب ج ١ ص ٥٠ من طبعة بولاق وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٨ و ج ٦ ص ٧٠ وكتاب الأغاني ج ٩ ص ٧٧ — ٨٣ و ج ١٨ ص ١٤١ وخولة الشعراء للأصمعي ص ٤٩٩ و ٥٠٣ . [وطبقات الشعراء لابن سلام الجمعي ص ١٤٨ و ١٤٩ — ١٥٠ من طبعة ليدن] . تروى بعض أرجيزه في شرح التبريزي على حماسة أبي تمام في كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ١٣٥ و ١٣٦ و ج ٣ ص ١٤٩ و ج ٤ ص ٩٠ و ١٠٢ الخ ج ٦ ص ٥٧ و ٥٨ و ٧٠ و ٧١ وفي شرح شواهد المفني للسيوطي ص ١٨٥ — ١٨٦ من طبعة مصر ١٣٢٢ وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ٤٨ — ٤٩ من طبعة ١٣٠٥ .

(٣) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨٢ من طبعة ليدن وخزائن الأدب ج ١ ص ٥٠ من طبعة بولاق والبيت الأول مروي أيضاً في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٧٠ .

($\frac{23}{644} - \frac{30}{656}$)^(١) وأدرك خلافة سليمان بن عبد الملك ($\frac{96}{715} - \frac{99}{717}$)^(٢). ومدار ديوانه على المديح والمفاخرة والافتخار بنفسه مع ما يتعلق بذلك على عادة القدماء من النسيب وذكر مخاوف الفياض ومشاق قطع المهامه ووصف المعشوقة الجميلة والناقة والحمار الوحشي والليل العتم الهائل ولذة الشباب وما أشبه ذلك. ورُبَّ نسيب له شكاية الغواني ذوات الدلال قليلات الوفاء مائلاتٍ عنَّ شاب رأسه مثل بعض النسيب الوارد في قصائد الأخطل وغيره من معاصريه فمن هذا القبيل أكثر أرجوزته التي مطلعها^(٣) :

إِنَّ الْغَوَانِي قَدْ غَنَيْنَ عَنِّي وَقُلْنَ لِي عَلَيْكَ بِالتَّعَنِّي
عَنَّا فَقُلْتُ لِلْغَوَانِي إِنِّي عَلَى الْغِنَى وَأَنَا كَالْمُظَنِّ
لَمَّا لَبَسْنَ الْحَقَّ بِالتَّجَنِّي غَنِينَ وَأُسْتَبَدَلْنَ زَيْدًا مِنِّي
غُرَانِقًا ذَا بَشَرٍ مُكْتَنٍ يَرْضَى وَيَرْضِيهِنَّ بِالتَّمَنِّي
إِذْ شَابَ رَأْسِي وَرَأَيْنَ أَنِّي حَتَّى قَنَاتِي الْكَبِيرُ الْمُحَنِّي
وَالدَّهْرُ حَتَّى صِرْتُ مُثْلَ الشَّنِّ أَطَرَ الثَّقَافِ خُرُصَ الْمُقَنِّي

(١) قال الأصمعي (خفولة الشعراء في المجلة المذكورة ج ٦٥ ص ٤٩٩) أنه مولود قبل الإسلام.

(٢) لا نكاد نجد في تصانيف العرب أخبار حياة العجاج وكل ما آتى به مخنه Ahlwardt في ص ١٣ - ١٧ من مقدمة كتابه الذي سيأتي ذكره وجمع Ahlwardt نفسه أشعار العجاج في الجزء الثاني من مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديواني الأراجيز للعجاج والزيفان (Sammlungen alterarabischer Dichter. II) طبع ببرلين سنة ١٩٠٣ (وأشير إليه بديوان العجاج) وانظر أيضاً كتاب أراجيز العرب ص ١٠ - ٢١ و ٤٨ - ٥٤ و ٧١ - ٧٩ و ٨٥ - ١١٦ و ١٠٩ - ١١٣ و ١١٤ - ١٢١ و ١٥٧ - ١٥٨ و ١٧٤ - ١٨٤ و M. BITTNER, Das erste Gedicht aus dem Diwân des arabischen Dichters al-'Aggâg, Wien 1896 (cf. NOELDEKE, DMG, 50, 1896, p. 523-528); R. GEYER, Beiträge zur Kenntnis altarabischer Dichter. 3. al-'Ajjâj und al-Zafayân (Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, 23, 1909, 74-101).

ومقطعات له مروية في مشارف الأقاويز (GEYER, Altarabische Diamben) عدد ٢ - ١.

(٣) ديوان العجاج عدد ٣٩ بيت ١ - ١٥ وانظر أيضاً عدد ١٠.

وَصِرْتُ مِثْلَ الْبَازِلِ الْقِسْوَنِ وَقُلْنِي لِي أَفْنَاكَ طُولُ السَّنِ
وَبُرْهَةٌ مِنْ دَهْرِكَ الْمَفْسِي مَعَ الْهَوَى وَقَلَّةِ التَّوْنِ

ذكر أيضاً في أرجوزة الزمان الذي كان فيه مُتَرْفَاً بالديار ويشرب الخمر طول الليل بعد غروب الشمس فقال (١) :

كَأَنَّ ذَا فِدَامَةٍ مُنْطَفَاً قَطَفَ مِنْ أَعْنَابِهِ مَا قَطَفَا
فَشَنَّ فِي الْإِبْرِيْقِ مِنْهَا نَزْفَا مِنْ رَصْفٍ نَازِعٍ سَيْلَارَ صَفَا
حَتَّى تَنَاهَى فِي صَهَارِيجِ الصَّفَا فَغَمَّهَا حَوْلَيْنِ ثُمَّ اسْتَوْدَفَا
صَهْبَاءَ خُرْطُومًا عُقَارًا قَرَقَفَا خَالَطَ مِنْ سَلَمَى حَيَاشِيمٍ وَفَا

وله أيضاً أرجوزة تبتدى بعبارات دينية ثم تخرج إلى ذكر متاعب الشاعر ويأسه من العمر الطويل ومنها (٢) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اسْتَقَلَّتْ بِإِذْنِهِ السَّمَاءُ وَأُطْمَأْنَنْتِ
بِإِذْنِهِ الْأَرْضُ وَمَا تَعَتَّتِ وَحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ
وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَاتِ الثُّبَّتِ رَبُّ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ الْقُتَّتِ
وَالْجَامِعُ الْعَيْثُ غِيَاثُ الْمُسْنِتِ وَالْجَامِعُ النَّاسَ لِيَوْمِ الْمَوْقِتِ
بَعْدَ الْمَمَاتِ وَهُوَ مُحْيِي الْمَوْتِ يَوْمَ تَرَى النُّفُوسُ مَا أَعَدَّتِ
مِنْ نُزُلٍ إِذَا الْأُمُورُ غَبَّتِ مِنْ سَعَى دُنْيَا طَالَ مَا قَدَّمَدَّتِ
حَتَّى انْقَضَى قَضَاؤُهَا فَأَدَّتِ إِلَى الْإِلَهِ خَلْقَهُ إِذْ طَمَّتِ

وفي أرجوزة ثانية (٣) أيضاً مطلع ديني صاغه العجاج ليخرج بعده إلى مدح عمر بن

(١) ديوان العجاج عدد ٣٥ من الأبيات المفردات بيت ١٥ — ٢٢ وأراجيز العرب ص ٤٩ — ٥٠ من طبعة مصر ١٣١٣ وبعض هذه الأبيات مروية في كتاب الغفران لأبي العلاء المعري ص ١١ من طبعة مصر ١٣٢١ — ١٣٢٥ .

(٢) ديوان العجاج عدد ٣ بيت ١ — ١٣ وكتاب خزانة الأدب ج ٣ ص ٥٠٩ .

(٣) ديوان العجاج عدد ١١ بيت ١ — ١٦ .

عبيد الله بن مَعْمَر الذى قاتل الحرَّريين وانتصر عليهم وقتل رئيسهم أبا فُدَيْك سنة ٧٣٣ . ولكن فى سائر أراجيزه إنما اقتدى بالأفكار والمعانى المتعارفة عند شعراء جاهليَّة من أهل البادية . ومن الغريب عدم الهجاء فيما وصل إلينا من شعره مع أنه يفتخر بجدِّ لسانه الذى أسكت به أخصامه وأخميمهم ^(١) :

إِنِّي إِذَا مَا عُصْبَةٌ أَنْتَابُهَا ظَلَمَةٌ قَدْ سَرَنِي سِبَابُهَا
أَصْدُقُهَا الشَّتْمَ وَلَا أَهَابُهَا حَتَّى تَرَى جَاحِرَةً كِلَابُهَا
إِذَا الْقَوَافِي حُسِرَتْ أَثْوَابُهَا وَجَدَّتْهَا مَفْتَحًا أَبْوَابُهَا
مُقْبِلَةً بِسِيلِهَا شِعَابُهَا

فقال ابن قتيبة ^(٢) : « قيل للعجاج إنَّك لا تحسن الهجاء فقال انَّ لنا أحلاماً تمنعنا من أن نظلم وأحساباً تمنعنا من أن نظلم وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم » . — والرِّثاء أيضاً لا أثر له فى ديوانه كأنه عسر عليه فاستنكف منه . — وبعض أراجيز العجاج طويلة جداً تُدرِّك إحداها ^(٣) عدد مائتى بيت وتشتمل أخرى ^(٤) على ٢٢٩ بيتاً والعجاج متين العبارة جيّد الألفاظ كثير التصرُّف فى الوصف وإن كانت الأشياء الموصوفة ممَّا كثر ذكره عند الشعراء المتقدِّمين . أمَّا عيوب شعره فنلتج إليها بعد الكلام على أراجيز ابنه رُوْبَة .

تقدّم أن الكتب العربيَّة المعروفة الآن لا تُفيدنا أخبار حياة العجاج سوى النوادر التى لا طائلَ فيها فهذه أيضاً حالة رُوْبَة بن العجاج الذى وُصفت حياته فى كتاب الأغاني بهذه الألفاظ القليلة ^(٥) : « نزل البصرة وهو من مخضرمى الدولتين

(١) ديوان العجاج عدد ٢ بيت ١٥ — ٢١ .

(٢) كتاب الشعر والشعراء ص ٢٨ و ٣٧٥ من طبعة ليدين وكتاب الأمالى للقالى ج ٢ ص ٤٩ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [اوج ٢ ص ٤٧ من طبعة ١٣٤٤] .

(٣) عدد ٤٠ من ديوان العجاج .

(٤) ديوان العجاج عدد ٨ .

(٥) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٨٤ .

ح بنى أمية وبنى العباس ومات في أيام المنصور . ويخبرنا صاحب الأغاني في
 ضع آخر^(١) عَرَضِيًّا بأن روبة حجّ مع سليمان بن عبد الملك وشعرائه منهم الفرزدق
 ذلك سنة ٩٧/٧١٦ . وقال ابن خلكان^(٢) أن روبة توفي سنة ١٤٥/٧٦٢ وهو
 . هذا جميع ما يُستخرج من الكتب الواصلة إلينا مع أن كتاب الفهرست^(٣)
 لنا أن حماد بن إسحاق بن إبراهيم من علماء القرن الثالث قد ألف كتاب
 روبة . ولكن من اطلع على ديوان أراجيزه^(٤) التقط منه فوائد شتى يتوصل
 إلى معرفة حقيقة حال الشاعر^(٥) . فيتضح من نظمه أنه كان مدة من أهل
 بر مثل أبيه العجّاج وأخذ يجول في البلاد ويسافر إلى النواحي القاصية حتى قصد
 كبار الناس والأمراء في خراسان وكرمان ليدحهم بأراجيزه فينال منهم الجوائز لأن
 وكان له ولعياله الكثير مكسبًا . فلما انكدت أحوال المملكة بسبب الفتن التالية
 هاء دولة بنى أمية ١٣٢/٧٥٠ فكسدت أسواق الشعر في جملة من الأنحاء اختار الإقامة
 مرة ليسهل عليه (وهو كبير السن) الوفد على أهل العقد والحلّ ونيل ما كان
 ومنهم من المال .

ويذكر أحياناً ما قد مرّ عليه من الزمان السعيد والترف^(٦) :

(١) كتاب الأغاني ج ١٤ ص ٨٥ من طبعة بولاق وراجع أيضاً تقاض جرير والفرزدق
 ٣٨٤ — ٣٨٥ من طبعة ليدن .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٢٣٧ من طبعة غوتنجن أو عدد ٢٢٤ من الطبعات
 وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٧٦ — ٣٨٠ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الفهرست ص ١٤٣ سطر ٢ من طبعة ليبسك ١٨٧١ — ١٨٧٢ .

(٤) الجزء الثالث من مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديوان روبة بن العجّاج طبع ببرلين
 ١٩٠٢ بعناية Ahlwardt (*Sammlungen alter arabischer Dichter*) (وأرمل إليه بديوان روبة)

جز العرب ص ٢٢ — ٣٨ و ٥٦ — ٦٢ و ٧٩ — ٨٥ و ٩٨ — ١٠٩ و ١٢٢ —

و ١٣٤ — ١٣٨ و ١٣٩ — ١٥٥ و ١٥٩ — ١٧٢ و ١٨٥ — ١٨٨ ومقطعات له

في مشارف الأقاوير في محاسن الأراجيز (*Altarabische Diiamben*) عدد ٣ — ١٤ (٩٦٩)

وراجع أيضاً R. GEYER, *Beiträge zum Diwân des Ru'bah*. (*Sitzungsberichte der Akademie*
 der Wissenschaften, philos. hist. Klasse, 163 Band, 3. Abh.) وفيه ٥٨ أرجوزة .

(٥) راجع مقدمة ديوان روبة ص ٢٣ — ٣٣ .

(٦) ديوان روبة عدد ٤٥ بيت ٩٧ — ١٠٢ .

فقد أَرَانِي أَرْحَلُ الْمَرَا حِلَا فِي الْوَفْدِ أَوْ ذَا حَاجَةٍ مُنَاضِلَا
أَوْزِيرَ بِيضٍ تَرَفُّلُ الْمَرَا فِلَا أَمْضَعُ مِسْوَا كِي وَأَغْدُو هَامِلَا
مُخْتَبِطًا وَلَا عِبَا مُهَازِلَا وَأَتَقِي الْفَحْشَاءَ وَالنَّاطِلَا
وَيَشْكُو ثَقْلَ قَتَبِ الدِّينِ وَلَوْ مَزُوجَاتِهِ لَذَلِكَ (١) :

وَحَمَلَ الدِّينُ عَلَى الْبَرِّ كَا وَجَرَ أَرْحَاءَ دَهَكُنْ دَهَكَا
أَهْلَكَنِي إِلَّا يَزَالُ يَنْدَكَا صَاحِبُ دَيْنٍ لَا يَنْتِي حِكَا
أَعْرُكُهُ عَنِّي فَيَأْتِي الْعَرَ كَا سَوَّقِ الْأَجِيرِ الْمُتْعَبِ الْأَفْكََا
وَإِنَّمَا يَلْقَى الرَّجَاءَ بَمَنْ اشتهر نَدَى يَدِيهِ فَإِلَيْهِ يَلْتَجِيءُ الشَّاعِرُ (٢) :

وَيَعْتَرِي مَنْ يَطْلُبُ الْوَسَائِلَا وَجَهَ الْكَرِيمِ وَالْجَوَادَ الْبَاذِلَا
وَيُبْغِضُونَ الصَّمْعَرِيَّ الْبَاخِلَا فَقُلْتُ إِذْ عَالَجْتُ دَيْنًا شَاغِلَا
لَا بَدَّ مِنْ قَوْلِي وَكُنْتُ قَائِلَا يَمُّ سُلَيْمَانَ تَجِدُهُ وَاصِلَا
أَعَانَ مِنْهُ حَسْبًا وَنَائِلَا مُحْتَسِبَ الْأَجْرِ كَرِيمًا فَاعِلَا
فَكَثِيرًا مَا يَشْكُو إِلَى الْأَكْبَرِ مَصَائِبَ الدَّهْرِ وَشِدَّةَ الْفَقْرِ (٣) :

إِلَيْكَ أَشْكُو عَضَّ دَهْرٍ مَكْسَرٍ أَبْقَى خُدُودًا كَالْحَرِيقِ الْمِشْرِ
أُرْسِلَ فَاسْتَمَدَى بِأَمْرِ مُنْكَرٍ يَلْوِي وَحَشْرًا قَبْلَ يَوْمِ الْمَحْشَرِ

(١) ديوان رؤبة عدد ٤٤ بيت ٢٣ — ٢٨ .

(٢) ديوان رؤبة عدد ٤٥ بيت ١٠٥ — ١١٢ . وسليمان بن علي هو عم الخليفة الـ

(٣) ديوان رؤبة عدد ٢٢ بيت ٢٢٤ — ٢٣٠ — حدود جمع خد وهو الحفرة الـ

في الأرض فيراجع بيتي رؤبة في ديوانه عدد ٤١ بيت ٨٧ — ٨٨ أو أراجيز العرب ص
يقول الشاعر فيهما إن الناقية

أَبَقَّتْ أَخَادِيدَ وَأَبَقَّتْ حَلَقَا بَصَحْصَحَانَ مُطَرِّقٍ وَفَلَقَا

طَرَحَ مِنْ تَفْرِيقِهِ الْمُبْـذَرِ مَوْتِي وَأَحْيَاءِ بَشَرٍ مُوقَرٍ
يَشْكُونُ فَقْرًا لَيْسَ بِالتَّفَقُّرِ

فيطلب من الكرماء الهدايا الجزيلة فقال مثلاً في أرجوزة مدح بها نصر بن سيار
والى خراسان والسَّعْدُ (١) :

يَا نَصْرُ أَذْرِكْنِي بَغِيْتٍ يُجْدِي يَرْحَضُ آثَارَ السَّنِينِ الْجُرْدِ
إِنْ بَلَّ أَرْضِي لَمْ يُصْنِنِي وَحْدِي قَدْ كُنْتُ فِي الْوَعْدِ وَعِنْدَ الْعَهْدِ
وَالْخَيْرُ يَأْتِي مِنْكَ قَبْلَ الْكَدِّ

ثم قال (٢) :

وَمَا تَزَالُ مِدْحِي مِنْ نَجْدٍ تَأْتِيكَ فَأَذْكُرُ صِلَاتِي وَرَفْدِي
عِنْدَكَ خَيْرٌ يُبْتَغَى وَعِنْدِي أَبْقَى وَأَمْضَى مِنْ سَيْفِ الْهِنْدِ
أَدْرَكْتُ مَنْ قَبْلِي فَمَنْ ذَا بَعْدِي يَنْسُجُ نَسْجِي أَوْ يَقْدُّ قَدِّي

فلا عجب أن يكون معظم ديوانه في مديح الخلفاء والأمراء والأكابر الموصوفين
بالجود إلا أن المدح الحقيقي في أراجيزه قصير جداً مشتمل على أبيات قليلة لأن
باقي الأرجوزة جارية مجرى كل القصائد القديمة دائرة على ذكر الدّمَنِ ومخاوف
السفر والنسيب ووصف البرارى والسراب والمناهل والقوس والسهام والصيد والناقة
وهلمَّ جرّاً فضلاً عن الحماسة والافتخار بقومه وبنفسه . ومن مدائحه أرجوزة محتوية
على ٢٧٢ بيتاً أنشدها بحضرة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية (١٣٧/٧٤٤ - ١٣٢/٧٥٠)
ومبدؤها (٣) :

أَرْقَى طَارِقُ هَمٍّ أَرْقَا وَرَكَضُ غِرْبَانٍ غَدَوْنَ نَعْمًا

(١) ديوان رؤبة عدد ١٩ بيت ٦ - ١٠ ويشير فيها إلى أهله الذين يترقبون الطعام .

(٢) ديوان رؤبة عدد ١٩ بيت ٣٧ - ٤٢ .

(٣) ديوان رؤبة عدد ٤١ وأراجيز العرب ص ٩٨ - ١٠٩ وفي هذا الكتاب

١٨٣ بيتاً فقط .

ومدارها هذا : يبتدىء رؤبة بذكر رسوم الاطلاع في موضع سكنته زوجته
أروى في الزمان الماضي وهو في ريعان الشباب ثم يشكو إلمام الشيب برأسه
ويتصرف في وصف فياف متسعة طامسة الأعلام هائلة قطعها العيساء في لجج الليل
وهو راكبها كأنه راكب زورقا أو نعامة أو حمارا وحشيا . وبعد ذلك يذكر
تشبيهه بنساء قومه غاية الجمال ويفخر بحماسة قبيلته وعلى وجه الاستطراد ينظم
٤٠ بيتا في تفضيل شعره على أقوال خصومه من الشعراء فينتهي إلى نحو ثلاثة أرباع
من الأرجوزة قبل أن يخرج إلى ذكر الخليفة وظفره على أحباب الفن في الشام
والعراق بعون الله فيلحن الثائرين ويثني على جود مروان . ثم يرجع إلى الافتخار
بقبيلته تميم ويهدد ربيعة لميلها إلى الدعوة العباسية التي عنده كفر فيختم الشعر
بتصريح صدق وفائه وإخلاصه لمروان .

ولكن لم يمنعه هذه الأرجوزة عن إطراء بني العباس لما تولوا الخلافة وتأليف
في مدح السفاح أرجوزة تحتوي على ٤٠٠ بيت^(١) ختمها بطلب الهدايا بل في
أرجوزة أخرى مدح بها الخليفة المنصور $(\frac{136}{754} - \frac{108}{770})$ لم يستح من أن يسب
الدولة الأموية^(٢) التي قد أثني عليها في أيامها السعيدة^(٣) :

فتركو مستسلمين جنحا وحوتكات ونساء نوحا
ومهنلكين في الجحيم كلحا وعاد ملك الله ملكا مردحا

واحتذى رؤبة مثال أبيه العجاج في إغفال تعاطى الرثاء والهجاء فقال^(٤) :

إني أرو للناس غير سباب للقرب الأدنى ولا للأجانب
اجتنب العيب اتقاء الأعياب والقول يلقى بعضه في الأتباب

(١) ديوان رؤبة عدد ٥٥ وأراجيز العرب ص ١٣٩ — ١٥٥ .

(٢) ديوان رؤبة عدد ١٤ بيت ٣٧ — ٤٩ .

(٣) ديوان رؤبة عدد ١٤ بيت ٤٧ — ٥٠ .

(٤) ديوان رؤبة عدد ٢ بيت ٢٩ — ٣٤ وأراجيز العرب ص ١٦٠ — ١٦١ .

ماضيهِ أَمْضَى مِنْ حِدَادِ النَّشَابِ وَالْقَوْلُ يَنْمِي بَعْدَ غِبِّ الْإِغْبَابِ
ومَّا يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ قَوْلُهُ فِي الْقَدَرِيِّينَ فِي أَرْجُوزَةٍ مَدَحَ بِهَا مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ
ابن مروان (المتوفى سنة ١٢٠/٧٣٧ أو ١٢١/٧٣٩) بعد أن أخذ نيران الفتنة نحو سنة ١٠٢
وقتل يزيد بن المهلب من رؤساء الثأرين . فقال ^(١) :

فَلَقْتُ وَالْمَمْلَى حَفِيزُ الْكُتَّابِ وَالْقَدَرِيُّونَ بِقَوْلٍ مُرْتَابِ
وَالْقَدَرِيُّونَ بِحَبْلِ جَذَابِ بِقَدَرٍ فِي حَلَقَاتِ الْأَسْبَابِ
يَنْزِعُهُمْ مِنْ شَاهِدٍ وَغِيَابِ جَذَبَ الْمُعْلِينَ دِلَاءَ الْأَكْرَابِ
سِعْرِ فَوْنِ الْحَقِّ عِنْدَ الْمِيجَابِ دَعَهُمْ سَيَلَقُونَ أَعَدَّ الْحُسَابِ
وَالْأَمْرُ يُقْضَى فِي الشَّقَا لِلْخِيَابِ

ولرؤبة حكمة جميلة نسجها في أرجوزة لها ٣٧ بيتاً في معاتبة ابنه عبد الله ^(٢) منها :
وَأَصْدُقْ إِذَا مَا قَلْتَ قَوْلًا وَأَقْصِدْ فَلَيْسَ مَنْ جَارَ كَهَادٍ يَهْتَدِي
إِنَّ السَّعِيدَ عَامِلٌ لِلْأَسْعَدِ وَالرُّشْدُ فَأَعْلَمُهُ طَرِيقُ الْأَرْشَدِ
وَزَادُ تَقْوَى أَفْضَلُ التَّزَوُّدِ

وحكم أخرى كثيرة وردت متفرقة في أراجيزه . ثم من الجدير بالذكر ورود عبارات في شعره تدل على ابتداء رواج الأقوال بعلم أحكام النجوم عند العرب في أوائل عهد الدولة العباسية ^(٣) فقال ملمحاً إلى انقراض الأمويين ^(٤) :

(١) ديوان رؤبة عدد ٢ بيت ٤٣ — ٥٠ وهذه الأبيات غير موجودة في كتاب أراجيز العرب .
(٢) ديوان رؤبة عدد ٢٠ بيت ٣٠ — ٣٤ ونقل Ahlwardt كل هذه الأرجوزة إلى اللغة الألمانية في ص ٣١ — ٣٢ من مقدمته .
(٣) قال رؤبة (الديوان عدد ٥٥ بيت ٨٢ أو أراجيز العرب ص ١٤٥) إن السفاح
[١٣٦ — ١٣٧ / ٧٥٤ — ٧٥٥] « فاز بنجم سعدِه مُنْجَمُه » (وفي الديوان « بنجمي ») .
(٤) ديوان رؤبة عدد ٩٢ من الأبيات المفردات بيت ١٧ — ١٨ وكتاب الأغاني ج ٢١

مروانُ لَمَّا أن تهَاوَتْ أَنْجُمُهُ وَخَانَهُ فِي حُكْمِهِ مُنْجَمُهُ

كان رؤبة يقدر شعره قدرًا عظيمًا فلو أردنا جمع كل ما قاله مدحًا لصنعتة في أراجيزه لا ضطررنا إلى إيراد أكثر من مائة بيت . فيها كم بعض الأمثلة من ذلك ^(١) :

قَلْتُ وَالْأَقْوَالُ مِمَّا يَنْبَرِي مَا أَنَا بِالْفَانِي وَلَا الْمَغْمَرِ
أَنْسَجَ نَسَجَ الصَّنْعِ الْمُحِبِّ كَيْفَ تَرَانِي أَنْتَحَى فِي الدَّقْتَرِ
عَلَى قَضِيبِ الذَاهِبَاتِ الشُّبْرِ لَا يَنْظُرُ النَحْوَى فِيهَا نَظَرِي
وإن لوى لَحْيِيهِ بِالتَّحَكُّرِ وَهُوَ دَهَى الْعِلْمِ وَالتَّعَبْرِ
حَتَّى اسْتَقَامَتْ بِي عَلَى التَّيْسْرِ

وهذه أبيات من أرجوزة مدح بها القاسم بن محمد الثَّقَفِي الذي توفي سنة ٩٥ وهي مهمة لما فيها من أقدم التعريض في الشعر بعلم النحو . — ومما قال في مدح أبياته ^(٢) :

قَلْتُ وَلَا يَبْلُغُ وَصْفِي وَاصْفُ لَأَمْدَحَنَّ وَالْعُرُوفُ عَارِفُ
بِمُسْتَجِدَّاتِهَا طَرَائِفُهَا سِيرُهَا وَمَوَاقِفُهَا
أَسَمَّهَا صَنَعُ بَهَنَ قَائِفُ

وقال أيضًا ^(٣) :

مَا كَانَ تَحْخِيرُ الْيَمَانِي الْبَرَادَ يَرْجُو وَإِنْ دَاخَلَ كُلَّ وَصَادَ
نَسَجِي وَنَسَجِي مُجْرَهْدُ الْجُدَادَ

إنَّ من تأمل أشعار العجّاج ورؤبة تعجب من جودة صناعتها ومهارتهما في صوغ الأراجيز الطولى على روي صعب سالمة من الإقواء والإكفاء والإيطاء . فقد

(١) ديوان رؤبة عدد ٢٢ بيت ١٣٤ — ١٤٢ .

(٢) ديوان رؤبة عدد ٣٩ بيت ١٦ — ٢٠ .

(٣) ديوان رؤبة عدد ١٦ بيت ٢٥ — ٢٨ .

لاحظ مثلاً يونس بن حبيب^(١) أن العجاج قال أرجوزته التي مطلعها « قد جبرَ
الدَّينَ الإلهُ فجبرَ » وهي ٢٢٩ بيتاً موقوفة القوافي ولو أُطْلِقَتْ قوافيها كانت
كلها منصوبةً وكذلك عامة أراجيزها . ولهما التوسُّع العجيب في اللغة لاسيما لرؤية
فأصاب من قال فيه أنه كان بصيراً باللغة قيماً بحُوشِها وغريبها^(٢) . فلكثرة الألفاظ
الغريبة الموجودة في أبياتهما احتجَّت بها أهل اللغة كثيراً وإن كانوا أحياناً
لا يفهمون معناها بالضبط فغلطوا في تفسيرها . ومثال ذلك ما قالت علماء اللغة من
العرب في أبيات رؤية^(٣) :

لَمَّا أُرْدَرْتُ نَقْدِي وَقَلْتُ إِبْلِي تَأَلَّقْتُ وَأَتَصَّلْتُ بُعْكَلِ
خَطْبِي وَهَزَّتْ رَأْسَهَا تَسْتَبْلِي تَسَأَلْنِي مِنَ السَّنِينَ كَمْ لِي
فَقُلْتُ لَوْ عُمَرْتُ سِنَّ الْحِجْلِ أَوْ عُمَرَ نُوْحَ زَمَنِ الْفِطْحِلِ
وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌ كَطِينِ الْوَحْلِ صَرْتُ رَهِيْنَ هَرَمٍ أَوْ قَتْلِ

قال الجاحظ في كتاب الحيوان^(٤) : « وهذا الشعر يدل على طول عمر الحِجْلِ
لأنه لم يكن ليقول * أَوْ عُمَرَ نُوْحَ زَمَنِ الْفِطْحِلِ * والصخر مبتل كطين الوحل *

(١) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٨٩ .

(٢) كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٢٣٧ من طبعة غوتنجن أو عدد ٢٢٤ من
الطبعات المصرية وكتاب شرح شواهد التلخيص المسمى معاهد التنصيص لعبد الرحيم بن عبد الرحمن
ابن أحمد العباسي ص ٨ من طبعة مصر ١٢٨٤ .

(٣) ديوان رؤية عدد ٤٦ بيت ٩ — ١٦ (فراجع ما قاله فيها Ahlwardt في مقدمته ص ١٣ —
١٥) وكتاب أراجيز العرب ص ١٢٢ — ١٢٣ والأبيات مروية في لسان العرب ج ١٣ ص ٧٢
وج ١٤ ص ٤٣ وتاج العروس ج ٨ ص ٦٤ وصحاح الجوهري ج ٢ ص ٢٢٧ من طبعة بولاق ١٢٨٢
(تنسب فيه إلى العجاج) وجمع الأمثال للميداني ج ٢ ص ٦٢ — ٦٣ من طبعة مصر ١٣١٠
(في المثل : كان ذلك زمن الفطحل) واللزهر للسيوطي (في النوع الحسني) ج ٢ ص ٣١٤ من
طبعة مصر ١٣٢٥ وبلوغ الأدب في أحوال العرب للالوسي ج ٣ ص ٢١٩ — ٢٢٠ من طبعة بغداد
١٣١٤ وحياة الحيوان للدميري ج ١ ص ٢٠٣ من طبعة مصر ١٣١١ والكمال للمبرد ص ٣٤٨ من
طبعة ليبسك وثمار القلوب للثعالبي ص ٥١٥ — ٥١٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ وكتاب الحيوان للجاحظ
في المواضع التي سيأتى ذكرها في الحواشي التالية .

(٤) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٣٥ — ٣٦ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ ولا يذكر
اسم الشاعر (راجع أيضاً ج ٤ ص ٦٧ و ٨) .

الّا وعمر الحسل عنده أطول الأعمار . وروى ابن الأعرابي عن بعض الأعراب أن سنّ الضبّ واحدة أبداً وعلى حال أبداً فكأنّه قال لا أفعلها مادام سنّها كذلك لا ينقص ولا يزيد . وقال زيد بن كثيرة سنّ الحسل ثلاثة أعوام وزعم أن قوله مثلاً لا أفعله سنّ الحسل غلط . ولكن الضبّ طويل العمر إذا لم يعرض له أمرٌ وسنّ الحسل مثل سنّ القلوص ثلاث سنين حتّى يلقح . ولو كانت سنّ الحسل على حالة واحدة لعرف الأعراب الفتى من الزكىّ وقد يكون الضبّ أعظم من الضبّ وليس بأكبر منه سنّاً . وقال الجاحظ في موضع آخر^(١) :

« وقد يمكن أن يكون الحسل لا يبنى ولا يرفع فتكون أسنانه أبداً على أمر واحد ويكون قول العجاج^(٢) في طول عمره حقاً ويدلّ على أن أسنانه على ما ذكرنا قول الفرزاريّ :

وجدناكم رباباً بنى أم فرقة كأسنان حسل لا وفاء ولا غدر

يقولون لا زيادة ولا نقصان . — وقال في موضع ثالث^(٣) : « ومن أمثالهم لا آتيك سنّ الحسل وقال العجاج : مُتَّ^(٤) لا آتيه سنّ الحسل . كأنه قال حتّى يكون ما لا يكون لأنّ الحسل لا يستبدل بأسنانه أسناناً . — وفي كتاب لسان العرب^(٥) ما نصّه : « وقولهم في المثل لا آتيك سنّ الحسل أى أبداً لأنّ سنّها لا تسقط أبداً حتّى تموت^(٦) وأنشد ابن برّيّ مُتَّ لا أرسلها سنّ الحسل . — وقال أحد الحديثين وهو السيّد محمد توفيق البكريّ الصّدّيق شارحاً أبيات

(١) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٣٦ — ٣٧ .

(٢) في الطبعة المجاج — ومن المحتمل أن الجاحظ ينسب إلى العجاج أبيات رؤية التي ذكرناها

أففا أو أنه يشير إلى بيت العجاج المروى في ج ٦ ص ٦٢ .

(٣) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٤٢ .

(٤) في الطبعة : ثمة .

(٥) لسان العرب ج ١٣ ص ٦١ من طبعة بولاق .

(٦) هكذا أيضاً في صحاح الجوهري ج ٢ ص ١٧١ من طبعة بولاق ١٢٨٢ .

رؤية^(١) : « الحسل ولد الضب تنفق عنه البيضة وقد خرجت سنة فلو بقي دهرًا لم يغير عما هو عليه . يقول فلو عمرت لا أغير كان آخر حالي الموت » .

ولكن هذه التفسير جميعها بعيدة عن حقيقة الأمر فإن من قال بطول عمر ضب ومن قال بعدم تغير أسنانه إنما استخرج قوله على وجه الخدس والتخمين من بيت رؤية والمثل السائر المذكور فلم ينتبه لغرابة استعمال لفظ الحسل في مثل هذا شبيه الدالّ عنده على طول العمر أو عدم التغير إذ كان الحسل اسم الضب حين يرج من بيضته أعنى وقت ولادته^(٢) . — فشرح الأبيات الحقيقي هذا^(٣) لا يخرج حسل من بيضته إلا بعد ما ثقب قشرتها بسن بارزة من فمه تسقط منه بعد المولد . بل رؤية لو عمرت ما خرج الحسل من بيضته بواسطة تلك السن الخاصة يعني ما ين في الدنيا ضب أى دائماً . فقوله من باب قول الشاعر^(٤) :

عليك سلام الله ما هبت الصبا وما قرقر القمرى في ورق السدر
أو من باب قول العرب : « لا أفعله السمر والقمر^(٥) » أى ما كان سمرًا والقمر
أبدًا .

أما قول رؤية : « أو عمر نوح زمن الفطخل * والصخر مبتل كطين الوحل
أيضاً مما لم يتوصلوا إلى شرحه علماء اللغة . قال أبو نصر الجوهري المتوفى في
آخر القرن الرابع في كتاب الصحاح^(٦) : « الفطخل على وزن الهزبر زمن لم

(١) كتاب أراجيز العرب ص ١٢٣ .

(٢) قال أبو زيد الأنصارى (المتوفى سنة ٢١٥ أو ٢١٤ أو ٢١٦) في النواذر في اللغة ٩٢ من طبعة بيروت ١٨٩٤ « يقال لفرخ الضب حين يخرج من بيضته حسل ثم يكون غيداً قافاً
كون مطبخاً ثم يكون ضباً مدركاً » كذا أيضاً في كتاب المحصن لابن سيده ج ٨ ص ٩٦ من
ببلاق ١٣١٣ — ١٣٢١ .

(٣) راجع مقدمة Ahlwardt لديوان رؤية ص ١٤ — ١٥ .

(٤) انظر كتاب الظرف والظرفاء (أو كتاب الموشى) لأبي الطيب محمد بن إسحاق الوشاء
١٣ من طبعة مصر ١٣٢٤ .

(٥) كتاب الأمالي للقالى ج ١ ص ٢٣٧ من طبعة بلاق ١٣٢٤ .

(٦) كتاب الصحاح ج ٢ ص ٢٢٧ من طبعة بلاق ١٢٨٢ .

يُخْلَقُ النَّاسُ فِيهِ بَعْدُ . قَالَ الْجَرْمِيُّ ^(١) سَأَلْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ ^(٢) عَنْهُ فَقَالَ الْأَعْرَابُ
تَقُولُ إِنَّهُ زَمَنُ كَانَتِ الْحِجَارَةُ فِيهِ رَطْبَةٌ . وَأَنْشَدَ لِلْعَجَّاجِ [كَذَا] : وَقَدْ أَتَانَا زَمَنُ
الْفِطْحَلِ * وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌ كَطَيْنِ الْوَحْلِ . — وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ ^(٣) مَا نَصَّهُ
الْفِطْحَلُ عَلَى وَزْنِ الْهَزَبِ دَهْرٌ لَمْ يُخْلَقِ النَّاسُ فِيهِ بَعْدُ وَزَمَنُ الْفِطْحَلِ زَمَنُ
النَّبِيِّ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . وَسُئِلَ رُؤْبَةُ عَنْ قَوْلِهِ زَمَنُ الْفِطْحَلِ فَقَالَ أَيْ
كَانَتِ الْحِجَارَةُ فِيهِ رَطْبًا . وَرَوَى أَنَّ رُؤْبَةَ بْنَ الْعَجَّاجِ نَزَلَ مَاءً مِنَ الْمِيَاهِ فَأَرَادَ
يَتَزَوَّجُ امْرَأَةً فَقَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ مَا سِسْتُكَ مَا مَالُكَ مَا كَذَا فَأَنْشَأَ يَقُولُ : [الْأَبْيَاتُ]
وَقَالَ بَعْضُهُمْ * زَمَنُ الْفِطْحَلِ إِذَ السَّلَامِ ^(٤) رِطَابٌ * وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ ^(٥) يَقُولُ
أَتَيْتُكَ عَامَ الْفِطْحَلِ وَالْهَدْمَلَةِ ^(٦) يَعْنِي زَمَنَ الْخِصْبِ وَالرِّيفِ وَالْفِطْحَلُ
السَّيْلُ وَجَمَلٌ فَطَحَلُ ضَخَمٌ مِثْلُ السَّبْحَلِ قَالَهُ الْفَرَّاءُ ^(٧) . — وَفِي كِتَابِ نَجْمِ
الْأَمْثَالِ لِلْمِيدَانِيِّ ^(٨) الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٥١٨ : كَانَ ذَلِكَ زَمَنَ الْفِطْحَلِ . قَالُوا
زَمَنُ لَمْ يُخْلَقِ النَّاسُ . قَالَ الْجَرْمِيُّ سَأَلْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ عَنْهُ فَقَالَ الْأَعْرَابُ تَقُولُ ذَلِكَ

(١) وَهُوَ أَبُو عَمْرِو صَالِحُ بْنُ إِسْحَاقَ الْجَرْمِيُّ الْمُتَوَفَّى ٢٢٥ فَاظْهَرَ FLUEGEL, Die grammatischen

ulen der Araber, Leipzig 1862, p. 81-82.

(٢) يَعْنِي أَبَا عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى مِنَ النُّحَوِيِّينَ الْبَصْرِيِّينَ وَاخْتَلَفَ فِي تَعْيِينِ سَنَةِ مَمَاتِهِ ٢٠٨ وَ ٢١٣ .

(٣) لِسَانُ الْعَرَبِ ج ١٤ ص ٤٢ — ٤٣ .

(٤) سَلَامٌ جَمْعُ سَلَمَةٍ أَيْ الْحَجَرِ .

(٥) أَبُو حَنِيفَةَ أَحْمَدُ بْنُ دَاوُدَ الدِّينَوْرِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٢٨٢ . ١٩٥

(٦) قَالَ الْجَوْهَرِيُّ فِي الصَّحَاحِ : « الْهَدْمَلَةُ الرَّمْلَةُ الْكَثِيرَةُ الشَّجَرِ » وَقِيلَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ ج ١٤ ص ٢١٧ : « وَالْهَدْمَلَةُ الدَّهْرُ الَّذِي لَا يُوقِفُ عَلَيْهِ لِطَوْلِ التَّقَادُمِ وَيُضْرِبُ مِثْلًا لِلَّذِي يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ كَانَ هَذَا أَيَّامَ الْهَدْمَلَةِ قَالُ كَثِيرٌ :

كَأَنَّ لَمْ يُدْمِنَهَا أَنْ يَسْهُوْا وَلَمْ يَكُنْ لَهَا بَعْدَ أَيَّامِ الْهَدْمَلَةِ عَامٌ وَرَاجِعٌ أَيْضًا كِتَابُ مَعْجَمٍ مَا اسْتَعْجَمَ لِلْبَكْرِى ص ٨٢٨ مِنْ طَبْعَةِ غُوثِيَّيْنِ ١٨٧٦ .

(٧) أَبُو زَكْرِيَاءُ يَحْيَى بْنُ زِيَادٍ الدِّبَالِيُّ الْمُتَوَفَّى ٢٠٧ ٨٢٣-٨٢٣ مِنْ النُّحَوِيِّينَ الْكُوفِيِّينَ قَالُوا

EGEL, Die grammatischen Schulen der Araber, s. 129-136.

(٨) كِتَابُ جَمْعِ الْأَمْثَالِ لِلْمِيدَانِيِّ ج ٢ ص ٦٢ — ٦٣ مِنْ طَبْعَةِ مِصْرَ ١٣١٠ وَالظَّاهِرُ الْفُطْحَةُ الْأُولَى كُلُّهَا مَنَقُولَةٌ مِنْ صَحَاحِ الْجَوْهَرِيِّ .

زمنٌ كانت الحجارة فيه رَطْبَةً وَأَشَدَّ لِعَجَاجٍ [كذا] : وقد أَتَانَا زمن الفطحل*
والصخر مُبْتَلٌ كطين الوَحْل . قلتُ روى غيره لرُوبة : [الأبيات] «^(١) . —
وعلى هذه الصفة أيضاً شرح البيت السيد محمد توفيق البكرى حيث قال^(٢) :
» والفطحل قال الأصمعيّ إذا قيل للأعراب ما أراد بالفطحل قالوا زمن السلام رطاب
يريد زمن الحجارة حين كانت رَطْبَةً » .

فالواضح أنّ علماء اللغة لم يعثروا على تلك اللفظة بذلك المعنى إلّا في بيت الرُوبة
والمثل المشتقّ منه ولم يعرفوا حقيقة معناها فتكلّفوا شرحها من نفس البيت على وجه
التخمين . فلا عجب في عدم الإصابة إذ كان أصل اللفظ بعيداً جداً مأخوذاً من
اعتقادات المندائية وهم فرقة دينية خاصة قديمة الأصل سكنت أصحابها بطائح العراق
لاسيما نواحي البصرة في عهدي أُمّية ويسمّون الآن عند العامة بالصُبة . وهم أخذوا
كثيراً من آرائهم من مذاهب gnostiques^(٣) فزعموا أنّ أصل جميع الأشياء پيرا ربّاً
أى اللجة العظيمة الذي شاركه أَيْرَ زِيْفَارَبّاً أى الأثير المضيء العظيم ومآناً ربّاً أى الروح
العظيم فأصبحوا معاً على صفة ثلاث إلهية . ومآناً ربّاً هو المسمّى أيضاً نفس العالم
أو ملك النور (مَلَكَا دَنْهُورَا) ولُتَّب بالحياة الأولى (هَيَّي قَدَمَائِي) لأنّ الأشياء
أخذت تصدر عنه وذلك على وجه الفيض وهو يسكن عالماً نورانياً (آلْمَا دَنْهُورَا) .
فأول من فاض منه الحياة الثانية (هَيَّي تَنْيَائِي) أو يوشامين ثم معرفة الحياة (مَنْدَا
دَهَيَّي المنسوب إليه إسم المندائية) الذي يظهر في العالم المرئى أى الأسفل بعدة
تجسّدات أقدامها الإخوة الثلاثة هَيْيَلُ وشَيْتِلُ وأنُوش^(٤) . أمّا الحياة الثانية
أو يوشامين فصدر عنه الحياة الثالثة (هَيَّي تَلَيْتَائِي) المسمّى أيضاً أباتور فلم يكن
تحتّه أصلاً إلّا فراغ جسيم في قعره ماء أسود . وأراد أباتور مُشاركة تلك الأعماق

(١) فراجع أيضاً كتاب المزهري للسيوطي في النوع الخمسين ج ٢ ص ٣١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٢) كتاب أراجيز العرب ص ١٢٣ .

(٣) أو من مذاهب أصحاب المعرفة العليا .

(٤) والواضح أنّ هذه الأسماء الثلاثة مشتقة من هاييل وشيث واخنوخ .

فَرَأَى فِي الْمَاءِ صُورَتَهُ فَانْقَلَبَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ صُورَةَ ابْنِهِ غَيْرِ الْمَوْجُودِ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ وَكَانَتْ صُورَةُ خَادِعَةٍ كَاذِبَةٍ أَوَّلًا ثُمَّ تَصَلَّبَتْ فَأَصْبَحَتْ ابْنُهُ پَتَاهِيلُ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ كَانَ لَهُ مِنْ طَبِيعَةِ الْمَادَّةِ . وَمِرَاعَةً لِطَلْبَةِ أَبِيهِ خَلَقَ پَتَاهِيلَ الْأَرْضِ ثُمَّ آدَمَ وَحَوَّاءَ لَكِنَّهُ لَمْ يَتِمَّكَنْ مِنْ إعْطَاءِ الْجَسَدِ الْمَخْلُوقِ نَفْسًا تُحْيِيهِ فَأَرْسَلَ الْحَيَاةَ الْأُولَى (أَي مَنَا رَبًّا) هَيْبِلَ وَشَيْتِلَ وَأَنُوشَ لِيَنْفُخُوا فِي الْجَسَدِينَ رُوحًا مِنْهُ . أَمَّا پَتَاهِيلُ فَحُرِّمَ سُلْطَتَهُ عَلَى الْبَشَرِ وَحُكِمَ عَلَيْهِ بِالنَّفْيِ عَنْ عَالَمِ النُّورِ وَالْبَقَاءِ فِي مَوْضِعٍ تَحْتَهُ مَصْفَدًا بِالسَّلَاسِلِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . — فَالْوَاضِحُ أَنَّ رُؤْيَا رُؤْيَا عِنْدَ إِقَامَتِهِ الطَّوِيلَةَ بِالسَّوَادِ وَالْبَصْرَةَ سَمِعَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَعْتِقَادَاتِ الْمُنْدَائِيَّةِ وَعَرَّبَ پَتَاهِيلَ بِالْفِطْحَلِ (وَهُوَ فِي الْعَرَبِيَّةِ الضَّخَمُ مِنَ الْإِبِلِ^(١)) حَسْبَمَا هُوَ الْغَالِبُ فِي التَّعْرِيبِ مِنْ تَشْبِيهِ الْأَلْفَاظِ الْأَعْجَمِيَّةِ بِالْأَلْفَاظِ وَالْأَوْزَانِ الْعَرَبِيَّةِ وَزَعَمَ رُؤْيَا أَنَّ پَتَاهِيلَ أَوَّلَ الْفِطْحَلِ اسْمَ رَجُلٍ عَاشَ فِي الزَّمَانِ الْقَدِيمِ وَعَاصِرِ نُوْحًا فَذَكَرَ فِي الْبَيْتِ لِرَغْبَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ فِي اسْتِعْمَالِ الْكَلِمَاتِ وَالْأَسْمَاءِ الْغَرِيبَةِ . أَمَّا الشُّرَاحُ وَعُلَمَاءُ اللُّغَةِ فَخَارُوا فِي تَفْسِيرِهِ لِعَدَمِ مَعْرِفَةِ لَهُمْ بَدْيَانَةِ الْمُنْدَائِيَّةِ وَلَمْ يُدْرِكُوا أَنَّهُ اسْمٌ عَلَمٌ فَاسْتَنْجَبُوا مِنَ الْقِرَائِنِ خَطَأً أَنَّ مَعْنَاهُ دَهْرٌ لَمْ يُخْلَقِ النَّاسُ فِيهِ بَعْدُ وَكَانَتْ الْحِجَارَةُ فِيهِ رَطْبَةً فَفَقِيدُوا فِي الْقَوَامِيسِ مَعْنَى لَا يَوْجَدُ حَقِيقَةُ فِي اللُّغَةِ .

وهذا الغلط من قبيل ما وقع فيه بعض قدماء أهل اللغة لما أرادوا شرح لفظ الأندرين الوارد في المطلع المعزوف إلى معلقة عمرو بن كلثوم^(٢) . فإنهم جهلهم أن

(١) ونجد عند المؤلفين المعاصرين لنا الفطاحل بمعنى كبار العلماء وقال إبراهيم اليازجي لسائل (في مجلة الضياء ج ٣ ص ٣٠٨) : « وأما استعمال الفطاحل بالمعنى الذى ذكرتموه فهو من مواضع العامة ولا شيء منه في كتب اللغة » . واستحسن الشيخ بيعث الخضرى هذا الاستعمال وقال (في مجلة المشرق ج ٤ — ١٩٠١ — ص ٣٣٣ — ٣٣٤) : « هو من مواضع الفصحاء والبلغاء قد استعملوه بهذا المعنى من باب المجاز لأن من معاني الفطاحل الضخم من الإبل فنقلوه إلى معنى العظيم أو الكبير من العلماء كما نقل العرب القدماء مثل ذلك في كثير من الألفاظ ومن ذلك الكبش ... والوعل ... والسنور ... والفجل ... والقنعاس فإن معناه في الأصل معنى الفطاحل بتمامه ... والقرم » .

(٢) وهو مطلع منحول لها فراجع ما قاله TH. NOELDEKE, *Fünf Mo'allaqât*, I, Wien

أَنْدَرِينَ^(١) موضع بالشام عن جنوبي حلب على طَرَف البادية ذهبوا إلى أن ذلك اللفظ اسم جنسٍ لا اسم علم فقال الخليل في كتاب العين^(٢) « الْأَنْدَرَى وَيُجْمَع الْأَنْدَرِينَ يقال هم الْفَتَيَانِ يَجْتَمِعُونَ من مواضع شتَّى ». ثم قال صاحب لسان العرب^(٣) : « وَالْأَنْدَرُونَ فَتَيَانٌ من مواضع شتَّى يَجْتَمِعُونَ للشُّرْب قال عمرو بن كلثوم : وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِيْنَا ». فجاء في القاموس تعريف اللفظ على هذه الصفة : « الْأَنْدَرُونَ فَتَيَانٌ شَتَّى يَجْتَمِعُونَ للشُّرْب »^(٤) . فأخذه من القاموس بطرس البستاني في محيط المحيط^(٥) وسعيد الخوري الشرتوني في كتاب أقرب الموارد^(٦) فهما فرقا ما بين الموضع بالشام واسم الجنس فقالا : « (الْأَنْدَرُونَ) قنيان شتَّى يَجْتَمِعُونَ للشُّرْب و (أَنْدَرِينَ) قرية » فتخمين خاطئ صار لفظاً مقيداً في كتب اللغة .
أما البيت « وَالصَّخْرُ مَبْتَلٌ كَطَيْنِ الْوَحْلِ » فإشارة إلى قول بعض العرب برطوبة الحجارة فيما قبل الطوفان أو بعده بمدّة وعليه تدلّ الأبيات المنسوبة إلى أميّة بن أبي الصَّلْتِ^(٧) :

(١) وأندرين (كذا وبدون لام التعريف) اسم القرية إلى أيامنا والاسم القديم Andron . راجع معجم ما استعجم للبكري ص ١٠٨ ومعجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٧٣ — ٣٧٤ من طبعة ليسك وشرح التبريزي على القوائد العشر ص ١٠٩ من طبعة كلسكة ١٨٩٤ و Noeldeke ص ٣٢ — ٣٣ من الكتاب المذكور في الحاشية المتقدمة .

(٢) المروى في كتاب معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٧٣ من طبعة ليسك .

(٣) لسان العرب ج ٧ ص ٥٣ — ٥٤ من طبعة بولاق .

(٤) القاموس ج ١ ص ٤٥٧ من طبعة بولاق ١٢٧٢ .

(٥) محيط المحيط ج ٢ ص ٢٠٥٥ — ٢٠٥٦ من طبعة بيروت ١٨٦٧ — ١٨٧٠ .

(٦) أقرب الموارد ج ٢ ص ١٢٨٥ من طبعة بيروت ١٨٨٩ .

(٧) يروى البيتان وغيرها في كتاب البدء والتاريخ للمطهر بن طاهر المقدسي ج ٣ ص ٢٥ من طبعة باريس ١٨٩٩ — [١٩١٩] وفيها : « وإذ صخر السلام » وهو تصحيف ويوجد البيت الأول وغيره في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٦٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ وفي بلوغ الأرب للالوسي ج ٣ ص ٢٢٠ من طبعة بغداد ١٣١٤ [وكل الأبيات مروية في ديوان أمية عدد ٣٠ من طبعة ليسك ١٩١١ أو ص ١٨ من طبعة بيروت ١٣٥٢] فراجع أيضاً ثمار القلوب للثعالبي ص ٥١٦ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

وإذ هم لا لبوس لهم تقيهم وإذ ضمّ السلام لهم رطاب
عشيّة أرسل الطوفان يجرى وفاض الماء ليس له جراب

وقال الجاحظ في كتاب الحيوان ^(١) : « وانشدني عبد الرحمن بن كيّسان :

فكان رطيباً يومَ ذلك صخرها وكان خضيداً طلحها وسيالها

« فزعم كما ترى أن الصخور كانت لينة وأن الأشجار الطلح والسيال كانت خضيدة لا شوك عليها . وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار أن الشوك إنما اعتراها في صبيحة اليوم الذي زعمت النصارى فيه أن المسيح ابن الله . وكان مقاتل يقول حدثنا بذلك أبو عقيل السواق وكان أحد رواة والحاملين عنه أن الصخور كانت لينة وأن قديمي إبراهيم عليه السلام أثرتا في تلك الصخرة كتأثير أقدام الناس في ذلك الزمان إلا أن الله تعالى توفي تلك الآثار وعفى عليها ومسحها ومحاهها وترك أثر مقام إبراهيم صلعم والحجة إنما هي في إفراده بذلك ومحو ما سواه من آثار أقدام الناس ليس أن إبراهيم صلعم كان وطى على صخرة يابسة فأثر فيها . »

فبعد هذا الاستطراد الطويل لنرجع إلى سياق الكلام على رؤبة . — لا شك أن فرط قصد الغريب من الألفاظ في أشعار العجاج ورؤبة سبب استعجابها الشديد على القارئ فلولا عناية صاحب الصحاح وصاحب لسان العرب وصاحب تاج العروس بجمع أقوال اللغويين القدماء لبقى كثير من أبيات تلك الأراجيز كأنها ألغاز لا يمكننا التوصل إلى حل معانيها . — ثم من خصائص صناعة العجاج ورؤبة شدة ميلهما إلى أنواع المجانسة لا سيما التجنيس المحقق أو المستوفى الذي اتفقت فيه الحروف دون الوزن رجوع إلى الاشتقاق أم لم يرجع ^(٢) والجناس المضارع أو المضارعة الكائنة بتقارب مخارج الحروف مع تقديم وتأخير أو مع زيادة ونقصان . وللمجانسة محل عال

(١) كتاب الحيوان ج ٤ ص ٦٨ - ٦٩ .

(٢) إنني أستفيد من الاصطلاحات المستعملة في كتاب العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٢٢٠ -

علم البيان ولكن الإفراط في استعمالها (والأمثلة منها ألوف في أراجيز دينك
شاعرين ^(١)) يُسْتَنْقَلُ فيضراً جُودة الشعر . — ومن خصائصها أيضاً وفرة إدارج
وروحكم في سياق الكلام ^(٢) فيضطرب أحياناً المعنى ويستغلق على القارىء . وقد
بقى مثال ذلك في الأبيات المروية (ص ١٧٨ — ١٧٩) ومن هذا القليل قول رؤبة
يد وصف حماسة قومه ^(٣) :

عَبِلَ الْمَدَاوِيسَ مُنِيفِ الشَّنَابِ أَحْزَمَ تَخْشَاهُ قُهُوبُ الْأَقْهَابِ
يَخْطِرْنَ مِنْ خَشْيَتِهِ بِالْأَذْنَابِ وَالْجَزْلُ أَبْغَى مِنْ قُمَاشِ الْأَخْطَابِ
وَالْهَمُّ لَا يُقْضَى كَسَلُ الْأَوْصَابِ أَرْجُو أَنْتَسَابِي بِقُرُوبِ الْأَقْرَابِ
وَرُؤْيَى قَبْلَ اعْتِيَاقِ الْأَعْطَابِ وَجَهَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَوَّابِ

ومن هذا الباب قول رؤبة ^(٤) :

إِنَّ لِرَيْعَانَ الشَّبَابِ غَيْهَقًا كَأَنَّ بِي مِنْ أَلْقَى جِنَّ أَوْلَقَا
وَلَا أَحَبُّ الْخُلُقِ الْمُدَقَا وَالْغَرُّ مَعْرُورٌ وَإِنْ تَلْهَوْقَا
وَشَرُّ آلَافِ الصَّبَا مَنْ آتَقَا بَلْ أَبْصَرْتَ شَيْخًا وَنَى وَأَشْفَقَا
وَاضْطَرَبَ الدَّهْرُ بِهِ فَرَقَقَا وَالْدَّهْرُ إِنْ لَمْ يُبَلِّ طَوْلًا عَوْقَا

وحبُّ الغريب حمل رؤبة أحياناً على الإسهاب الممل في الوصف والتشبيه مثل
قوله في ذكر الطلال ^(٥) :

(١) انظر الأمثلة المروية في مقدمتي Ahlwardt لديوان العجاج ص ٤٨ — ٥٠ وديوان

رؤبة ص ٩٣ — ٩٧ .

(٢) راجع مقدمتي Ahlwardt لديوان العجاج ص ٤٦ — ٤٧ وديوان رؤبة ص ٩١ — ٩٣ .

(٣) ديوان رؤبة عدد ٢ بيت ١٧٧ — ١٨٤ من طبعة براين وأراجيز العرب ص ١٧٠ .

(٤) ديوان رؤبة عدد ٤١ بيت ١٧ — ٢٤ وكتاب أراجيز العرب ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٥) ديوان رؤبة عدد ٥٥ بيت ١٣ — ٢١ وأراجيز العرب ص ١٤١ — ارتعن المطر

كثراً — وحيث الكتاب أى كتبتّه .

كَأَنَّهُ بَعْدَ رِيَّاحٍ تَذْهَمُهُ وَمُرْتَعِنَاتِ الدُّجُونِ تَشْمُهُ
 إِنْجِيلُ أَخْبَارٍ وَحَى مُنَمِّنُهُ مَا خَطَّ فِيهِ بِالْمِدَادِ قَلَمُهُ
 إِذَا تَهَجَّى قَارِئٌ يُهَيِّنُهُ أَخْرَجَ أَسمَاءَ الْبَيَانِ مُعْجَمُهُ
 وَحَلَقَ التَّرْقِينَ أَوْ مُوسِمُهُ يُبْدِي لِعَيْنِي عَابِرَ تَفْهَمُهُ
 مَا فِيهِ لَوْلَا أَنَّهُ يُتَرَجَمُهُ

وربما غير رؤية وزن الألفاظ لضرورة القافية فانتقد عليه الأصمعي انتقاداً مدققةً مرويّاً في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة^(١). — هذه عيوب شعر رؤية وهي على كل حال أقل من فضائله بكثير.

ومن شعراء الأراجيز المشهورين دُكَيْنُ الرّاجز وهو دُكَيْنُ بن رَجَاءٍ من بني فُقيّمٍ الذي لم تقف على تعيين عصره إلا بما رواه ابن قتيبة^(٢) وصاحب الأغاني^(٣) من مدحه لعمر بن عبد العزيز وقت تولّيه المدينة أعنى قبل سنة ٧٩٩. ولم يصل إلينا من أراجيزه إلا أبيات قليلة جداً^(٤). — ومن شعراء الأراجيز أبو نُحَيْلَةَ الحِمَاني

(١) كتاب الشعر ص ٣٧٨ — ٣٨٠ من طبعة ليدن.

(٢) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٨٧ — ٣٨٩ من طبعة ليدن.

(٣) كتاب الأغاني ج ٨ ص ١٥٥ من طبعة بولاق وراجع أيضاً العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ١١٤ — ١١٥ من طبعة ١٣٠٥.

(٤) ويروى بعض أبياته في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١١٣ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادى ج ٢ ص ٤٨٨ وج ٣ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ من طبعة بولاق — [قال ياقوت في إرشاد الأريب ج ٤ ص ٢٠٠ من طبعة لندن ١٩٢٧ مانصه: « دكين بن سعيد الدارمي التميمي الرّاجز وهو غير دكين بن رجاء المتقدم واشتبها على ابن قتيبة في طبقات الشعراء فجعلهما واحداً ودكين بن سعيد هذا هو الذي كان منقطعاً إلى عمر بن عبد العزيز حين كان والياً بالمدينة ... مات دكين سنة ١٠٩ » . أما دكين بن رجاء الفقيمي ياقوت (ج ٤ ص ١٩٨ — ٢٠٠) أنه وفد على الوليد بن عبد الملك ومدح مصعب بن الزبير ومات سنة ١٠٥ . — وفي كتاب العقد في الموضع المذكور ينسب مديح عمر بن عبد العزيز إلى دكين بن رجاء الفقيمي كما في كتاب الشعر لابن قتيبة أما صاحب كتاب الأغاني فقال إن مديح عمر بن عبد العزيز لدكين الرّاجز بغير تعيين اسم أبيه ونسبته [.

الراجز^(١) الذي تنافر العجاج في الشعر وأقام مدّة بالشام ومدح هشام بن عبد الملك (١٢٥ — ١٢٤) بأرجوزة ذكر بعض أبياته في كتاب الأغاني^(٢) وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادي^(٣) فلما انتقلت الخلافة من بني أمية إلى بني العباس سنة ١٣٢ نقلها إلى السّقّاح فبقيت في ديوانه منسوبة إلى هذا الخليفة العبّاسي . ومات بعد بيعة المنصور أعني بعد سنة ١٣٦ . وشعره لئن الألفاظ مجرد عن الغريب مصوغ في بحر الرجز المشطور إلّا شيء قليل جداً ورد على غير قالب الأرجوزة . — ومنهم أبو مرقّال عطاء بن أسيد السعدي المعروف بالزّفيّان الذي لم يرد ذكره في أكثر كتب الأدب والتراجم مع أنّ مؤلّي كتب اللغة ربّما احتجّوا بأبياته لا سيّما صاحب تاج العروس الذي روى نحو ثلاثين بيتاً من أراجيزه . وسنة ١٩٠٣ م جمع المستشرق الألمانيّ أهلوّدت^(٤) هذه الأبيات المفردة المتفرقة ونشرها مع عشر مقطّعات من أراجيزه موجودة في نسخة خطيّة محفوظة في المكتبة الخديويّة . ولم نعرف من أخباره إلّا ما يستفاد من بقايا ديوانه أعني أنّه كان في قيّد الحياة نحو سنة ٧٣ وقت ثورة أبي فديك بهجر من أعمال البحرين . وشعره غير مُقرّط في استعمال الغريب مجرد عمّا ذكرناه آنفاً من وفرة المجانسة والإدراج وهو يدور على ما تدور عليه سائر الأراجيز أعني وصف الغرام وتوجّع الفراق والنساء والشباب والنوق والحير الوحشيّة والفيافي والصيد وجميع ذلك تمهيداً للخروج إلى مدح قومه أو أمير أو أحد أكابر الناس يُرجى منه الجوائز . — ومنهم أيضاً عُقبة بن روبة بن العجاج على ما يُستنتج من

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨١ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ١٨ ص ١٣٩ — ١٥٢ من طبعة بولاق وكتاب الإبانة لأبي سعيد محمد بن أحمد العميدي ص ٥٧ — ٥٨ من طبعة مصر بغير تاريخ الطبع .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٨ ص ١٤١ .

(٣) كتاب خزانة الأدب ج ١ ص ٧٨ — ٧٩ من طبعة بولاق .

(٤) الجزء الثاني من مجموع أشعار العرب المذكور وهذا الجزء مشتمل على ديوان الأراجيز للعجاج والزفيان فراجع أيضاً 3 al-'Ajjāj und R. GEYER, Beiträge zur Kenntnis altarabischer Dichter : al-Zafayān (Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, 23. Band, 1909) p. 100-101.

حكاية مروية في كتاب الشعراء لابن قتيبة^(١) ومن كتاب الأغاني^(٢).

إن رؤبة بن العجاج آخر النوابع الذين قالوا الأراجيز الحقيقية أعنى القصائد الجارى مضمونها على الأسلوب القديم مع أنها مصوغة في بحر الرجز المشطور. وبعده بقليل اندرس هذا النوع من الشعر تماماً وختم بأبي العباس محمد بن ذؤيب الفقيمي المعروف بالعماني^(٣) الذي نظم بالرجز أكثر قصائده^(٤). وكان من أهل البدو ومدح يزيد بن الوليد (١٢٦/٧) والخليفين الأخيرين من الدولة الأموية ثم السفاح والمنصور والمهدي وهارون الرشيد (١٧٠/٧ — ١٩٣/٨).

إذا قطعنا النظر عن أصحاب الأراجيز الحقيقية وجدنا أن شعراء القرن الأول وأوائل الثاني حصروا استعمال الرجز المشطور في المقطعات الدائرة على مواضيع خاصة وإن كانوا يستعملون فيها أيضاً سائر الأعاريز. فتراهم يرتجزون في وصف أحوال شخصية ارتجالاً^(٥) أو في الرثاء والهجاء ووصف الحيوان والصيد وفي المُلح والحكايات لاسيما المضحكة. ومن هذا الباب الأخير رجز رديسي بن عبس

(١) كتاب الشعر ص ٤٧٧ من طبعة ليدن.

(٢) كتاب الأغاني ج ٣ ص ٣٧ من طبعة بولاق.

(٣) راجع كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٧٥ — ٤٧٦ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ١٧ ص ٧٨ — ٨٢ من طبعة بولاق وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٨ (أبيات له من الرجز في ج ٢ ص ٦١ و ج ٦ ص ٣٠ و ٦٧) وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٣ [١ و ج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١] وكتاب خزانة الأدب ج ٤ ص ٢٩٢ من طبعة بولاق.

(٤) إن الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ج ٢ ص ١٨٤ سطر ٢٣ عد بشار بن برد (المقتول سنة ١٦٧ في خلافة المهدي) من الذين جمعوا القصيد والرجز مثل أبي النجم وحميد الأرقط والعماني. — ولكن من جملة أشعاره التي نقلت إلينا لا نجد إلا أرجوزة واحدة قالها في مدح عقبة ابن سلم (ولا «بن مسلم» كما في الأغاني ج ٣ ص ٣٧ من طبعة بولاق) فيتضح من رواية ابن قتيبة (ص ٤٧٧ من طبعة ليدن) والأغاني (وانظر أيضاً البيان للجاحظ ج ١ ص ٢٣ من طبعة ١٣١٣ [١ و ج ١ ص ٥٧ من طبعة ١٣٥١]) أنه إنما اتخذ بحر الرجز لنسجها لأن عقبة بن رؤبة قد أنكر في حضرة عقبة بن سلم قدرة بشار على إحسان الأراجيز.

(٥) أو بلا ارتجال كالأبيات (٢٠ رجزاً) التي نسجها أبو عماره عمر بن مسلم بن أبي طرفه الهذلي

داعياً لله أن يأذن له في الاشتراك في غزو أبي لطيف. راجع: J. WELLHAUSEN, *Letzter Teil*: der Lieder der Hudhailiten, Berlin 1884, No. 237.

الْقَعْسِيَّ^(١) في ذكر طريقة تخلصه من دفع ما كان عليه من الدَّيْن لتاجر فارسي بالكوفة ومنه أيضاً قصة العذافر بن الريان الكِنَانِيَّ^(٢) في تنجُّحه خيانة غُرْمائه يمينين « كمثل سَيْلٍ جاء من رأس جَبَلٍ » . ومن هذا الباب أيضاً الأبيات الاثنان والعشرون من الرجز التي قالها مسعود بن كبير الجَرْمِيَّ في حمار اشتراه فوجده على خلاف ما وصفه به النَّخَّاس^(٣) أو مخاطبة الأعرابي والضَّبُع التي أكلت شائه^(٤) أو قول الرجل الذي سُرِق له الدَّلْو^(٥) وهلمَّ جرّاً . وقد سبق (ص ٨٦١) ذكر ما قاله الشَّمرْدَل بن شُرَيْك اليربوعي بعد منتصف القرن الأوّل من الأرجاز العديدة اللطيفة في الصَّقر والكلب والصيد فترَوَى لعَوْف بن ذِرْوَة تسعة أبيات من الرجز في وصف الجراد^(٦) ولعبد الله بن كُراع من شعراء النصف الأوّل من القرن الأوّل أرجاز في وصف الضَّبُع^(٧) ولأَحِيحَة بن الجَلَّاح الأَوْسِيَّ أشعاراً من بحر الرجز في الكلاب^(٨) ولبعض^(٩) الأعراب من القرن الأوّل أرجاز في صفة

(١) حماسة البحتري ص ٣٨٦ — ٣٨٧ من طبعة ليدن أو ص ٢٦٨ عدد ١٤٣٤ من طبعة بيروت .

(٢) حماسة البحتري ص ٣٨٤ — ٣٨٥ من طبعة ليدن أو ص ٢٦٧ عدد ١٤٣٢ من طبعة بيروت .

(٣) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٢٦ — ١٢٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ ولم أجد ذكره في كتاب الأدب ولكنه إسلامي بغير ارتياب .

(٤) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٥١ — ١٥٢ وهو من شعراء الإسلام والراوى هو أبو زياد الكلابي من معاصري اسحاق الموصلي المتوفى سنة ٢٣٥ .

(٥) حماسة أبي تمام ص ٨٠٠ — ٨٠١ من طبعة بن أوج ٤ ص ١٦٥ — ١٦٦ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ١٦١ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ والنوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري ص ٤٨ من طبعة بيروت ١٨٩٤ (عن الأصمعي) وكتاب أراجيز

العرب ص ٧٩ من طبعة مصر ١٣١٣ ونصه يطابق نص النوادر مطابقة تامة — ولا يذكر الشاعر في كتاب الخزانة ولا في كتاب الأغاني ولا في كتاب الشعر لابن قتيبة ولا في الأصمعيات ولا في حماسة

أبي تمام ولا في حماسة البحتري .

(٧) كتاب الحيوان ج ٦ ص ١٦٠ .

(٨) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٢ ص ٢٠ — ٢٢ .

(٩) كتاب الحيوان ج ٧ ص ٥١ .

الفيل واليربوع^(١) وغيرها من الحيوان^(٢) . ولا احتاج إلى ذكر أمثلة من استعمال الرجز في الرثاء والهجاء .

ومن الحرىّ بالاعتبار أن شعراء الدولة العباسية لا سيما في القرن الثاني والثالث والرابع اتبعوا هذا المنهج في حصر استعمال الرجز المشطور في مواضع خاصة معينة فكثرت عندهم الأرجاز في الطرديات وهي وصف التمنص وحوادثه وجوارح الصيد مثل الكلاب والفهود والييزان فكاد يغلب الرجز على سائر الأعاريض في هذا النوع من الشعر الذي تعاطاه كثير من النوايع مثل الفضل بن عبد الصمد الرقاشي^(٣) من شعراء هرون الرشيد وأبي نوح الحسن بن هاني^(٤) المتوفى في العشر السنين الأخيرة من القرن الثاني والثاني والناشي الأكبر المتوفى سنة ٢٩٣ وابن المعتز^(٥) المتوفى سنة ٢٩٦/٩٠٨ وأبو فراس الحمداني^(٦) المتوفى سنة ٣٥٧ وغيرهم . ومن المشهور رجز عبد الصمد بن المعذل من شعراء القرن الثالث في وصف العقرب المروى في كتاب الكامل للمبرد^(٧) .

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٣٠ .

(٢) روى في كتاب الحيوان ج ٣ ص ٨٢ رجز في وصف السمك لابن أبي العنبر بن أبي نخيلة الراجز .

(٣) روى له الجاحظ في كتاب الحيوان ج ٦ ص ١٦١ (١٨ بيتاً) وص ١٦١ — ١٦٢ (١٣ بيتاً) أراجيز في وصف الفهد .

(٤) روى له في كتاب الحيوان ج ٢ ص ١٠ — ١٥ أراجيز في الكلاب والطرود فراجع ديوانه في باب الطرد .

(٥) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٩٥ من طبعة مصر ١٨٩١ (في باب الطرد) .

(٦) تروى له طردية مزدوجة في W. AHLWARDT, Ueber Poesie und Poetik der Araber, Gotha 1856, p. 2-4.

(٧) الكامل في اللغة للمبرد ص ٥١٩ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١١٤ — ١١٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ وعاش عبد الصمد بن المعذل في العصر العباسي فتوجد ترجمته في الأغاني ج ١٢ ص ٥٧ — ٧٢ ويروى له فيه قصيد ولا رجز — نقل المبرد (المتوفى سنة ٢٨٥) عنه قول الأصمعي (المولود سنة ١٢٢/٧٤٠ — المتوفى ٣١٦/٨١٣) وإسحاق بن إبراهيم الموصلي (المولود سنة ١٥٠/٧٦٧ والمتوفى ٢٣٥/٨٤٩) . راجع الكامل ص ٥١٩ و ٣٨٧ سطر ١٣ من طبعة ليبسك .

وسببُ حفظِهِم هذا العروض في الطردِيَّات وصفات الحيوان ظاهر وهو أنَّ هذا النوعَ من الشعر كان أصلُهُ بدويًّا ومضمونه أقرب إلى أحوال أهل الوبر منه إلى عيشة سكَّان المدن وأهل الحضَر .

وربَّما اتخذوا بحر الرجز أيضًا في نسج الرثاء ^(١) وذكر المُلح والطائف والحكايات فضلًا عمَّا ذهبوا إليه مبتدعين من استعمال الرجز لا سيَّما المزدوج لتأليف المنظومات الطولى في الأخبار التاريخية أو شرح الفنون والعلوم ولكثِّهم في الغالب امتنعوا عن الاقتداء بالسلف في الارتجاز في الهجاء ولا شكَّ أنَّ سبب هذا الاستثناء كان ما وقع في الهيئة الاجتماعية العربية من التقلُّب العظيم بعد انقراض دولة بني أمية حيث زال النظامُ القديم المبنيُّ على قسمة الناس في القبائل فلهذا الزوال وللتغيُّر الداخل في الأخلاق والأميال حُمِلت الشعراء ضروريًّا على سلوك طريقة جديدة في الهجاء غير الطريقة المسلوكة في أيام الجاهلية وعند الأعراب لأنَّ هجاء قبيلةِ الدوِّ وأقارب الخضم أضحى شيئًا لا أساسَ ولا معنى له .

كان الرجز في القرن السابق للإسلام وفي القرن التالي لظهوره البحر العاديَّ في أشعار العامة من أهل البادية لسهولة ومناسبته لمقتضى الارتجال . فقد رُ انتشاره عندهم ظاهر ظهورِ الشمس من العدد الوافر من أبيات الرجز المنسوبة إلى الأعراب الواردة في كتب الأدب واللغة جمًّا غفيرًا حتَّى أنَّ أبا زيد الأنصاريَّ المتوفى نحو سنة ٢١٥ الذي قد سبق (ص ١٦٥) أنَّه ميَّز في كتاب النوادر في اللغة أبواب الشعر وأبواب الرجز قال في توطئة كتابه ما نصُّه ^(٢) : « ما كان فيه (أى في الكتاب) من شعر القصيد فهو سَماعى من المفصَّل بن محمَّد الصَّبيِّ وما كان من اللغات وأبواب الرجز فذلك سَماعى من العرب » . فالحتمل على ظنِّي أنَّ الذين

(١) ومن هذا الباب مرثية أبي نواس في خلف الأحمر راجع W. AHLWARDT, *Chalef*

elahmar's Qaside, Greifswald 1859, p. 414

(٢) كتاب النوادر في اللغة ص ١ من طبعة بيروت ١٨٩٤ .

صاغوا القصائد في ذلك العروض فقط واخترعوا الأرجوزة بمعناها الخاص (وهم كما تقدم كلهم من أهل القبائل) إنما أرادوا الاجتهاد في رفع شأن الشعر العامي البدوي كأن هذا الاجتهاد ردّ على أساليب الشعر المدني فأداروا الأراجيز على مجرد المواضيع المألوفة عند سكان البراري وملأوها ألفاظاً غريبة خاصة لأهل البادية بعيدة عن متعارف أهل الحضرة (١) .

أما أسباب فناء نوع الأراجيز الحقيقية وزوالها في أوائل الدولة العباسية فأنظرها من ضربين : صناعية وطبيعية والصناعية عُسر حفظ روى واحد في الأشعار الطولى ذات أبيات قصيرة جداً من مشطور الرجز ثم الملل الناشئ عن هذا الروى الوحيد للأبيات القصيرة إن طال الشعر ثم صعوبة حصر معنى تام في بيت من الرجز المشطور وما ينتج منها من الاضطرار إلى تقسيم المعنى الواحد على بيتين أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر وذلك يضرّ وضوح المعنى ويسبب التعقيد . أما السبب الطبيعي فهو ما تقدم أن الأرجوزة الحقيقية إنما كانت من مخترعات شعراء البادية لم يذهب إليها أحد من الحضريين وهى شعر بدوي محض لغة وموضوعاً فاستنكف عنه شعراء الدولة العباسية لأنهم بعداء عن عيشة الأعراب فمن المعروف أن الإنسان في الأغلب لا يتكافأ ما لا يكون معهوداً في طبعه ولا موجوداً من خلقه .

٥ — قد قسمنا الشعر العربي في أيام بني أمية تسعة أقسام أو أصناف وفرغنا من ذكر الأصناف الأربعة الأولى أعنى الغزل في مدن الحجاز والنسيب والشعر الغرامي عند الأعراب والشعر على الأسلوب القديم المتداول عند فحول الجاهلية والأراجيز . فنبتدى الآن الكلام الوجيز على شعر الصنف الخامس وهو الذى يتعلق بالاغتراب والفتوح والحروب أى شعر الجنود فيما خارج جزيرة العرب .

إن الحرب لم تزل تدور رحاها في عهد الأمويين سواء في الثغور لتوسيع حدود المملكة الإسلامية غرباً وشرقاً وشمالاً أم في داخل نفس دار الإسلام بسبب عصبية

(١) ولم يكن ذلك رجوعاً إلى الأسلوب القديم كما يظن N. Rhodokanakis

الأقوام العربيّة أو الفتن السياسيّة والدينيّة . لا أحد يجهل أن عرب البادية لم يألّفوا أبداً نظاماً اجتماعياً سياسياً غير القبائل المستقلّة فأقصى ما اتّهموا إليه إنّما كان تحالف جملة من القبائل مدّة ما بصفة أن لا يُفسد به استقلالها فلم يتمكّن الدين الإسلاميّ على ما أتى به من تعليم مساواة المؤمنين ولا جهد الخلفاء لا سيما عمر بن الخطّاب ومعاوية بن أبي سفيان من استئصال عصبيتهم وإزالة ما جُبِلَ لهم من كراهة الانقياد والنظام المتين . ولم تبرح تغلب فيهم روحُ المنافرة والمشاجرة فشبت بين أقوامهم الحروب بل زاد استعارها بعد منتصف القرن الأوّل حين أخذ ينمو تضادُّ الزناريين والينيّين الذي لا يقدر تأثيره في تاريخ الأمم الإسلاميّة وأحوال الخلافة في المشرق وفي الأندلس . لا يخفى أن دوزي الهولاندي^(١) وكُلْدزِيهَر^(٢) المجرى أفرغاً كنانة جهدهما في البحث عن أسباب ذلك التضادّ وكيفيّة نموه وشرّ نتائجها ولكن ليس هذا محلّ الخوض في هذا الموضوع الذي يُخصّ بيانهُ بأستاذ التاريخ الإسلاميّ . فيكفيني إيراد ما قاله المسعوديّ في الباب الثالث بعد المائة من كتاب مروج الذهب^(٣) : « افتخرت نزار على اليمين وافتخرت اليمين على نزار وأدلى كلّ فريق بما له من المناقب وتحزّبت الناس وثارَت العصبيّة في البدو والحضر ففتج بذلك أمرُ مروان بن محمّد الجعديّ^(٤) وتعصّبه لقومه من نزار على اليمين وانحرف اليمين عنه إلى الدعوة العبّاسيّة وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بني أميّة إلى بني هاشم » .

فإن اعتبرتم أن مُعظم الذين ارتحلوا إلى الثغور مجاهدين كانوا من عرب القبائل

(١) R.P. DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides (711—1110)*, Leyde 1861, 4 vol. [2ème édition, revue et mise à jour par E. F. Lèvi-Provençal. Leyde 1932, 3 vol.] راجع

(٢) I.GOLDZIHHER, *Muhammedanische Studien*, Halle a.S. 1888-1890, vol. I. p. 78-100 راجع الذي يصحح بعض أقوال دوزي ويكذب رأى العرب أن هذه المضادة جاهلية .

(٣) مروج الذهب ج ٦ ص ٤٥ من طبعة باريس .

(٤) يعني آخر الأمويين الذي تولى الأمر من سنة ١٢٧/٧٤٤ إلى سنة ١٣٣/٧٥٠

وأنة منهم أيضاً كان أكثر المقاتلين في الحروب الداخلية القومية ثم إن تذكرتم ما سبق بيانه غير مرة من بقاء الأعراب في القرن الأول والثاني على أغلب ما كانوا عليه في الجاهلية من الأهواء والأميال والعوائد ما استغربتم وجود نوع من الشعر سمّيته شعر الجنود لأنه زها في العسكر . إن مثل هذا الشعر في أمة غير العربية لم يكن إلا شئ قليل جداً دنى القدر حقيراً أما عند الأعراب فلم يكن الأمر كذلك لولوعهم المشهور بالشعر ومهارتهم به كأنه من غريزة خاصهم وعامهم . فیدلّ بعض الأخبار دلالة مبینة على شدة كلف الجنود بالشعر وتعظيمهم إياه . منها ما يروى في كتاب الأغاني ^(١) نقلاً عن أبي الحسن علي بن محمد المدائني من رواية القرن الثاني قال : « بينا المهلب بن أبي صفرة ذات يوم بفارس وهو يقاتل الأزارقة ^(٢) إذ سمع المهلب في عسكره جلبة وصياحاً فقال ما هذا . قالوا جماعة من العرب تحاكموا إليك في شئ فأذن لهم فقالوا إننا اختلفنا في جرير والفرزدق فكل فريق منا يزعم أن أحدهما أشعر من الآخر وقد رضينا بحكم الأمير . فقال كأنكم أردتم تعريضنا لهذين السكبين فيميز قان جلدتي لا أحكم بينهما ولكني أدلكم على من يهون سؤال جرير وسؤال الفرزدق عليكم بالأزارقة فإنهم قوم عرب يبصرون الشعر ويقولون فيه بالحق » . ففعلوا كما قال وسألوا في الغد أزرقياً قد خرج دعاهم إلى المبارزة . — وفي تاريخ الطبري ^(٣) عثرت على خبر آخر مهم لما نحن فيه وهو أن عتاب بن وراق الرياحي قبل الواقعة التي حدثت بينه وبين شبيب الخارجي سنة ٧٧ سار في الناس يجرّضهم على القتال . قال الطبري عن أبي مخنف لوط بن يحيى المتوفى نحو سنة ١٣٠ عن أحد العساكر : « وقف [عتاب] علينا فقص علينا قصصاً كثيراً كان مما حفظت منه ثلاث كلمات قال يا أهل الإسلام إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء وليس الله لأحد من خلقه

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٥٥ ورواية أخرى في الأغاني ج ٧ ص ٣٩ — ٤٠ من طبعة بولاق .

(٢) وهم من الخوارج .

(٣) تاريخ الطبري الجزء الثاني ص ٩٥٠ — ٩٥١ وبالاختصار في تاريخ ابن الأثير ج ٤

ص ٣٤١ من طبعة ليدن ١٨٥١ — ١٨٧٦ (في سنة ٧٧ هـ) .

بأحمد منه للصابرين ألا ترون أنه يقول أَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ^(١) فَمَنْ
 حمد الله فَعَلَهُ فَمَا أَعْظَمَ دَرَجَتَهُ وليس الله لأحد أَمْقَتَ منه لأهل البغى ألا ترون أن
 عدوكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه لا يرون إلا أن ذلك لهم قُرْبَةٌ عند الله فهم شرار
 أهل الأرض وكلاب أهل النار أين القصص ؟ قال ذلك فلم يُجِبْهُ والله أحدٌ منّا
 فلما رأى ذلك قال أين من يروى شعر عنترة ؟ قال فلا والله ما ردّ عليه إنسان كلمة
 فقال إنا لله كأتى بكم قد فرتم عن عتاب بن ورقاء وتركتموه تسفى فى استه الرياح
 أراد أنه يئس من الظفر إذ لم يكن أحد يشجّع قلوب الناس ويحثّهم على القتال
 بقصص الروايات عن أيام العرب المشهورة وبإشاد قصائد عنترة فى الحماسة . فقيسوا
 على ذلك قدر الشعر الجيد من قواد الأعراب فى الحرب .

وصلت إلينا الأشعار من هذا النوع متفرقة فى عدة كتب لاسيّما تاريخ الطبرى
 وكتاب الأغاني وهى تدور على خمسة أمور : الحماسة والمفاخرة وهجاء العدو ورتاء
 القتلى وحرز الاغتراب مع الشوق إلى الوطن البعيد ^(٢) . ومن الحرى بالاعتبار أن
 الهجاء قليل لأنهم لم يتعاطوه فى الغالب إلا إذا كانت المحاربة بين أقوام عربية
 كأنه عندهم من خصائص أولاد عدنان وقحطان فرأيهم هذا متعلق بأصل الهجاء
 ومنصبه عند قدماء العرب حسبا سنيينه إن شاء الله بعد الفراغ من هذا التمهيد العام
 فإن الهجاء لم يُعْمَلْ عندهم إلا إذا ردّ عليه جواب فمن الواضح أن هذا الردّ مستحيل
 إذا كان العدو من العجم .

إذا دارت المحاربة بين أقوام من العرب أصبحت أشعارهم شبيهة بما ورد منها فى
 الحكايات المطوّلة عن أيام العرب فى الجاهلية فترون شعراء فریق يرُدّون على شعراء
 خصمهم بأبيات أخرى حسبا كان عادة الأعراب منذ الزمان القديم . ومثال ذلك
 ما جرت من الأشعار بين زُفَر بن الحارث العامرى من أصحاب مُصْعَب بن الزُبَيْر

(١) القرآن سورة ٨ (الأنفال) : ٤٧ .

(٢) وقد أشرت إلى شعر الاغتراب والشوق إلى الوطن عندما تكلمت عن شعر الأعراب

الذين كانوا فيما خارج أنحاء جزيرة العرب (ص ٩٨ — ٩٩) .

و بين جَوَّاس بن قَعَطَل وغيره حين وقعة مَرَج رَاهِط سنة ٦٥ وهى مروية فى تاريخ الطبرى^(١) وكتاب الأغانى^(٢) فلو لا الأخبار المتعلقةُ بها لَحَرْنَا فى الحُكْم أهى من عهد الجاهلية أم من زمان الاسلام . قال مثلاً زفر بعد انهزامه من أبيات كثيرة^(٣) :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَبْقَتْ وَقِيعَةُ رَاهِطٍ لِمَرْوَانَ صَدْعًا بَيْنَنَا مُتَنَائِيًا
فَقَدْ يَنْبُتُ الْمَرْعَى عَلَى دِمْنِ الثَّرَى وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَاهِيًا
أَرِنِي سِلَاحِي لَا أَبَالِكَ إِنَّنِي أَرَى الْحَرْبَ لَا تَزْدَادُ إِلَّا تَمَادِيًا
أَتَذْهَبُ كَلْبٌ لَا تَنْلِهَا رِمَاحُنَا وَتَتْرُكُ قَتْلَى رَاهِطٍ هِيَ مَا هِيَا
فَلَمْ تَرِ مِنِّي نَبْوَةً قَبْلَ هَذِهِ فِرَارِي وَتَرَكِي صَاحِي وَرَآيَا
عَشِيَّةً أَعْدُو فِي الْفَرِيقَيْنِ لَا أَرَى مِنْ الْقَوْمِ إِلَّا مَنْ عَلَى وَلَالِيَا
أَيَذْهَبُ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِنْ أَسَاتُهُ بِصَالِحِ أَيَّامِي وَخُسْنِ لِيَالِيَا
أَبْعَدَ ابْنِ عَمْرٍو وَابْنِ مَعْنٍ تَتَابَعَا وَمُقْتَلِ هَمَامٍ أُمِّي الْأَمَانِيَا
وكلام الشعر من هذا النوع فى الأغلب بسيط مثل قول عُوَيْجِ الطَّائِي يمتدح كلبًا
وَحَمِيد بن بَحْدَل^(٤) :

لَقَدْ عِلْمُ الْأَقْوَامِ وَقَعَ ابْنُ بَحْدَلٍ وَأُخْرَى عَلَيْهِمْ إِنْ بَقِيَ سَيُعِيدُهَا
يَقُودُونَ أَوْلَادَ الْوَجِيهِ وَالْإِلَاحِقِ مِنْ الرِّيفِ شَهْرًا مَا بَيْنِي مَنْ يَقُودُهَا
فَهَذَا لِهَذَا ثُمَّ إِنِّي لِنَافِضُ عَلَى النَّاسِ أَقْوَالًا كَثِيرًا حَدُودُهَا
فَلَوْلَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَأَصْبَحْتُ قِضَاعَةَ أَرْبَابًا وَقَيْسُ عَيْدُهَا
أو مثل قول سحبان وائل (وهو غير الخطيب الشهير) يذكر قتال المسلمين

(١) كتاب تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٨٣ — ٤٨٦ من طبعة ليدن وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٥ — ١٢٧ من طبعة ليدن

(٢) كتاب الأغانى ج ١٧ ص ١١٠ — ١١٣ .

(٣) مروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ٢٠٣ من طبعة باريس (فى الباب الثالث والتسعين) وراجع أيضاً التنبيه للمسعودى ص ٣٠٩ — ٣١٠ من طبعة ليدن ١٨٩٤ وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٨٣ — ٤٨٤ وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٥ — ١٢٦ من طبعة ليدن وكتاب الأغانى ج ١٧ ص ١١٢ ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٤٤

(٤) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٨٧ .

بُجَنْدَة سنة ٩٤ ويمدح رئيسهم قُتَيْبَة بن مُسْلِم (١) :

فَسَلِ الْفَوَارِسَ فِي خُجَنْدَة تَحْتَ مُرْهَفَةِ الْعَوَالِي
هَلْ كُنْتُ أَجْمَعُهُمْ إِذَا هُزِمُوا وَأُقْدِمَ فِي قِتَالِي
أَمْ كُنْتُ أَضْرِبُ هَامَةَ السَّعَاتِي وَاصِيرُ الْعَوَالِي
هَذَا وَأَنْتَ قَرِيعُ قَيْدِسٍ كُلَّهَا ضَخْمُ النِّوَالِ
وَفَضَلْتَ قَيْسًا فِي النَّدَى وَأَبُوكَ فِي الْحَجَجِ الْخَوَالِي
وَلَقَدْ تَبَيَّنَ عَدْلُ حُكْمِكَ فِيهِمْ فِي كُلِّ مَالٍ
تَمَّتْ مُرُوءَتُكُمْ وَنَا غَيَّ عِزُّكُمْ غُلْبَ الْجِبَالِ

لكنه شعر صادر من تلقاء القلب بدون تكلف وتصنع معبر عما في الصدر حقيقة فكثيراً ما يُعْجِبُنَا وَإِنْ قُلَّ تَنْمِيقُهُ . وَمَنْ نَسَجَ الْقَرِيضَ مِنْ هَذَا الصَّنْفِ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ الْمُجِيدِينَ الْبَارِعِينَ أَيْضاً فِي سَائِرِ أَنْوَاعِ الشُّعْرِ مِنْهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ الْمَعْرُوفُ بِأَعَشَى هَمْدَانٍ (٢) وَهُوَ شَاعِرٌ فَصِيحٌ كَوَفِيٌّ قِيلَ إِنَّهُ « شَاعِرُ أَهْلِ الْيَمَنِ بِالْكُوفَةِ وَفَارِسِهِمْ » (٣) . وَكَانَ مِمَّنْ أَعْزَاهُ الْحَجَّاجُ ابْنُ يَوْسُفَ بِلَادَ الدَّيْلَمِ الْقَرِيبَةَ مِنْ شَطْطِ بَحْرِ الْخَزَرِ الْجَنُوبِيِّ فَأَسْرَ وَبَقِيَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الدَّيْلَمِيِّينَ مَدَّةَ ثَمَّ سَارَ فِي جَيْشِ أَهْلِ الْكُوفَةِ إِلَى بِلَادِ مُكْرَانَ (٤) وَطَالَ مَقَامُهُ بِهَا . وَذَكَرَ فِي قِصَائِهِ مَا لَحِقَهُ مِنْ أَسْرِ الدَّيْلَمِ وَمَا شَهِدَ مِنَ الْوَقَائِعِ (٥) :

وَأُغِيرُ غَارَاتٍ وَأَشْهَدُ مَشْهَدًا قَلْبُ الْجَبَانِ بِهِ يَطِيرُ وَيَرْجُفُ
وَأُرَى مَغَانِمَ لَوْ أَشَاءَ حَوَيْتَهَا فَيُصْدُّنِي عَنْهَا غِيٌّ وَتَعَفُّفُ

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٢٥٧ (في سنة ٩٤) وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ٤٦٠ من طبعة ليدن .

(٢) وهي قبيلة من قبائل جنوب جزيرة العرب .

(٣) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٥١ من طبعة بولاق .

(٤) مكران ولاية في جنوب بلاد الفرس على شاطئ خليج عمان .

(٥) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٤٨ من طبعة بولاق [وديوان أعشى همدان في ذيل ديوان

أعشى ميمون الذي طبع بلندن سنة ١٩٢٨ عدد ٣٢ بيت ٣٤ — ٣٥] .

وله قصيدة رائعة وصلت منها إلينا ٥٧ بيتاً يشكو بها ما قاساه من المشاق والمرض
في مكران^(١) ومبتدؤها :

طلبت الصِّبا إذ علا العَكرُ وشاب القَذالُ وما تَقْصِرُ
وبان الشَّبابُ ولذاتهُ ومثلك في الجهل لا يُعْذِرُ

ثمَّ يذكر فيها العواذل ويشكو لومَهَنَّ فيقول :

كأنِّي لم أَرْتَحِلْ جَسْرَةً ولم أَجْهَأْ بَعْدَ مَا تَضَمَّرُ
فَأَجْشِمُهَا كُلَّ دِيمومةٍ ويعرفها البلدُ الْمُفْقِرُ
ولم أَشْهَدْ البأسَ يومَ الوَغَى على المُفَاضَةِ والمِفقِرِ
ولم أَخْرِقِ الصَّفَّ حَتَّى تَمِيلَ دَرَاعَةُ القومِ والحَسِرِ
وتحتي جَرْداءُ خَيْفَانَةٍ من الخيلِ أو سَابِجٌ مُجْفِرُ
أَطَاعِنُ بِالرَّمْحِ حَتَّى اللَّيْلِ نِ يَجْرِي بِهِ العَلَقُ الأَحْمَرُ

ويخرج إلى ذكر ما كان عليه من رخاء العيش ونعيمه :

وإذْ أنا في عُنفوانِ الشِّبَا بٍ يُعْجِبُنِي اللُّهُوُ والسَّمَرُ
أُصِيدُ الحِسانَ وَيَصْطَدَّنِي وتَعْجِبُنِي الكاعِبُ المُعْصِرُ

وبعد الإطناب في الكلام عن تغزُّله وقت شبابه بصفة يلوح منها أنه كان من
سكَّانِ المدن يأخذ يشكو شرَّ حاله في العسكر في البلاد البعيدة التي بُعث إليها كارهاً
وذلك في أبيات كثيرة .

وفي سنة ٨٣ لما خرج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج بن يوسف وحشد
معه أكثر الكوفيِّين كان أعشى همدان ممَّن خرج معه وجعل يقول الشعر في مدح
ابن الأشعث ولا يزال يُحَثُّ أهل الكوفة بأشعاره على القتال حتَّى أُسْرِ قُتِلَ صَبْرًا

بأمر الحجاج^(١). وله أيضاً شئ من الشعر يخرج عن هذا الصنف ويدخل في الصنف السادس لمداره على الاختلافات الدينية منه الأبيات المروية له في كتاب الحيوان للجاحظ^(٢) يثلب فيها أصحاب المختار من أهل الشيعة.

ومن هذا الصنف أكثر أشعار عُمَيْر بن شُعَيْم التغلبيّ المشهور بالقُطامي^(٣) المتوفى سنة ١١٠ كان نصرانياً كمُعْظَم التغلبيين ثمّ أسلم وقال أغلب شعره في ذكر الحروب الجارية بين قبائل العرب لا سيما بين تغلب وقيس عيلان إلى أن أُسِر في واقعة ما كسين فأخذت إبله. فنجاه زُفَر بن الحارث رئيس القيسيين وخطى سبيله وردّ عليه مائة ناقة فمدحه القطاميّ في عدّة أشعار. ومما يستحقّ الذكر في شعره من حيث اللغة ما ذهب إليه أحياناً من جزم عين الفعل الثلاثيّ في الماضي حتّى قال نَشَبَتْ وَتُرَكَّتْ بَدَلًا مِنْ نَشَبَتْ وَتُرَكَّتْ^(٤) ولعلّ ذلك لغة تغلب لأنّه غير نادر أيضاً في ديوان الأخطل.

ومن هذا الصنف أيضاً ما يُروى لكعب الأشقرى^(٥) في غزوات قتبية بن مسلم في بلاد خوارزم^(٦) سنة ٩٣ أو قصيدته الطولى التي وصف فيها وقائع الجند مع المهلب بن أبي صفرة في بلد بلد حين محاربة الأزارقة ببلاد العجم^(٧) — فترون أنّ هذا النوع من شعر عهد الأمويين يتّصل بما سمّيناه شعر الفتوحات في أيّام الخلفاء الراشدين وبالأشعار المشهورة في أيّام العرب في الجاهليّة.

٦ — أمّا الصنف السادس من شعر الدولة الأمويّة وهو شعر الفتن السياسيّة

(١) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٥٩ — ١٦١ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودي في الباب الخامس والتسعين ج ٥ ص ٣٥٥ — ٣٥٨ من طبعة باريس.

(٢) كتاب الحيوان ج ٢ ص ٩٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥.

(٣) راجع ترجمته في كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١١٨ — ١٣١ وديوانه مطبوع بليدن سنة

١٩٠٢ بعناية J. Barth.

(٤) انظر كامل المبرد ص ٥٣٧ من طبعة ليبسك.

(٥) راجع ما قاله فيه صاحب كتاب الأغاني في ج ١٣ ص ٥٦ — ٦٤ من طبعة بولاق.

(٦) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٦٣ — ٦٤ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٠٠٨ — ١٠١٧.

(٧) كتاب الأغاني ج ٣١ ص ٥٧.

والدينية فهو من وجهٍ ليس يبعد عن الصنف السابق بيانه لأنَّ قسمًا غير يسير منه يتعلّق أيضاً بأحوال الحروب والثورات . فخرتُ مدّة في أيّ شيء أوفّقُ أجمعُ الصنفين أم التفريق بينهما وفضلت التفريق اعتباراً لما آتٍ شرحه . إنَّ الاتصال بالغزوات والحروب ضروريٌّ للشعر من النوع المتقدّم وليس ضرورياً للشعر من الصنف السادس . ثمّ الحروب التي يتعلّق بها الصنف السابق ضربان بالأخصّ : أحدهما الجهاد في حدود المملكة الإسلامية أو خارجها والآخر غارات قبائل الأعراب بعضها على بعض لأسباب خاصّة لها لا يُمسّ أغلبها الأحزاب السياسية الحقيقية ولا المذاهب الدينية اللهمّ إلّا عَرَضاً . أمّا الصنف السادس من الشعر إذا ارتبط قوله بالحروب كانت هذه الحروب من جنس غير الجنسين السابقين لأنّها إمّا حروبٌ دائرة بين حزبين سياسيّين أو حروب من النوع المسمّى عند الفقهاء بحروب المصالح لا سيما في قتال المرتدّين وأهل البغي^(١) . ثمّ إنّ الصنف السادس يحتوي أيضاً على أشعار مدارها على مذاهب سياسيّة ودينيّة من دون تعلّق بأيّ جنس كان من الحروب . قلت مذاهب سياسيّة ودينيّة لتكون العبارة عن فكرى أوضح بالإضافة إلى أحوال زماننا الحاضر ولكنّ حقيقة الأمر في القرن الأوّل والثاني بعد خلافة عثمان ابن عفّان أنّ كلّ حزبٍ سياسيٍّ كان عند المسلمين مذهباً دينياً أيضاً لعدم تمييز الدنيا والدين في أمور الحكومة على أحكام الشريعة الإسلامية . وذلك واضح إن قابلتم نظام الأمة الإسلامية بنظام الأمم الإفرنجيّة سواء في الزمان القديم أم في القرون الوسطى أم في العصر الجديد . عند الأمم الإفرنجيّة لا يتأسّس النظام الاجتماعيّ السياسيّ على العقائد وإن كانت العقائد تؤثر فيه أحياناً كما تؤثر في الأميال والأهواء والأخلاق والآداب . فعلاقة الملوك بأمور الدين عندهم كعلاقته بأخلاق الأمة وتمذنها أعنى على وجه طبعيّ محض إذ لا يقوم ملكٌ من غير وجود أمة ولا تُعقل أمةٌ ليست لها آراء

(١) راجع الأحكام السلطانية للماوردي في الباب الخامس ص ٤٤ — ٥٣ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ص ٨٩ — ١٠٧ من طبعة بن ١٨٥٣ .

وأهواء وأميال وحاجات خاصة . فان كانت مثلاً جملة من الباباوات في الزمان السالف شملوا سلطة دينية وسلطة دنيوية في أيديهم كان هذا الجمع عَرَضِيًّا لا جوهريًّا لأنهم كانوا أئمة جميع النصارى الكاثوليك في أمور العقائد ولم يكونوا ملوكًا إلا على سكان مملكتهم غير الواسعة ثم ما كان هذا المُلْكُ مما يستوجبه الدين النصراني . وكذلك كانت القياصرة في القرون الوسطى والملوك غير الدستوريين في العصر الجديد يقولون إنَّ سلطتهم من الله ولكن معنى قولهم هذا أنَّهم قياصرة أو ملوك بإرادة الله ومَنَّةِ وأنَّ سلطانهم حقٌّ لم يتوصَّوا إليه بالاغتصاب والتعدّي فلا تجوز للأمة المعصية عليهم . — وكذلك لا علاقة عندهم بين الأحكام الدينية وبين أصول التشريع إلا عَرَضًا فليس لهم فقه بحصر معناه المصطلح عليه عند الفقهاء وإِنَّمَا لهم أحكام سلطانية وقوانين أثبتت قواعدها بالاجتهاد من غير استخراجها من شريعة منزلة أو سنن أنبياء . — فواضح أنَّ مسألة اختيار الدولة وهيئة الحكومة عندهم مسألة سياسية محضة متجردة عن العقائد والأحكام الدينية . وكذلك ما اشتق إليه في القرون الوسطى من جمع كلِّ النصارى في مملكة واحدة يتولَّى أمرها قيصرٌ لم يكن من توابع قواعد النصرانية .

أمَّا الإسلام القديم فلا فرقُ بآن فيه بين تولَّى أمور الدنيا وتولَّى أمور الدين ومسألة الإمامة مسألة شرعية مثل سائر مباحث الفقه . قال أبو الحسن الماوردي^(١) إنَّ الإمامة أصل يستقرُّ عليه قواعد الملَّة وتنتظم به مصالح الأمة ثم^(٢) إنَّها موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا . فنصب الخليفة أي الإمام دنيويٌّ من حيث قيامه بمصالح جميع سكان دار الإسلام والمسلمين المقيمين بدار الحرب وهو دينيٌّ من حيث كونه ولاية الله على الأرض لحفظ الإسلام البدع والفساد ولإبقاء وحدة الأمة الإسلامية على مقتضى الشريعة . وبما أنَّ الأحزاب السياسية في عهد الأمويين

(١) الأحكام السلطانية ص ٢ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ص ٢ من طبعة بن .

(٢) الأحكام السلطانية ص ٣ من طبعة مصر ١٣٢٧ و ص ٣ أيضاً من طبعة بن .

إنما تشاجرت فيمن تكون الإمامة من حقّه فكانت هذه المسألة فقط سبب الحروب
سوى الجهاد وغزوات الأعراب وفتن أهل البدع ظاهر أننا لا نتمكن من التفريق
في ما بين الأشعار في حروب الأحزاب السياسية والأشعار في الاختلافات الدينية .
إن الشعر من هذا الصنف السادس ذو شأن خطير سواء لنفس قيمته الأدبية
أم لما يستفيدة منه من أراد البحث العميق الدقيق المُنصف عن تاريخ المشرق
الإسلامي في ذلك العصر . لا يخفى عليكم أنّ القدماء الذين صنفوا الكتب في
الأخبار والسير قلمًا ذهبوا إلى إيضاح الأحوال الاجتماعية والأغراض العاملة
في الحوادث وإنما اقتصروا أو كادوا على ذكر ما يظهر من التقلبات والوقائع والحروب
والأخبار من دون الإفادة عن أسبابها الباطنة الخفية . مثل آراء طبقات الناس وأهوائهم
وأميلهم ومصالحهم فأصبح أكثر ما أُلّف إلى الآن [يعنى إلى سنة ١٩١١] بالعربية
من تواريخ بلاد الإسلام أقرب إلى الأخبار البرقية المنشورة في الجرائد منها إلى
ما يُعتبر الآن غاية التاريخ الحقيقيّ الباحث عن علل الحوادث وتسلسلها وعن
انقلابات الأحوال الاجتماعية والأفكار . ثمّ من آفات الكتب العربية في التاريخ
أنها في الغالب لم تستسق إلا من المصادر الرسمية أو روايات الفريق الفائت على غيره
فبعد الاطلاع عليها كثيرًا ما نُضحى كحُكم سمع أحد الخصمين فقط فلا يتمكّن من
الإنصاف في الحُكم . وغير مرّة تساعدنا الأشعار من الصنف السادس على تدارك
هذا الخلل . فإنها قامت في عصرها مقام الجرائد والمناقشات الدائرة الآن في المجالس
العموميّة وهي في الغالب لم تكن ترجمان فكر قائلها فقط بل كانت صوت جميع
الحزب أو المذهب المنتسب الشاعر إليه . فإنّ العرب في ذلك العصر الذى لم يُعرف
فيه فنّ الطباعة بعد اتخذوا الشعر وسيلةً لنشر آرائهم وأفكارهم وعواطفهم لأنّ
الشعر أسير على ألسنة الناس وأوقع في قلوبهم من الكلام المنشور العادى . فالراوى
المرتحل من بلد إلى بلد يُنشد الأشعار كان لهم بمنزلة الجريدة المُشيعَة آراء حزبها في
الجمهور . فكفى ذلك دلالةً على أهميّة تلك الأناشيد لمن أراد الوقوف التام على حياة

العرب الاجتماعية وعلى الأهواء والعواطف التي لا غنى من حقّ معرقها لمن عزم التنقيب عن حوادث الزمان السالف وإزالة الشكّ واللبس في تقدير علما .

لَمَّا قُتِلَ عُمَانُ بْنُ عَفَانَ يَوْمَ الْأُخْيَةِ مِنْ سَنَةِ ٣٥٦ هـ اضْطَرَبَتِ النَّاسُ اضْطِرَابًا شَدِيدًا فَذَهَبَ قَوْمٌ غَيْرُ يَسِيرٍ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَدْ شَارَكَ الْقَاتِلَ فَأَنْكَرُوا بَيَعْتَهُ وَمِنْهُمْ أَعْنَى مِنَ الْعُمَانِيَةِ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ شَاعِرُ النَّبِيِّ سَابِقًا الَّذِي رثَا عُمَانَ فَقَالَ فِي مَرثِيته الأبيات الشهيرة ^(١) :

ضَحَّوْا بِأَشْمَطِ عُنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا
بَلْ لَيْتَ شِعْرِي وَلَيْتَ الطَّيْرُ يُخْبِرُنِي مَا كَانَ شَأْنُ عَلِيٍّ وَأَبْنِي عَفَانَا
لَتَسْمَعُنَّ وَشِيكًا فِي دِيَارِكُمْ اللَّهُ أَكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عُمَانَا
وَقَدْ رَضِيتُ بِأَهْلِ الشَّامِ زَافِرَةً وَبِالْأَمِيرِ وَبِالْإِخْوَانِ إِخْوَانَا
إِنِّي لَمِنْهُمْ وَإِنْ غَابُوا وَإِنْ شَهِدُوا حَتَّى الْعَمَاتِ وَمَا سُمِّيتُ حَسَّانَا
صَبْرًا فِدَى لَكُمْ أُمِّي وَمَا وَلَدَتْ قَدْ يَنْفَعُ الصَّبْرُ فِي الْمَكْرُوهِ أَخِيَانَا
شُدُّوا السُّيُوفَ بَيْثِي فِي مَنَاطِقِكُمْ حَتَّى يَحِينَ بِهَا فِي الْمَوْتِ مَنْ حَانَا
لَعَلَّكُمْ أَنْ تَرَوْا يَوْمًا بِمَغْبِطَةٍ خَلِيفَةَ اللَّهِ فِيكُمْ كَالَّذِي كَانَا

فكانت هذه الأبيات كأنها مقدمة المعرفة بالمستقبل فتداعت أصوات من طلب ثار عثمان وجاوبتها الأصداء لاسيما في الأنحاء الشامية فاشتعلت نار الحرب وتصلصلت الدروع من وقع البيض وامتت العداوة بين أهل العراق وأهل الشام كما قال كعب

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ٩٨ من طبعة تونس أو عدد ٢٠ ص ٢٢ من طبعة ليدن — أما البيت الأول فهو ناقص في طبقات الديوان ولكنه موجود في كتاب العقد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٠٦ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفي بيان الجاحظ ج ١ ص ٩٠ سطر ٧ من طبعة ١٣١٣ وفي كتاب التنبيه للمسمودي ص ٢٩٢ من طبعة ليدن وفي خزانة الأدب ج ٤ ص ١١٨ من طبعة بولاق وفي تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ١٥١ من طبعة ليدن وكل الأبيات مروية في NÖLDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum* ص ٧٧ — أما عنوان السجود فانظر القرآن ٤٨ (سورة الفتح) : ٢٩ .

ابن جُعَيْلِ التَّغَلْبِيُّ شَاعِرُ الشَّامِيِّينَ (١) :

أَرَى الشَّامَ تَكَرَّهُ مُلْكَ الْعِرَاقِ وَأَهْلَ الْعِرَاقِ لَهُمْ كَارِهِينَا
وَكُلًّا لِصَاحِبِهِ مُبْغِضًا يَرَى كُلَّ مَا كَانَ مِنْ ذَاكَ دِينَا
وَكُلُّ يُسْرٍ بِمَا عِنْدَهُ يَرَى غَثَّ مَا فِي يَدَيْهِ سَمِينَا
إِذَا مَا رَمَوْنَا رَمَيْنَاهُمْ وَدَنَاهُمْ مِثْلَ مَا يُقْرِضُونَا
فَقَالُوا عَلَيَّ إِمَامٌ لَنَا فَقُلْنَا رَضِينَا ابْنَ هِنْدٍ رَضِينَا
وَقَالُوا نَرَى أَنْ تَدِينُوا لَنَا فَقُلْنَا لَهُمْ لَا نَرَى أَنْ نَدِينَا
وَمِنْ دُونِ ذَلِكَ خَرَطُ الْقِتَادِ وَضَرْبُ وَطْعَنُ يُقْرِئُ الْعُيُونَا
وَمَا فِي عَلَيٍّ لِمُسْتَحْدِثٍ مَقَالٌ سِوَى عِصْمَةِ الْمُحْدِثِينَا
وَيُثَارِهِ لِأَهْلِ الذُّنُوبِ وَرَفَعَ الْقِصَاصِ عَنِ الْقَاتِلِينَا
إِذَا سِيلَ عَنْهُ زَوَى وَجْهَهُ وَعَمَى الْجَوَابَ عَلَى السَّائِلِينَا
فَلَيْسَ بِرَاضٍ وَلَا سَاخِطٍ وَلَا فِي النِّهَاقِ وَلَا الْآمِرِينَا
وَلَا هُوَ سَاءٌ وَلَا سَرَّهٌ وَلَا بُدَّ مِنْ بَعْدِ ذَا أَنْ يَكُونَا

كان المسلمون بعد قتل عثمان إلى أيام صفين منقسمين إلى فريقين كبيرين متحاربين : العثمانيّة وشيعيّة عليّ. وبينهما ناس يكرهون سفك دماء المؤمنين ويتجنبون التحزّب وهم المسمّون بالمعتزلة (٢) منهم أبو موسى الأشعريّ وسعد بن أبي وقاص ومغيرة بن شعبه وغيرهم. ثمّ رضى عليّ باقتراح التحكيم في خلافته في صفر سنة ٣٧ هـ

(١) كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص ١٧٠ — ١٧١ من طبعة ليدن ١٨٨٨ و. Nœldeke, *Delectus veterum carminum arabicorum*, p. 79-80. وأجابه النجاشي (راجع كتاب الأخبار الطوال ص ١٧١ وكتاب Nœldeke ص ٨ وانظر أيضاً F. SCHULTHESS, *Ueber den Dichter al-Nagâsi und einige Zeitgenossen*, *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, 54, 1900, p. 64).

(٢) [أما علاقة هؤلاء المعتزلة بالمعتزلة المشهورين في تاريخ علم التوحيد الإسلامي وأصل اسم هؤلاء المعتزلة الآخرين فراجع G.A. NALLINO, *Raccolta di scritti editi e inediti*, vol. II, [1940, p. 146-169.

(أغسطس ٦٥٧ م) كان سبب فتنة في شيعته لأنّ قومًا من أصحابه استقبّحوا تحكيم الرجال في دين الله أي تقويض حلّ مسألة الإمامة إلى رجلين لقولهم إنّه لا حُكْمَ إلّا لله فخرجوا عن جيشه إلى حرّوراء^(١) فسُمّوا الحرورية أو الخوارج^(٢) — وفي سنة ٣٨٨ التقى الحكّمان وهما أبو موسى الأشعريّ وعمرو بن العاصي بأذرح في أرض البلقاء فنتيجة الأمر المرجوّ منه توافق النفوس واطمئنان القلوب إنّما خلّع على معاوية معًا. قد دهش كثير من أهل العراق والحجاز أيّ دهش حين سمعوا خبر ذلك الحُكْم الذي أسرع على في إنكاره فلشدّة استغرابهم وبُغضهم لمعاوية أنشئت عندهم وذاعت الرواية المتداولة حتى الآن عن الخيانة المنكرة القبيحة التي دبرها وارتكبها عمرو بن العاصي. أمّا الحقيقة التي لم يتوصّل إلى كشفها إلّا من رجع إلى المصادر الأصليّة القديمة وأدمن فيها النظر والبحث فإنّ عمرو بن العاصي ما أثبت معاوية ألبيّة ولكن بما عهد له من الدّهاء والمهارة في أمور السياسة قد بلغ مرآته ومرام معاوية حين حمل أبا موسى الأشعريّ على الرضى بالتفحّص عن حقوق كلّ من الخصمين كأنهما متساويا القدر وكأنّ خليفة بايعه جملة وافرة من المؤمنين لا يُفضّل على من كان والياً على الشام فقط. فنتيجة الحُكْم أي خلّع كلا الخصمين إنّما كان أنّ عليّاً عزّل عن الخلافة فلم تبق له إلّا ولاية العراق أمّا معاوية فخلّع ممّا لم يكن له فبقى على ما كان عليه قبلاً بل زاد حظوةً عند أصحابه إذ ساواه

(١) وهو موضع غير بعيد عن الكوفة.

(٢) هذا أصل الاسم فما سموا به كما يقال — لأنهم خرجوا على علي. فراجع الذي علّقه

R. BRUNNOW, *Die Charidschiten unter den ersten*

بِسُورَةِ النِّسَاء : ١٠١

Omayyaden, Leiden 1884, p. 28,

J. WELLHAUSEN, *Die religiös-politischen Oppositionsparteien im alten Islam*, Berlin 1901, p. 4 n. 2., (F. GABRIELI, *Sulle origini del movimento Khârigita* (R. Accademia d'Italia, Rendiconti classe scienze morali, 8e série, vol. 3, pp. 110-177); M. GUIDI, *Sui Khârigiti* (Rivista degli Studi Orientali, XXI 1944, p. 1-14).

الحُكْمُ بمن كان مدّة أعلى منه بكثير^(١).

فبالجملة كان أمر الحكمين سبب أكثر الاختلافات التي حدثت في الأمة الإسلامية بعد موت عثمان إلى أواخر القرن الثاني . خرجت الخوارج عن شيعة عليّ لمجرّد قبوله لاقتراح التحكيم وبعد خروجهم بأربع وعشرين سنةً اختلفوا في جواز السكنى في غيرهم من المسلمين ووجوب مجاهدتهم على الدوام فافترقوا وصاروا على أربعة أضرب : الأزارقة والصُفريّة والبيّهسيّة والإباضيّة^(٢) . — أمّا ختام أمر الحكمين ففرّق بين المسلمين تفرّيقاً عظيماً لم يزل إلى الآن فإنّ العلويين قالوا بتوارث الإمامة في أهل البيت فانكر الآخرون ذلك وقالوا بانقضاء الإمامة بإختيار أهل الحلّ والعقد أو بعهد من قبل . وزاد البون بين الفريقين نحو أواخر القرن الأوّل لزيادة محازبة الموالى من الفرس لشيعة عليّ فهم أدخلوا في مذهبهم اعتقادات غريبةً وبدعاً من بقايا آرائهم ودياناتهم القديمة . — وحدث أيضاً بعد أمر الحكمين حزب المُرَجّة ومنزلتهم فيما بين شيعة العلويين وشيعة بنى أمية كنزلة المعتزلة المشار إليهم فيما تقدّم (ص ٢٠٦) بين العثمانيين وأصحاب عليّ بن أبي طالب . — ومن عواقب الحكم أيضاً حزب الزُبَيْريين لاسيّما في الحجاز والعراق فإنّه من المشهور أنّ عبد الله بن الزُبَيْر ادّعى الخلافة بعد موت الحسين سنة ٦١ هـ وتولّى الأمر بمكة إلى سنة ٧٢ هـ . — ثمّ في أوائل القرن الثاني ابتدأت الدعوة العبّاسية بخراسان فقام فريق سادس من المسلمين يدّعون الخلافة لبنى هاشم لقرابتهم من عليّ بن أبي طالب . — فلكلّ هذه الأفرقاء شعراء كانوا يدافعون عن أغراضهم وعمّا ادّعى الفريق من الحقوق .

كثّر ذكر شعراء الخوارج وخطبائهم في كتب الأدب القديمة مثل كتاب البيان

LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'awia* I, p. 125-140.

(١) راجع

(٢) هذا تفرقههم القديم في سنة ٦١ هـ تقريباً . انظر الكامل في اللغة للبرد ص ٦٠٤ من طبعة ليبسك أوج ٢ ص ١٧٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٧٩٧ .

والتبيين للجاحظ^(١) وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه^(٢) بل أفرد المبرّد لأخبار الخوارج قسماً غير صغير من كتابه المسمّى بالكامل في اللغة والأدب^(٣). وشعرهم شعر خِلْنَاهُ في الغالب من نظم أهل البادية أسلوباً ولغةً وهو فصيح العبارة دأب أكثره على الحماسة والحرب. فلو أردنا الحُكْمَ فيهم بناءً على شعرهم لقلنا إنهم أقرب بكثير إلى أهل الوبر منهم إلى أهل المدر. ولكن إذا راجعنا النصوص التاريخية القديمة وجدنا جمّاً غفيراً من الأخبار عن تُقَاهم ونُسُكِهِم وشِدَّةِ عنايتهم بقراءة القرآن وإقامة الصلاة ليلاً ونهاراً وغير ذلك ممّا يخالف أميال الأعراب وشعائرهم. فما الحقيقة في تناقض هذين الأمرين؟

لا شكّ أنّ الذين رأسوا خروج الحروريّين عن جيش عليّ بن أبي طالب لم يكونوا أعراباً بل كانوا قرّاءً من أهل الحضرم منهم مسعر بن فدّكّ التميميّ وزيد ابن حصّين الطائيّ وذلك لأنهم رأوا التحكيم إفساداً للدين. هذا الثابت في جميع الأخبار. فترون أنّ أصل الخروج إنما كان مسألة نظرية لا يمكن أن تُهمّ ناساً مثل الأعراب. ولكن بعد قليل أكثر أهل القبائل الذين كانوا هاجروا من بلادهم في أواسط جزيرة العرب وأقاموا بالكوفة والبصرة بعد الفتح الإسلاميّ اتّبعوا القرّاء لسببين أحدهما مجاورتهم لهم من حيث الشكّنى والآخر موافقتهم لهم في مسألة الخلافة. لا يخفى عليكم أنّ القطب الذي يدور عليه مذهب الخوارج هو وجوب انعقاد الامامة بالإختيار غير المحدود لأنّ كلّ مسلم صالح يمكن عندهم أن يقلّد

(١) كتاب البيان والتبيين ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [أوج ٣ ص ١٦٥ - ١٦٦ من طبعة ١٣٥١].

(٢) كتاب العقد ج ٢ ص ١٥٥ - ١٥٧ من طبعة مصر ١٣٠٥.

(٣) الكامل ص ٥٢٧ - ٦٠٠ من طبعة ليبسك أوج ٢ ص ١١٩ - ٢٣٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ [ونقل الأستاذ Rescher هذا القسم إلى اللغة الألمانية وطبعه بالعنوان: Die Kharidschitenkapitel aus dem Kâmil, Stuttgart 1922].

[واعتنى الأستاذ Gabrieli بجمع أشعار الخوارج الذين عاشوا في عصر بني أمية :

F.GABRIELI, *La poesia khârigita nel secolo degli Umayyadi* (Rivista degli Studi Orientali, vol. XX, 1943, p. 331-372)].

الخليفة وحق الاشتراك في الاختيار مُطلق عندهم على الجماعة بأسرها ولا يختص بأهل الحل والعقد . فعلى هذا الرأي كان منصب الخليفة في الأمة الإسلامية كمنزلة السيد في القبيلة فرضى به الأعراب طبعاً لما لهم من حب الاستقلال والتمسك بعاداتهم القديمة والكراهة لكل نظام مخالف لنظامهم الخاص . فعن جمع هذين العنصرين المختلفين القراء والأعراب صدر التناقض الظاهري المومأ إليه فيما سبق .

ومن شعراء الخوارج وخطبائهم قطري بن الفجاءة رئيس الأزارقة الذي خرج على ولاية العراق فبقي ٢٠ سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة حتى قُتل سنة ٧٧^(١) ومن أشعاره الأبيات الشهيرة المروية في حماسة أبي تمام^(٢) :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تراي
فإنك لو سألت بقاء يومٍ على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عزٍ فيطوى عن أخى الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي فداعيه لأهل الأرض داعي
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم وتسلمه المنون إلى أنقطاع
وما للمرء خير في حياة إذا ما عُدَّ من سقط المتاع

قال ابن خلكان^(٣) : « وهي تشجع أحبن خلق الله وما أعرف في هذا الباب مثلها وما صدرت إلا عن نفس أبيّة وشهامة عربيّة » . — ومن شعرائهم المقدّمين

(١) كذا في تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٠١٨ وقال ابن خلكان (وفيات الأعيان عدد ٥٥٦ من طبعة غونتجن أو عدد ٥١٧ من الطبعات المصرية) أنه قُتل في سنة ٧٨ هـ .

(٢) حماسة أبي تمام ص ٤٤ من طبعة بن أوج ١ ص ٤٩ — ٥٠ من طبعة بولاق ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٥٦ من طبعة غونتجن أو عدد ٥١٧ من الطبعات المصرية وشرح شواهد الكبرى للعيني ج ٣ ص ٥١ — ٥٣ من طبعة بولاق بهامش خزنة الأدب .

(٣) وفيات الأعيان في الموضع المذكور .

عمران بن حِطَّان السَّدُوسِي^(١) كان من علماء الصُّفَرِيَّة وخطبائهم فحين أُسنَّ وضعف
عن الحرب اقتصر على الدعوة والتحريض بلسانه . وهو من الذين مدحوا ابن مُلْجَم
قاتل عليّ بن أبي طالب وقوله في ذلك مشهور^(٢) . وأطرده الحجاج بن يوسف ولجّ
في طلبه فنجا منه هارباً منتقلاً في القبائل حتى مات في قبيلة الأزْد ببلاد عمان .
وكان ممَّن عاصر الفرزدق ولكن شَتَّان ما بينهما فإنَّ الفرزدق لم يزل يمدح
الأكابر والرؤساء طَمَعاً في هداياهم وعمران بن حِطَّان برىء من مثل ذلك وهو
القائل^(٣) (من بحر الخفيف) :

أَيُّهَا الْمَادِحُ الْعِبَادَ لِيُعْطَى إِنَّ اللَّهَ مَا بَأْيَدِي الْعِبَادِ
فَاسْأَلِ اللَّهَ مَا طَلَبْتَ إِلَيْهِمْ وَأَرْجُ فَضْلَ الْمُقْسَمِ الْعَوَادِ
لَا تَقُلْ فِي الْجَوَادِ مَا لَيْسَ فِيهِ وَتُسَمِّ الْبَخِيلَ بِاسْمِ الْجَوَادِ

ومن شعرائهم مُعَاذُ بْنُ جُوَيْنٍ بْنُ حُصَيْنٍ الْخَارِجِيُّ سَجَنَةُ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ وَالْي
الْكُوفَةُ (٦٦١ — ٦٧٠) فَقَالَ فِي الْحَبْسِ يَحْرُضُ أَصْحَابَهُ عَلَى الْخُرُوجِ^(٤) :

أَلَا أَيُّهَا الشَّارُونَ قَدْ حَانَ لِأَمْرِي شَرَى نَفْسُهُ لِلَّهِ أَنْ يَتَرَ حَلَا
أَقَمْتُمْ بِيَدَارِ الْخَاطِئِينَ جَهَالَةً وَكُلُّ أَمْرِي مِنْكُمْ يُصَادُ لِيَقْتَلَا
فَشُدُّوا عَلَى الْقَوْمِ الْعُدَاةَ فَإِنَّهَا أَقَامَتْكُمْ لِلذَّبْحِ رَأْيَا مُضَلَّلَا

(١) راجع الكامل للمبرد ص ٥٣٠ — ٥٣٤ من طبعة ليبسك أوج ٢ ص ١٢١ — ١٢٤
من مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٥٢ — ١٥٧ وكتاب البيان والتبيين
للجاحظ ج ١ ص ٢٢ و ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ من طبعة ١٣١٣ [أو ١ ص ٥٥ و ج ٣
ص ١٦٦ من طبعة ١٣٥١] وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ٦٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ .
(٢) الأبيات مروية في الكامل للمبرد ص ٥٣١ من طبعة ليبسك أوج ٢ ص ١٢٢ من طبعة
مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٦٣ من طبعة مصر
١٣١٧ — ١٣٢١ بهامش كتاب الملل والأهواء والنحل لابن حزم أو ص ٩٠ من طبعة لندن ١٨٤٦ .
(٣) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٥٦ و ج ٧ ص ٦ وقيل فيه إن الأبيات منسوبة إلى السيد
الحميري في رواية أخرى .
(٤) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٦ من طبعة ليدن .

أَلَا فَاقْصِدُوا يَا قَوْمَ لِلْغَايَةِ الَّتِي
فِيَا لَيْتَنِي فِيكُمْ عَلَى ظَهْرِ سَابِحٍ
وَيَا لَيْتَنِي فِيكُمْ أُعَادَى عَدُوَّكُمْ
يَعِزُّ عَلَى أَنْ تُخَافُوا وَتُطْرَدُوا
وَلَمَّا يُفَرِّقْ جَمْعُهُمْ كُلُّ مَا جِدِ
مُشِيحًا بِنَصْلِ السَّيْفِ فِي حَمْسِ الْوَعَا
وَعَزَّ عَلَى أَنْ تُضَامُوا وَتُنْقَصُوا
وَلَوْ أَنَّنِي فِيكُمْ وَقَدْ قَصَدُوا لَكُمْ
فِيَارُبِّ جَمْعٍ قَدْ فَلَّتْ وَغَارَةٌ

إِذَا ذُكِرَتْ كَانَتْ أَبْرَ وَأَعْدَلَا
شَدِيدِ الْقُصِيرَى دَارِعًا غَيْرَ أَعَزَلَا
فَيَسْقِيَنِي كَأْسَ الْمَنِيَّةِ أَوْلَا
وَلَمَّا أُجْرِدَ فِي الْمُحِلِّينَ مُنْصَلَا
إِذَا قُلْتُ قَدْ وَلَّى وَأُدْبَرَ أَقْبَلَا
يَرَى الصَّبْرَ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ أَمْثَلَا
وَأُصْبِحَ ذَا بَثٍّ أَسِيرًا مُكَبَّلَا
أَثَرْتُ إِذَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ قَسْطَلَا
شَهِدْتُ وَقِرْنٍ قَدْ تَرَكَتُ مُجَدَّلَا

ومنه الطرّمّاح بن حكيم المشهور أيضاً لبراعته في الخطابة^(١) كان على قول صاحب الأغاني^(٢) « من خول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم ومنشؤه بالشام وانتقل إلى الكوفة بعد ذلك مع من وردها من جيوش أهل الشام واعتقد مذهب الشّرة الأزارقة ». وروى في الأغاني أيضاً^(٣) : « كان الكُمَيْت بن زيد صديقاً للطرّمّاح لا يكادان يفترقان في حال من أحوالهما فليل للكميت : لا شيء أعجب من صفاء ما بينك وبين الطرّمّاح على تباعد ما يجمعكما من النسب والمذهب والبلاد وهو شاميّ قحطانيّ وأنت كوفيّ نزاریّ شيعيّ فكيف اتّفقتما مع تباين المذهب وشدة العصبية ؟ فقال اتّفقتما على بغض العامّة ». وقبل انضمامه إلى الخوارج قد مدح أمراء الأمويين

(١) كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ [أوج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١].

(٢) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١٥٦ من طبعة بولاق.

(٣) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١٥٦ وج ١٥ ص ١١٣ وراجع أيضاً كتاب البيان للجاحظ ج ١ ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣١٣ [أوج ١ ص ٥٤ — ٥٥ من طبعة ١٣٥١].

وهجا قبيلة تميم هجاء مُفرطاً في الشتم والاحتقار رواه ابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء^(١) . ومن شعره بعد تمذهبه بالخوارج^(٢) :

فيا رب لا تجعل وفاتي إن دنت على شرّ جع يُعلّى بدكن المطارف
ولكن أحنّ يومئذ شهيداً وعُصبةً يُصابون في فجع من الأرض خائف
عصائب من شتى يُؤلف بينهم هدى الله نزالون عند المواقف
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا إلى موعود ما في المصاحف
فأقتل قعصاً ثم يرمى بأعظمي كضغث الخلا بين الرياح العواصف
ويصبح لحي بطن طير مقيله دوين السماء في نسور عوائف

يذكرنا البيتان الآخران توخّش بعض أشعار الجاهلية لاسيّما أشعار الشنفرى وتأبط شراً إلا أن سبب التوخّش عند هذين الشاعرين يختلف عن سببه عند الطرمّاح فإنّ هجوية بعض شعراء الجاهلية صدرت عن أحوال حياتهم القريبة من أحوال الصعاليك اللصوص وقطّاع الطريق أمّا ما ورد منها في شعر الطرمّاح فصادر عن مذهب الأزارقة الذين رأوا الموت في الحرب وقتل من لم يكن من الخوارج أهون الأشياء عليهم فلم يزالوا مقاتلين إلى انقراض فرقهم مخّطرين أنفسهم بجرأة عجيبة لا نظير لها كانتهم مشتاقون إلى الموت الأحمر وكانوا أيضاً أصحاب الاستعراض أى أصحاب الرأى بإباحة قتل جميع الناس من المخالفين في أى وقت وبدون تمييز الرجال والأطفال والنساء . فلذلك إن معانى مثل الواردة في أبيات الطرمّاح ليست نادرة في أشعار الخوارج فقال قطريّ بن الفجاءة^(٣) :

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٧٢ و ٣٧٣ من طبعة ليدن . وتروى أربعة أبيات من الهجاء الأول بغير اسم الشاعر في الباب السابع بعد المائة من مروج الذهب للمسعودي ج ٦ ص ١٣٨ من طبعة باريس .

(٢) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٧٣ — ٣٧٤ من طبعة ليدن وراجع أيضاً كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١٦٠ [وديوان الطرمّاح عدد ٣٥ من طبعة لندن ١٩٢٧] .

(٣) حماسة أبى تمام ص ٣٣١ من طبعة بن أو ج ٢ ص ١١١ من طبعة بولاق .

ألا أيها الباغي البرازَ تَقَرَّبَنَّ أُسَاقِكَ بالموتِ الذعافِ المَقَشَّبَا
فما في تَسَاقِي الموتِ في الحربِ سُبَّةً على شاربِيهِ فأسقِنِي منه وأُشْرَبَا
وقال عمران بن حِطَّانَ لَمَّا قُتِلَ أَبُو بِلَالٍ مِرْدَاسُ بْنُ أَدِيَّةَ (١) :

لقد زاد الحياةَ إلىَّ بُغْضًا وَحُبًّا للخروجِ أَبُو بِلَالٍ
أحاذرُ أَنْ أُمُوتَ على فِرَاشِي وأرجو الموتَ تحتَ ذُرَا العوَالِي
ولو أنِّي عَلِمْتُ بِأَنَّ حَتْفِي كَحَتْفِ أَبِي بِلَالٍ لَمْ أَبَالِ
فمن يَكُ هُمُّهُ الدُّنْيَا فَإِنِّي لها واللهِ رَبِّ البيتِ قَالِ

هذا أمر الخوارج . أمّا الشيعة فأغلبهم قليلو الميل إلى الحرب مستنكفون من جفاء الخوارج فشرهم بعيد عن توحُّش شعر الأزارقة كثير المدار على مدح أهل البيت وبيان الاختلافات الدينية . ومن شعرائهم كثير بن عبد الرحمن الخزاعي المتوفى سنة ١٠٥ المعروف بكثير عزة (٢) لتشبهه بعزة الضمرية في شعره وإن قيل إنه مُدَّع غير صادق الصبابة والعشق . فهذا القسم من شعره وهو غير يسير يدخل في الصنف الذي سَمَّيناه بالشعر الغرامي عند أهل البادية فعَدَّ كثير لذلك من العشاق المشهورين . لكنّه لا تصالُه بمذهب الكيسانية من الشيعة وإظهار هذا المذهب في أشعاره غير الغرامية يستحقُّ أَنْ يُجْعَلَ في شعراء الصنف السادس الذي نحن في بيانه لا سيما إذ كان ما أبداه في أبياته من آرائه الغريبة خطير الشأن لمن يفحص عن أصول اعتقادات الفرق الشيعية . إن الذين ألفوا التصانيف الثمينة في الملل والنحل مثل ابن حزم والشَّهرستاني لم يميزوا في بيانهم القديم والحديث من اعتقادات

(١) الكامل للمبرد ص ٥٣٠ من طبعة ليسك أوج ٢ ص ١٢١ من طبعة مصر ١٣٢٣—١٣٢٤ .

(٢) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ٨ ص ٢٦ — ٤٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣١٢ — ٣٢٩ من طبعة ليدن وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٥٨ من طبعة غوتنجن او ٥١٩ من الطبعات المصرية [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٢٢—١٢٥ من طبعة ليدن وديوانه مطبوع بعناية Pèrès في الجزائر وباريس سنة ١٩٢٨ — ١٩٣٠] .

كلّ فرقة فربما نسبوا إلى أوائل الفرقة ما لم يتكوّن أو لم يُدخَل فيها إلاّ بمرور الزمان فإذا أردنا التوصل إلى كشف الأوائل الحقيقية لا بدّ لنا من الرجوع إلى أقوال شعراء هذا الصنف السادس التي برتبة نصوص صحيحة موثوق بها .

من المشهور أنّ ركن مذاهب أهل الشيعة توارث الإمامة في أعقاب عليّ بن أبي طالب . فهو رأى لم تذهب أغلب العرب إليه أبداً النفس مخالفتها لنظامهم القديم الذي لم يزل إلى الآن عند الأعراب أعنى أنّ سيّد القبيلة لا ينال منصبه إلاّ باختيار رجال القبيلة إياه فلا تتوارث السيادة فإن خلف ابن أبيه فيها كان ذلك باختيار القوم أيضاً لا لحقّ ميراث . أمّا الأمم المجاورة للعرب في أيام غرّة الإسلام لا سيما الفرس فمن زمان طويل ألقت نظاماً سياسياً أساسه توارث الملوك في عائلة فلم يكونوا يتصوّنون إمكان ملك عظيم متين اختارت العامّة رأسه . فالت الفرس طبعاً إلى رأى أهل الشيعة في الإمامة . وزيدوا على ذلك سبباً آخر قومياً أعنى أنّ العجم بعد موت عليّ بن أبي طالب رأوا مقاومة أهل الشيعة لبني أمية كمثّل قيام على سلطنة العرب فانضموا إليها أفواجاً لمبغضهم السريّ للمتغلبين على بلادهم . فلتأثير مذاهب الفرس واليهود تغيّرت شيئاً فشيئاً مسألة الإمامة عند أهل الشيعة عمّا كانت في وقت عليّ أمير المؤمنين . قد جاء في القرآن أنّ محمّداً خاتم النبيين فيدلّ هذا القول ظاهراً أنّ الشريعة الإسلامية ستقوم بعده مقام النبوة فيما سلف من الزمان . ولكن خالف هذا آراء كثيرة من أمم الشرق واعتقاداتها القديمة فلم يستصوبوا في قلوبهم انقطاع النبوة وعدم بقائها في رجل من الرجال لأنّ النبوة عندهم تمثّل قدرة الله على الأرض وعنايته بأمور الناس فلم تكن النبوة في أحد من الأحياء لمنعت عندهم الدنيا العناية الإلهية . فحملهم هذا الظنّ بعد إسلامهم على اعتقاد توارثها في أهل البيت بصفة أن يكون الخلف حياً موجوداً في وقت سالفه حسبما كان مثلاً يشوع موجوداً في أيام موسى أو عليّ في أيام محمّد . غير أنّهم تركوا طبعاً

لفظ النبي لتسمية أعقاب رسول الله والتجؤوا إلى لفظ الوصي أو المهدي أو الإمام^(١).
 فأبى بقاء رسالة الله في أهل البيت يشير أبو داود خالد بن إبراهيم أحد دعاة أبي مسلم
 بخراسان في مخاطبته للثقباء بمرو سنة ١٢٩^(٢): « قال أفتشكون أن الله تعالى نزل
 عليه [أي على النبي] كتابه فأتاه جبريل عليه السلام الروح الأمين أحلّ فيه حلاله
 وحرّم فيه حرامه وشرع فيه شرائعه وسنّ فيه سنّنه وأنبأه فيه بما كان قبله وما هو
 كائن بعده إلى يوم القيامة ؟ قالوا لا . قال أفتشكون أن الله عزّ وجلّ قبضه إليه بعد
 ما أدّى ما عليه من رسالة ربّه ؟ قالوا لا . قال أفتظنون أن ذلك العلم الذي أنزل
 عليه رُفِعَ معه أو خُلِفَ ؟ قالوا بل خُلِفَ . قال أفتظنون أنه خُلِفَ عند غير عترته وأهل بيته
 الأقرب بالأقرب ؟ قالوا لا . قال فهل أحد منكم إذا رأى من هذا الأمر إقبالا ورأى
 الناس له محبّين بدا له أن يصرف ذلك إلى نفسه ؟ قالوا اللهم لا وكيف يكون ذلك ؟
 قال لست أقول لكم فعلتم ولكنّ الشيطان ربما نزع النزع فيما يكون وفيما لا يكون .
 قال وهل فيكم أحد بدا له أن يصرف هذا الأمر عن أهل البيت إلى غيرهم من عترة
 النبي صلى الله عليه ؟ قالوا لا . قال أفتشكون أنهم معدن العلم وأصحاب ميراث رسول
 الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال لا . »

يتّضح من هذا النصّ المهمّ أن أهل الشيعة أو كثيراً منهم في أوائل القرن الثاني
 قالوا ببقاء رسالة الله في عترة النبي أي أهل البيت على سبيل التوارث من الأقرب
 إلى الأقرب . وفي القرن الأوّل وما يليه من الثاني لتداول الزعم عندهم أن الساعة
 قريبة ختموا سلسلة أيّمتهم بثالث أبناء عليّ وهو محمّد بن الحنفية^(٣) فقالوا إنه ما مات

(١) راجع J. WELLHAUSEN, *Die religiös-politischen Oppositionsparteien* p. 92

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٩٦١ في سنة ١٢٩ .

(٣) توفي في أوّل من محرم سنة ٨١ (وقيل في سنة ٨٣ أو ٧٢ أو ٧٣) بالمدينة انظر
 وفيات الأعيان لابن خلدان عدد ٥٧٠ من طبعة غوتنجن أو عدد ٥٣١ من الطبقات المصرية وقال
 ابن سعد في الجزء الخامس من طبقاته ص ٨٥ — ٨٦ إن محمد بن الحنفية مات في محرم ٨١ وهو
 ابن ٦٥ سنة قرينة .

ولا فارق الدنيا بل إنه يغيب مدّة بجبل رَضَوَى على مسيرة يوم من يَنْدُوع ثم يرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلاً كما مُلئتُ شرّاً وجوراً . فإلى هذا المعتقد أشار كثير^(١) بقوله المشهور :

أَلَا إِنَّ الأَيِّمَةَ من قريش وُلَاةَ الحقّ أربعةٌ سَوَاءُ
على والثلاثة من بَنِيهِ هم الأسباط ليس بهم خفاءُ
فَسَبَطُ سبطِ إيمانٍ وبرٍّ وسَبَطُ غيبتِهِ كَرُّ بلاءِ
وسبط لا يذوق الموتَ حتى يقودَ الجيشَ يقدّمُهُ اللواءُ
تَغِيَّبَ لا يُرى فيهم زماناً برَضَوَى عنده عَسَلٌ وماءُ

وهذا أيضاً معتقد السيّد الحَمِيرِي كما يلوح من أبياته المروية في كتاب الأغاني^(٢) التي قالها بعد موت ابن الحنفية (أو غيبته على ظنّه) بستين سنة . — أما فرقة أخرى من الكيسانية فقالوا بانتقال محمّد بن الحنفية إلى رحمة الله وانتقال الإمامة وأسرار العلوم منه إلى ابنه أبي هاشم وهذا القول مهمّ جداً لعلاقته بظهور الدعوة العباسية بخراسان والعراق فإنها تأسست على مذهب القائلين إن أبا هاشم المتوفى في أيام سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩) أوصى إلى محمّد بن عليّ بن عبد الله بن عباس وأوصى محمّد إلى ابنه إبراهيم وأوصى إبراهيم إلى أخيه أبي العباس عبد الله

(١) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٣٢ (وانظر أيضاً ج ٧ ص ١٠ — ١١) ومروج الذهب للمسعودي في الباب الثالث والتسعين ج ٥ ص ١٨٢ وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٠٠ من طبعة مصر بهامش كتاب الملل لابن حزم أو ص ١١١ من طبعة لندن ومقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٣٥٨ من طبعة باريس ١٨٥٨ أو ص ١٧٣ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ١٩٨ — ١٩٩ من طبعة بيروت ١٩٠٠ (لا يذكر اسم الشاعر في الطبقات الشرقية) [وديوان كثير عدد ١٥٠ بيت ٣ و ٤ و ٧ و ١٠ و ١١ (ج ٢ ص ١٨٦ — ١٨٨)] ويروى البيتان الأخيران في وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٧٠ من طبعة غوتنجن أو ٥٣١ من الطبقات المصرية .

(٢) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٤ و ج ٨ ص ٣٢ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودي ج ٥ ص ١٨٢ — ١٨٣ في الباب الثالث والتسعين (خمسة أبيات وفيها « سبعين » بدلا من « ستين ») .

السَّقَّاح . ولولا ذِيْعَان هذا الاعتقاد عند أهل الشيعة لما توَصَّل السفَّاح إلى تأسيس الدولة العبَّاسية .

ومن الحرىّ بالاعتبار قول جملة من أهل الشيعة في القرن الأول والثاني بالرجعة فإنهم جعلوه تأييداً لأرائهم في توارث الإمامة في أهل البيت وعزّها . فزعموا أنّ الرسالة أى النبوة وهى عندهم روح الله نُزِلَتْ في النبيّ وصارت روحه فلما مات تحوَّلت روحه أى الرسالة أو الإمامة إلى على بن أبى طالب ووقت موت على تحوَّلت روحه وانتقلت الإمامة إلى ابنه الأكبر وهلمّ جرّاً . وممن ذهب إلى هذا القول بالرجعة كثيرٌ عزّة^(١) الشاعر المذكور سابقاً فيروى أنّه نظر مرّة إلى بنى الحسن ابن الحسن بن على وهم صغار فقال : « بأبى أئتم هؤلاء أنبياء صغار » .^(٢) واحتجّ في اعتقاد الرجعة بالآية^(٣) : « الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ »^(٤) . فلا يخفى عليكم ما لهذه الآراء من النتائج المهمّة وهى : ١ أنّ الإمامة أو الخِلافة ليست في الحقيقة إلّا نبوّة . ٢ أنّ الإمام أى الخليفة صاحب صفات الأنبياء ٣ أنّ الإمامة أى الخلافة لا تنتقل إلّا من ميّت إلى حيّ فانقطاعها أو عزّل الإمام مستحيل . ٤ أنّ الأرض لا تخلو عن إمام أبداً وإن كان هذا الإمام مستوراً غائباً عن عيون الناس . ٥ أنّ وجود أئمة في آن واحد كما زعم بعض الفرق محال . ٦ أنّ الإمامة أى الخلافة لا تُقلد باختيار الناس سواء كانوا جماعة المسلمين أو أهل الحلّ والعقد . — فيتّضح أيضاً من جميع ذلك ما لمَحْتُ إليه سابقاً من عدم فرق حقيقى بين الاختلافات الدينيّة والأحزاب السياسيّة عند المسلمين أثناء القرون الأولى للهجرة وأنّ التاريخ

(١) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٢٧ و ٣٣ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٣٤ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٣٣ .

(٤) القرآن سورة ٨٢ (الانفطار) : ٧ — ٨ . واحتج أصحاب اعتقاد الرجعة بالسورة ٢٨

(القصص) : ٨٥ .

السياسي لا يُعقل من دون الفحص عن المذاهب والفرق الإسلامية . ثم يلوح أيضاً ما كان لشعراء تلك الفرق من الشأن العالي في أحوال السياسة .

ومن الشعراء الذين ذهبوا مذهب الكيسانية وأنكروا وفاة محمد بن الحنفية وقالوا بغييته بجبل رضوى أبو هاشم إسماعيل بن محمد الملقب بالسيد الحميري^(١) من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية بل لعل أكثر عمره وقع في أيام بني العباس إذ مات سنة $\frac{١٧١}{٧٨٨-٧٨٧}$ قال صاحب الأغاني^(٢) : « كان شاعراً متقدماً مطبوعاً . . . وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يُقرط فيه من سب أصحاب رسول الله صلعم وأزواجه في شعره ويستعمله من قذفهم والطعن عليهم فتحومى شعره من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس تخوفاً وتراقباً وله طراز من الشعر ومذهب قلماً يُلحق فيه أو يقاربه ولا يُعرف له من الشعر كثير وليس يخلو من مدح بني هاشم أو ذم غيرهم ممن هو عنده ضد لهم . . . وأخباره كلها تجري هذا المجرى ولا تخرج عنه » . وفي موضع آخر بعد إيراد بعض أبيات السيد الحميري قال صاحب الأغاني^(٣) على ميله المعروف إلى التشيع : « وهي قصيدة طويلة حذف باقيها لقبح ما فيه » يعني الإفراط في التشيع . ومما يدل على علو منزلته عند أهل الشيعة أن بعضهم نحل إليه أشعاراً في مذهب الإمامية^(٤) القائلين بإمامة جعفر الصادق فواضح أن

(١) راجع كتاب الأغاني ج ٧ ص ٢ - ٢٤ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودي ج ٥ ص ١٨٢ - ١٨٤ وكتاب الملل للشهرستاني ج ١ ص ٢٠٠ من طبعة مصر بهامش الملل لابن حزم أو ص ١١١ من طبعة لندن فانظر أيضاً :

BARBIER DE MEYNARD, *Le Sîd Himyarite, recherches sur la vie et les œuvres d'un poète hérétique du II siècle de l'hégire* (Journal Asiatique, 7ème série, t. IV, 1874) p. 159-284.

تروى له أبيات سياسية (إما منسوبة إليه أو أصلية) في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٢٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ وأبيات مروية له أيضاً في مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ١٩٩ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ج ١ ص ٤٠٦ من الترجمة الفرنسية في كتاب العمدة لابن رشيقي ج ٢ ص ٥٩ من طبعة مصر ١٣٢٥ (أبيات في النبي ونقد ابن رشيقي لها) .

(٢) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٣ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٩ .

(٤) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٣ و ٥ .

الذي فعل ذلك رجا من زوره تأييداً لآراء الإمامية ولم يرج ذلك لو كان السيد الحميري من الشعراء غير المقدّمين . وشعره موصوف بالمتانة والرونق والجزالة مع الامتناع عن غريب الألفاظ فيروى عن إسحق بن ثابت العطار^(١) : « قال كنّا كثيراً ما نقول للسيد مالك لا تستعمل في شعرك من الغريب ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء . قال لأنّ أقول شعراً قريباً من القلوب يلذه من سمعه خير من أن أقول شعراً متعقداً تضلّ فيه الأوهام » .

كان كثير عزّة والسيد الحميري من الكيسانية أى من غلاة الشيعة . أما شعراء الشيعة المعتدلون في أيام بني أمية فأشهرهم الكُميت بن زيد الأسدي^(٢) المولود سنة ٦٠ المتوفى سنة ١٢٦ كان من أهل الحضر ويعلم في أول أمره الصبيان في مسجد بالكوفة . ووصفه صاحب كتاب الأغاني^(٣) على هذه الصفة : « شاعر مفدّم عالم بلغات العرب خبير بأيامها من شعراء مُضّر وأسنّتها والمتعصبين على القحطانية المقارنين المقارعين لشعرائهم العلماء بالمثالب والأيام المفاخرين بها . . . ولم تزل عصبيتّه للعَدَنانيّة ومهاجراته شعراء اليمن متصلةً والمناقضةُ بينه وبينهم شائعة في حياته وبعد وفاته حتّى ناقض دِعْبِل وابن أبي عَينينة قصيدته المذهّبة بعد وفاته وأجابهما أبو الزلفاء البصريّ مولى بني هاشم » . فإذا اعتبرنا هذا النصّ فقط ظننّا أن الكُميت من شعراء الصنف الخامس المفتحّين بقومهم المهاجرين قبائل خصومهم . ولكن كيف ذلك إذ كان الكُميت كوفياً من أهل الحضر بعيداً عن أحوال حياة الأعراب ؟ والحقّ

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١١ .

(٢) راجع كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١١٣ — ١٣٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٦٨ — ٣٧٢ وخزانة الأدب ج ١ ص ٦٩ — ٧٠ و ٨٦ — ٨٧ ومروج الذهب للسعودي ج ٦ ص ٣٦ — ٤٥ من طبعة باريس (في الباب الثالث بعد المائة) وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٢٦ — ٢٧ و ١٥٣ و ١٦٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ وكتاب العمد لابن رشيق ج ٢ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٥٧٤ — ١٥٧٥ (شعر بعثه الكُميت إلى أهل مرو ناشر الدعوة لبني العباس سنة ١١٧ هـ) [والمدائح النبوية في الأدب العربي لزكي مبارك ص ٦٧ — ١٠١ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١١٣ .

يقال إننا إن تأملنا ما بلغنا من أهاجيه وجدناها على عصبيتها مخالفة لأساليب هجاء أهل البادية من وجوه فالواضح أن غرضها الحقيقي غير المنافرة المألوفة عند القبائل . قال صاحب الأغاني^(١) إن « سبب هجاء الكميت أهل اليمن أن شاعراً من أهل الشام يقال له حكيم بن عيَّاش [الأعور] الكلبي كان يهجو على ابن أبي طالب عليه السلام وبنى هاشم جميعاً وكان منقطعاً إلى بنى أمية فانتدب له الكميت فهجاه وسبه فأجابه ولجّ الهجاء بينهما وكان الكميت يخاف أن يفتضح في شعره عن عليّ عليه السلام لما وقع بينه وبين هشام [بن عبد الملك] وكان يُظهر أن هجاءه يآه في العصبية التي بين عدنان وقحطان » فبدلنا هذا القول على أن هجاءه يُعدّ من الشعر في الاختلافات السياسية الدينيّة وإن كان ظاهره غير ذلك . وفي كتاب مروج الذهب للمسعودي^(٢) رواية تؤيد ما قلناه وهي أن عبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أراد أن يُهدى للكميت هدايا ثمينة لقصائده في مدح العلويين فأبى الكميت قبولها فقال عبد الله : « أمّا إذ أبيت أن تقبل فإنّي رأيت أن تقول شيئاً تُغضب به بين الناس لعلّ فتنةً تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما تُحبّ » . فابتدأ الكميت وقال قصيدته التي يذكر فيها مناقب النزاريين ويُطنب في تفضيلهم على قحطان وهي زهاء ثلاثمائة بيت لم يترك فيها حيّاً من أحياء اليمن إلّا هجاهم . وعرض بأخذ الفرس والحبشة نساء اليمن بقوله :

لنا قرء السماء وكلّ نجم تشير إليه أيدي المهتدينا
وجدتُ الله إذ سمى نزاراً وأسكنهم بمكة قاطنينَا
لنا جعل المكارم خالصاتٍ وللناس القفا ولنا الجبينَا

(١) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١٢٨ وخزانة الأدب ج ١ ص ٨٧ من طبعة بولاق .

(٢) مروج الذهب ج ٦ ص ٤١ — ٤٤ من طبعة باريس (في الباب الثالث بعد المائة)
وراجع خزانة الأدب ج ١ ص ٨٦ .

وما ضربت هجائن من نزار فوالج من فحول الأعجمينا
وما حملوا الحميز على عتاق مطهمة فيلقوا منغلينا
وما وجدت بنات بني نزار حلائل أسودين وأحمرينا

ولكني أظن أن صاحب الأغاني والمسعودي لم يُصيبا في قولهما كل الإصابة وإن غرض الكميت من هجائه أهل اليمن غير المبين في النصوص التي نقلتها . تذكرنا ما شرحته لما تكلمت عن أحوال الشام بعد منتصف القرن الأول (ص ١٢٤) أعني أن اليمنيين أو المنتسبين إلى قحطان وردوا الشام أفواجا حتى كان عددهم هناك أوفر من عدد النزاريين فإن بني أمية عليهم خصوصا اعتمدوا للتأييد ملكهم وإثبات أمرهم . فإذا تأملتم هذا فهمتم أن هجاء الكميت اليمنيين كان في الحقيقة هجاء أشد المتعصبين للدولة الأموية وأوثقهم . وهذا غرض أهل الشيعة . كان الكميت قبل مهاجراته القحطانيين قد نظم القصائد الهاشميات وهي من جيد شعره مدح فيها بني هاشم أي أهل البيت وأبدى فيها تعصبه لمذهب الشيعة . ولكنه لم يكن من الغلاة وامتنع عن الحكم القاطع في أبي بكر وعمر فقال ^(١) :

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا أرضى بشتم أبي بكر ولا عمراً
ولا أقول وإن لم يعطياً فذكراً بنت النبي ولا ميراثه كفرأ
الله يعلم ماذا يأتيان به يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

أما بنو أمية فشتمهم في الهاشميات فقال مثلاً بعد ذكر فضائل بني هاشم ^(٢) :

(١) هاشميات ص ٦٣ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٨ بيت ١ — ٣ من طبعة ليدن ١٩٠٤
أما فذك فأنظر ما قيل في حاشية ٣ من ص ٦٣ من طبعة مصر .
(٢) هاشميات ص ٧ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ١ بيت ٣٥ — ٣٧ من طبعة ليدن .
عبد الملك بدلا من عبد الملك لضرورة الشعر وكذا أيضا في بيت جواس بن القعطل الكلبى المروى
في حماسة أبي تمام ص ٦٥٨ من طبعة بن أوج ٤ ص ٣٣ من طبعة بولاق وحماسة البعثرى ص ١٢٢
من طبعة ليدن أو ص ٨١ عدد ٣٧٧ من طبعة بيروت وفي معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣ — ٤ من طبعة
ليبسك — ثمة جماعة الضأن الكثيرة وثأج الغنم صاح .

ساسةٌ لا كمن يرى رعيةَ النسا سِ سَوَاءٌ ورعيةَ الأنعام
لا كعبد المليك أو كوليده أو سليمان بعد أو كهشام
رأيه فيهم كراى ذوى الثلثة فى الثأجات جُنَحَ الظلام

ومن أغرب الغرائب أنه مدح بنى أمية فى غير القصائد الهاشميات فمن قوله ^(١) :

أبني أمية إنكم أهل الوسائل والأوامر
ثقتي لكل ملة وعشيرتي دون العشائر
أنتم معادن للخلافة كابرًا من بعد كابر
بالتسعة المتتابعين خلافاً وبخير عاشر
وإلى القيامة لا تزال لشافع منكم وواتر

فاستغرب ذلك بعض كتبة العرب فقال ابن قتيبة فى توطئته لكتاب الشعر
والشعراء ^(٢) عند ذكر طمع بعض الشعراء : « وهذه عندي قصة الكمية فى مدحه
بنى أمية وآل أبى طالب فإنه كان يتشيع وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى
وشعره فى بنى أمية أجود منه فى الطالبين ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع
وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة » . ويروى فى الأغاني ^(٣) أنه قد
استأذن أبا جعفر محمد بن على فى مدح الأمويين فأذن له فيه . ومن الجدير بالذكر
من هذا الباب شعر له مدح فيه النبى بما ليس فى محله فقيل أنه لم يُرد النبى وإنما
أراد علياً فورى عنه بذكر النبى خوفاً من بنى أمية ^(٤) .

ليس هذه المداهنة مختصة بالكميت بل توجد أيضاً فى شعر غيره من شعراء الشيعة
فى ذلك العصر ^(٥) . ورأى فيها أن أسبابها ثلاثة عملت فيهم معاً : الطمع فى الجوائز

(١) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١١٨ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الشعر ص ١٨ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١٢٦ من طبعة بولاق .

(٤) كتاب العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ . الأبيات موجودة فى

الهاشميات عدد ٣ بيت ٣١ — ٣٦ من طبعة ليدن .

(٥) منهم كثير وأيمن بن خريم مثلاً (راجع كتاب الأغاني ٢١ ص ٧ — ١٣) .

والخوف من أهل السلطان ورأى الشيعة في التقيّة^(١) . من المشهور أن أهل السنة قالوا بإباحة الحرام وتظاهر الكفر عند الخوف من القتل من السلطان كأنها رخصة من عند الله للضعفاء أما الإمامية من فرق الشيعة فلهم كلام كثير في استعمال التقيّة أو الكتمان فاعتبروه واجباً ووضعوا للنبيّ الحديث : « مؤمن لا تقيّة له كمثل جسد لا رأس له » ونسبوا إلى الإمام جعفر بن محمد القول : « نفس المهوم لأطمنّا تسبيح وهمّة لنا عبادة وكتمان سرّه جهاد في سبيل الله » فقال الإمام أبو عبد الله : يجب أن يُكتب هذا الحديث بماء الذهب . فإذا لا غرّوى أن شعراء مذهبهم في أواخر القرن الأوّل وأوائل الثاني لم يروا في مدح بنى أميّة بأساً وإن كانوا في قلوبهم يلعنونهم ويقولون بكفرهم . ويؤيد هذا الرأي ما قاله الكميّ في إحدى الهاشميّات^(٢) :

وإني على حُبِّهِمْ وتطلّعي إلى نصْرِهِمْ أمشي الضراء وأختلّ
تجوّد لهم نفسي بما دون وثبة تظلّ بها الغربان حوليّ تحجلّ
ثم قال أيضاً^(٣) :

وإني على أنّي أرى في تقيّة أخاطب أقواماً لقومٍ لمزِيلٍ
وإلى ذلك أيضاً يرجع ما يروى في كتاب الأغاني^(٤) : « دخل الكميّ بن زيد الأسديّ على أبي جعفر محمد بن عليّ عليهما السلام فقال له يا كميّ أنت القائل :

فألآن صرّتُ إلى أُميّة والأُمور إلى المصائر

قال نعم قد قلت ولا والله ما أردتُ به إلّا الدنيا ولقد عرفتُ فضلكم . قال أمّا إن قلت ذلك إنّ التقيّة لتحلّ » .

(١) J. GOLDZIHNER, Das Prinzip der "takijja" im Islām (Zeitschrift der deutschen morgenländische Gesellschaft, 60, 1906, p. 213-226)

(٢) هاشميات ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٤ بيت ٨٦ — ٨٧ من طبعة ليدن .

(٣) هاشميات ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٤ بيت ١٠٥ من طبعة ليدن .

(٤) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١٢٦ — ١٢٧ من طبعة بولاق .

وقبل أن نختم كلامنا الوجيز على شعراء الشيعة لا بدّ لنا من ملاحظة ، قد أشرت غير مرّة إلى قلة العواطف الدينيّة الخالصة في منظومات غير هؤلاء الشعراء وعلى سnoch المناسبة أوضحت أسباب ذلك مثل كلّ شعراء المدن الحجازيّة بلذات الدنيا وطبيعة أهل البادية القليلة الميل إلى أمور الدين وهلمّ جرّاً . إنّ شعراء بني أميّة كانوا شعراء الدولة فمدحوا خلفاء وأمراء ورجالاً كان في أيديهم القوة الماديّة والسّلطة والمُلك فلا غروى إن غلبت فيهم الدنيا على الدين . أما شعراء الخوارج فأفسد توحّشهم التعبير عن العواطف الرقيقة اللائقة بالفِطرة الدينيّة الحقيقيّة فإن أبدوا مثلاً كراهة الدنيا فعلوه على ما قد أوضّحته فيما سبق أعنى على صفة أقرب إلى الحماسة منها إلى التقوى والزهد . أمّا شعراء الشيعة لتعلّقهم بحزب عُزل عن كلّ سُلطة ماديّة ولمدحهم رجال ورعٍ وتقى زعموا بقاء روح النبوة والرسالة فيهم مالوا طبعاً إلى الحلم فغلب فيهم الدين على الدنيا فأثّروا في شعرهم بما لا يوجد عند غيرهم من شعراء عهد الأمويّين حتّى قيل عن قصيدة للسيد الحميريّ إنّها لو قرئت على منبر ما كان فيها بأس^(١) . فلا شكّ أن النوع من الشعر الدينيّ الذي نما فيما بعد فاشتهر به البرعيّ يتّصل من وجه بقصائد شعراء الشيعة من القرن الأوّل والثاني .

إذا أردتم الإفادة عن المرجئة وراجعتم ما قيل فيهم في التصانيف مثل كتاب المِلل والنحل للشهرستانيّ وجدتموهم موصوفين فيها كأنهم من المذاهب الكلاميّة لا غير . قال الشهرستانيّ إنّهم « كانوا يؤخّرون العمل عن النية والقصد . . . ويقولون لا تضرّ مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وقيل الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى القيامة فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا من كونه من أهل الجنّة أو من أهل النار » . وجميع ذلك صواب بالنظر إلى المتأخّرين منهم لا بالنظر إلى المقدّمين الكائنين في عصر الدولة الأمويّة وأوائل العبّاسيّة . فإنّهم في أوّل أمرهم لم يكونوا إلّا من الأحزاب التي تكوّنت بسبب مسألة الإمامة والفتن التابعة

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٧ من طبعة بولاق .

لقتل عثمان بن عفان فكانوا حزباً دينياً من جهة مبدئهم النظرى وحزباً سياسياً من جهة النتائج العملية الصادرة عن ذلك المبدأ . قد مرّ (ص ٢٠٨) تشبيه منزلتهم بين أصحاب الأمويين وأهل الشيعة بمنزلة المعتزلة بين العنانيين والعلويين في أوائل خلافة عليّ ويلوح ذلك من بعض التعارض الواردة اتفاقاً في تاريخ الطبرى ومن أشعار شعرائهم فإنهم قالوا بوجوب الامتناع عن الحكم في عثمان وعليّ وأصحابهما ثمّ بجواز طاعة بني أمية ومقاتلة من ثار على السلطان^(١) . قال محارب بن دثار الدهلي^(٢) (المتوفى سنة ١١٦) .

يَعِيبُ عَلَى أَقْوَامٍ سَفَاهًا بَأْنَ أَرْجُو أَبَا حَسَنِ عَلِيًّا
وإِرْجَائِي أَبَا حَسَنِ صَوَابٌ عَنِ الْعُمَرَيْنِ بَرًّا أَوْ شَقِيًّا
فَإِنْ قَدَّمْتُ قَوْمًا قَالَ قَوْمٌ أَسَاتَ وَكُنْتَ كَذَّابًا رَدِيًّا
إِذَا أُيْقِنْتُ أَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَأَرْسَلَ أَحْمَدًا حَقًّا نَبِيًّا
وَأَنَّ الرُّسُلَ قَدْ يُعْثَوْنَ بِحَقٍّ وَأَنَّ اللَّهَ كَانَ لَهُمْ وَلِيًّا
فَلَيْسَ عَلَىَّ فِي الْإِرْجَاءِ بَأْسٌ وَلَا لَبَسٌ وَلَسْتُ أَخَافُ شَيْئًا

فتأملوا أهمية هذا التوقف وكم كان له من التأثير في العمل والسياسة فإنه حمل أصحابه على التسليم بالمقضى والاعتراف بخلافة الأمويين فغاض هذا الإرجاء أهل الشيعة أى غيظ فقال فيه السيد الجيبرى^(٣) :

(١) راجع G. VAN VLOTEN, *Irdā* (Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft, 45, 1891, p. 161-171.

(٢) انظر كتاب الأغاني ج ٧ ص ١١ من طبعة بولاق — وفي البيت الأول أرجو (كذا !) والصحيح أرجى [كما في طبعة دار الكتب المصرية ج ٧ ص ٢٤٨] — أما البيت الثانى فتركيبه هو : « وإِرْجَائِي أَبَا حَسَنِ بَرًّا وَشَقِيًّا عَنِ الْعُمَرَيْنِ صَوَابٌ » راجع van Vloten في مقاله المذكورة آنفاً ص ١٦٥ حاشية ٢ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٦ من طبعة بولاق . أرجأ وأرجى آخر — لى التماضى فى الخصومة — أعند فلاناً عارضه بالوافق — ابن حرب هو معاوية — أهوج طويل وبه تسرع وحق وطيش — النهروان مركز من مراكز الحوارج .

خَلِيلٌ لَا تُرْجَى وَأَعْلَمَا بَانَ الْهُدَى غَيْرَ مَا تَزَعَمَانِ
وَأَنَّ عَمَى الشَّكِّ بَعْدَ الْيَقِينِ وَضَعَفَ الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَيَانِ
ضَلَالٌ فَلَا تَلْجِجَا فِيهِمَا فَبُئِستَ لَعَمْرُكَ كَمَا انْخِصَلْتَانِ
أُيْرَجَى عَلَى إِمَامٍ الْهُدَى وَعُثْمَانُ مَا أَعْنَدَ الْمُرْجِيَانِ
وَيُرْجَى ابْنُ حَرْبٍ وَأَشْيَاعُهُ وَهُوجُ الْخَوَارِجِ بِالنَّهْرَوَانِ
يَكُونُ إِمَامَهُمْ فِي الْمَعَادِ خَيْثُ الْهُوَى مُؤْمِنُ الشَّيْصَبَانِ

ومن شعراء المرجئة غير محارب بن دثار السابق ذكره ثابت قُطْنَةُ^(١) أحد
الفرسان الشجعان في ثغور خراسان بل والي على عمل من أعمالها غزا عدَّة غزوات في
بلاد تركستان في أيام قُتَيْبَةَ بن مسلم فكان كثير من شعره ممَّا سَمَّيْنَاهُ الصنف
الخامس أى دأراً على الحاسة والمغازي وممَّا قال سنة ٦٥^(٢) :

فَدَتْ نَفْسِي فَوَارِسَ مِنْ تَمِيمٍ عَلَى مَا كَانَ مِنْ ضَنْكِ الْمَقَامِ
بِقَصْرِ الْبَاهِلِيِّ وَقَدْ أَرَانِي أَحَامِي حِينَ قَلَّ بِهِ الْمُحَامِي
بَسَيْفِي بَعْدَ كَسْرِ الرُّمَحِ فِيهِمْ أَذُودُهُمْ بَذَى شَطْبِ حُسَامِ
أَكْرُ عَلَيْهِمِ الْيَحْمُومَ كَرًّا كَكَرَّ الشَّرْبِ آئِنَةَ الْمَدَامِ
فَلَوْلَا اللَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَضَرَبِي قَوْنَسَ الْمَلِكِ الْهُمَامِ
إِذَا فَاطَتْ نِسَاءَ بَنِي دِثَارٍ إِمَامَ التُّرْكِ بَادِيَةَ الْخِدَامِ

ولمَّا تَوَلَّى سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أُمُورَ الْخِلَافَةِ (٩٦ — ٩٩ / ٧١٧) وَفَضَّلَ قَحْطَانَ
عَلَى مُضَرَ لِأَغْرَاضِ سِيَاسَتِهِ فَثَارَ عَلَيْهِ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ وَآلَى خِرَاسَانَ لَتَعْصِبَهُ لَعْدَنَانِ
كَفَّ ثَابِتُ قُطْنَةُ عَنِ الثُّورَةِ بَلْ تَأَلَّفَ الْوَالِي الْجَدِيدُ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ

(١) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٤٩ — ٦٤ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٠٠ —
٤٠١ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٨٥ — ١٨٧ فليُنظر أيضاً وفهرست تاريخ
الطبري .

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٩٤ من طبعة ليدن وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٣٠ — ١٣١
من طبعة ليدن في سنة ٦٥ (وفيه اسم الشاعر ثابت بن ثابت بن قُطْنَةُ) .

ولم ينحرف عن صُحْبته على صروف الزمان . فلما تقلَّبت أحوال القحطانيّين في أيَّام يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٤) ورجعت الشوكة إلى مضر أخذ ثابت يجرّض ابن المهلب على المقاومة والقتال^(١) واتَّبعه لما توجه إلى العراق راغباً في خلع يزيد بن عبد الملك طالباً الخلافة لنفسه وكان معه في يوم العُقر في صفر سنة ١٠٢ حين خذل أهل العراق يزيد بن المهلب وفرّوا عنه فقتل . فقال ثابت قطنة يرثيه^(٢) :

كلُّ القبائل بايعوك على الذي تدعو إليه وتابَعوك وساروا
حتّى إذا حمى الوغى وجعلتهم نصبَ الأسنة أساموك وطاروا
إن يقتلوك فإنّ قتلك لم يكن عاراً عليك ورُبّ قتلٍ عارُ

وتعاطى أيضاً الهجاء فوصلت إلينا قطع منه . أما الذى حملنى على ذكر ثابت قطنة هنا هو شعر له مشهور فصلّ فيه آراء المرجئة في زمانه أى في النصف الثانى من القرن الأوّل وهو شعر مهم جداً لموضوعه ولكونه من أقدم الأشعار قيلت في وصف اعتقادات دينيّة بعد ظهور الإسلام . ومن أبياته^(٣) :

يا هندُ فاستمعى لى إن سِرتنا أن نعبد الله لم نُشرك به أحداً
نُرجى الأمور إذا كانت مشبهة ونصدّق القولَ فيمن جار أو عندا
المسلمون على الإسلام كلهم والمُشركون أشثوا دينهم قدداً
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً مِ الناسِ شرّاً إذا ما وحدوا الصمداً
لا نسفك الدم إلا إن يراد بنا سَفكُ الدماء طريقاً واحداً جدداً

(١) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٤ — ٥٥ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٥ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٠١ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٨٤ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ٤٥٥ من طبعة باريس في الباب التاسع والتسعين (بغير اسم الشاعر) .

(٣) كتاب خزانة الأدب ج ٤ ص ١٨٦ — ١٨٧ من طبعة بولاق وكتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٢ ورواية خزانة الأدب أحسن من رواية الأغاني .

من يَتَّقِ اللَّهَ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ لَهُ أَجْرَ التَّقَى إِذَا وَفَّى الْحِسَابَ غَدَا
 وَمَا قَضَى اللَّهُ مِنْ أَمْرٍ فَلَيْسَ لَهُ رَدٌّ وَمَا يَقْضَى مِنْ شَيْءٍ يَكُنْ رَشْدًا
 كُلُّ الْخَوَارِجِ مُخْطِئٌ فِي مَقَالَتِهِ وَلَوْ تَعَبَّدَ فِيهَا قَالَ وَاجْتَهَدَا
 أَمَّا عَلِيٌّ وَعُثْمَانُ فَإِنَّهُمَا عَبْدَانِ لَمْ يُشْرِكَا بِاللَّهِ مُذْ عَبْدَا
 وَكَانَ بَيْنَهُمَا شَغَبٌ وَقَدْ شَهِدَا شَقَّ الْعَصَا وَبَعِثَ اللَّهُ مَا شَهِدَا
 يُجْزَى عَلِيٌّ وَعُثْمَانُ بِسُغْيِهِمَا وَلَسْتُ أَدْرِي بِحَقِّ آيَةٍ وَرَدَا
 اللَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا يُحْضِرَانِ بِهِ وَكُلُّ عَبْدٍ سَيَلِقَى اللَّهَ مُنْفَرِدًا

تَأَمَّلُوا هَذِهِ الْآيَاتِ يَتَّضِحُ أَنَّ جَمِيعَ الْمَسَائِلِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهَا فِيهَا إِنَّمَا هِيَ مِنْ نَتَائِجِ
 الْاِخْتِلَافَاتِ فِي مَنْ تَكُونُ الْإِمَامَةُ مِنْ حَقِّهِ . فِي الْبَيْتِ الثَّانِي يَرَدُّ ثَابِتُ قِطْنَةَ عَلِيٍّ
 أَهْلُ الشَّيْعَةِ الْقَائِلِينَ بِظُلْمِ الْخُلَفَاءِ الْأُمَوِيِّينَ وَوُجُوبِ عِصْيَانِهِمْ لِحُجْرِهِمْ . ثُمَّ فِي الْبَيْتَيْنِ
 التَّالِيَيْنِ يُجِيبُ الْخَوَارِجَ وَأَهْلُ الشَّيْعَةِ مَعًا الْقَائِلِينَ بِكُفْرٍ مِنْ لَا يَذْهَبُ مَذْهَبُهُمْ مِنْ
 الْمُسْلِمِينَ وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا أَيْضًا بِقَوْلِهِ « لَا نَسْفِكُ الدَّمَ إِلَّا » لِأَنَّ الْخَوَارِجَ قَالُوا
 بِوُجُوبِ جِهَادٍ سَأَرَ الْمُسْلِمِينَ بَلْ ذَهَبَتْ قَوْمٌ مِنْهُمْ إِلَى اسْتِحْسَانِ الاسْتِعْرَاضِ الْمَوْمَأِ
 إِلَيْهِ سَابِقًا (ص ٢١٣) أَمَّا أَهْلُ الشَّيْعَةِ فَكَفَّرُوا مِنْ سَفْكِ دِمَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَرَادُوا
 بِذَلِكَ تَكْفِيرَ الْخُلَفَاءِ وَالْأُمَرَاءِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ . ثُمَّ أَظْهَرَ ثَابِتُ قِطْنَةَ فِي بَاقِي آيَاتِهِ
 الْإِنْصَافَ فِيمَا بَيْنَ عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ فَجَعَلَهُمَا مُتَسَاوِيَيْنِ الْقَدْرَ وَكَفَّ عَنْ الْحُكْمِ فِيمَا جَرَى
 بَيْنَهُمَا مِنَ الْخِلَافِ مُقْتَدِيًا بِالْآيَةِ الْمَشَارِ إِلَيْهَا عِنْدَ آخِرِ الشَّعْرِ وَهِيَ عَلَى الْمَرْجَحِ :
 « وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 حَكِيمٌ ^(١) » . فَتَرَوْنَ أَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ مُتَعَلِّقٌ ضَرُورِيًّا بِمَسْأَلَةِ الْخِلَافَةِ وَالْحُكُومَةِ شَدِيدِ
 التَّأْثِيرِ فِي السِّيَاسَةِ وَالْعَمَلِ . وَلَكِنْ لَمَّا رَسَخَتِ الدَّوْلَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ وَتَثَبَّتْ شَوْكَتُهُ فِي
 جَمِيعِ بِلَادِ الشَّرْقِ فَزَالَتْ فَعَلًا الْاِخْتِلَافَاتُ فِي الْإِمَامَةِ عِنْدَ رِجَالِ السِّيَاسَةِ وَالسُّلْطَانِ

تقلَّب حال المرجئة كما تقلَّب حال كثير من سائر المذاهب أو الأحزاب الإسلامية القديمة أعنى أن آراءهم الدينية السياسية التي أصلها مسألة الإمامة لا غير تحولت إلى آراء كلامية عامَّة متجرِّدة عن علاقة ضرورية بمسائل الخلافة فعدلوا مثلاً عن القول بإرجاء عثمان وعلى وبنى أمية وقالوا بتأخير حكم من ارتكب الكبيرة إلى يوم القيامة . فدوَّروهم هذا الجديد هو الموصوف في التأليف المشهورة في الملل والنحل .

قلَّت الشعراءُ المساعدون للزبيريين على ادِّعائهم بالخلافة أو بالحرى قلَّ ذكرهم في الكتب التي وصلت إلينا فإنَّ الذين مدحوا مُصعب بن الزُّبَيْر أرادوا الإثناء على شجاعته وجوده كما يلوح من أشعار عُبيد الله بن قيس الرُّقِيَّات^(١) أحد شعراء قريش المقدَّمين المشتهر بالغزل أيضاً وهو صاحب مُصعباً وخرج معه على عبد الملك ابن مروان ولم يفارقه إلى أن قُتل مصعب سنة ٧٢١ وبعده مدة استشفع بعبد الله بن جعفر بن أبي طالب إلى عبد الملك فعفا عنه فقال ابن قيس الرُّقِيَّات البيتين الشهيرين^(٢) :

ما نَقَمُوا من بنى أُمِيَّة إ لاَّ أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا
وَأَنَّهَمْ سَادَةُ الْمُلُوكِ فَلَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ

قد كثُر ولا غرو في ذلك الشعراء المادحون لبنى أمية منهم بل أشهرهم الأخطل السابق ذكره (ص ١٣١) . لكني لا أريد هنا إلا الذين تعصَّبوا للأمويين في مسألة الإمامة ودافعوا عن حقوقهم وادِّعائهم وجادلوا الخصوم في أشعارهم مثل ما فعل كعب

(١) أما اسمه فانظر ما قال N. Rhodokanakis في ص ٤ — ٧ من مقدمته للديوان المطبوع بعنايته في وينا سنة ١٩٠٣ — والشاعر مذکور في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٤٣ — ٣٤٥ من طبعة ليدن .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٤٤ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ٤ ص ١٦٠ من طبعة بولاق والكامل في اللغة للمبرد ص ٣٩٨ من طبعة ليبسك وخزانة الأدب ج ٣ ص ٢٦٩ والديوان عدد ١ بيت ١٤ — ١٥ .

ابن جَعِيلَ الذي قرأت أبياته في الحروب بين أصحاب معاوية وشيعة عليّ (ص ٢٠٦)
 فمن هؤلاء الشعراء أعشى بن ربيعة وهو عبد الله بن خارجة من سكان الكوفة
 « كان مرواني المذهب شديد التعصب لبني أمية ^(١) ». فقال ردًّا على آراء
 الخوارج والشيعة ^(٢) :

وما أنا في أمرى ولا في خصومتى بمهتضمٍ حتى ولا قارِعٍ سني
 ولا مُسلمٍ مولايَ عند جناية ولا خائفٍ مولايَ من شرٍّ ما أجنى
 وإنَّ فؤاداً بينَ جَنَبَيَّ عالمٌ بما أبصرتُ عيني وما سمعتُ أذني
 وفضّلني في الشعر واللّبِّ أننى أقول على علم وأعرف من أغنى
 فأصبحت إذ فضلتُ مروانَ وابنه على الناس قد فضلتُ خيرَ أب وابن
 وحثَّ عبد الملك على مقاتلة الزُّبيريين المدَّعين بالخلافة في الحجاز وقال ^(٣) :
 آلُ الزُّبير من الخلافة كالتى عَجَلَ النَّتاجُ بِحَمَلِهَا فأحالها
 أو كالضعاف من الحمولة حُمِلَتْ ما لا تُطيق فضيعةُ أحمالها
 قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للغواة أطلتمو إِمَـهالها
 إنَّ الخلافة فيكمو لا فيهم ما زلتمو أركانها وِثَمالها
 أمسوا على الخيرات قَفْلاً مُعَلَّقاً فانْهَضْ بِمُيْمَنِكَ فافتتحْ أَقفالها
 ومن هؤلاء الشعراء عبد الله بن الزبير الأسدي ^(٤) قال فيه صاحب الأغاني

(١) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٦٠ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٦١ [وديوانه عدد ١٧ من طبعة لندن ١٩٢٨ في ذيل ديوان أعشى ميمون] .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٦١ [وديوانه عدد ١٤] الحمولة هي الإبل التي تحمل — الثمال هو الغياث الذي يقوم بأمر قومه .

(٤) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٣٣ — ٤٩ من طبعة بولاق وخزانة الأدب ج ١ ص ٣٤٥ و ج ٢ ص ١٠٠ إلخ من طبعة بولاق .

ما نصّه^(١) : « شاعر كوفي المنشأ والمنزل من شعراء الدولة الأموية وكان من شيعة بني أمية وذوى الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدوهم . فلما غلب مضعب بن الزبير على الكوفة أتى به أسيراً فنّ عليه ووصله وأحسن إليه فدحه وانقطع إليه فلم يزل معه حتى قُتل مصعب ثم عمى عبد الله بن الزبير بعد ذلك ومات في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٨٦٠) ... وهو أحد الهجّائين للناس » . فإذا طالعتم أشعاره المروية في كتاب الأغاني عرفتم قدر إطرانه للأمويين .

ومنهم أيضاً السائب بن فرّوخ المعروف بأبي العباس الأعمى^(٢) مولى بني الدّيل سكن مكة وقال الشعر في النصف الثاني من القرن الأوّل فقليل إنّه « كان من شعراء بني أمية المعدودين المقدّمين في مدحهم والتشيع لهم وانصباب الهوى إليهم^(٣) » فنظم أشعاراً كثيرة في مدائحهم وهجاء آل الزبير فكانت الأمويّون يبعثون إليه الجوائز من الشام . ومديحه جرى مجرى مدح عرب الجاهلية لسادتهم فلولا ذكر المنابر في شعر أبي العباس لما وجدنا بينه وبين أشعار القدماء فرقاً . ومن قوله في بني أمية^(٤) (من بحر الخفيف) :

خطبائه على المنابر فرّسا نّ عليها وقاله غير خرسٍ
لا يعابون صامتين وإن قا لوا أصابوا ولم يقولوا بلبّسٍ
بجلوم إذا الحلوم تقصّصت ووجوه مثل الدنانير مُلّسٍ

ومن شعراء الأحزاب يزيد بن ربيعة بن مفرّغ الحِميريّ المعروف

(١) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٣٣ من طبعة بولاق .

(٢) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٥٩ — ٦٤ من طبعة بولاق ولم يذكره ابن قتيبة (ولعله هو المشار إليه عرضاً في ص ٣٦٦ سطر ١٤) ولا صاحب خزائن الأدب [ولا ابن سلام ولا الآمدي] ولكن يدل اسم أبيه وكونه مولى على أنه فارسي الأصل .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٥٩ من طبعة بولاق .

(٤) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٦٠ .

بابن مفرغ^(١) المتوفى سنة ٦٩ في بلاد كرمان . كان حليف قريش وصحب عبّاد ابن زياد بن أبي سفيان حين ولّاه معاوية بلاد سجستان ولم يحمّده ثمّ لما وقع بينهما أخذ يهجو ويهجو معه عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان الى العراق (المتوفى سنة ٦٦) وغيرهما من آل زياد ومعاوية فانتشرت أهاجيه حتّى كانت أهل البصرة تغنى بها فطلبه عبيد الله بن زياد وحبسه مدّة إلى أن غضبت أهل اليمن بالشام وطلبوا من الخليفة الأمر بتخليه سبيله ففعل . وكان ابن مفرغ من شعراء الغزل أيضاً فأشعاره في أناهيد بنت أحد دهاقين الفرس مشهورة . وسيأتى الكلام عليه ثانية عند ذكر الشعر القصصى اليمنى .

لما شرعت فى الكلام عن الشعر من هذا الصنف السادس قلت إنه مرآة أحوال الأحزاب السياسية الدينيّة وترجمان أهواء الناس وآرائهم فى مسائل الدنيا والدين فما تقدّم برهان على ذلك قاطع . فأشرت إلى أشعار العثمانيّة والخوارج والشيعة والمرجئة والزبيريين وأصحاب الأمويين فلا بدّ لنا الآن من لمحة فى الشعر المعبر عن أسباب انحطاط قوّة الدولة الأمويّة غير الفن والاختلافات فى مسألة الإمامة .

أفضت الخلافة سنة ١٣٥/٧ إلى الوليد بن يزيد فهو لم يزل مُدْمِنًا على الصيد واللهو وشرب الخمر محتجباً عن الناس منهمكاً فى اللذات فحلّ الناس أيامه وكرهوه فرأى بعض أهل بيته خلعه سواء أن يحملهم على ذلك بغض سوء سيرته أم الطمع وحبّ الأحداث . ف وقعت الفتن بينهم فقال العباس بن الوليد بن عبد الملك المسمّى بفارس بنى مروان لشهامته : « يا بنى مروان أظنّ أن الله قد أذن فى هلاككم » ثمّ أخذ يُنذِرهم فقال^(٢) :

(١) ذكر فى كتاب الأغاني ج ١٧ ص ٥١ — ٧٣ وخزانة الأدب ج ٢ ص ٢١١ — ٢١٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٠٩ — ٢١٣ من طبعة ليدن ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٨٣١ من طبعة غوتنجن أو ٧٩٢ من الطبقات المصرية ومروج الذهب للمسعودى فى الباب السادس والثمانين ج ٥ ص ٢٦ من طبعة باريس [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٣ — ١٤٤ من طبعة ليدن] .

(٢) كتاب الأغاني ج ٦ ص ١٣٧ من طبعة بولاق وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٧٨٨ من طبعة ليدن .

إِنِّي أُعِيدُكُمْ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنٍ مثل الجبال تَسَامَى ثُمَّ تَنْدِفُ
 إِنَّ الْبَرِيَّةَ قَدْ مَلَّتْ سِيَاسَتَكُمْ فاستمِسِكُوا بعمود الدين وأرْتَدِعُوا
 لَا تُلْحِمَنَّ ذُنُوبَ النَّاسِ أَنْفُسَكُمْ إِنَّ الذَّنَابَ إِذَا مَا أُلْحِمَتْ رَتَعُوا
 لَا تَبْقُرُنَّ بِأَيْدِيكُمْ بُطُونَكُمْ فثُمَّ لَا حَسْرَةَ تُغْنِي وَلَا جَزَعُ

ومن أهم المصادر وأوثقها لمعرفة حال العرب والعجم بخراسان في أواخر الدولة الأموية أشعار أمير لا تأتي السكتب في طبقات الشعراء بترجمته وإن كان ما نظمته في فتن زمانه أتم وصف وأوضح تبيان لما وقع في تلك البلاد من الشر بين اليمانيين والنزاريين ولعل نمو الدعوة العباسية وازدياد قوة الموالى وزوال أمر العرب وغير ذلك مما عَمِلَ في انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني العباس . أعنى نصر بن سيار أمير خراسان المتوفى في ربيع الأول من سنة ١٣١ / ٧٤٨ . فلو لا أشعاره ما توصلنا إلى معرفة كثير مما يتعلق بالتقلبات السياسية وتغير بعض المذاهب الدينية في الثلث الأول من القرن الثاني منها مثلاً ما مالت إليه المرجئة في بلاد العجم الشمالية بعد ما انضمت إلى مذهبهم جملة من الفرس . قد مرَّ (ص ٢٢٠—٢٢٦) أن الإرجاء عند العرب في القرن الأول كان التوقف عن الحكم فيما بين شيعة على وشيعة بني أمية وأنه كان للثانية أجدى منه للأولى إذا أدى أصحابه إلى استقباح قيام الشيعة على دولة بني أمية . أمّا بخراسان في أوائل القرن الثاني فانعكس الأمر إذ ذهب إلى رأى المرجئة جملة من العجم الكارهين سلطة العرب عليهم الشاكين جوَر الأمويين وأمرأهم الراجين الصلاح من تغيير الإمارة فعدل الإرجاء عما كان عند العرب قبلاً وأصبح توفيقاً عن التعصّب لبني أمية بل كرهاً لمساعدتهم على مقاتلة أصحاب الدعوة العباسية التي مالت إليها المرجئة شيئاً فشيئاً . وذلك يلوح من شعر قاله نصر بن سيار سنة ١١٧

حين أقبل الحارث بن سُرَيْجَ المَرْجِيُّ إِلَى مَرَوْ وَمِنْ أَيْيَاتِهِ ^(١) :

وَالْعَائِينَ عَلَيْنَا دِينَنَا وَهُمْ شَرُّ الْعِبَادِ إِذَا خَابَتْهُمْ دِينَا
وَالْقَائِلِينَ سَبِيلُ اللَّهِ بُغِينَا لِبُعْدِ مَا نَكْبُوا عَمَّا يَقُولُونَا
فَأَقْتُلْهُمْ غَضَبًا لِلَّهِ مُنْتَصِرًا مِنْهُمْ بِهِ وَدَعِ الْمُرْتَابَ مَقْتُونَا
إِرْجَاؤُكُمْ لَزَكُمُ وَالشَّرْكَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتُمْ أَهْلُ إِشْرَاكِ وَمُرْجُونَا
لَا يُبْعِدُ اللَّهُ فِي الْأَجْدَاثِ غَيْرَكُمْ إِذْ كَانَ دِينُكُمْ بِالْشَّرْكِ مَقْرُونَا

فِيُشَبِّهُ هَذَا الْكَلَامَ مَا كَانَتْ الشَّيْعَةُ يَقُولُونَهُ فِي مَرْجَةِ الْعِرَاقِ الْمُتَمَنِّعِينَ عَنْ مَعْصِيَةِ
مَعَاوِيَةَ وَخُلَائِفِهِ . — وَمِنْ الشَّهِيرِ مِنْ شَعْرِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ فِي ذِكْرِ أَحْوَالِ خِرَاسَانَ
وَإِهْمَالِ الْخُلَفَاءِ الْأُمَوِيِّينَ الْآخِرِينَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ أَشَدِّ الْعَوَامِلِ فِي انْقِرَاضِ
دَوْلَتِهِمْ ^(٢) :

أَرَى خِلَالَ الرَّمَادِ وَمِيزَ الْجَمْرِ وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ
فَإِنَّ النَّارَ بِالْعُودَيْنِ تَذُكَّى وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا الْكَلَامُ
وَإِنْ لَمْ تُطْفِئْهَا تَجَنَّ حَرْبًا مُشْمَرَةً يَشِيبُ لَهَا الْغَلَامُ
أَقُولُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِي أَلَيْقَاطُ أُمَيَّةُ أَمْ نِيَامُ
فَإِنْ يَكُ قَوْمُنَا أَضْحَوْا نِيَامًا فَقُلْ قَوْمُوا فَقَدْ حَانَ الْقِيَامُ
فَقِرِّي عَنْ رِحَالِكِ ثُمَّ قُولِي عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ السَّلَامُ

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٥٧٦ في سنة ١١٧ . وبديل ابن حزم على ما هو الإرجاء
الفراسي في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٣ ص ١٨٨ من طبعة مصر ١٣١٧ —
١٣٢١ وهذا نصه : « اختلف الناس في ماهية الإيمان فذهب قوم إلى أن الإيمان إنما هو معرفة الله
تعالى بالقلب فقط وإن أظهر اليهودية والنصرانية وسائر أنواع الكفر بلسانه وعبادته فإذا عرف
الله تعالى بقلبه فهو مسلم من أهل الجنة وهذا قول أبي حرز الجهم بن صفوان وأبي الحسن الأشعري
البصري وأصحابهما » (وانظر إيضاح ٤ ص ٢٠٤) .

(٢) مروج الذهب للمسعودي في الباب السادس بعد المائة ج ٦ ص ٦٢ من طبعة باريس
وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٧٧ من طبعة مصر ١٣٠٥ وكتاب الأخبار الطوال
لابن حنيفة الدينوري ص ٣٥٦ من طبعة لندن .

وقال يخاطب مُضَرَّ واليمن ويحذّرهم العدو الداخل عليهم^(١) :

أَبْلِغْ رِبِيعَةَ فِي مَرَوْ وإِخْوَتَهَا أَنْ يَغْضَبُوا قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَعَ الْغَضَبُ
وَلْيَنْصَبُوا الْحَرْبَ إِنْ الْقَوْمَ قَدْ نَصَبُوا حَرْبًا يَحْرِقُ فِي حَافَاتِهَا الْخَطْبُ
مَا بِالْكُمُ تُلْقِحُونَ الْحَرْبَ بَيْنَكُمْ كَأَنَّ أَهْلَ الْحِجَاةِ عَنْ فِعْلِكُمْ غَيْبُ
وَتَتْرُكُونَ عَدُوًّا قَدْ أَظْلَكَكُمْ مِمَّنْ تَأَشَّبَ لَا دِينَ وَلَا حَسَبُ
لَيْسُوا إِلَى عَرَبٍ مِنَّا فَتَعْرِفُهُمْ وَلَا صَمِيمَ الْمَوَالِي إِنْ هُمْ نُسِبُوا
قَوْمًا يَدِينُونَ دِينًا مَا سَمِعْتُ بِهِ عَنْ الرُّسُولِ وَلَا جَاءَتْ بِهِ الْكُتُبُ
فَمَنْ يَكُنْ سَائِلِي عَنْ أَصْلِ دِينِهِمْ فَإِنَّ دِينَهُمْ أَنْ تُقْتَلَ الْعَرَبُ

وقبل أن نَخْتِمَ هذه النُبْذَةَ في الصنف السادس من الشعر في أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةَ عَلَيْنَا
أن نذكر شعراء من العجم نسجوا القريض بلغة العرب . — لَمَّا جَرَى الْكَلَامُ
عَلَى الشَّعْرِ فِي مَدَنِ الْحِجَازِ أَوْضَحْتُ أَنَّهُ بَعْدَ الْفَتْوحِ وَقَبْلَ أَوَاسِطِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ
جُلِبَتْ إِلَى بِلَادِ الْحَرَمَيْنِ الْجَوَارِي الْمَغْنِيَّاتُ بِالْفَارِسِيِّ وَالرُّومِيِّ وَشَرَحْتُ مَا كَانَ لَذَلِكَ
مِنَ التَّأثيرِ فِي اعتناء شعراء المَدَنِ الْحِجَازِيَّةِ بِالغَزَلِ دُونَ سَائِرِ أَفَانِينَ الشَّعْرِ . وَفِي ذَلِكَ
العصر كَثُرَ أَيْضًا بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ عِدَدُ الْمَالِيكِ مِنْ سَبْيِ الْفَرَسِ فَصَارَ أَوْلَادُهُمْ مَوَالِي
أَهْلِ الْحِجَازِ وَتَدَرَّبُوا بِلُغَةِ أَصْحَابِهِمْ حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ نَحْوَ أَوَاسِطِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ أَخَذَ
يَنْظُمُ الشَّعْرَ بِالْعَرَبِيَّةِ . وَهَذَا الْأَمْرُ مَهْمٌ جَدًّا لِأَنَّ الشَّعْرَ تَعْبِيرٌ عَنْ عَوَاطِفِ الْأُمَّةِ
وَأَهْوَائِهَا وَأُمِّيَّاتِهَا وَأَخْلَاقِهَا وَعَوَائِدِهَا فَإِذَا شَارَكَهَا فِي الشَّعْرِ بَلَّغَتْهَا أُمٌّ أُخْرَى لَا بَدَّ مِنْ
وَقُوعِ تَقَلُّبٍ وَاضِحٍ فِي مَضْمُونِ ذَلِكَ الشَّعْرِ وَإِنْ لَمْ تَتَغَيَّرِ اللَّغَةُ وَالْأَعَارِيزُ الَّتِي صِيغَ
فِيهَا . فَبِسَبَبِ الْمَوَالِي بَعْدَ مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ أَخَذَ شُعْرُ الْعَرَبِ يَتَحَوَّلُ شَيْئًا فَشَيْئًا
إِلَى شَعْرِ أُمِّ إِسْلَامِيَّةٍ شَتَّى بِلُغَةِ عَرَبِيَّةٍ .

(١) كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص ٣٦٠ من طبعة ليدن والعقد الفريد
لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٧٨ من طبعة مصر ١٣٠٥ (لا يوجد فيه البيت الخامس)

ومن الموالي الذين أصلهم من آذَرَبَيْجَان ومنشؤهم وسكناهم بمكة أو المدينة أبو العباس الأعمى السابق ذكره ومنهم أيضاً موسى شَهَوَاتٍ^(١) الذي قال الشعر في المديح والهجاء والتشبيب بالمدينة في أيام سليمان بن عبد الملك (٩٦/٧١٥ — ٩٩/٧١٧) أو قبله وأدرك خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٤٣) ومنهم محمد بن يسار الذي قلَّ ما وصل إلينا من أخباره . ومنهم زياد بن سَلَمَى الأعْجَمِ^(٢) مولى عبد القيس قال بعض الرواة إنَّه كان ينزل إصْطَخَرَ ، وقال البعض إنَّ أصله ومولده ومنشأه بأصبهان « ثم انتقل إلى خراسان فلم يزل بها حتى مات وكان شاعراً جَزَل الشعر فصيح الألفاظ على لُكْنَة لسانه وجريه على لفظ أهل بلده^(٣) » . وله قصيدة طويلة عُدَّت من غرر المراثي قالها لما مات المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة سنة ٨٣ منها^(٤) :

(١) « شهوات » على الصفة وعلى الإضافة وهو أصح — والشاعر المذكور في كتاب الأغاني ج ٣ ص ١١٨ — ١٢٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٦٦ — ٣٦٧ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ١ ص ١٤٤ من طبعة بولاق — وقيل في الأغاني ج ٣ ص ١١٨ إنَّه موسى بن يشار وفي الخزانة إنَّه موسى بن يسار أخو إسماعيل بن يسار ولكن هذا تصحيف — فما وصف صاحب كتاب الأغاني (ج ٤ ص ١٢١) من إخوة إسماعيل بن يسار إلا تحداً وإبراهيم بصناعة الشعر فلم يذكر اسم أبيه في كتاب الشعر لابن قتيبة . [وفي معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٧٦ من طبعة مصر ١٣٥١ : قيل إنَّه موسى بن يسار] .

(٢) ذكر في كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ — ١٠٩ وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٩٣ — ١٩٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ج ٢٥٧ — ٢٥٩ من طبعة ليدن ووفيات الأعيان لابن خلكان في ترجمة المهلب بن أبي صفرة عدد ٧٦٣ من طبعة غوتنجن أو عدد ٧٢٣ من الطبعات المصرية وحامسة أبي تمام ص ٦٧٨ و ٧٨٠ من طبعة بن اوج ج ٤ ص ٥٢ و ١٤٨ من طبعة بولاق [وكتاب المؤلف للامدى ص ١٣١ — ١٣٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] واسم أبيه هو سليمان في كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ وفي وفيات الأعيان لابن خلكان [وفي كتاب المؤلف للامدى] .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ : « المهلب بن المغيرة » وهو غلط . تروى القصيدة (٥٠ بيتاً) في ذيل أمالي القائل ص ١٠ — ١٢ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أو ص ٨ — ١٢ من طبعة ١٣٤٤] واستخرج ابن خلكان منه ٢٧ بيتاً (انظر الموضع المذكور من وفيات الأعيان) وبعض الآيات مروية في كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٥٨ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٩٢ [فراجع F. KRENKOW, *The elegy upon al-Mughirah ibn el-Muhallab* (Islamica, II, 1926, p.344-354)] .

مرو هو مرو الشاهجان — أما البيت الثاني فهو الشاهد في تذكير المؤلف .

قُلْ للقوافل والغزاة إذا غزوا والباكرين وللمُجدِّ الرَّاحِ
 إِنَّ السَّاحَةَ والمروءةَ ضَمِنَا قَبْرًا بَمَرَوْ عَلَى الطَّرِيقِ الواضِحِ
 فَإِذَا مَرَرْتَ بِقَبْرِهِ فَأَعْقِرْ بِهِ كَوْمَ الهِجَانِ وَكُلَّ طَرْفٍ سَابِحِ
 وَأَنْصِخْ جَوَانِبَ قَبْرِهِ بِدِمَائِهَا فَلَقَدْ يَكُونُ أَخَا دَمٍ وَذَبَائِحِ

ومن الغريب ما له من الهجاء الكثير الجارى مجرى هجاء الأعراب^(١) كأنه منهم
 فمن اطلع عليه بدون أن يعرف اسم قائله لما ظنَّ أنه شعر مولى فارسى . وأدرك
 زياد خلافة هشام بن عبد الملك (١٢٥ — ١٢٤) .

ولكن غرضى هنا إنما هو الكلام على بعض الموالى يدخل قسم من شعرهم في
 هذا النوع السادس . إنَّ الناس أحبوا في كلِّ وقت تخليد ذكر مآثر آبائهم والافتخار
 بها فنعم هذا الافتخار إن لم يُفسدْهُ التعصب المفرط المنكر لأنه إذا لم يعدل عن
 سبيل الإنصاف أصبح حثاً نافعاً على احتذاء مثال الأفاضل وتحريضاً شديداً على
 طلب المعالى ووصونٍ ما يجب على كلِّ أمة إيراثه الخلف من مجد السلف وعلوِّ
 شأنهم فى الاجتماع البشرى . ولا أحتاج إلى وصف قدر اهتمام العرب بابقاء ذكر
 أفعالهم ومفاخرهم التى ملؤوا من تذكارها دواوين أشعارهم . فلما خرجوا عن جزيرتهم
 وفتحوا البلاد أهانوا الأمم التى تغلبوا عليها كأنها أدنى منهم بكثير شرفاً ومجداً .
 أما هذه الأمم المتقدمة فى سير التمدن من زمان عتيق فأخذت تفتخر بملوكها القدماء
 وما لهم من الآثار المعجبة فى ذلك أشار جرير بقوله^(٢) :

إِذَا افْتَخَرُوا عَدُوَّ الصَّبِيَّ مِنْهُمْ وَكِسْرَى وَآلَ المُرْمُزَانِ وَقِيَصْرَا
 تَرَى مِنْهُمْ مُسْتَبْصِرِينَ عَلَى الْهَدَى وَذَا التَّاجِ يُضْحِي مَرْزُبَانًا مَسُورَا

(١) راجع فى كتاب الأغاني ج ١١ ص ١٦٥ — ١٦٧ و ١٧١ و ١٧٢ ما قاله يهجو بنى
 يشكر وفى ج ١٣ ص ٥٨ — ٥٩ ما قاله يهجو كعبا الأشقرى .

(٢) ديوان جرير ج ١ ص ١٠٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [او ص ٢٤٢ — ٢٤٣ من
 طبعة مصر ١٣٥٤] .

أَغْرَّ شَيْهًا بِالْفَنِّيقِ إِذَا ارْتَدَى عَلَى الْقُبْطِيِّ الْفَارِسِيِّ الْمَزْرَا
وَكَانَ كِتَابٌ فِيهِمْ وَنَبْوَةٌ وَكَانُوا بِإِصْطَخَرِ الْمُلُوكِ وَتُسْتَرَا
لَقَدْ جَاهَدَ الْوَضَّاحُ بِالْحَقِّ مُعَلِّمًا فَأَوْرَثَ مَجْدًا بَاقِيًا أَهْلَ بَرَبَرَا

فنشأ نوع من الشعر في مدح العجم وتفضيلهم على العرب وهو داخل في هذا
الصنف السادس المُفْرَد لشعر الأحزاب السياسية والاختلافات الدينية . ولعلَّ أوَّلَ
الْفُرْسِ الذي نظم الشعر بلغة العرب وسلك فيه المسلك المدلول عليه المسمَّى عند
كُتَبَةِ القرن الثالث والرابع بالشعوبية هو إسماعيل بن يسار النَّسَائِيُّ الذي روى
صاحب كتاب الأغاني^(١) بعض أخباره فقال إنه « مولى بني تَيْم بن مُرَّة تيم قریش
وكان منقطعاً إلى آل الزُّبَيْر فلما أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان وفد إليه^(٢)
مع عُرْوَة بن الزُّبَيْر ومدحه ومدح الخلفاء من ولده بعده وعاش عُمرًا طويلاً إلى أن
أدرك آخر سلطان بني أمية ولم يدرك الدولة العباسية وكان طيباً مليحاً مندراً^(٣)
بطالاً مليح الشعر وكان كالمقطع إلى عُرْوَة بن الزُّبَيْر . وإنما سُمِّيَ إسماعيلُ بن
يسار النَّسَائِيُّ لأنَّ أباه كان يصنع طعام العُرْس ويبيعه فيشتريه منه من أراد
التعريس من المتجملين ومن لم تبلغ حاله اصطناع ذلك^(٤) » . ومما وصل إلينا من
أشعاره يلوح أنه تعاطى المديح والرثاء فضلاً عن الغزل اللطيف الغالب عند شعراء
مدن الحجاز في ذلك العصر . أما الذي يُهمُّني في هذا المقام والذي أُحِبُّ أن تتأملوه

(١) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ٤ ص ١١٩ — ١٢٧ ولا يذكر في كتاب الشعر
لابن قتيبة (ص ٣٦٦ من طبعة ليدن) وخزانة الأدب (ج ١ ص ١٤٤ من طبعة بولاق)
إلا اسمه . فراجع أيضاً J. GOLDZIER, *Muhammedanische Studien*, I, 160

(٢) وهذا بعد مقتل عبد الله بن الزبير (كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٤ سطر ٢٢ من طبعة
بولاق) أي بعد سنة ٧٣٣ .

(٣) [كذا في طبعة بولاق وفي طبعة دار الكتب المصرية : « مندرا » وفي الحاشية : « مندرا
يأتى بالنوادر من قول أو فعل . وبطال كثير الهزل والمزاح »] .

(٤) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١١٩ من طبعة بولاق . وقيل « إنما سُمِّيَ إسماعيل بن يسار
النسائي لأنه [وليس أبوه] كان يبيع النجد والفرش التي تتخذ للعرائس » .

فأنَّ إسماعيل بن يسار كان « شعوبياً شديداً التعصب للعجم وله شعر كثير يفخر فيه بالأعاجم ^(١) » ففي قصيدة له بعد إظهار التشبيب بهند قال ^(٢) :

رُبَّ خالٍ متوجٍّ لى وعمٍّ ماجدٍ مجتدٍ كريمة النّصاب
إنّما سُمِّيَ الفوارسُ بالفرِّسِ مضاهاةً رفعةً الأنساب
فأتزكى الفخرَ يا أمّامَ علينا واتركى الجورَ وأنطق بالصواب
وأسألى إن جهلت عني وعنكم كيف كنّا فى سالف الأحقاب
إذ نربّي بناتنا وتدسو ن سقاها بناتكم فى التراب

وجسر يوماً بالرّصافة على إنشاد قصيدة بحضور هشام بن عبد الملك قال فيها ^(٣) :

إني وجدك ما عودى بذى خورٍ عند الحفاظ ولا حوضى بمهدوم
أصلى كريمٍ ومجدى لا يُقاس به ولى لسانٍ كحدِّ السيف مسموم
أحمى به مجدّ أقوام ذوى حسَبٍ من كلّ قرَمٍ بتاج الملوك معوم
ججاجيح سادةٍ بُلجٍ مراربةٍ جُرْدٍ عتاقٍ مساميحٍ مطاعيم

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢١ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٠ — اجتدى سأله حاجة أو طلب جدواه — نصاب أول كل شيء ، الأصل — ضاعى شاكله وشابهه — حقب وجمعه أحقاب الدهر — دس الشيء تحت التراب وغيره ودسه فيه أدخله فيه ودفنه تحته وأخفاه — أما اشتقاق فوارس فراجع ما قاله ابن بدرون فى شرحه على قصيدة ابن عبدون ص ٨ من طبعة ليد ١٨٤٦ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٥ من طبعة بولاق — خور ضعف — قرم الفعل أو مالم يمسه جبل ولم يحمل عليه وترك للفحلة وقيل السيد أو العظيم على التشبيه بالفعل — ججاجيح السيد المسارع فى المكارم — أبلج ذو الكرم والمعروف وجمعه بلج — الأجرد الذى له جرد يعنى قصر شعر الجلد فى الفرس وهو من الأوصاف المحمودة فى الخيل — العتاق (جمع عتيق) من الخيل : النجائب — مسامح (وجمعه مساميح) ذو جواد وذو سماحة — مطعام (وجمعه مطاميع) كثير الأضياف والقرى — ملك كسرى الأول أنوشروان من ٥٣١ إلى ٥٧٩ بعد المسيح وسابور الأول من ٢٤١ إلى ٢٧١ وسابور الثانى ذو الأكثاف من ٣٠٩ إلى ٣٧٩ وسابور الثالث من ٣٨٣ إلى ٣٨٨ . — زحف مشى — الحلقة (وجمعه حلق) كل شيء استدار والحلقة الدرع خاصة — (درع) سابقة تامة طويلة — لهميم (جمعه لهاميم) السابق الجواد من الخيل والناس — جرثومة أصل .

مَنْ مِثْلَ كِسْرَى وَسَابُورِ الْجُنُودِ مَعًا وَالْمُزْمَنَ لِفَخْرٍ أَوْ لِعَظِيمٍ
أَسْدُ الْكَتَائِبِ يَوْمَ الرُّوعِ إِنْ زَحَفُوا وَهُمْ أَذَلُّوا مُلُوكَ التَّرِكِ وَالرُّومِ
يَمْشُونَ فِي حَلَقِ الْمَاضَى سَابِغَةً مَشَى الضَّرَاغِمَةُ الْأَسْدُ الْهَامِمْ
هَنَّاكَ إِنْ تَسَالَى تُذَيِّبَانِ لَنَا جُرْثُومَةً قَهَرَتْ عَزَّ الْجَرَاثِمِ

ويروى أن هشام بن عبد الملك لما سمع هذه الأبيات غضب وأمر بدفع إسماعيل في بركة كانت أمامهما في القصر ففعلوا وغطوه في الماء حتى كادت نفسه تخرج ثم أمر بإخراجه ونفاه من وقته إلى الحجاز .

فلعلَّ إسماعيل بن يسار كان أولَ شاعر استعمل اللغة العربية لتفضيل الفرس على العرب . وابنه إبراهيم كان أيضاً مبتلياً بالعصبية للعجم والفخر بهم فحذا حدو أبيه في إظهار تعصبه في الشعر^(١) . وذلك دلالة على تقرب عهد جديد أعنى عهد الخلفاء العباسيين الذي غلبت فيه العجم على العرب في أمور السلطان والسياسة .

سمعنا إلى الآن أقوال تعصب وبُغْض وخلافات وفتن وحروب فقبل أن نفارق هذا الصنف من الشعر ينبغي لنا الإشارة إلى القليل البعيد عن مثل ذلك القريب من الآية القرآنية : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »^(٢) .

ليس مجهولاً لكم أن أكثر الخوارج اجتمعوا على جواز تقليد الإمامة لكل رجل صالح مهما كان أصله وجنسه فلا فرق عندهم بين عربيّ وفارسيّ وزنجيّ وبربريّ وغيرهم من أصحاب مذهبهم . وذلك مخالف لعصبية قبائل الأعراب موافق للقول بتساوي كل المؤمنين . فلما هرب عمران بن حِطَّان الخارجي المذكور سابقاً (ص ٢١١) من الحجاج بن يوسف وارتحل من قبيلة إلى قبيلة طالباً للمثوى ونزل مدّة عند رَوْح بن زَنْبَاع الجذامي ثم بزفر بن الحارث الكلابيّ

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٧ سطر ٢٣ من طبعة بولاق .

(٢) القرآن سورة ٤٩ (الحجرات) : ١٠ .

ثمَّ عند قوم من الأزد قال في نزوله بهم^(١):

نَزَلْنَا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي خَيْرِ مَنَازِلٍ نُسِرُّ بِمَا فِيهِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْخَفَرِ
نَزَلْنَا بِقَوْمٍ يَجْمَعُ اللَّهُ شَمْلَهُمْ وَلَيْسَ لَهُمْ عُودٌ سِوَى الْمَجْدِ يُعْتَصَرُ
مِنَ الْأَزْدِ إِنْ الْأَزْدُ أَكْرَمُ مَعْشَرٍ يَمَانِيَّةٍ طَابُوا إِذَا نُسِبَ الْبَشَرُ
فَأَصْبَحَتْ فِيهِمْ أَمِنًا لَا كَمَعْشَرٍ أَتَوْنِي فَقَالُوا مِنْ رَبِيعَةٍ أَوْ مُضَرٍ
أُمِّ الْحَيِّ قَحْطَانٍ فَتِلْكَمُ سَفَاهَةٌ كَمَا قَالَ لِي رَوْحٌ وَصَاحِبُهُ زُفَرُ
وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا يُسَرُّ بِنُسْبَةٍ تَقْرُبُ بَنِي مِنْهُ وَإِنْ كَانَ ذَا نَفَرٍ
فَنَحْنُ بَنُو الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ وَاحِدٌ وَأَوْلى عِبَادِ اللَّهِ بِاللَّهِ مَنْ شَكَرَ

ولكن إياكم أن تغتروا بهذا القول المعبر عن شكر الشاعر لمن ألباه وأثواه
هارباً خائفاً فقيراً لا غير . فقد سبق (ص ٢١١) أن عمران بن حطان كان من
الشعراء المعترضين حزبهم على قتال غيرهم وقد تقدم أن الخوارج قالوا بكفر جميع
من لم يتبع مذهبهم وكانوا أشد الناس تعصباً حتى تفرقوا أنفسهم عدة فرقة مبعضين
بعضها بعضاً على قلتها . والحقيقة أنهم محو التعصب القومي المألوف للأعراب من قديم
الزمان وبدلوه بتعصب مذهبي أشد من القومي حدة معادله سعة لأن عدد أصحاب
فرقة من فرقهم لم يتجاوز في الغالب عدد أبناء قوم من أقوام الأعراب — أما الذي
لمحت إليه إما هو مثل قول الصلتان العبدى معاصر الفرزدق وجريـر^(٢) :

(١) الكامل للمبرد ص ٥٣٣ — ٥٣٤ من طبعة ليبسك أوج ٢ ص ١٢٤ من طبعة مصر
١٣٢٣ — ١٣٢٤ (وفيه شرح الأبيات) وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٥٤ .

(٢) الكامل للمبرد ص ٥٤٠ من طبعة ليبسك أوج ٢ ص ١٢٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ —
١٣٢٤ — أما الأصححي فقال المبرد : « تسمى هذه السياط التي يعاقب بها السلطان الأصحية وتنسب
إلى ذى أصبح الحميري ... وهو أول من اتخذها » [ومن الممكن أن الشاعر يشير إلى اليمنيين الذين
نالوا الخطوة عند بني أمية] . — أما النجدية فقال المبرد : « تنسب إلى نجدة بن عويمر ... كان رأساً
ذا مقالة منفردة من مقالات الخوارج » — الخروية من الخوارج أيضاً — وأزرق يدعو إلى أزرق
فقال يعني من كان من أصحاب نافع بن الأزرق .

أرى أمةً شهرت سيفها وقد زيدَ في سوطِها الأصبحي
بنجديةً وحروريةً وأزرقَ يدعو إلى أزرق
فلتتنا أننا المسلمون على دين صديقنا والنبي

أو مثل قول نهار بن تَوْسعة شاعر بني بكر بن وائل بخراسان في أيام قتيبة ابن مسلم^(١):

أي الإسلام لأبلى سواه إذا هتفوا ببكرٍ أو تميم
دعى القوم ينصرُ مدعيه فيلحقةً بذى النسب الصميم
وما كرمٌ ولو شرفتُ جدودُ ولكنَّ التقيَّ هو الكريمُ

لكن مثل هذه الأقوال الكريمة نادرة جداً عند شعراء عهد الأمويين .

٧ — فلنشرع في بيان الصنف السابع من الشعر في أيام بني أمية وهو شعر أهل الحضر في مدن العراق والشام .

بُنيت الكوفة والبصرة بعد تمام فتح العراق سنة $\frac{١٧}{٦٣٨}$ تقريباً في خلافة عمر بن الخطاب . فكان لهذا الخليفة الأجل الماهر بأمور السياسة غرضان من تأسيس تينك المدينتين^(٢) أعنى نقصان شأن المدن العراقية الفارسية الأصل مثل المدائن والحيرة لثلاث تفوق العجم العرب قدرةً وتأثيراً وجعل مقامات للأعراب المفتحين في أطراف البادية متوسطة بين البدو والحضر ليعتادوا العيشة المدنية شيئاً فشيئاً وتزال رغبتهم في الرجوع إلى براريهم وكراهتهم للاستقرار في المدن كما تقدم بيان ذلك في أحد الأبواب الماضية (ص ١٢٤) . فزاد عدد من استوطن الكوفة سريعاً

(١) انظر كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨٢ من طبعة ليدن والكامل المبرد ص ٥٣٨ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٢٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤ (فيه البيت الأول والثاني فقط)
والبيت الأول مروي أيضاً في الفصل الحادى والمائة من كتاب المفصل للزمخشري (ص ٧٨ من طبعة مصر ١٣٢٣) .

(٤) راجع أيضاً : (L. CAETANI, *Annali dell' Islâm*, vol. III, p. 774-776; 833-845

لا سيما لما نقل علي بن أبي طالب دار الخلافة إليها سنة ٣٦/٦٥٧ فأضحت مدة أربعة أعوام قاعدة الملك المنقطعين إلى شيعة علي. ثم في أيام الدولة الأموية لم تزل عامرة زاهرة في غاية النضارة^(١) بل صارت للآداب العربية سوقاً حفيلاً لم ينقص نفاقه عن در مثله بدمشق فوفدت الشعراء إليها جمّاً غفيراً وإن كانت سكناهم الاعتيادية في أنحاء بعيدة عنها. كيف لا وأغلب ولاتها مائلون إلى سماع الشعر مُنعمون على الشعراء الصلّات الجزيلة محبوبون للأنس والاجتماع والسمر مثل بشر ابن مروان الذي يروى فيه أن أيمن بن خريم الشاعر لما أتاه «نظر الناس يدخلون عليه أفواجا فقال من يؤذن لنا الأمير أو يستأذن لنا عليه؟ فقيل له ليس على الأمير حجاب ولا ستر فدخل وهو يقول^(٢) :

يُرى بارزاً للناس بشر كأنه إذا لاح في أثوابه قمر بدر
ولو شاء بشر أغلق الباب دونه طامطم سود أو صقالبة شقر
أبى ذا ولكن سهل الإذن لتي يكون له في غيها الحمد والشكر

فضحك إليه بشر وقال : إننا قوم نحجب الحرّم وأما الأموال والطعام فلا . ثم تأملوا أمراً آخر وهو أن دمشق حينئذ كانت دار الخلافة وأهلها وأهل جميع الشام كثير والتعصب للأمويين بل أشد أركانهم حتى إن لفظ الشامي استعمل أحياناً بمعنى المنقطع إلى بني أمية^(٣) فربما من لم يعل من الشعراء إلى الدولة الأموية كره دخول الشام خوفاً من عداوة أهلها أو من أن يُتهم بخيانة حزبه . أما العراق فإن قطعنا النظر عن ولاية الحجاج بن يوسف كانت رعاية الأمويين فيها أخفّ منها بالشام فصارت البصرة والكوفة مقصد ناس من كل شيعة وحزب ومذهب فنزل

(١) أما رفاهة العيش في الكوفة والحيرة في عصر بني أمية فانظر ما قيل مثلاً في كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٢٢ و ١٢٤ و ١٢٥ من طبعة بولاق .

(٢) انظر كتاب الأغاني ج ٢١ ص ١٢ .

(٣) ويوجد « الشامي الأخطل » بهذا المعنى في قصيدة للفرزدق فانظر النقائض ص ٢٠٢ عدد

٣٩ بيت ٦٢ من طبعة ليدن [وديوان الفرزدق ص ٧٢١ سطر ٧ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

فيها بدون عائق ومانع من لعلّ صُعب عليه قدومُ الشام . فكثير من الشعراء المذكورين فيما تقدّم وفدوا الكوفة مراراً أو أقاموا بها على اختلاف مذاهبهم ومنهم الأخطل والفرزدق وجبرير وذو الرُّمة والراعي وعبد الله بن الزَّبير وأعشى بنى ربعة من مُدّاح الخلفاء والأمراء الأمويّين وكثير والكهيت من أهل الشيعة والطّرمّاح من الخوارج وهلمّ جرّاً . فإذا لا غروى أن تكون للكوفيين منزلةً خاصّة في تاريخ الشعر العربيّ في أيّام بنى أميّة .

أمّا أنواع الشعر المألوفة لأهل مدن العراق سوى الشعر السياسيّ المتقدّم بيانه والمرثى فثلاثة : الخمريّات والغزل والمديح . وجميع ذلك متّصل بأنواع الشعر العربيّ الجاهليّ في أقطار العراق الجنوبيّة الغربيّة .

أسّست مدينة الكوفة على مسافة قليلة أى ستّة كيلومترات تقريباً من الخيرة فلا شكّ أنّ جملة من أهل الخيرة انتقلوا إلى المدينة الجديدة واستوطنوه للتجارة فيها . وأحوال الخيرة قبل الفتح الإسلاميّ وتأسيس الكوفة معروفة فلا أحد يجهل أنّها كانت قاعدة ملوك اللّخميّين إلى نحو سنة ٢٠ قبل الهجرة وأنّ مُعظم سكّانها نصارى معروفون بالعباد اشتهروا عند عرب البادية في الجاهليّة ببيع الخمر . ونبتت فيها الشعراء من أهل الحضرة ووفدت إليها أيضاً شعراء أهل الوبر من بلاد نجد واليمامة والبحرين لما كانوا يجردون فيها من رواج الشعر وحسن القبول عند ملوك بنى نخم ومن سعة الأرزاق ورغد العيش وكثرة الحوانيت والخمارات التي كانوا يبيتون فيها معاقرين للشراب مستمعين لأغاني القينات . فخريّات أهل الخيرة أو من نزل فيها من الفحول مثل عدى بن زيد والأعشى وطرفة والنابعة الديبانيّ أشهر من أن احتاج إلى الإطناب في الكلام عليها . فإن تأملتم هذا وتأثير أهل الخيرة وعاداتهم في العرب الذين عمروا الكوفة واختلطوا المسلمين بأصحاب ديانات شتى في العراق ثمّ إن تذكّرت ما تقدّم بيانه من تمسّك الأعراب بعاداتهم القديمة وكرهتهم لبعض الأحكام الاسلاميّة ما استغربتم وفرة الأشعار في وصف الخمر ومدحه عند من نسج

القرىض في الكوفة والبصرة في أيام بني أمية . وزيدوا على ذلك كله حب شعراء العرب لاحتذاء مثل المتقدمين والاقتداء بأساليبهم وأخذ معانيهم فكما تجدون حتى الآن شعراء يبكون على أطلال قوم المعشوقة ويشكون مشاق قطع الفيافي التي لم يروها أبداً ولا من بعيد كذلك ليس من الحال أن بعض الشعراء ذهبوا إلى وصف الخمر وذكر لذاتها بدون أن ذاقوا منها قطرة كأن غرضهم تقليد أشعار فحول الجاهلية ولا التعبير عما في قلوبهم حقيقة .

وعلى كل حال لم يزل خمارو الخيرة مشهورين إلى نحو أواخر القرن الثاني أو بعدها بقليل كما يستنتج مما رواه صاحب كتاب الأغاني في ترجمة بكر بن خازمة شاعر من أهل الكوفة مغمم بشرب الخمر . قال ^(١) : « حرّم بعض الأمراء بالكوفة بيع الخمر على خماري الخيرة وركب فكسر نبيذهم فجاء بكر يشرب عندهم على عادته فرأى الخمر مصبوبة في الرحاب والطرق فبكى طويلاً وقال :

يا تقوى لما جنى السلطان لا يكوننّ لما أهان الهوان
قهوة في التراب من حلب الكرّم عمة — اراً كأنّه الزعفران
قهوة في مكان سوء لقد صا دف سعد السعود ذاك المكان
من كميت بدا المزاج لها لو لو نظم والفصل منها جمان
... كيف صبري عن بعض نفسي وهل يصبر عن بعض نفسه الإنسان

والشواهد على انتشار شرب الخمر عند بعض الأفاضل المسلمين في العراق في القرن الأوّل غير نادرة منها ما يروى في كتاب سيرة الرسول لابن هشام ^(٢) أن النعمان ابن عدى بعد ما استعمله عمر بن الخطاب على ميسان موضع من أرض البصرة قال :

(١) كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ٨٧ — العقار الخمر — جان : اللؤلؤ الواحدة .

(٢) سيرة الرسول ص ٧٨٦ من طبعة غوتنجن ١٨٥٨ — ١٨٥٩ ويروى البيت الأول والرابع

في معجم ما استعجم للبكري ص ٥٦٧ من طبعة غوتنجن والبيت الأول في لسان العرب ج ١٥ ص ٥١ — حتم الجرة الخصر — الجوسق القصر معرب كوشك بالفارسية وهو أيضاً من مصانع الفرس بالكوفة (راجع معجم البكري ص ٢٥٧) .

ألا هل أتى الحسناء أن حليها
بميسان يسقى في زجاج وحنتم
إذا شئت عننتي دهاقين قرية
ورقاصة تجدوا على كل منتم
فإن كنت ندماى فبالأ كبير أسقني
ولا تسقني بالأصغر المتهم
لعل أمير المؤمنين يسوءه
تنادونا في الجوسق المتهدم

فلما بلغت عمر هذه الأبيات عزله . فنذ كر عن قريب أمثلة أخرى متعددة من
حُبّ الخمر في العراق في عهد بنى أمية .

أما الغزل فهو عند أهل الحضرة المترفين كالنسيب عند أهل البادية فقد أحسن
ابن رشيق القيرواني في وصف الفرق بينهما حيث قال ^(١) : « ومقاصد الناس تختلف
فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال وتوقع البين والإشفاق منه وصفة
الطول والحمول والتشوق بحنين الإبل ولَمَعَ البروق ومرّ النسيم وذكر المياه التي
يلتقون عليها والرياح التي يحلّون بها من خزامى وأفجوان وبهار وحنوة وظيان
وعرار وما أشبهها من زهر البرية الذي تعرفه العرب وتنبئه الصحارى والجبال وما يلوح
لهم من النيران في الناحية التي بها أحبابهم ولا يعدّون النساء إذا تغزلوا ونسبوا فإن
وقع مثل قول طرفة ^(٢) :

وفي الحى أحوى ينفض المرّد شادين مظاهر سُمطى لؤلؤ وزبرجد
فإنما هو كناية بالغزل عن المرأة . وأهل الحاضرة يأتى أكثر تغزّلهم في ذكر
الصدود والهجران والواشين والرُقباء ومنعة الحرّس والأبواب وفي ذكر الشراب
والنداحى والورد والنسرين والتيلوفر وما شا كل ذلك من النواير البلدية والرياحين
البستانية وفي تشبيه التفاح والتحية به ودسّ الكتب وما شا كل ذلك ممّا هو به
منفردون » .

(١) كتاب العمدة ج ١ ص ١٥٠ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٢) وهو البيت السادس من معلقة طرفة .

أما المديح فبسبب اعتناء الشعراء به واضح لا يحتاج إلى شرح .
ومن الشعراء المقيمين بالكوفة والبصرة حارثة بن بدر الغداني^(١) من فرسان
بنى تميم ووجوههم حسب صاحب الأغاني على وجه التخمين أنه قد أدرك النبي في
صباه وحداثته وكان له حظٌ عظيم عند زياد بن أبي سفيان الذي لم يزل طول عمره
مُكرِّماً له « قابلاً لرأيه محتملاً لما يعلمه من تناوله الشراب^(٢) » وكذلك أكرمه
عبيد الله بن زياد وإلى الكوفة من سنة ٦٨٠ إلى سنة ٦٨٦ حتى استعمل مدة على
نيسابور . وأكثر أشعاره من الخمريات منها^(٣) :

أَذْهَبَ عَنِّي الْغَمُّ وَالْهَمُّ وَالَّذِي بِهِ تَطَرَّقُ الْأَحَادِثُ شُرْبُ الْمُرُوقِ
فَوَاللَّهِ مَا أَنْفَكْتُ بِالرَّاحِ مَهْتَزًّا وَلَوْ لَامَ فِيهَا كُلُّ حُرٍّ مَوْفَقٍ
فَمَا لَأَيْمَى فِيهَا وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا بِأَعْلَمَ مِنِّي بِالرَّحِيقِ الْمَعْتَقِ
وَلَكِنِّي قَلْبِي مُسْتَهَامٌ بِحُبِّهَا وَحُبُّ الْقِيَانِ رَأَى كُلَّ حَمَقٍ
أَحِبُّ الْتِي لَا أَمْلِكُ الدَّهْرَ بُغْضَهَا وَذَلِكَ فِعْلٌ مُعْجِبٌ كُلَّ أَخْرَقٍ
سَأَشْرِبُهَا صِرْفًا وَأَسْقِي صَحَابِي وَأَطْلُبُ غِرَاتِ الْغَزَالِ الْمُنْطَقِ
فَذَمَّهُ أَنَسُ بْنُ زَيْمٍ اللَّيْثِيُّ وَوَعِظَهُ قَائِلًا^(٤) :

أَحَارِ بْنَ بَدْرِ بِأَكْرِ الرَّاحِ إِنَّهَا تُنَسِّيكُ مَا قَدَّمْتَ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ
تُنَسِّيكُ أَسْبَابًا عِظَامًا رَكِبَتْهَا وَأَنْتَ عَلَى عَمِيَاءَ فِي سَنَنِ تَجْرِي
... فَدَعُ عَنْكَ شُرْبَ الْخَمْرِ وَارْجِعْ إِلَى الْتِي بِهَا يَرْتَضَى أَهْلُ النَّبَاهَةِ وَالذِّكْرِ
عَلَيْكَ نَبِيذُ التَّمْرِ إِنْ كُنْتَ شَارِبًا فَإِنَّ نَبِيذَ التَّمْرِ خَيْرٌ مِنَ الْخَمْرِ

(١) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٠ — ٤٤ وكتاب العقد الفريد لابن
عبد ربه ج ٣ ص ٣١١ — ٣١٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ (وفيه اسم الشاعر حارثة بن زيد) و ٣١٣ .
(٢) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢١ وراجع أيضا ص ٣٩ — ٤٠ .
(٣) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٤١ . وفي الشطر الثاني من البيت الخامس اقرأ : « وذلك
فعلٌ مُعْجِبٌ كُلَّ أَخْرَقٍ » بدلا من « وذلك فعلٌ مُعْجِبٌ كُلَّ أَخْرَقٍ » كما في الطبع .
(٤) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٣٣ .

أَلَا إِنَّ شُرْبَ الْخَمْرِ يُزْرِى بَذَى الْحَجَى وَيَذْهَبُ بِالْمَالِ التَّلَادِ وَالْوَفْرِ
فَصَبْرًا عَنْ الصَّهْبَاءِ وَأَعْلَمُ بِأَنَّنَى نَصِيحٌ وَأَنَّى قَدْ كَبُرْتُ عَلَى الزَّجْرِ
ولكن لم تنفعه المواعظ والنصائح .

ومن الشعراء الكوفيين الذين كانوا فى أواخر القرن الأول وأوائل الثانى عمار ابن عمرو الملقب بذى كناناز^(١) قال فيه صاحب الأغاني ما نصه : « كان لين الشعر ماجناً خييراً معاقراً للشراب وقد حُدَّ فيه مرَّات وكان يقول شعراً ظريفاً يضحك من أكثره شديد التهافت جَمَّ السَّخْف ... وكان هو وحماد الراوية ومطيع بن إياس يتنادمون ويجتمعون على شأنهم لا يفترقون وكلهم كان متهماً بالزندقة وعمار ممن نشأ فى دولة بنى أمية ولم أسمع له بخبر فى الدولة العباسية » . ومن الجدير بالذكر أن شعر عمار ذى كناناز أو ما وصل إلينا منه كله منسوج فى الأعاريض القصيرة دائر على المزاح والخمر والغزل ومثاله^(٢) :

شَجَا قَلْبِي غَزَالٌ ذُو دَلالٍ وَاضِحِ السَّنَةِ
أَسِيلُ الْخَدِّ مَرْبُوبٌ وَفِي مَنْطِقِهِ غُنَّةٌ
أَلَا إِنَّ الْغَوَانِي قَدْ بَرَى جَسْمِي هَوَاهُنَّ
وَقَالُوا شَفَّكَ الْحَوْرُ هَوَى قَلْتُ لَهُمْ أَنَّهُ
وَلَكِنِّي عَلَى ذَاكَ مَعْنَى بِأَذَاكَ كُنَّةٌ
أَرَاهُ اللَّهُ عَمَّاراً مِنْ الدُّنْيَا وَمِنْهُنَّ
بَعِيدَاتٍ قَرِيبَاتٍ فَلَا كَانَ وَلَا كُنَّةٌ
فَقَدْ أَذْهَلَ مَنَى الْعَقْلَ وَالْقَلْبَ شَجَاهُنَّ
يُمَنِّينَ الْأَبَاطِيلَ وَيُجَحِّدُنَ الَّذِي قُلْنَهُ

(١) توجد ترجمته فى كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٧٤ — ١٨٠

(٢) كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٧٩ .

ومن هؤلاء الشعراء حُثَيْن بن بلوع الحيرى^(١) « كان شاعراً مغنياً فخلاً من
 فحول المغنين وله صنعة فاضلة متقدمة وكان يسكن الحيرة ويكرى الجمال إلى الشام
 وغيرها وكان نصرانياً وهو القائل يصف الحيرة ومنزله بها : (من للنسر ح)

أنا حُثَيْنٌ ومنزلى النَجَفُ وما نديى إلا الفتى القَصِفُ
 أفرعُ بالسكاس ثغر باطية مُترعة تارةً وأغترفُ
 من قهوة باكر التجارُ بها بيت يهودٍ قرارها الخَرْفُ
 والعيش غُضٌّ ومنزلى خَصِبٌ لم تُعْذِنِي شَقْوَةٌ ولا عَنَفٌ^(٢)

وكان من معاصري هشام بن عبد الملك وبشر بن مروان وخالد القسرى وفي
 ترجمته في كتاب الأغاني تجدون عدة أخبار دالة على رغد العيش والرفاهية بمدينة
 الحيرة والكوفة بعد منتصف القرن الأول .

ومن الشعراء الكوفيين الذين غلب في أشعارهم ذكر الشراب والمزاج والجون
 الأقيسر الأسدي^(٣) الذي ابتداءً يقول الشعر في أيام الخلفاء الراشدين ومات في

(١) راجع كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٢٠ — ١٢٧ من طبعة بولاق والشاعر غير مذكور في
 خزانة الأدب ولا في كتاب الشعر لابن قتيبة [ولا في طبقات الشعراء لان سلام ولا في كتاب
 المؤلفات والمختلف للأمدى . أما اسم أبيه فهو في طبعة دار الكتب المصرية (ج ٢ ص ٣٤١)
 بفتح الباء وسكون اللام وفتح الواو] .

(٢) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٢٠ من طبعة بولاق .

(٣) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٨٤ — ٩٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر
 لابن قتيبة ص ٣٥٢ — ٣٥٤ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ٢ ص ٢٧٩ — ٢٨٢ . وتروى
 له ثلاثة أبيات في شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ص ٨١١ — ٨١٢ من طبعة بن اوج ٤
 ص ١٧٦ من طبعة بولاق (وراجع أيضاً كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٨٧) فاختلف في اسمه وقيل في
 كتاب الأغاني وخزانة الأدب وكتاب المقاصد النحوية للعيني (ج ٣ ص ٥٠٨ وج ٤ ص ٥١٦ من
 طبعة بولاق ١٢٩٩ بهامش الخزانة) [وكتاب التنبيه للبكري (ص ٣٨ — ٣٩ من طبعة مصر
 ١٣٤٤)] إنه المغيرة بن عبد الله بن معرض فقال ابن قتيبة إنه المغيرة بن الأسود بن وهب وقال
 العيني (ج ١ ص ٣٧٧) إنه المغيرة بن أسود بن عبد الله بن معرض [وقال الأمدى في المؤلفات والمختلف
 (ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٥٤) إنه المغيرة بن عبد الله من بني معرض بن عمر بن أسد وقال
 المرزبانى في معجم الشعراء (ص ٣٦٩ من طبعة مصر ١٣٥٤) إنه المغيرة بن عبد الله بن أسود بن

حدود الثمانين تقريباً^(١) وهو الذى يقول لنفسه^(٢) :

فإنَّ أبا معرضٍ إذْ حَسَا من الراح كُأْسًا على المِثْبَرِ
خطيبٌ لبيبٌ أبو مُعْرِضٍ فإنَّ ليمَ فى الخمرِ لم يَصْبِرِ
أحلَّ الحرامَ أبو مُعْرِضٍ فصار خليعًا على المَكْرِ
يُجِلُّ اللثامَ ويلجى السِّكرامَ وإنَّ أقصروا عنه لم يُقْصِرِ

فقيل إنه كان لا يسأل أحداً أكثر من خمسة دراهم يجعل درهمين فى كراء بغل إلى الحيرة ودرهمين للشراب ودرهما للطعام^(٣) ، وحكاياته مع أهل الشرطة معروفة^(٤) . وإليه ينسب ابن قتيبة هذه الأبيات^(٥) :

وصهباء جُرْجَانِيَّةٍ لم يَطْفُفَ بها حنيفٌ ولم تَنْغَرَّ بها ساعةٌ قِدرُ
ولم يَشْهَدْ القَسُّ المهنِمْ نارَها طروقًا ولا صَلَّى على طَبْخِها حَبْرُ
أتانى بها يَحْيَى وقد نِمْتُ نَوْمَةً وقد غابت الشَّعْرَى وقد خَفَقَ النَّسْرُ
فَقُلْتُ أَصْطَبِحُها أو لغيرى فَأَهْدِها فما أنا بعدَ الشَّيْبِ ويحكْ والخمرُ
إذا المرءُ وَفَى الأربعين ولم يكنْ له دون ما يأتى حَياءٌ ولا سِتْرُ
فَدَعَهُ ولا تَنْفَسُ عليه الذى أُنَى وإنَّ جَرَّ أَرْسَانَ الحَيَاةِ له الدَّهْرُ

وهب من بنى ناعيج بن عمرو بن أسد وقيل من بنى معرض بن عمرو بن أسد أما اسم معرض فضبط في طبعة مصر ١٣٤٤ من كتاب التنبيه للبكرى بضم الميم وفتح العين وكسر الراء المشددة فأظن أن الصحيح معرض بضم الميم وسكون العين وكسر الراء لأن أبا معرض كنية الشاعر وهى مذكورة فى ثلاثة أبيات له (وشياً فى ذكرها) فالقراءة « معرض » بتشديد الراء غير ممكنة فيها لأجل الوزن فذكر صاحب تاج العروس (ج ٥ ص ٥٤) علمى معرض (بسكون العين) ومعرض (بتشديد الراء) .

(١) خزانة الأدب ج ٢ ص ٢٨٢ — مدح بشر بن مروان وهو والى السكوفة من سنة

٧١ إلى ٧٤ (انظر كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٩٤ من طبعة بولاق) .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٨٥ .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٨٩ وانظر ص ٩١ .

(٤) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٩٠ و ٩١ و ٩٢ .

(٥) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٥٤ من طبعة ليدن وفيه لا يروى البيت الثانى فأخذته من كتاب

الأغاني ج ١٦ ص ٤٥ ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٥١ من طبعة ليسك .

أما صاحب كتاب الأغاني^(١) فينسبها إلى شاعر كوفي آخر وهو أيمن بن خريم الأسدي^(٢) من الشعراء المتغزلين والمداحين لعبد العزيز وبشر ابن مروان وأيمن هذا مع تغزله ومدحه لأمرء من بني أمية كان يتشيع في أيام عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٨٦٠) نسج في مديح بني هاشم قصيدة رائعة منها^(٣) :

نهاركم مُكَبَّدَةٌ وَصَوْمٌ وَلَيْلَتُكُمْ صَلَاةٌ وَافْتِرَاءُ
وَلَيْتُمْ بِالْقُرَانِ وَالتَّزَكَّى فَأَسْرَعَ فِيكُمْ ذَاكَ الْبَلَاءُ
بِكِي نَجْدٌ غَدَاةٌ غَدٍ عَلَيْكُمْ وَمَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَالْجَوَاءُ
وَحَقٌّ لِكُلِّ أَرْضٍ فَارَقَوْهَا عَلَيْكُمْ لَا أَبَالِكُمْ الْبُكَاءُ
أَجْعَلُكُمْ وَأَقْوَامًا سَوَاءً وَيَبِينُكُمْ وَيَبِينُهُمُ الْهَوَاءُ
وَهُمْ أَرْضٌ لَا رُجْلَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا رُؤُسِهِمْ وَأَعْيُنُهُمْ سَمَاءُ

ومثل هذا الكلام التقى غريب جداً عند شاعر مثل هؤلاء الكوفيين .

ومنههم مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري^(٤) كانت أباه من سادة غطفان لكنه حضريّ مقيم بالكوفة فتزوج الحجاج بن يوسف أخته هنداً . ولما لك أشعار في الخمر تشبه خمريات شعراء بغداد في عهد بني العباس منها^(٥) :

حَبَّذَا لَيْلِي بَتَلَّ بُوتَا إِذْ نُسْقَى شَرَابَنَا وَنُغْنَى
مِنْ شَرَابِ كَأَنَّهُ دَمٌ جَوْفٍ يَتْرُكُ الشَّيْخَ وَالْفَتَى مُرْجَحِنَا

(١) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤٥ .

(٢) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٧ - ١٣ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٤٥ - ٣٤٧ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ١٠ - والجواء جيل بينه وبين الربذة ثمانية فرائس (معجم البكري ص ٣٥٥) .

(٤) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤١ - ٤٧ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٩٢ - ٤٩٣ من طبعة ليدن ويروى له بيتان في خزانة الأدب ج ٢ ص ٤٨٤ من طبعة بولاق .

(٥) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٩٢ من طبعة ليدن ومعجم البلدان لياقوت ص ٨٦٥ من طبعة ليسك وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤٠ ويختلف في الرواية .

حيث دارت بنا الزُّجاجة دُرُنَا يحسب الجاهلون أَنَا جُنُنَا
ومررنا بنِسْوةٍ عَطَرَاتٍ وَسَمَاعٍ وَقَرْقَفٍ فَنَزَلْنَا
وله أشعار ظريفة أيضاً من نوع الغزل وروى البُحْتَرِيُّ^(١) له أبيات في ذهاب
الشباب وابتداء الشيب .

ومنهم إسماعيل بن عمار بن عُيَيْنَةَ^(٢) الذي أدرك أوائل الدولة العباسية وقال
الشعري الرثاء والهجاء والمديح والغزل والفكاهات والخمر وله وصف طويل لقيان ابن
رامين بالكوفة .

ومنهم الحَكَمُ بن عَبْدِ اللَّهِ الأسديّ الأعرج^(٣) منزله ومنشؤه بالكوفة إلا أنه
انتقل إلى الشام لما بويع لعبد الله بن الزبير بالعراق سنة ٦٨٤ هـ فكان من الداخلين
إلى عبد الملك بن مروان (٦٨٥ هـ — ٧٠٥ هـ) السامريين عنده ثم رجع إلى الكوفة
وصار منقطعاً إلى بشر بن مروان فلما مات بشر جزع عليه ورثاه . وكان شاعراً
مُجِيداً خميث اللسان مُدْمِناً للخمر كالشعراء المتقدمين ذكرهم وشعره كله في الهجاء
والمجون والمديح . وكان له الشعر مَكْسَباً كما كان لسائر شعراء طبقاته فقال^(٤) .

أَطْلُبُ مَا يَطْلُبُ الْكَرِيمُ مِنَ الرَّزْقِ لِنَفْسِي وَأَجْمِلُ الطَّلَبَا
وَأَحْلُبُ الثَّرَّةَ الصَّفَى وَلَا أَجْهَدُ أَخْلَافَ غَيْرِهَا حَلَبَا
إِنِّي رَأَيْتُ الْفَتَى الْكَرِيمَ إِذَا رَغَبَتْهُ فِي صَنِيعَةٍ رَغَبَا

- (١) حساسة البحتري ص ٢٨٧ — ٢٨٨ من طبعة ليدن أو ص ١٩٧ — ١٩٨ عدد ١٠٣٨
و ١٠٣٩ من طبعة بيروت (وفيها « المرادى » بدلا من « الفزاري ») .
(٢) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١٣٥ — ١٤٢ وليس بمذكور في كتاب
الشعر لابن قتيبة ولا في خزائن الأدب [ولا في طبقات الشعراء لابن سلام] .
(٣) راجع كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٤٩ — ١٥٩ من طبعة بولاق وخزانة الأدب ج ٤ ص
٩٥ [والمؤلف للأمدى ص ١٦١] وأبيات له مروية في كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ١١٧
و ١١٨ — ١٢٠ و ١٧١ و ج ٢ ص ١١١ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٥ .
(٤) حساسة أبي تمام ص ٥٣٥ من طبعة ابن أوج ٣ ص ١١٠ من طبعة بولاق .

والعبدُ لا يطلبُ العلاءَ ولا يُعطيكُ شيئاً إلا إذا رهبها
مثلُ الحِمَارِ الموقَّعِ السَّوءِ لا يُحسِنُ مَشياً إلا إذا ضُرباً

ويروى أن «الشعراء» اجتمعوا إلى الحجاج وفيهم ابن عبدل فقالوا للحجاج إنما شعر ابن عبدل كله هجاء وشعر سخي فقل له قد سمعت قولهم فاستمع مني قال هات (١) فأنشده قصيدة مروية في كتاب أُمالي القالي (٢) وصف نفسه فيها بما لم يكن له حقيقة من الشوق إلى المكارم والمعالى منها :

وإني لَأَسْتَعْنِي فما أَبْطَرُ الغِنَى وأَعْرِضْ مِيسُورِي لِمَنْ يَبْتَغِي عِرْضِي
وَأَعْسِرُ أَخْيَانًا فَتَشْتَدُّ عُسْرَتِي فَأُدرِكُ مِيسُورَ الغِنَى ومَعِيَ عِرْضِي
وما نالني حتى تَجَلَّتْ فَأُسْفَرْتُ أَخُوْتَةً فيها بَقَرَضٌ ولا فَرَضِ
ولكنَّهُ سَيَبُ الإلهَ وَحِرْفَتِي وَشَدَى حَيَازِيمَ المَطِيَّةِ بِالْغَرَضِ
لَأُكْرِمَ نَفْسِي أَنْ أَرَى مَتَحَشَّعًا لَدَى مَنَّةٍ يُعْطَى القَلِيلَ على النَحْضِ
وآخرها :

ولستُ بذى وجهين فيمن عرفته ولا البخلُ فاعلم من سَمَائِي ولا أَرْضِي
إنَّ كلَّ مَنْ سَبَقَ مِنْ هَؤُلَاءِ الشعراءِ الكُوفِيِّينَ يَلِيْقُ بِهِ أَنْ يوصَفَ بهذا
القول : « شاعر خليع ماجن منهمك في شرب الخمر » فنذكر الآن من كان عن الخمر
عفيفاً وهو المتوكل بن عبد الله اللّيثي (٣) من أهل الكوفة الذي كان في عصر

(١) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٥٨ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأُمالي للقالي (المتوفى سنة ٣٥٦) ج ٢ ص ٢٦٥ — ٢٦٦ من طبعة بولاق

١٣٢٤ [او ج ٢ ص ٢٦٠ — ٢٦١ من طبعة مصر ١٣٤٤] .

(٣) وهو مذکور في كتاب الأغاني ج ١١ ص ٣٩ — ٤٤ وخزانة الأدب ج ٣ ص ٦١٧ — ٦١٨

من طبعة بولاق [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٢ — ١٤٣ ومعجم المرزبانى ص ١٠٩ — ١١٠]

وحماسة أبى تمام ص ٥٢٧ و ٧٧٢ و ٧٧٥ من طبعة بن أوج ٣ ص ١٠٣ و ج ٤ ص ١٤٠

و ١٤٣ من طبعة بولاق وحماسة البحترى ج ١٧٤ و ٣٤٥ من طبعة ليدن او ص ١١٧ و ٢٣٨

عدد ٥٧٣ و ١٣٠٠ من طبعة بيروت .

معاوية ($\frac{٦١}{٦٦١} - \frac{٦٠}{٦٨٠}$) وابنه يزيد ($\frac{٦٤}{٦٨٣} - \frac{٦٠}{٦٨٠}$) فصاغ في مدحهما
عدة قصائد . وربما تعاطى الهجاء مُعْرِضًا عَمَّنْ هجَاه ولم يفعل ذلك إلا كارها كما
يظهر من قوله ^(١) :

نَدِمْتُ عَلَى شَتَمِي الْعَشِيرَةَ بَعْدَ مَا تَفَنَّى بِهَا عُودٌ وَحَنٌّ يَمَانِي
قَلَبْتُ لَهُمْ ظَهَرَ الْمِجَنِّ وَلَيْتَنِي رَجَعْتُ بِفَضْلِ مِنْ يَدِي وَلِسَانِي
عَلَى أَنْفِي لَمْ أَرْمِ فِي الشَّعْرِ مُسْلِمًا وَلَمْ أَهْجُ إِلَّا مِنْ رَوِي وَهْجَانِي
ومثل هذا الكلام لعمرى نادر في ذلك العصر . ومما يدل أيضًا على رقة عواطفه
الشعر اللطيف الذي قاله في امرأته أم بكر وصف فيه قدر هواه لها ^(٢) . وله أبيات
في الحكيم منها ^(٣) :

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمْتُ يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ نَتَكَلَّمُ
تَبَنَّى كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبَنَّى وَنَفَعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا
ومنها أيضًا ^(٤) :

إِنِّي إِذَا مَا الْخَلِيلُ أَحْدَثَ لِي صُرْمًا وَمَلَّ الصَّمَاءُ أَوْ قَطَعَا
لَا أُحْتَسِي مَاءَهُ عَلَى رَنَقٍ وَلَا يَرَانِي لَبِينُهُ جَزَعَا
أَهْجُرُهُ ثُمَّ يَنْقَضِي غَبْرُ الْهَجْرَانِ عَنَّا وَلَمْ أَقُلْ قَدَعَا
إِخْذَرْ وَصَالَ اللَّيْمُ إِنَّ لَهُ عَضْهًا إِذَا حَبَلٌ وَصَلِهِ انْقَطَعَا

ثم من شعراء الكوفة المشهورين الرماد بن أبرد (وقيل يزيد) من بني مرّة

(١) كتاب الأغاني ج ١١ ص ٤٢ وراجع حماسة البحترى ص ٣٤٥ من طبعة ليدن أو ص ٢٣٨
عدد ١٣٠٠ من طبعة بيروت .

وقلب له ظهر المجن مثل يضرب لمن كان لصاحبه على مودة ورعاية ثم حال عن العهد (راجع مجمع
الأمثال للميداني ج ٢ ص ٣٢ من طبعة مصر ١٣١٠) .

(٢) كتاب الأغاني ج ١١ ص ٤٠ و ٤١ من طبعة بولاق .

(٣) حماسة أبي تمام ص ٧٧٢ من طبعة بن اوج ٤ ص ١٤٠ من طبعة بولاق .

(٤) حماسة أبي تمام ص ٥٢٧ من طبعة بن اوج ٣ ص ١٠٣ من طبعة بولاق .

ابن عَوْفٍ المعروف بابن مِيَادَةَ^(١) كان في أيام هشام بن عبد الملك ($\frac{١٠٥٠}{٧٢٤} - \frac{١٢٥}{٧٤٣}$) وأدرك خلافة المنصور العباسي ($\frac{١٣٦}{٧٥٤} - \frac{١٥٨}{٧٧٥}$) . وأشعاره في الهجاء والمدح والنسيب فقيل إنه كان متعريضاً للشعر طالبا لمهاجاة الناس ومُسَابِبة الشعراء وكان مع ذلك فصيحاً يحتاج أهل اللغة بشعره . ومدح بني أمية لاسيما الوليد بن يزيد ($\frac{١٢٦}{٧٤٤} - \frac{١٢٥}{٧٤٣}$) . ومدح من العباسيين المنصور وجعفر بن سليمان وإلى المدينة . ومن شعره في الوليد بن يزيد^(٢) :

هممت بقولٍ صادقٍ أن أقوله وإني على رَغَمِ العدو لقائلهُ
رأيتُ الوليد بن يزيدٍ مباركا شديداً بأخناءِ الخلافة كاهلهُ
أضاء سراجُ الملك فوق جبينه غداة تُناجى بالنجاح قوابلهُ
ومن جدد شعره في الاشتياق إلى بلاده وطلب الجوائز من الوليد بن يزيد^(٣) :

ألا ليت شعري هل أبينَ ليلةً بحرّةٍ ليلي حيث ربتني أهلي
بلادَ بها نيطت على تماثلي وقطعت عني حين أدركني عقلي
وهل أسمعن الدهر أصوات هجمة تطالع من هجلٍ خصيب إلى هجلٍ
فإن كنت عن تلك المواطن حابسي فأفش على الرزق وأجمع إذا شملي
ومن ساكني الكوفة أيضاً أبو كلدة بن عبّيد الشكري^(٤) كان أولا من أخصّ الناس بالحجّاج بن يوسف ثمّ ثار عليه مع ابن الأشعث وصار شديداً

(١) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ٢ ص ٨٨ — ١٢٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٨٤ — ٤٨٥ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ١ ص ٧٧ — ٧٨ و ٣٢٧ — ٣٢٨ من طبعة بولاق .
(٢) كتاب خزانة الأدب ج ١ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ من طبعة بولاق — أما البيت الثاني فهو الشاهد في أن العلم إذا وقع فيه اشتراك اتفاق جاز تعريفه باللام — أحناء جمع حنو وهو الجانب والجهة وقيل هو هنا بمعنى السرج والقتب كني به عن أمور الخلافة .
(٣) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٨٥ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ٢ ص ١٠٨ من طبعة بولاق ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٥١ من طبعة ليبسك .
(٤) راجع ترجمته في كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١١٠ — ١٢٠ ولم يذكر في كتاب الشعر لابن قتيبة ولا في خزانة الأدب [ولا في طبقات الشعراء لابن سلام] .

التحريض عليه بالشعر فقتله الحجاج . وأقام أبو كلدة مدة بمدن وقرى شتى من بلاد العجم مثل سجستان وخراسان وكان كثير الغزل والهجاء معاقراً للخمر . فقال في آخر إحدى خمرياته^(١) :

سأركض في التقوى وفي العلم بعد ما ركضتُ إلى أمر الغوى المشهر
وبالله حولى واحتيالى وقوتى ومن عنده عرفتُ الكثير ومُنكرى
وفي نفس بلاد العجم التي أقام أبو كلدة بها أغنى خراسان وسجستان عاش شاعر
عربيّ مطبوع آخر لا أعرف أهو كوفي الأصل أيضاً أم لا وهو أبو الهندي^(٢)
الذي مات بسجستان في أوائل الدولة العباسية . قال فيه صاحب كتاب الأغاني^(٣)
« كان جَزَل الشعر حَسَن الألفاظ لطيف المعاني وإنما أخله وأمات ذكره بعده من
بلاد العرب ومقامه بسجستان وبخراسان وشغفه بالشراب ومعاقرة إياه وفسقه
وما كان يُتهمُّ به من فساد الدين واستفرغ شعره بصفة الخمر » . ومن قوله^(٤) :

إذا ما ألحَّ البردُ فاجعلْ دِثارَهُ إذا التَّحَفَ الأقوامُ دُكْنَ المطارفِ
ثلاثةَ أرطالٍ نبيدًا مُعَسَّلًا تَكُنْ آمِنًا منه له غَيْرَ خائفِ
فإنَّ التحافَ المرءُ في جَوْفِ بطنهِ أشدُّ وأدْفًا من جِيَادِ الملاحِفِ
وهو أيضاً القائل^(٥) :

اجْعَلُوا إِن مُتُّ يَوْمًا كَفَنِي وَرَقَ الْكَرَمِ وَقَبْرِي مَعَصَرَهُ
إِنِّي أَرْجُو مِنْ اللَّهِ غَدًا بَعْدَ شُرْبِ الرَّاحِ حُسْنَ الْمَغْفِرَةِ

(١) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١١٩ .

(٢) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٧٧ — ٢٨٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٢٩ — ٤٣٠ من طبعة ليدن واسمه غالب بن عبد القدوس في كتاب الأغاني وعبد المؤمن بن عبد القدوس في كتاب الشعر .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٧٧ .

(٤) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٣٠ من طبعة ليدن .

(٥) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٧٩ وحلبة الكميت للنواجي ص ٩٧ من طبعة مصر ١٢٩٩

(في الباب التاسع) وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣١٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

فلنتكلم الآن في شعر أهل الحضر بالشام في أيام بني أمية .

إن قدر نبوغ الشعر العربي في الأصقاع الإسلامية فيما مضى من الزمان مختلف باختلاف أمرين وهما ميل الخلفاء والسلاطين والأمراء وأكابر الناس إلى استماع الأشعار وأحوال البلاد من حيث العمران والرفاهية والأخلاق والتقلبات السياسية . أما ميل الخلفاء والأمراء الأمويين إلى الشعر فلا يُنكر فشهد عليه جملة وافرة من الحكايات والأخبار والأشعار نعتُ عليها في كتب الأدب والتاريخ . تأملوا مثلاً حال معاوية مؤسس الدولة الأموية وجدتم أن والده أي أبا سفيان بن حرب كان له اليد الطولى في الشعر فضلاً عن التجارة والسياسة فترَوَى مقتطعات من أشعاره في سيرة الرسول لابن هشام وكتاب الأغاني وغيرهما . أما هند بنت عتبة أم معاوية فهي أيضاً من شواعر العرب فمن أبياتها المشهورة معاظمتها الخنساء بمصائبها^(١) . وكان معاوية كثير الميل إلى قصائد فحول الشعراء الجاهلية محباً لسماع إنشادها عارفاً بفضائلها ومحاسنها حافياً بمن أتاه من أهل الشعر كما يتضح أيضاً مما جاء في كتاب العقد الفريد^(٢) من ذكر الوافدات عليه واكثرهن شواعر كان معاوية يعرف جملة من أبياتهن . ولم يقتصر على سماع الإنشاد بل كان هو ذاته ينسج الشعر أحياناً ويُدْرَج الأبيات في مكاتباته الرسمية ويتمثلها في محاورته حسبما يلوح مما يروى منها في كتب الأدب والتاريخ^(٣) . أمّا يزيد بن معاوية فكان شاعراً^(٤) مولعاً بالمنادمة على

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ٣٥ من طبعة بولاق وأنيس الجلساء في ديوان الخنساء ص ٥٨ — ٥٩ من طبعة بيروت ١٨٩٦ وقيل في ص ٥٨ : «وجملت تعظم العرب في مصيبتها وتقول: أنا أعظم العرب مصيبة . وتبكيهم [يعني أباه وأخوتها] في شعرها حتى عرفت العرب ذلك منها » .

(٢) كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ١١٩ — ١٢٥ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٣) راجع LAMMENS, *Etudes sur... Mo'awia Ier*, p. 255 ومحاوره معاوية في كتاب العقد ج ٢ ص ١٠٧ و ١١٣ من طبعة مصر ١٣٠٥ — يروي له أبيات في الباب السادس والثمانين من مروج الذهب للمسعودي ج ٥ ص ٣٠ — ٣١ من طبعة باريس وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ٣٣ .

(٤) تروى له أبيات في كتاب الأغاني ج ١ ص ١٠٤ وج ٢ ص ١٣٦ وج ٧ ص ١٧٨ وج ١٣ ص ٦٤ و ١٥٤ وج ١٤ ص ٦٣ و ١١٩ وج ١٦ ص ٣٣ و ٨٨ وفي الباب الثاني والتسعين من

الشراب ومصاحبة الشعراء فصلته بالأخطل شهيرة . ومن المشهور أيضاً عظم قدر الشعر عند أكثر سائر الخلفاء الأمويين وجيل خُطبة في قلوبهم لا سيما عبد الملك ابن مروان ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد . فبالجملة كان الشعر لهم غريزة كما كان من سليقة أغلب العرب الصميم .

ولتحتفيهم هذا على الشعر دواعٍ أخرى أيضاً عدا ما وصفناه من ميلهم الطبيعي إليه . قد تقدّم غير مرّة الإشارة إلى عظيم مرتبة الشعر في سياسة العرب في الجاهلية والقرن الأوّل للهجرة فشبهنا منزلة الأبيات والقصائد السائرة على ألسنتهم بجرائد عصرنا الشائعة في الأقطار المتكلمة عن لسان رجال الأحزاب . فجميع ما بيّناه عند الكلام في الصنف السادس من الشعر في أيام بني أمية برهان على ذلك واضح قاطع فلا غرو إذا أن الأمراء قصدوا اجتذاب الشعراء إليهم بالمكافآت الجميلة والصلوات الجزيلة لينتفعوا بهم ويتخذوهم دفاعاً عن أغراضهم بالمديح ومضادةً للأخصام بالهجاء . فترون أحياناً والياً من الولاة ذاهباً إلى مركزه الجديد ومعه بعض الشعراء كأنهم من مستعمليه ومعاونيه في أمور ولايته . وفي الحقيقة ربّما استخدمت أرباب الدولة الشعراء وأبياتهم لتغيير الرأي العام حسب أغراضهم الخاصة وحمل الناس على ما كانوا في أوّل الأمر يكرهونه فمثال ذلك مسألة ببيعة يزيد في أيام والده معاوية . لا يخفى عليكم أن العرب الصميم كانوا أبعد الناس عن الرضاء بتوارث الخلافة كبراً عن كبر لمضادته سننهم القديمة المألوفة في اختيار سادة أقوامهم فلما أراد معاوية إيثار ابنه بالعهد دون من سواه أظهر قوم في المجلس شدة كراهتهم لذلك وبعد

مروج الذهب للمسعودي (ج ٥ ص ١٥٧ و ١٦١ — ١٦٢ من طبعة باريس) وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٢٢ من طبعة ١٣٢٣ — ١٣٢٥ (وينسب هذان البيتان إلى « بعض شعراء الشام » في الباب الثاني والتسعين من مروج الذهب للمسعودي (ج ٥ ص ١٥٨) ودويان الأخطل ص ٣٥٩ و ٣٦٠ و ٣٨٩ « وله ديوان مشهور وقيل إن معظم الشعر المنسوب إليه منقول » (LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'awia Ier*, p. 419)

[وراجع أيضاً : LAMMENS, *Le Califat de Yazid Ier*, Beyrouth 1921, p. 453 ; P. SCHWARZ, *Escorial-Studien zur arabischen Literatur-und Sprachkunde*, Stuttgart 1922, I, p. 28-72 ; G. LEVI DELLA VIDA, *Alcuni versi del califfo Yazid I*, (Islamic, II, 1926, p. 373-379)] .

ما غلب في الوفد الرأى بقبول تولية يزيد العهد احتاج معاوية إلى إغراء سائر الناس بذلك لا سيما في العراق والحجاز فأصبحت شعراء الدولة مساعدين له على هذا الأمر فجاء في كتاب الأغاني ما نصّه^(١) : « كان يزيد بن معاوية يؤثّر مسكيناً الدارمي ويصله ويقوم بحوائجه عند أبيه فلما أراد معاوية البيعة ليزيد تهيب ذلك وخاف أن لا يمالئه عليه الناس لحسن البقية فيهم وكثرة من يُرشح للخلافة وبلغه في ذلك ذرؤ كلام^(٢) بلغه كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحَكَم وعبد الله بن عامر فأمر يزيد مسكيناً أن يقول أبياتاً ويُشدها معاوية في مجلسه إذا كان حافلاً وحضره وجوه بني أمية فلما اتفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالس وابنه يزيد عن يمينه وبنو أمية حوالته وأشرف الناس في مجلسه فمثل بين يديه وأنشأ يقول « شعراً منه هذه الأبيات^(٣) :

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد
بنى خلفاء الله مهلاً فإتما يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد

ومن الشعراء الذين قالوا الشعر في هذه البيعة الأخطل^(٤) العظيم الخطّ عند يزيد فكثرة سماع مثل تلك الأبيات كانت تؤثر في نفوس الناس تأثيراً خفياً وتعودهم شيئاً فشيئاً ما كانوا يُنسكرونه . — ومن هذا الباب أيضاً ما رواه أبو زكرياء يحيى التبريزي في شرح الحماسة^(٥) أن عبد الله بن همام السلولي كان « مكيناً عند آل مروان وهو الذي بعث يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية في قوله :

(١) كتاب الأغاني ج ١٨ ص ٧١ .

(٢) قال الميداني في المثل « ذرى بما عندك يا ليغاء » : « الذرو الطرف والقليل من الكلام ... يقال سمعت ذرواً من الخبر إذا لم تستقصه » .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٨ ص ٧١ . فراجع كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٤٧ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ١ ص ٤٦٦ .

(٤) ديوان الأخطل ص ٩٥ سطر ٦ .

(٥) حماسة أبي تمام ص ٥٠٧ من طبعة بن او ج ٣ ص ٨٤ من طبعة بولاق .

تعزّوا يا بني حرب بصبرٍ فمنّ هذا الذي يرجو الخلود
خليفة ربكم حاموا عليها ولا ترموا بها الغرض البعيدا
تلقفها يزيد عن أبيه فخذها يا معاوى عن يزيدا

وجاء في كتاب البيان والتبيين للجاحظ^(١) أن عمر بن عيصم العرنى^(٢) الشاعر الخطيب « هو الذى أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز والبيعة للوليد ابن عبد الملك فى خطبته المشهورة وقصيدته المذكورة ». فإليه لمح صاحب كتاب الأغاني^(٣) فى رواية أوردها بحروفها : « قال الحجاج يوماً لأهل ثقته من جلسائه : ما من أحد من بنى أمية أشدّ نصباً لى من عبد العزيز بن مروان وليس يومٌ من الأيام إلّا وأنا أتخوّف أن تأتيني منه قارعة فهل من رجل تدلّونى عليه له لسان وشعر وجلد ؟ قالوا نعم عمران بن عيصم العرنى . فدعاه فأخلاه ثم قال له اخرج بكتابتى هذا إلى أمير المؤمنين فاقدح فى قلبه من ابنه شيئاً فى الولاية . فقال له عمران : دسّ أيها الأمير إلى دسّا . فقال له الحجاج : إن العوان لا تعلم الخمرة . فخرج بكتاب الحجاج فلما دخل على عبد الملك دفع إليه الكتاب وسأله عن الحجاج وأمر العراق فاندفع يقول :

أمير المؤمنين إليك أهدى على الشحط التحية والسلاما
أمير من بنيك يكن جوابى لهم أكرومةً ولنا نظاما
فلو أن الوليد أطاع فيه جعلت له الإمامة والذماما

(١) كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٣ من طبعة مصر ١٣١٣ .

(٢) ليست نسبة الشاعر بالعرنى بل هى العرنى فى كتاب الأغاني (ج ١٦ ص ٦٠) . ولم يذكر الشاعر فى خزائن الأدب ولا فى كتاب الشعر لابن قتيبة ولا فى حماسى أبى تمام والبحترى [ولا فى طبقات ابن سلام ولا فى المؤلف للأمدى . فضبط العرنى بضم العين وفتح الراء فى كتاب البيان للجاحظ ج ١ ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٥١] .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٦٠ — عنوان النصف فى سننها من كل شيء . قال الميدانى فى مجمع الأمثال (ج ١ ص ١٣ من طبعة مصر ١٣١٠) : « والحمرة من الاختمار كاجلسة من الجلوس اسم للهيئة والحال أى أنها لا تحتاج إلى تعليم الاختمار يضرب للرجل المجرب » .

فكفي بذلك برهاناً على أحد أسباب ميل أهل العقد والحلّ إلى الشعراء .
وسبب آخر ما في طبيعة أكثر الناس من حبّ الفخر والتقريظ والمدح فمن سليقتهم
أن يَصْغَوْا إلى سماع كلام يملقهم لا سيما إذا كان ذلك الكلام مَجَبَّراً شديداً الوقوع
في القلوب لرونقه وانسجامه . وإن راجت مدائح الشعراء عاد الرواج على المدوحين
بمنفعة لا تُنْكَرُ فلم تُفْتِ الجاحظ^(١) أهمية ذلك حيث قال : « ولولا أنّ دولة بني
العباس أعجمية خرسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية وفي أجناد شامية والعرب
أوعى لما تسمع واحفظ لما تأتي ولها الأشعار التي تُقَيّد عليها مآثرها وتخلّد لها محاسنها
وجرت من ذلك في إسلامها على مثل عاداتها في جاهليتها فبنت بذلك لبني مروان
شرفاً كثيراً ومجداً كبيراً وتديراً لا يُحْصَى ولو أن أهل خراسان حفظوا على
أنفسهم وقائعهم في أهل الشام وتديير ملوكهم وسياسة كبرائهم وما جرى في ذلك
من فوائد الكلام وشريف المعاني كان فيما قال المنصور وما فعل في أيامه وأسس
لمن بعده ما يفي بجماعة ملوك بني مروان » . فإن تأملنا ذلك ما استغربنا ما يروى
في كتاب الأغاني^(٢) : « أتى نُصَيْبُ عبد الله ابن جعفر فحمله وأعطاه وكساه فقال
له قائل يا أبا جعفر أعطيت هذا العبد الأسود هذه العطايا فقال والله لئن كان أسود
إنّ ثنائه لأبيض وإنّ شعره لعربيّ ولقد استحقّ بما قال أكثر مما نال وما ذاك إنّما
هي رواحل تُنْضَى وثياب تُبْنَى ودراهم تُفْنَى وثناء يبقى ومدائح تُرَوَى » .

إلا أنّ المديح كان سبب هيجان طمع الشعراء في المال وهمتهم الساقطة فقلّ عدد
الذين لم يجعلوا الشعر مَتَجَرّاً وأنفوا من السؤال بالمدائح مثل جميل بن عبد الله بن معمر
الذي يُحْكَى أنّه لم يمدح أحداً قط سوى ذويه وأقاربه^(٣) . أمّا أغلبهم فلم يستحوا

(١) كتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٥٤ من طبعة مصر ١٣١٣ [أوج ٣ ص ١١٧ من طبعة ١٣٥١] .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٣٧ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٥١ من طبعة ١٣٢٥ .

من إظهار طمعهم أيَّ إظهار وجعل أنفسهم بمنزلة الفقراء السائلين كما قال نصيب^(١) :

لعبد العزيز على قومه وغيرهم مِنْ غامرة
فبَابُكَ أَلَيْنُ أَبْوَابِهِمْ ودارُكَ مأهولةٌ عامرة
وكلُّبُكَ آنسُ بالمُعْتَفِينَ من الأمِّ بابتها الزائرة
وكفُّكَ حين تَرَى السَّائِلِينَ أنْدَى من الليلة الماطرة
فمَنْكَ العطاء ومنا الشَّاء بكلِّ محبرةٍ سائرة

فألَّف حاجب بن ذُبْيَان المازني قصيدة يمدح بها يزيد بن المهلب بنجراسان فابتدأ قائلاً^(٢) :

إليك امتطيتُ العيسَ تسعين ليلةً أُرْجَى نَدَى كَفِّكَ يا ابن المهلبِ
وأنتَ امرؤٌ جادت سماءُ يمينه على كلِّ حَيٍّ بين شَرْقٍ ومغربِ

ومن هذا الباب أيضاً ما قاله إسماعيل بن يسار في قصيدة أنشدها بين يدي عبد الملك بن مروان^(٣) :

إليك إمامَ الناس من بطن يثربَ ونِعَمَ أخو ذِي الحاجة المتعمِّدِ
رحلنا لأنَّ الجودَ منك خليقةٌ وأنَّكَ لم يُدْمِمْ جَنَابَكَ مجتدِ

قد مرَّ عند بيان سائر أصناف الشعر أو عند الكلام في الكوفيين ذكرُ شعراء متعدِّدين امتدحوا بني أمية في بعض قصائدهم الشهيرة ولهم منزلة عالية في الصناعة مثل كعب بن جُعيل والمتوكِّل الليثي في أيام معاوية والأخطل في أيام يزيد وهلمَّ جرَّاً وسند كر غيرهم أيضاً فيما يتلو . غير أننا نجد مع هؤلاء النوابع عدداً غير يسير ممن

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٤٤ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ١ ص ١٣٣ وشرح التبريزي على حماسه أبي تمام ص ٥٦٧ من طبعة بن او ج ٣ ص ١٤١ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٠ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٥ من طبعة بولاق .

لم يُعلَّ أبداً عن رتبة الشَّويعر أو الشَّعُور واجتهد على ذلك في نسج القصائد على أسلوب فحول الجاهلية في المديح وملاها ألفاظاً طنانة رنانة وتشابيه غريبة وبالغ في إطرائه أيَّ مبالغة مثل قول طريح بن إسماعيل الثَّقفيّ من أهل الطائف في الوليد ابن يزيد بن عبد الملك^(١) :

أنت ابنُ مُسَلِّطِ حِجْرِ البِطَاحِ ولم تُعْطَفْ عليك الحِثُّ والوَلَجُ
لو قُلْتَ للسَّيْلِ دَعْ طَرِيقَكَ والـمَّوَجُ عليه كالهَضْبِ يَعْتَلِجُ
لارتدَّ أو سَاخَ أو لكان له في سائر الأرض عنك مُنْعَرَجُ

ومثل هذه الأبيات التي لا يستحسنها من له الذوق السليم ومثل هذه التشابيه المضحكة لم تندر عند أصغر المداح فيروى^(٢) أن عبد الملك بن مروان قال يوماً : « يا معشر الشعراء تشبهوننا مرّةً بالأسد الأبحر ومرّةً بالجليل الأوغر ومرّةً بالبحر الأجاج ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم » (الأبيات المروية ص ٢٥٢) .

فخلاصة القول أن أسباب نبوغ الشعر ونضارته بالشام في أيام بني أمية خمسة :

(١) ما هو مغرور في قلوب العرب الصميم من الولوع بالشعر منذ الزمان القديم .

(٢) ميل الخلفاء والأمراء الأمويين إلى الشعر وتعطفهم على قائله بل كون كثير منهم شعراء مطبوعين .

(٣) محلُّ الأشعار وتأثيرها فيما يتصل بالأمور السياسيّة .

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٢٨ من طبعة ليدن فراجع في كتاب الأغاني ج ٤ ص ٧٦ — ٨٦ ترجمة طريح بن إسماعيل الثَّقفي الذي (ص ٧٧) « نشأ في دولة بني أمية واستفرغ شعره في الوليد بن يزيد وأدرك دولة بني العباس ومات في أيام المهدي وقيل الهدي » وتروى الأبيات المذكورة في كتاب الأغاني ج ٤ ص ٨٠ — ٨١ وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ وقيل فيه إن طريح قالها في أبي جعفر المنصور وهذا غير صحيح فانظر كتاب الأغاني في الموضع المذكور وكتاب العقد ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٢) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ١٠ ويوجد قول عبد الملك هذا أيضاً في كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٦٣ ولكن الخليفة ينشد فيه أبياتاً لكعب الأشقرى .

(٤) حُظُوة المديح عند الخلفاء والولاة وأكابر الناس سواءً لجرّد استلذاذهم المَلَق أم لا تنتفعهم بالمدايح السائرة في الأقطار .

(٥) زيادة التَّرف والرفاهية التي يزيد بها نفاقُ أسواق الآداب .

وممّا يُستغَرَّب بادئَ نظر قَلَّة الشعراء الشاميّين من أهل الحضرة في خلافة معاوية وابنه يزيد على كثرة الوافدين إليهما المجتمعين بأبوابهما من شعراء أهل البادية . قد بيّنا فيما سبق (ص ١٠١ — ١١٦) قدر نبوغ نوع جديد من الشعر وهو الغزل عند الحضريّين الحجازيّين حتّى نكاد لا نعتزّ عندهم على غيره من فنون الشعر مدّة القرن الأوّل (بعد خلافة عمر بن الخطّاب) وفي أوائل القرن الثاني . وأوضحنا أيضاً ما بلغه من الانتشار والرونق الشعرُ في الغزل والخمريّات في مدن العراق الجنوبيّة في ذلك الزمن فضلاً عن الكلام المنظوم المتّصل بأغراض الأحزاب والفِرَق . فمن أين خولُ الشعر ذلك عند الحضرة بالشام ومن أين فتورهم في الاعتناء بنسج القرىض ؟ ولمّ امتنعوا مدّة عن الغزل والخمريّات على الأسلوب المُحدّث بالحجاز والعراق كما همّ لم يعرفوا إلّا القصائد على منوال القدماء وأهل البادية .

إنّ لذلك أسباباً . تفكّروا أوّلاً فيما تقدّم بيانه الطويل عند الكلام عن الصنف الثالث من الشعر أعني أنّ الذين انتقلوا إلى الشام من جزيرة العرب حين الفتح الإسلاميّ وبعده كانوا أعراباً ما عدا القليل ونصفهم أو أكثر كانوا يمنيّين أو منتسبين إلى قبائل اليمن . وقد سبق أنّ هؤلاء المنتقلين لم يعتادوا الإقامة بالأمصار ولا ألقوا عيشة المدن إلّا شيئاً فشيئاً بعد مدّة غير قليلة فسكثوا يأنفون سُكنى المدن يحنّون إلى التعرّيب أي الرجوع إلى براريهم المتّسعة ومفاوزهم الفيحاء بل ذاتُ الخلفاء الأمويّين سوى معاوية وعبد الملك كانوا يقصّدون البادية وقصورهم في أرض البلقاء كلّما لم يمنّهم عن الخروج إليها مانع مهمّ . — أمّا العراق فما ارتحل إليها الأعراب فقط بل توجّهت إليها واستقرّت فيها جملة من حضريّ الحجاز لما نقل على بن أبي

طالب دار الخلافة إلى الكوفة ثم في أيام ذهاب الحسن بن علي وآل الزبير إلى نواحي السواد .

ثم تأملوا ما وقع من الفرق بين أحوال العرب في العراق وأحوالهم في الشام قبيل ظهور الإسلام . من المشهور أن المسلمين حين احتلالهم العراق وجدوا في الجنوبية حضريين من العرب وهم قسم من سكان مملكة الحيرة قد تركوا البداوة منذ الزمان الطويل واتخذوا جزءاً من الحضارة العجمية . فرأينا أن الخمريات التي اشتهر بها شعراء الكوفة والبصرة في أيام بني أمية إنما كانت من جنس الخمريات المتداولة عند شعراء الحيرة أو الوافدين إليها في عهد الجاهلية كأنها بأسرها مذهب شعري واحد متواتر لم يزل في تلك البلاد من قديم الزمان إلى أيام الدولة العباسية . فواضح أيضاً أن وجود أولئك العرب الحضريين في العراق سهل وعجل اختلاط المحتلين الإسلاميين بمن جاورهم من العجم هناك . — أما في الشام فالأمر خلاف ذلك . كانت اللخميون في العراق في القرن السابق للهجرة من أهل الحضرة أما بنو غسان بالشام فلم يزلوا متوسطين فيما بين البداوة والحضارة فكان رؤساء قبائلهم يقيمون تارة بمساكن ثابتة بالبناء والمدر وتارة بنوع من المعسكرات والمضارب كانوا ينقلونها من مكان إلى مكان لدفاع غارات قبائل الأعراب المستقلة عن حدود مملكة الروم فأصبحت محلاتهم مثل جلق والجابية قارنة بين صفات المعسكر المتنقل والقرية الثابتة جامعة بين أحوال البادية وخواص الحضارة . وكانت نتيجة ذلك أن الجيوش الإسلامية لما فتحو بلاد الشام ما وجدوا في مدنها وقراها سكاناً من العرب خلافاً لما اتفق لهم في العراق فأعزدهم من يكون واسطة بينهم وبين الأهالي . ولكون أغلب المحتلين من أهل البادية الكارهين القرار في الأمصار تهادى بالشام البون الكبير بين العرب وبين سكان المدن وهم سريان وروم فما ابتدأ اختلاط عام بينهم بالمعاشرة والمصاهرة إلا نحو أواخر القرن الأول . فبتأخر الاختلاط تأخر انتقال معظم المتغلبين من حال بداوتهم إلى حال الحضارة وتأخر أيضاً عندهم نبوغ الشعر من النوع المألوف للحضر .

ثمّ لبقاء الشعر في الشام على منوال قصائد النوايع من عهد الجاهلية سببان آخران
أعنى ميل الخلفاء الأوّلين من بني أمية إلى ذلك النوع من الشعر وشدة سُلطة معاوية
في بلاد الشام. يروى في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه^(١) أنّ هذا الخليفة الأجلّ
قال مرّة لعبد الرحمن بن الحكم: «يا ابن أخي إنك شهِرتَ بالشعر فأياك والتشبيب
بالنساء فإنّك تُعرّ الشريفة في قومها والعفيفة في نفسها والهجاء فإنك لا تعدو أن تُعاديَ
كريمًا أو تستشير به لئيمًا ولكن افخرْ ببيت قومك وقلْ من الأمثال ما توقّر به
نفسك وتودّب به غيرك». فلا شك أنّ هذا القول ولو لم تصحّ روايته على هذه
الصفة هو ترجمان فكر معاوية في الشعر كما يظهر من غيره من الأخبار. وحرّم
معاوية بالشام شرب الخمر وصناعة الغناء على جواز هذه الصناعة بالحجاز فيروى على
صفة استثناء أنّ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قدم عليه بالشام فأنزله معاوية في
دار عياله ولم ير به بأسًا أن يغتنى ليلة في تلك الدار^(٢). ونفَذ ذلك التحريمُ بالشام
مدّة القرن الأوّل على غرام بعض الخلفاء بسماع الالحان. ويروى في موضع من
كتاب الأغاني^(٣) أنّ يزيد بن معاوية كان «أوّل من سنّ الملامى»^(٤) في الإسلام
من الخلفاء وآوى المغنّين وأظهر الفتك وشرب الخمر... وكان يأتيه من المغنّين سائب
خاطر فيقيم عنده فيخلع عليه ويصّله». ولكن إن راجعتم الأخبار عن يزيد والمغنّين
وجدتم أنّه كان يلقيهم عادةً بالحجاز ولم يقبلهم بدمشق إلّا في أندر النادر وسرًّا
بمساعدة أصدقائه المدنيّين لاسيّما عبد الله بن جعفر^(٥). وسائب خاطر

(١) كتاب العقد ج ٣ ص ٩٧ من طبعة مصر ١٣٠٥.

(٢) كتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه ج ٣ ص ١٨٢ — ١٨٣ من طبعة مصر ١٣٠٥.

وراجع الحكاية في كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٨٩ من طبعة بولاق.

(٣) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٧٠.

(٤) والملامى (جمع ملهى) هنا الآلات الموسيقية.

(٥) ولعله لم يقبل شاعرا في الشام إلا مرة واحدة (راجع كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٠٣ —

١٠٤ و ١٨٩ من طبعة بولاق).

المذكور فيما تقدم إنما كان من ساكني المدينة^(١). أما أول الأمويين الذي أدخل المغنين في الشام فالوليد بن يزيد (١٠١ - ١٠٥) وهو أراد أولاً أن يدخلهم خفية مراعاة لخواطر أهل تلك البلاد كما يلوح من رواية كتاب الأغاني^(٢): «إن الوليد ابن يزيد لما ولي الخلافة بعث إلى المغنين بالمدينة ومكة فأشخصهم إليه وأمرهم أن يتفرقوا ولا يدخلوا نهراً لئلا يُعرفوا وكان إذ ذاك يتستر في أمره ولا يظهره فسبقهم ابن عائشة فدخل نهراً وشهر أمره فحبسه الوليد وأمر به فقيّد وأذن للمغنين وفيهم معبد فدخلوا عليه دخلات ثم إنه جمعهم ليلة فغنّوا له حتى طرب وطاب نفسه إلخ».

لعلكم تسألون لماذا هذا الكلام في صناعة الغناء وإدخالها في بلاد الشام؟ ألم تكن نبحت عن صناعة الشعر لا غير، أقول إن بين الصناعتين صلة قوية لا يجوز إهمال الفحص عنها لمن يريد بيان سير الشعر وتقلباته في أيام بني أمية. لما تكلمت عن الغزل الحقيقي بمدن الحجاز أثناء القرن الأول أوضحت تعلقه بتقلب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الحرمين وزيادة الترف والرفعة بعد الفتوحات الإسلامية الكبرى وما فاز المسلمون من الأموال والرقاب وأشرت إلى الاتفاق الواقع بين قدوم المغنين والمغنيات من الموالى بمكة والمدينة وبين أوائل انتشار الشعر الغزلي فيهما. وذكرت أن أولئك الموالى كانوا في بدء الأمر يغنون بالرومي أو الفارسي ثم عدلوا إلى الغناء بالعربي فأصبحوا من أشد العوامل في إهمال نسج القصائد على منوال المعلقات وتغيير ذوق الظرفاء والمتأدبين. إن اللحن التي دخل بها الموالى والمماليك في المدن الحجازية كانت من الأنواع المسيرة والمطربة وهي مما اخترعه الروم والفرس من أصحاب صناعة الأنغام ترويحاً للنفوس وتسليه للقلوب لا سيما في أيام العيد والفرح أو عند المنادمة والمجالسة فما صلحت لها الأعاريض الطويلة الثقيلة ولا أشعار مدارها

(١) قتل سائب خاثر في سنة ٦٨٣ يوم الحرة (راجع أنفا ص ١٠٥ حاشية ٢)

(٢) كتاب الأغاني ج ٤ ص ٨١ - ٨٢ من طبعة بولاق فراجع كتاب العقد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٦٩ من طبعة ١٣٠٥ وفيه محمد بن أبي عائشة بدلا من محمد بن عائشة.

على وصف أعضاء الناقه ومخاوف الفياثى ومتاعب السفر في الرمال وغروات القبائل
إذ لا يُنْكَر الارتباط الواقع بين نوع النِّعْمة والغناء المُتَقَن الصنعة وبين عروض
الشعر وفخواه . وزيدوا على ذلك أن أولئك المغنّين لأصلهم من العجم والحضر
استصعبوا فُهم القصائد على المنوال القديم وحفظها بما فيها من غريب الألفاظ وتوحّش
المعنى . فإن تأملتُم أيضاً أن الشعراء من حضريّ العراق والحجاز وجدوا الشعرَ أسرعَ
رواجاً وأوسعَ شهرةً وألذَّ للنفوس وأوقعَ في قلوب الناس إذا غُنّيَ على آلات السماع
تمكّنتم من تقدير ما كان لصناعة الغناء والألحان من التأثير في تقلّب أفانين الشعر . —
فالمحتمل عندي أنه لولا منع الغناء المُتَقَن والسماع إلى أواخر القرن الأوّل في بلاد
الشام لما تأخّر نبوغ الغزل والخمريّات عن وقت نبوغهما بالعراق والحجاز بمدة طويلة .
فلجملة هذه الأسباب قلّت بالشام الشعراء من الحضر^(١) إلى أواخر القرن الأوّل
فشعرهم على ما أدخلت فيه العيشة المدنيّة من رقة العواطف ولينة الألفاظ وعذوبة
الكلام لم يزل متوسطاً بين الشعر الجاهليّ وبين الغزل الغالب عند شعراء مدن الحجاز
والعراق . أمّا الخمريّات فامتنعوا عنها أثناء القرن الأوّل وما ذكروا الخمر إلاّ لجرّد وصفها
أو للتشبيه بها مثل قول عدىّ بن الرُّقاع^(٢) :

أُمَيْدُ كَأَنِّي شَارِبٌ لَعَبْتُ بِهِ عُقَارٌ ثَوْتُ فِي سِجْنِهَا حَبَبٌ سَبْعَا

(١) لا أعد في شعراء الشام من الحضر عبد الرحمن بن الحكيّم أخا الخليفة مروان بن الحكيّم
(٦٤ — ٦٥) لأنه أقام بالحجاز مدة أطول من إقامته بالشام بل لم يزل في بلاد الحرمين حتى
تفاه عبد الله بن الزبير عنها مع سائر بني أمية . وكان « متوسط الحال في شعراء زمانه وكان بهاجي
عبد الرحمن بن حسان بن ثابت » (كتاب الأغاني ج ١٢ ص ٧٢) ومن شعره القريب من نوع
الخمريّات والحلاعة الأبيات الثلاثة المروية له في كتاب الكامل المبرد (ص ٧٢ من طبعة ليبسك
او ج ١ ص ٦٠ من طبعة مصر ١٣٢٣ — ١٣٢٤) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٢
ص ٧٢ — ٧٦ .

(٢) كتاب معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٥٨٩ من طبعة ليبسك . يروى البيت الأوّل والثاني
في لسان العرب ج ٤ ص ٤١٧ من طبعة بولاق بالرواية « باكرت شربها » وبهذه الرواية صار
الشاعر شارب خمرة .

مَقْدِيَّةٌ صَهْبَاءُ تَتَخَنُّ شَرِبَهَا إِذَا مَا أَرَادُوا أَنْ يَرَاوُهَا صَرَعَى
عُصَاةُ كَرَمٍ مِنْ حُدَيْجَاءَ لَمْ يَكُنْ مَنَابِتُهَا مُسْتَحْدَثَاتٌ وَلَا قُرْعَا
أَوْ مِثْلُ قَوْلِهِ (١) :

كُمَيْتٌ إِذَا شَجَبَتْ فِي الْكَاسِ وَرَدَةٌ لَهَا فِي عِظَامِ الشَّارِبِينَ دَيْبٌ
تُرِيكَ الْقَدَى مِنْ دُونِهَا وَهِيَ دُونَهُ لَوْ جَدَّ أَخِيهَا فِي الْإِنَاءِ قُطُوبٌ
فَيُرْوَى أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ (٩٦ - ٩٩ / ٧١٥ - ٧١٧) لَمَّا سَمِعَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ قَالَ لَعْدَى
بَنِ الرَّقَاعِ : شَرِبْتَهَا وَرَبَّ الْكَعْبَةِ . قَالَ عَدَى وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لئن رَأَيْتُ
وَصَفَى لَهَا قَدْ رَأَيْتُ مَعْرِفَتَكَ بِهَا . فَتَضَاحَكَ وَأَخَذَ فِي الْحَدِيثِ . — فَنَفَسَ هَذِهِ
الْحِكَايَةَ تَدْلٍ عَلَى مَا أَرَدْنَا بَيَانَهُ أَيْ نَدْرَةَ شَرَبِ الْخَمْرِ عِنْدَ أَهْلِ الْخَضِرِ بِالشَّامِ وَإِمْسَاكَ
شُعْرَاهُمْ عَنِ الْخَمْرِيَّاتِ أَثْنَاءَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ خِلَافًا لَخَضِرِ الْعِرَاقِ . وَمَا هُوَ مَشْهُورٌ مِنْ
أَنَّهُمْ أَضَلُّوا فِي الشَّرَابِ وَأَشْعَارُهُ فِيهِ لَا يَدْحَضُ قَوْلِي إِذْ كَانَ الْأَخْطَلُ بِدَوِيًّا
عِرَاقِيًّا نَصْرَانِيًّا .

كَانَ عَدَى بْنُ الرَّقَاعِ (٢) السَّابِقُ ذَكَرَهُ مِنْ أَقْدَامِ شُعْرَاءِ الْخَضِرِ بِالشَّامِ مَدَّاحًا لَبَنِي
أُمِّيَّةٍ كَثِيرِ الْخَطِّ عِنْدَهُمْ لَا سِيَّاهُ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ (٨٦ - ٩٦) وَمَنْزَلُهُ بِدِمَشْقَ
وَهُوَ مِنَ الْمُجِيدِينَ فِي الْمَدِيحِ وَالنَّسِيبِ الرَّقِيقِ اللَّطِيفِ الْخَالِي عَنْ تَعَزُّلِ شُعْرَاءِ الْحِجَازِ
وَالْعِرَاقِ . وَمِنْ أَيْيَاتِهِ الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا عَنَايَتُهُ بِإِتْقَانِ بَيْتِيَّةِ شَعْرِهِ وَخَيْرَتِهِ بِأَحْوَالِ الْحَيَاةِ (٣) :

وَقَصِيدَةٍ قَدْ بَتُّ أَجْمَعُ بَيْنَهَا حَتَّى أَقُومَ مِثْلَهَا وَسِنَادَهَا
نَظَرَ الْمُتَقَفُّ فِي كُؤُوبِ قَنَاتِهِ حَتَّى يُقِيمَ ثِقَافَهُ مُنَادَهَا

(١) كِتَابُ الْعَقْدِ لِابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ ج ٢ ص ١١٨ مِنْ طَبْعَةِ مِصْرَ ١٣٠٥ .
(٢) وَهُوَ مَذْكَورٌ فِي كِتَابِ الْأَغَانِي ج ٨ ص ١٧٩ — ١٨٤ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاقٍ وَكِتَابِ الشَّعْرِ
لِابْنِ قَتِيبَةَ ص ٣٩١ — ٣٩٣ (وَص ١٧) مِنْ طَبْعَةِ لَيْدِنٍ وَتُرْوَى لَهُ أَيْيَاتٌ فِي الْكَامِلِ لِلْمُبَرِّدِ
ص ٨٥ مِنْ طَبْعَةِ لَيْبْسِكِ أَوْ ج ١ ص ٧١ مِنْ طَبْعَةِ مِصْرَ ١٣٢٣ — ١٣٢٤ [وَطَبَقَاتِ الشُّعْرَاءِ
لِابْنِ سَلَامٍ ص ١٤٤ — ١٤٥] .

(٣) كِتَابُ الشَّعْرِ لِابْنِ قَتِيبَةَ ص ٣٩٢ مِنْ طَبْعَةِ لَيْدِنٍ .

أَوْ مَا تَرَى شَيْبًا تَفْشَعُ لِمَتَى حَتَّى عَلَا وَضَحُ يُلُوحُ سَوَادَهَا
فَلَقَدْ تَبَيَّتْ يَدُ الْفَتَاةِ وَسَادَةً لِي جَاعِلًا إِحْدَى يَدَيَّ وَسَادَهَا
وَلَقَدْ أَصَبْتُ مِنَ الْمَعِيشَةِ لَذَّةً وَلَقِيتُ مِنْ شَطَفِ الْخُطُوبِ شِدَادَهَا
وَعَمِرْتُ حَتَّى لَسْتُ أَسْأَلُ عَالِمًا عَنْ حَرْفٍ وَاحِدَةٍ لَكِنِّي أَرَدَادَهَا
صَلَّى الْمَلِكُ عَلَى أُمْرِي وَدَعَّعْتُهُ وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيَّ وَزَادَهَا
وَمِنْ لَطِيفِ شَعْرِهِ (١) :

وَمِمَّا شَجَانِي أَنَّنِي كُنْتُ نَائِمًا أَعْلَلُّ مِنْ بَرْدِ الْكَرَى بِالتَّشَمُّمِ
إِلَى أَنْ بَكَتْ وَرَقَاءُ فِي غُصْنِ أَيْكَةٍ تُرَدُّ مَبْكَاها بِحُسْنِ التَّرَنُّمِ
فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاها بِكَيْتُ صَبَابَةٍ بَسْعَدَى شَقِيتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَاجَ لِي الْبُكَاءُ بُكَاهَا فَقُلْتُ الْفَضْلُ لِلْمَتَقَدِّمِ

وَمِنْ نَصِّ وَارِدٍ فِي كِتَابِ الْأَغَانِي (٢) وَمِمَّا نَقَلْتُهُ آتَقًا مِنْ كِتَابِ الْعَقْدِ الْفَرِيدِ
يَسْتَنْتِجُ أَنَّهُ أَدْرَكَ خِلَافَةَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ .

وَمِنْ مَعَاصِرِي عَدَى بْنِ الرَّقَاعِ الْمَشْهُورِينَ شَاعِرٍ لَيْسَ أَصْلُهُ مِنَ الْعَرَبِ وَهُوَ أَوَّلُ
مَنْ قَالَ الشَّعْرَ الْجَيِّدَ اللَّطِيفَ بِالْعَرَبِيِّ مِنَ السُّودِ أَعْنَى بِهِ نُصَيْبُ بْنُ رَبَاحٍ (٣) مَوْلَى
عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ . وَاخْتَلَفُوا فِي أَصْلِهِ فَلَوْ صَحَّتْ رَوَايَةُ مِنْ قَالَ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ
وَدَّانَ (٤) وَعَبْدُ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ السَّاكِنِينَ هُنَاكَ إِشْتَرَاهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ لَكَانَ مِنْ

(١) الكامل للمبرد ص ٥٠٤ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٠٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ —
١٣٢٤ ويروى البيتان الأخيران أيضا في شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ص ٥٦٧ من طبعة
بن أو ج ٣ ص ١٤٢ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٨ ص ١٧٩ من طبعة بولاق .

(٣) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١ ص ١٢٩ — ١٥٠ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن
قتيبة ص ٢٤٢ — ٢٤٤ من طبعة ليدن [وراجع U. RIZZITANO, *Abū Miḥḡan Nuṣayb ibn*
Rabāḥ (Rivista degli Studi Orientali, XX, Roma 1943, p. 421-472; XXII, 1947, p. 23-35.

(٤) وعلى الأرجح ليست ودان نصيب المدينة المشهورة في أفريقية بل هي موضع بين مكة والمدينة
النورة يذكره نصيب في أبياته (راجع معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٩١٠ من طبعة ليبسك)

المغاربة. والمحتمل إذا أنَّ عبد العزيز^(١) اشتراه في أيَّام ولايته مصر في خلافة معاوية وعبد الملك بن مروان . وعلى كلِّ حال عاش نصيب بالشام وبها قال أكثر شعره فُيَعَدُّ من المقدَّمين عند خلفاء بني أمية الذين أثنى عليهم الثناء الوافر ونال منهم الجوائز الجزيلة^(٢) وهو أجاد المديح والمرثي والنسيب ونسيبه عفيف بعيد عن الغزل الخليع فيقال إنَّه لم ينسب قط إلاَّ بامراته . وتجدون عدَّة أشعاره في كتاب الأغاني فأقتصر على ذكر بيتين له مرويين في حماسة أبي تمام^(٣) معناهما كثير الشُّبه بمعنى أبيات عدى بن الرقاع المذكورة آنفًا :

لَقَدْ هَتَفْتُ فِي جَنَحِ لَيْلِ حَمَامَةٍ عَلَى فَنٍّ وَهَنًا وَإِنِّي لَنَائِمٌ
كَذَبْتُ وَبَيْتَ اللَّهِ لَوْ كُنْتُ عَاشِقًا لَمَّا سَمِعْتَنِي بِالْبُكَاءِ الْحَامِئِ

وما وقفتُ على سنة وفاته فالواضح عمَّا جاء في كتاب الأغاني^(٤) أنَّه كان في قيد الحياة حين أفضت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك سنة ٨٥٠/٧٠٤ .

كفى ما تقدَّم دليلًا على قدر الفرق بين شعر الحضرة بالشام وشعرهم بالعراق والحجاز في القرن الأوَّل غير أنَّ هذا الفرق اضمحَلَّ بعد أوائل القرن الثاني بقليل إذا تقلَّبت أحوال مدن الشام لاختلاط العرب والأعجمين فيها ولزوال شدَّة الخلفاء في حكومتهم وأخذهم في تقليد أبهة قدماء الملوك من بني ساسان بالمدائن وخفامة ملوك الروم بالقسطنطينية في اللباس والطعام والأواني وجميع أنواع الترف . وجلبت الخِصيان من بلاد الروم وأدخلت في دمشق المغنَّون والمغنيات علنًا في أيام الوليد بن يزيد (١٢٥/٧٤٣ — ١٢٦/٧٤٤) حسبما شرحتة فيما تقدم وأظهر شرب الخمر وفسدت الأخلاق

(١) توفي عبد العزيز بن مروان سنة ٨٥٠/٧٠٤ .

(٢) انظر الأبيات المروية له سابقا ص ٢٦٣ .

(٣) كتاب الحماسة لأبي تمام ص ٥٦٧ من طبعة بن أوج ٣ ص ١٤١ — ١٤٢ من طبعة بولاق .

(٤) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٤٨ من طبعة بولاق .

ودبّت في عرب المدن الخلاعة . فبتقلّب الأخلاق والعوائد والأهواء تقلبت أفانين
الشعر فعمت الشام الأشعار في الخمر والغزل .

ورئيس هؤلاء الشعراء الذين ذهبوا بدمشق المذهب الجديد الوليد بن يزيد^(١)
الذي وصفه صاحب الأغاني قائلاً^(٢) : « وكان من فتيان بني أمية وظرافئهم
وشعرائهم وأجوادهم وأشدّائهم وكان فاسقاً خليعاً متهماً في دينه مرمياً بالزندقة وشاع
ذلك من أمره وظهر حتى أنكره الناس فقتل وله أشعار كثيرة تدلّ على خُبثه وكُفره
ومن الناس من ينفي ذلك عنه ويُنكره ويقول إنه نحلّه وألصق إليه والأغلب الأشهر
غير ذلك » . وقال بعض الرواة إن الذي أضله مؤدّبه عبد الصمد بن عبد الأعلى وهو
كان فيما يقال زنديقاً فحمل الوليد على الشراب والاستخفاف بدينه^(٣) . — فلو جمعنا
ما يُعزى إلى الوليد من الأشعار وما يُروى في حقّه من الأخبار وما يُنسب إليه من
الكلام الكثير الوقاحة والدّناءة لاستغربناه كلّ الاستغراب وتعجّبنا منه بتقليده
منصب الإمامة ولو مدّة يسيرة . كيف لا إذ هو القائل على ما نطلع عليه في بعض
الكتب^(٤) :

أنا الإمامُ الوليدُ مفتخراً أجُرُّ بُردِي وأسمَعُ الغزلاً
أُسحبُ ذَيْلي إلى منازلها ولا أبالي من لأم أو عدلاً

(١) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ٦ ص ١٠١ — ١٤١ وج ٨ ص ١٦١ — ١٦٢
من طبعة بولاق وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٦٩ — ٢٧١ من طبعة مصر ١٣٠٥
وفي باب الحادى بعد المائة من مروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ٥ — ١١ من طبعة باريس ورسالة
الغفران لأبى العلاء المعرى ص ١٤٥ — ١٤٦ من طبعة مصر ١٣٢١ [— ١٣٢٥] وروى له
بيتان « في المجازات بالخير والشر مثلاً بمثل » في حماسة البجترى ص ٢٣٧ من طبعة ليدن أو ص ١٦١
عدد ٨٥٤ من طبعة بيروت [وراجع F. GABRIELI, *al-Walid ibn Yazid, il califfo e il poeta*
(Rivista degli Studi Orientali, XV, 1934, pp. 1-64)]

(٢) كتاب الأغاني ج ٦ ص ١٠١ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٧٨ .

(٤) رسالة الغفران ص ١٤٦ من طبعة مصر ١٣٢١ — ١٣٢٥ .

ما العيشُ إِلَّا سَمَاعٌ مُحْسِنَةٌ وقهوةٌ تَتَرَكُ الفتي ثَمَلًا
لَا أَرْتَجِي الحورَ فِي الخلودِ هَلْ يَأْمُلُ حُورَ الْجَنَانِ مَن عَقْلًا
إِذَا حَبَّتْكَ الوصالَ غَانِيَةٌ فَجَارَهَا بِذَلِّهَا كَمَنْ وَصَلًا

ويقال إنه لما أحيطَ به دخل القصر وأغلق بابه وقال ^(١) :

دَعُوا لِي هَذَا وَالرَّيَّابَ وَفَرْتَنِي وَمُسْمِعَةً حَسَنِي بِذَلِكَ مَا لَا
خُدُوا مُلْكَكُمْ لَا ثَبَّتَ اللَّهُ مُلْكَكُمْ فَلَيْسَ يُسَاوِي بَعْدَ ذَلِكَ عَقْلًا
وخلَوْا سَبِيلِي قَبْلَ عَيْرٍ وَمَا جَرَى وَلَا تَحْسُدُونِي أَنْ أَمُوتَ هَذَا

غير أن الحكمُ النُصِفَ في الوليد بن يزيد صعب علينا إذا تأملنا مصادر أخباره وأخبار أكثر الأمويين . فقدت التصانيف التاريخية القديمة فمعظم ما نعرفه من سير بني أمية منقول من مؤلفات أعدائهم سواء من أهل الشيعة أم من المنقطعين إلى الدولة العباسية . فأهل الشيعة أفرطوا في تسويد معاوية ويزيد لما جرى بينهما وبين علي بن أبي طالب وآله . أما المتعصبون ببني العباس فاجتهدوا في تسويد ذكر الآخرين من خلفاء بني أمية لما وقع من العداوة بينهم وبين بني هاشم . ثم تفكروا في أمر آخر تقدم التلميح إليه فيما سبق وهو أن الدولة الأموية كانت دولة عربية محضة فأبغضها المسلمون من غير العرب وأسرعوا في قبول روايات الحاقدين على بني أمية بدون إجراء النقد فيها لميل الناس إلى تصديق ما يوافق أهواءهم فنتيجة كل ذلك أن المؤرخين المتأخرين مثل ابن الأثير وأبي الفداء اغتروا وضلوا أي ضلال في بعض ما رووه من أخبار الأمويين . ومن الجدير بالاعتبار ما ذهب إليه بعض الناس منذ أواخر القرن الأول من وضع الأحاديث بُغْضًا لبني أمية وأمرائهم فعزوا مثلاً إلى النبي القول بأن سيقوم في بني ثقيف كاذب ومُبِيرٌ فإنهم فسروا هذا الحديث

(١) رسالة الغفران ص ١٤٦ وراجع العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣١٦ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفيه تنسب الأبيات إلى يزيد بن الوليد .

قائلين بأن الكاذب مختار بن أبي عبيد والمبير الحجاج بن يوسف^(١). وفي حديث آخر مختلف كالسابق يُظهر النبي وهو مُشرف على الموت كراهته لثلاث من قبائل العرب أي بني ثقيف وبني حنيفة وبني أمية^(٢). وكذلك نُسب إلى النبي أنه لقي رجلاً قد سَمِيَ ابنه الوليد فقال له: أنتم تسمون أولادكم بأسماء فراعنتكم إنه سيقوم رجل اسمه الوليد يضُرُّ أمتي أكثر مما ضُرَّ فرعونُ شعبه^(٣). فلو راجعتم الأحاديث الموضوعة من باب الفتن والملاحم والمهدى^(٤) عثرتم على مثل ذلك مما زور لتسويد أعراض الأمويين أو غيرهم من أصحاب الأحزاب السياسية. وفي وضع الأحاديث هذا لمثل هذه الأغراض في القرن الثاني والثالث دلالة على التقلب العظيم الذي حدث في ذلك العصر في هيئة المسلمين الاجتماعية. إنَّ العرب الصميم إلى أواخر الدولة الأموية إذا أرادوا تشنيع أخصامهم وشتمهم إنما استعملوا الأشعار كما سبق بيان ذلك بالتفصيل عند الكلام على الصنف الخامس والسادس من الشعر لأن الشعر فقط كان عند العرب منذ الزمان القديم ديوانَ مفاخرهم ومثالبهم. أما الشعوب الإسلامية غير العربية فما اتخذوا الشعر كسلاح في تخاصم الأحزاب والفرق والملل والتجؤوا إلى المصنّفات المنشورة على كثرة أنواعها. ومنها الأحاديث الموضوعة. فمن يريد البحث العميق في تاريخ الأمم الإسلامية لا بد له من الاطلاع على تلك الأحاديث المختلفة المزورة لأنها في الحقيقة خزانة آراء الفرق وأغراض الأحزاب التي كثيراً لا تتضح من الكتب المؤلفة في العلوم التاريخية فتشبه منزلتها بمنزلة الأشعار السياسية إلى منتصف القرن الثاني.

(١) رواه Goldziher في كتابه *Muhammedanische Studien* ج ١ ص ١٠٠ عن صحيح مسلم ومصاييح السنة للبعوى وابن بدرون.

(٢) راجع الموضع المذكور من كتاب Goldziher ومن الممكن أن بني حنيفة لم يذكروا في هذا الحديث إلا ليكون نافع بن الأزرق رئيس الأزارقة منهم.

(٣) راجع GOLDZIHHER, *Muhammedanische Studien*, II, 109-110.

(٤) انظر مثلاً الترمذى وأبا داود وراجع GOLDZIHHER, *Muhammedanische Studien*, II, p. 127.

وبعد هذا الاستطراد أرجعُ إلى سياق الكلام فأقول إنَّ الوليد برىء على المحتمل من أقبح ما يروى عنه من الأخبار والأشعار . ولكن ولو سلمنا ورود التزوير فيها والافتراء في حقّه لا ريب أنّه تملّص من الشرب واللذات وأفرط وإنّ كثيراً مما يُروى من غزليّاته وخمريّاته صحيحُ الرواية موثوق به . ولعل غرامه سماع أشعار القدماء الذين عاشوا في مملكة الحيرة لا سيما عدى بن زيد العبّادى أثر في أسلوب شعره تأثيراً عظيماً كما رأينا أن أثر في شعر الحضرميّين العراقيين أثناء القرن الأوّل والثاني للهجرة . فواضح أن منظومات شعراء الكوفة وشعراء دمشق في أواخر الدولة الأموية كانت كواسطة بين خمريات الجاهلية وخمريات البغداديين في أيام بني العبّاس .

٨ — فعلياً الآن أن ننقل إلى الصنف الثامن من الشعر في أيام بني أمية وهو الذى سمّيته الشعر القصصى اليمنى .

لما تسكّمت عن شعر النصارى في زمن الجاهليّة أوّمتُ إلى ما جاء به عدى ابن زيد العبّادى في بعض قصائده من ذكر حوادث الملوك والأمم السالفة ليكون ذلك الذكّرُ عبرةً للمعتبرين برهاناً على زوال الأرضيّات بأسرها وعدم بقاء هذه الدار على أحد نصيحةً لأولى الألباب لئلا يُغرّوا بطيب العيش وأبهة الملوك . ومن هذا الباب أيضاً قصيدة حاثية مشهورة منسوبة إلى نصرانى آخر من أيام الجاهليّة أعنى قسّ ابن ساعدة الإيادى يذكّرُ فيها بعض من هلك من ملوك حمير الكبار ليتفكّر الإنسان في فناء جميع ما ربّما يبغيه وينافس فيه من السوّد والمال واللذات^(١) .

ومن المشهور أن بعض المتأخّرين سلكوا هذا المسلك من الرّهُديّات لنظم ما يُشبه مختصر تاريخ الدول منهم عبد الحميد بن عبدون المتوفى سنة ٥٢٩ ناظم القصيدة الطويلة المسماة بالبشامة ألّفها عند انقراض دولة بني الألفس بمدينة يابرة بيد المرابطين سنة ٤٨٥ فلمّح فيها إلى أحوال جميع دول الأندلس منذ الفتح الإسلامى

(١) راجع مثلاً شعراء النصرانية ص ٢١٧ — ٢١٨ وأيضاً VON KREMER,

Altarabische Gedichte, Leipzig 1867, no. 12, p. 16-17.

فبادرت العلماء إلى شرحها بشروح مطوّلة أصبحت كتباً تاريخيّة لا غير^(١) . ومن أولئك الشعراء أيضاً الذين اتخذوا الزهديات سبيلاً إلى وصف حوادث الدول نشوان ابن سعيد الجُمَيْرِيّ المتوفّى سنة ٥٧٣ صاحب القصيدة الحميرية^(٢) المشتملة على ١٣٥ بيتاً فعلي صفة سؤال أين فلان ذكر فيها مآثر جميع ملوك حمير . وهي قصيدة حائية مثل القصيدة المنسوبة إلى قُسن بن ساعدة وأولها :

الأمرُ جدُّ وهو غيرُ مُزاحِ فاعْمَلْ لِنَفْسِكَ صالحًا يا صاح
كيف البقاء مع اختلاف طبائعٍ وكرّ ليلٍ دائمٍ وصباح

وبعد المطلع المحتوى على تسعة أبيات في الزهد يبتدىء الشاعر يقول :

أفأين هوْدُ ذو التقيِّ ووَصِيَّةٍ قحْطانُ زَرْعُ نُبُوَّةٍ وَصِلاح
أَمْ أَبْنِ يَعْرُبُ وهو أولُ مُعْرِبٍ في الناسِ أَبْدَى النُّطْقِ بالإفصاح

ثمّ ألف نشوان شرحاً مطوّلاً على قصيدته ليفصّل بيان الأخبار الملمّح إليها في النظم وأدرج في الشرح جملة من أشعار منسوبة إلى أهل حمير القدماء وملوكهم فتعرّى أبيات إلى الحارث الرأش أول التبابعة على رأى أصحاب الكتب في السّير والتواريخ من العرب وتعرّى أبيات أخرى إلى أسعد بُتبع والتبّع الأكبر الرائد وأسعد كامل وغيرهم فضلاً عمّا يُنسب إلى الشعراء غير الملوك ومدار الأشعار على مآثر أهل حمير ومفاخرهم وقصورهم المشيّدة ومبانيهم العظيمة وما فتحوا من البلاد في أقاصى الأرض مثل فارس والهند والصين من جهة الشرق وطنجة وكانّبو من جهة الغرب وبلاد السودان . فمثال هذا الشعر ما يُنسب إلى التبّع الأكبر^(٣) (من بحر الطويل) :

(١) فليراجع مثلاً شرح ابن بدرون المطبوع بليدن سنة ١٨٤٨ [وبعصر سنة ١٣٤٠] .
(٢) اعتنى المستشرق A. von Kremer بنشر متن القصيدة ونقلها إلى اللغة الألمانية (A. VON KREMER, Die himjarische Kasideh, Leipzig 1865).
(٣) طبع المتن في A. VON KREMER, Altarabische Gedichte, No. 13, p. 17-18 والنقل في VON KREMER, Ueber die südarabische Sage, Leipzig, 1866, p. 75-76.

أنا تبع الأملاك من نسل حمير ملكنا عباد الله في الزمن الخالي
 ملكناهم قهراً وسارت خيولنا إلى الهند والأنبار ترمى بأبطال
 وكلّ عباد الله قد وطئت لنا خيولا لعمرى غير نكس وأعزال
 فجالت لدى شرق البلاد وغربها لهتك ستور (فتية) ذات أحجال
 وعُطل منها كل حصن ممنّع ونقل منها ما حوّته من المال
 وتلك (تروع) الأرض منها وطاءها إلى الصين والأتراك حالا على حال
 فأبنا جميعاً في السبايا وكلنا على كل محبوبك من الخيل صهال
 بكل فتاة لم ترّ الشمس وجهها أسيلة مجرى الدمع بيضاء مكسال
 صموت البرى غرثى الوشاح كأنها من الحسن بدر زال عن غيم هطال

و بعض أبيات التبابعة المروية في شرح نشوان قد جاءت أيضاً في كتاب المعارف لابن قتيبة^(١) المتوفى سنة ٢٧٦ من دون ذكر المصادر التي نُقلت عنها وقليل منها وَاَرَدَ أيضاً في كتب غيره . — ومن المشهور القصيدة الظريفة لعلّمة ذى جَدَن الحِميرى^(٢) الشاعر الذى وصف فيها ما ذاق من اللذات سابقاً وما كان لقصر عُمدان من الفخامة قبل كَرّ الدهور عليه وذَكَرَ هلاك ذى نواس آخر ملوك حَميرَ وهى قصيدة تُروى في سيرة الرسول لابن هشام^(٣) وتاريخ الطبرى^(٤) وغيرها . ويروى

(١) كتاب المعارف ص ٣٠٤ — ٣١٦ من طبعة غوتنجن ١٨٥٠ أو ص ٣٠٩ — ٣١٤ من طبعة مصر ١٣٠٠ .

(٢) تروى له قصيدة أخرى في جمهرة أشعار العرب في باب أصحاب المراثى ص ١٣٧ — ١٣٨ من طبعة بولاق ١٣٠٨ وفي نيل الأرب في قصائد العرب ص ٧٠ — ٧١ من طبعة مصر ١٨٩٥ ولها ستة وعشرون بيتاً وقيل في جمهرة أشعار العرب إن اسمه علّمة وقيل في كتاب الأغاني (ج ٤ ص ٣٧ — ٣٨ من طبعة بولاق) إنه علس . أما ذوجدن فهو قوم شريف في اليمن فراجع HARTMANN, *Die arabische Frage*, Leipzig 1909, p. 324-325.

(٣) سيرة الرسول ص ٣٦ — ٣٧ من طبعة غوتنجن ١٨٥٨ .

(٤) تاريخ الطبرى ج ١ ص ٩٢٨ — ٩٢٩ من طبعة ليدن .

لذى رُعَيْنَ الحميرى الشاعر أبيات مشهورة متعلقة بأحوال اليمن القديمة^(١) :

أَلَا مَنْ يَشْتَرَى يَوْمًا بِدَهْرٍ قَلِيلًا مَا يَبِيتُ قَرِيرَ عَيْنٍ
أَبَيْنَا الْغَدْرَ إِذْ رَغِبْتُ إِلَيْهِ مَقَاوِلُنَا فَأَمْسُوا رَهْنَ حَيْنٍ
فَإِنْ تَكْ حَمِيرٌ غَدَرْتُ وَخَانَتْ فَعَذِرَةُ الْإِلَهِ لَذَى رُعَيْنٍ

وجميع هذه الأبيات والقصائد المتصلة بأخبار اليمن ومفاخرها في زمان الجاهلية المتداولة في القرن الأول للهجرة حسبا نبينه عن قريب هي الذى سمّيته الشعر القصصى اليمنى مستنداً في اختيار لفظ القصصى إلى اصطلاح كتّبة العرب في القرون الوسطى . وهذا يستلزم شرحاً قصيراً على سبيل استطراد .

لَمَّا نُقِلَتْ كُتِبَ أرسطوطاليس في صناعة الشعر إلى العربية اشتمد تحرُّ المترجمين في تعريب الموضوع والاصطلاحات لعدم موافقة أنواع الشعر عند اليونان لأنواعه عند العرب . ومن الأنواع المجهولة عند الناطقين بالضاد المسمى باليونانية epiké وهو لفظ معناه الأصلي "قصصى" (من قصص القصص) غير أن اليونان اصطَلَحُوا به على جنس من الشعر ليس له مقابل في الآداب العربية . فلَمَّا قَامَ ابن رشد الأندلسى بتلخيص كتاب أرسطوطاليس في صناعة الشعر استعمل لفظ القصصى وبيّنه بياناً يُظْهِرُ أَنَّهُ لم يكن يُحِيطُ بذلك النوع من الشعر اليونانى علماً يقيناً ولا رصنه معرفة فقال^(٢) : « الأشعار القصصية سبيلها في الأجزاء التى هى المبدأ والوسط والنهاية سبيل أجزاء صناعة المديح وكذلك فى المحاكاة إلا أن المحاكاة ليس تكون للأفعال فيها وإنما تكون للأزمنة الواقعة فيها تلك الأفعال وذلك أنه إنما يُحاكى فى هذه كيف

(١) تروى الأبيات فى سيرة الرسول لابن هشام ص ١٨ من طبعة غوتنجن وكتاب المعارف لابن قتيبة ص ٣٠٩ من طبعة غوتنجن و A. VON KREMER, *Altarabische Gedichte*, p. 13, No. 49

(٢) تلخيص كتاب أرسطوطاليس فى الشعر لأبى الوليد بن رشد ص ٤٠ - ٤١ من طبعة فيرنسة سنة ١٨٧٢ وكتاب علم الأدب : مقالات مشاهير العرب لشيخو ج ٢ ص ٢٩٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩ . [راجع أيضاً F. GABRIELI, *Estetica e poesia araba nell' interpretazione della Poetica Aristotelica...* (Rivista degli Studi Orientali, XII, 1929-1930), p. 294 n.2, pp. 322-324.

كانت أحوال المتقدم مع أحوال المتأخر وكيف تُنقل الدول والممالك والأيام .
ومحاكاة هذا النوع من الوجود قليل في لسان العرب وهو كثير في الكتب الشرعية .
وذكر مجيدين في هذا الصنف من شعرائهم وأثنى ثناء عالمًا على أوميرُش . ومن
جيد ما في هذا المعنى للعرب قول الأسود بن يعفر :

ماذا أوَّملُ بعد آل مُحَرَّق تركوا منازلهم وبعد إباد
أرضِ الخَوَرَنَقِ والسَّديرِ وبارق والقصر ذى الشُّرفات من سِنَداد
نزلوا بَأَقْرَةِ يسيل عليهم ماء الفرات يجىء من أطواد
جَرَتِ الرياحُ على محلِّ ديارِهِم فكأنهم كانوا على مِيعاد
فأرى النِّعيمَ وكل ما يُلهى به يوما يصير إلى بلى ونفاد^(١) »

فتتضح من هذا النص أن ابن رشد لعدم دراية له بشيء من الآداب اليونانية لم
يتوصل إلى فهم كلام أرسطوطاليس وزعم أن الأشعار القصصية هي الأشعار المتوسطة
بين الزهد وتاريخ الأمم على منوال ما أشرتُ إليه من قصائد عدى بن زيد وقس بن
ساعدة . — وفي كتاب حديث وهو « تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب
وفيكنتور هوكو » تأليف المقدسي^(٢) سَمِيَ ذلك النوع من شعر اليونان بالشعر الحماسي
وهو تعريب بعيد جدًا يدل على قلة المعرفة بأدب الغرب. فقال المؤلف إن ذلك الشعر
« رواية الوقائع العجيبة التي يقوم بها الشُّجَّعان » وإن « موضوعه الوقائع الملققة المشتملة
على غرائب الشجاعة ونوادير الفروسية » ثم إن الشعر العربي « يوجد فيه أيضًا من
الشعر الحماسي وهو الذي رُوى فيه أخبار الحروب وأُطِنَب بشجاعة الشُّجَّعان »
وبعد ذكر أسماء الأناشيد الشهيرة من ذلك النوع من الشعر عند أمم مختلفة أضاف

(١) الأبيات مروية في شعراء النصرانية ص ٤٨١ وكتاب الأغاني ج ١١ ص ١٣٤ — ١٣٥
من طبعة بولاق وكتاب صفة جزيرة العرب للهمداني ص ١٧١ و ٢٣١ من طبعة ليدن ١٨٨٤
ومعجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٩١ و ج ٣ ص ١٦٥ من طبعة ليسك .
(٢) طبع في مصر سنة ١٩٠٩ انظر ص ١٣٩ و ١٤٠ و ١٤١ .

إليها « كتب الحماسة للعرب وأشهرها كتاب الحماسة لأبي تمام ». فالواضح أن المقدسي اغترّ في وصفه هذا بنفس الاصطلاح الذي اختاره لتعريف ذلك الشعر .

إن الشعر القصصيّ المراد في كتب أرسطوطاليس الموجود عند اليونان والرومان والهند والفرس والأمم الإفرنجية عبارة عن أناشيد طويلة جدًا مشتملة على ألوف أبيات لم يصنعها الشاعر للتعبير عما في صدره من العواطف والشعائر أو عما رآه وعائنه وحضره من الأفعال والبلاد والحوادث والرجال كما هي العادة في أشعار العرب التي لا تلمح إلى آثار السلف إلا على سبيل الافتخار أو المهجاء أو الاعتبار الزهدي بل نسجها الشاعر القصصيّ متكلمًا عن لسان أمة بأسرها راويًا ما حدث لكلها من الحوادث العظمى في عصر من العصور القديمة أو ما اتفق لرجل من الأكابر أنخذ كالبطل الممثل لجلالة جميع الأمة وعمرانها فكانت الأنشودة القصصية عند القدماء مرآة أخلاق الأمة وأميلها ومستودع مآثرها وخلاصة مفاخرها المتوارث ذكرها جيلًا عن جيل وهي آثار نظمها الشاعر بعد مدة طويلة وزينها وحلّوها بسحر البيان وجعلها متصلة بعضها ببعض وفيها الروايات الغرامية وحكايات شتى ليس لها صلة ضرورية بالحروب والحماسة وفيها ذكر الحوادث العجيبة لتداخل الآلهة والجن والشياطين وغيرهم مما كانت تلك الأمم تعتقد وجوده والغرض من تلك الأناشيد حفظ آثار الأمة الحجيذة القديمة وتحريك النفس لقبول الفضائل والحث على الشجاعة وأنواع الكرم . فيسهل عليكم تصوّر ماهية تلك الأناشيد إذا اطلعتم على الوحيدة منها التي نُقلت إلى العربية أعني إلياذة هيرس ترجمها حديثًا سليمان البستاني بماله من طول الباع في اللغتين اليونانية والعربية وبماله من الحظ الوافر في صناعة القريض ^(١) . —

فلنرجع إلى ما كنا فيه من الكلام . قد رأيت أن الأشعار المشار إليها المتعلقة بأخبار اليمن توافق تعريف ابن رشد للشعر القصصيّ تامًّا فحملني هذا الوفاق على

(١) ولم يفت نقصان هذا النوع من الشعر ضياء الدين بن الأثير الجزري فليراجع ما قاله في آخر كتاب المثل السائر ص ٥٠٣ من طبعة بولاق ١٢٨٢ أو ص ٣٢٤ من طبعة مصر ١٣١٢ .

انتخاب هذا الاصطلاح . فيبقى علينا أن نوضح ما أصل هذه الأشعار الحقيقية وما غرضها .

إن عدم الموافقة بين أخبار الأشعار المنسوبة إلى التبابعة وبين أخبار الكتابات الحميرية الحقيقية أدل دليل على أن الأشعار مختلفة . ولكن ولو لم نكتشف في السنين الأخيرة تلك الكتابات أو لم نتوصل إلى قراءتها وتفسيرها لكان تزوير الأشعار واضحاً من نفسه إذ هو من المعلوم أن قدماء اليمن لم يعرفوا العربية وإنما استعملوا السبئية أو الحميرية . فليست رواية أبيات التبابعة أصح من رواية الآيات العربية التي تعزى في بعض الكتب إلى سيدنا آدم . — هذا من أمر أشعار الملوك ومعاصريها .

أما الأشعار المنسوبة إلى علقمة ذي جَدَن وإلى ذى رُعَيْن المتأخرة عن موت ذى نواس فيلوح من بعض عباراتها أن أصحابها مسلمون . فليس من المحال أن علقمة ذا جدن وذا رعين شاعران عاشا في أوائل الإسلام . غير أن وجودها لا تخلو عن ريب فيه كما يتضح مما يتلو من كلامي .

يستنتج من مقابلة الأشعار المتفرقة في كتب ابن قتيبة وابن هشام والطبري وغيرهم على روايتها الواسعة في شرح نشوان بن سعيد على قصيدته أن المصدر الأصلي لجميعها إنما هو كتاب الملوك وأخبار الماضين ^(١) لعبيد ^(٢) بن شَرِيَّة الجُرْهُمِي الذي أدرك خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦) وكان من اليمنيين الذين وفدوا على معاوية ابن أبي سفيان . وقيل إنه جمع أخبار اليمن من السنة أهل صنعاء ومن مقدرته على اختلاق الأخبار مثال في كتاب ابن خلسكان في ترجمة الشريف الرضي ^(٣) . وتعرفون أيضاً أن القصص من اليمن كثيرون في القرن الأول ومن أشهرهم وهب بن منبه

(١) [راجع ما قاله في هذا الكتاب وعنوانه الصحيح C. Brockelmann في *Geschichte der arabischen Litteratur*, Erster Supplementband, p. 100] .

(٢) واسمه عبيد بضم العين وفتح الباء وبعدها الياء مسكنة راجع حواشي Goldziher ص ٢٩ — ٣٠ من كتاب المعمرين للسجستاني عدد ٣٩ من طبعة ليدن ١٨٩٩ . وراجع أيضاً VON KREMER, *Südarabische Sage*, p. 47-49.

(٣) عدد ٦٧٨ من طبعة غوتنجن أو ٦٣٩ من الطبعات المصرية .

(المتوفى سنة ١١٠ أو ١١٤) صاحب الأسرائيليات وغيرها من الكتب التي هي أقرب إلى الخرافات منها إلى التواريخ الحقيقية . ومن المزورين المعاصرين لعبيد بن شربة يزيد بن مفرغ الحميري المتوفى سنة ٦٩ الذي سبق ذكره في الشعراء الصنف السادس قيل في حقه في كتاب الأغاني^(١) : « قال [أبو العيناء] : سئل الأصمعي عن شعر تبع وقصته ومن وضعها فقال ابن مفرغ وذلك أن يزيد بن معاوية لما سيره إلى الشام وتخلصه من عباد بن زياد أنزله الجزيرة وكان مقيماً برأس عين وزعم أنه من حمير ووضع سيرة تبع وأشعاره » .

أما أسباب الاختلاق فظاهرة وهي ميل الناس إلى الأخبار العجيبة وما رجا الرواة من المكسب بها وحب كل شعب للافتخار بأجداده وسيما ما وقع من التخاصم والمنافرة بين عرب عدنان وعرب قحطان في القرن الأول للهجرة . وغرض بعض الذين وضعوا تلك الأشعار في أخبار ملوك حمير افتخار اليمنيين وخطأ عرب نزار الذين لم يكن لهم ما أثر تقابل ما أثر أهل اليمن في قديم الزمان . وهي الطريق التي سلكها سائر الأمم الإسلامية في مثل ذلك كما شرحته في دروس السنة الفاتنة^(٢) لما تكلمت عما اختلق ابن وحشية (أوبالخرى أبو طالب الزيات) من الكتب المنسوبة إلى النبط وهي أيضاً منهج المصريين عند تزويرهم أخبار الفراعنة وتدوينها في الكتب وهو أيضاً الداعي الذي حمل الشعارين الفارسيين دقيقى وفردوسى إلى تأليف الأنشودة العظيمة المسماة بشاهنامه . غير أن الفرس قد حفظوا كثيراً من كتبهم القديمة باللغة الطهلووية في السير والتواريخ فما اضطروا إلى تلفيق ما وصلت إليهم من الأخبار .

ومن الجدير بالذكر أن المزورين اليمنيين لئلا يظهروا غرضهم بل لتنال أشعارهم القبول عند الخلفاء وسائر العرب وضعوا أبياتاً للحارث الرأش أول التبابعة تنسب إلى مجيء

(١) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ٥٢ .

(٢) [راجع علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى لكرولو نلينو ص ٢٠٨ - ٢١٠] .

النبي بعد قرون^(١) ورووا أن أسعد كاملاً « كان مؤمناً وآمن بالنبي صلعم قبل مبعثه
بسبعمئة سنة وقال :

شهدتُ على أحمد أنه رسول من الله باري النسم
فلو مدَّ عُمرى إلى عمره لكنت وزيراً له وابن عم^(٢) »
فستروا غشهم بإظهار التقى^(٣) :

٩ — وعلينا الآن أن نتكلم عن النوع التاسع الأخير وهو المراثية وإننا نجد في معظم
شعر الشعراء المتقدم ذكرهم شيئاً من المراثي. ولكن هذا النوع نفسه إنما خصت به
النساء فإنهن لم يأخذن يقلن الشعر في غير هذا الجنس إلا في عصر بني العباس ومما
يعجبنا عند قراءة مراثي العصر الأموي مشابهتها لمراثي الجاهلية ولذلك أسباب شتى
منها قلة التنوع الشعوري والإلهام الشعري عند العرب القدماء وعادتهم أن ينسجوا على
منوال الأولين وأخيراً اختصاص النساء بهذا النوع وهنّ محافظات لسنة السلف دون
غيرهن .

(١) كتاب مروج الذهب للمسعودي في الباب السادس ج ١ ص ١٣٣ من طبعة باريس .

(٢) يشير إلى ذلك von Kremer في كتابه Ueber die südarabische Sage, p. 63

(٣) [انتهت هنا النسخة العربية من هذه الدروس فنقلت السطور التالية من المسودة التي
كتبها أبي باللغة الإيطالية] .

فهرست الأعلام

- ابن أبي عيينة ٢٢٠
ابن سريج (مغن) ١٠٥
ابن سينحان ١١٠
ابن عبادون ٢٧٦
ابن محرز (مغن) ١٠٥
ابن المعتز ٢٧-٢٨ و ١٩٢
ابن مفرغ ٢٣٢-٢٣٣ و ٢٨٣
ابن ميادة ٢٥٥-٢٥٦
أبو تمام ٤٤-٤٥
أبو خراش خويلد بن مرة الهذلي ٩٤
أبو دهبيل الجمحي ١٠٣-١٠٤
أبو دؤاد الإيادي ٧٣
أبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي ٩٤-٩٥
أبو الزلفاء البصري ٢٢٠
أبو السائب المخزومي ١١٥-١١٦
أبو سفيان بن حرب ٩١ و ٢٥٨
أبو صخر الهذلي ١٢٣
أبو العباس الأعمى ٢٣٢ و ٢٣٧
أبو العتاهية ١٢٠
أبو عطاء أفلح بن يسار السنائي ١٧
أبو فراس الحمداني ١٩٢
أبو كلامة بن عبيد الله البشكري ٢٥٦-٢٥٧
أبو مخجس الثقفي ٩٢
أبو النجيم العجلي ١٦٩
أبو نخيلة الحماني الراجز ١٨٨-١٨٩
أبو نواس الحسن بن هاني ١٩٢
أبو الهذلي ٢٥٧
الأحوص المدني الأنصاري ١١١-١١٢
أحيحة بن الجلاح الأوسي ١٩١
الأخطل ١٢٧ و ١٣١ و ١٣٧ و ١٤٣ و ١٥٤
و ١٥٦ و ١٦٨ و ٢٤٥ و ٢٦٠ و ٢٦٣ و ٢٧٠
إسماعيل بن عمار بن عينة ٢٥٣
إسماعيل بن يسار النسائي ٢٣٩-٢٤١ و ٢٦٣
الأسود بن يعفر ٢٨٠
أعشى بن ربيعة ٢٣١ و ٢٤٥
الأعشى ميمون ٧١ و ٨٨
أعشى همدان ١٩٩-٢٠١
الأغلب بن جشم العجلي ١٦٦ و ١٦٧
الأفوه الأودي ٦٤-٦٥
الاقشير الأسدي ٢٥٠-٢٥١
أم الثواب من بني هزان ١٦
امرؤ القيس بن حجر ٥٣ و ٥٩ و ٦٠
و ٧٣ و ١٦٥
أمية بن أبي الصلت الثقفي ٧٧-٧٨
و ١٨٥-١٨٦
أنس بن زعيم الليثي ٢٤٨
أوس بن حجر القمي ٦٨-٦٩ و ٨١
أيمن بن خريم الأسدي ٢٤٤ و ٢٥٢
البيحري ٢٩
البعيث المجاشعي ١٥٢ و ١٦٢ و ١٦٨
بكر بن خارجة ٢٤٦

- تأبط شرّاً الفهمي ٥٧ - ٥٨
 التبّع الأكبر ٢٧٧ - ٢٧٨
 توبة بن الحمير ١١٨ - ١١٩
 ثابت قطنة ٢٢٧ - ٢٢٩
 جامع بن مرّخية الكلابي ١١٤ - ١١٥
 جبير بن أيمن ١١٠
 جلول بن أوس الخطيئة ٩٢ - ٩٣
 جرير ١١٦ و ١٤٧ و ١٥٧ و ١٦٨ و ٢٣٨ -
 ٢٣٩ و ٢٤٥
 جزء بن ضرار ٩٣
 جميل بن عبد الله بن معمر العُندري
 ١٢٠ - ١٢١ و ٢٦٢
 جواس بن قطبة ١٢١
 جواس بن قعطل ١٩٨
 حاتم بن عبد الله الطائي ٢٦٤
 حاجب بن ذبيان المازني ٢٦٣
 الحارث بن حازرة ٥٩ و ٦٠
 الحارث بن خالد العاصي الخزومي ١٠٦
 الحارث بن الراش ٢٧٧
 الحارث بن هشام بن المغيرة ٩١
 حارثة بن بمر الغُماني ٢٤٨
 حسان بن ثابت الأنصاري ٧١ - ٧٢ و ٨٨ -
 ٨٩ و ٩٠ و ٢٠٥
 الخطيئة انظر : جلول بن أوس الخطيئة
 الحكم بن عبد الله الأسدي ٢٥٣ - ٢٥٤
 حكيم بن عيّاش الأعور الكلبي ٢٢١
 حميد الأرقط ١٦٨ - ١٦٩
- حنين بن بلور الحيري ٢٥٠
 خالد بن أبي أيوب (١) ١١١
 الخنساء ٦٠
 دريد بن الصمة الجشمي ٦٥
 دعبل ٢٢٠
 دكين بن رجاء من بني فقيم ١٨٨
 دكين بن سعيّد الليرمي ١٨٨
 ذوال صيغ العندواني ٦٥
 ذوالرمة ١٥٧ - ١٦٠ و ١٦٨ و ٢٤٥
 ذورعين الحميري ٢٧٩ و ٢٨٢
 ذو كنان انظر : عمار بن عمرو
 الراعي ١٦٠ - ١٦١ و ٢٤٥
 الربيع بن أبي الحقيق ٥٧
 رديني بن عبس النقمسي ١٩١ - ١٩١
 الرمّاد بن أبرد انظر : ابن ميّادة
 رؤبة بن العجاج ١٧٢ - ١٨٨ -
 زُفر بن الحارث العامري ١٦٧ و ١٩٧ - ١٩٨
 الزيفان ١٨٩
 زهير بن أبي سلمى المزني ٥٩ و ٦٢ و ١٦٥
 زهير بن جناب الكلبي ٦٦ - ٦٧
 زياد بن سلمى الأعجم ٢٣٧ - ٢٣٨
 زيد بن عمرو بن نُفَيل ٨٢
 سائب خاثر (مغن) ١٠٥ و ٢٦٧ - ٢٦٨
 سخبان بن زفر اليربوعي ١٠٠
 سخبان وائل ١٩٨ - ١٩٩
 السري بن عبد الرحمن ١١٠ - ١١١
 سعيّد بن المسيب ١١٣ و ١١٤

(١) في ص ١١١ س ١ خالد بن أيوب خطأ فاقراً : خالد بن أبي أيوب

عبد السلام بن جندل التميمي ٦٥
 السمّوع بن عاديا ٥٦
 سهم بن حنظلة الغنوي ١٥
 السيد الحميري ٢١٧ و ٢١٩ و ٢٢٠
 و ٢٢٦-٢٢٧
 سبعة بن غريص ٥٦-٥٧
 شعبة بن غريص انظر: سبعة بن غريص
 الشياخ بن ضرار الندياني ٩٣ و ١٦٧
 الشَّمر دل بن شريك اليربوعي ١٦٨ و ١٩١
 الشنفرى الأزدي ٥٧ و ٥٨-٥٩
 الصلتان العبدى ١٦٢ و ٢٤٣-٢٤٣
 ضرار بن الخطاب الفهري ٩١
 طرفة بن العبد ١٦ و ٥٩ و ٦٨ و ٧٣ و ١٦٥
 و ٢٤٥ و ٢٤٧
 الطرماح بن حكيم ٢١٢-٢١٣ و ٢٤٥
 طريخ بن اسمعيل الثقفي ١٦٤
 طوييس (معن) ١٠٥
 العباس بن الوليد بن عبد الملك ٢٣٣-٢٣٤
 عبد الله بن أبي معقل بن نهيك بن
 إساف الأنصاري ١١٠
 عبد الله بن الزبير عمري ٩١
 عبد الله بن الزبير الأسدي ١٤٣ و ٢٣١
 و ٢٤٥
 عبد الله بن عمر العرجي ١١٢-١١٣
 عبد الله بن كراع ١٩١
 عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلي ١١٣
 عبد الله بن همام السلولي ٢٦٠-٢٦١
 عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي ١١٦

عبد الرحمن بن حسان بن ثابت
 الأنصاري ١٣٤
 عبد الرحمن بن الحكم ٢٦٧ و ٢٦٩ حاشية
 عبد الصمد بن المعدل ١٩٢
 عبد الوهاب بن علي البغدادى ١٣٣
 عبيد بن الأبرص الأسدي ٦٧-١٨
 عبيد بن شربة الجرهمي ٢٨٢
 عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن
 مسعود ١١٤
 عبيد الله بن قيس الرقيات ٢٣٠
 عثمان بن الوليد بن عمار القرشي ١٣٠
 العجاج ١٦٦ و ١٦٩-١٧٢ و ١٧٩
 و ١٨٦-١٨٧
 العجير السلولي ١٦١
 عبد بن الرقاع ٢٦٩-٢٧١
 عبد بن زيد العبادي ٧٣-٧٦ و ١٣٣
 - ١٣٤ و ٢٤٥ و ٢٧٦
 العبد يل بن الفريخ العجلي ١٦١
 العرجي انظر: عبد الله بن عمر العرجي
 عروة بن أذينة ١١٥
 عروة بن حزام العنزي ١١٩-١٢٠
 عروة بن الورد ٦٣-٦٤
 عطاء بن أبي رباح ١١٦
 عتبة بن روبة بن العجاج ١٨٩-١٩٠
 عتيق بن عتبة المري ١٦٢
 علقمة ذو جند الحميري ٢٧٨ و ٢٨٢
 علقمة القحطلي ١٦٥
 علي بن أبي طالب ٩٨-٩٩

عمار بن عمرو ذو كنان ٢٤٩

العماني ١٩٠

عمر بن أبي ربيعة المخزومي ١٠٦-١٠٧

١١٠ و ١١٦

عمر بن لجأ ١٦٢ و ١٦٨

عمران بن حطان الساموسي ٢١٠-٢١١

٢١٤ و ٢٤٢

عمران بن عصام العرني ٢٦١

عمرو بن كلثوم ٦٠٥ و ٦١٠ و ٩٧ و ١٨٤

عمرو بن معاذ يكرّب الزُبَيْدِي ٩٣-٩٤

عنبرة بن شداد العبّسي ١٠٢ و ٦١ و ٥٩

١٦٥ و

عوف بن ذرّوة ١٩١

عويج الطائي ١٩٨

عويف القنواني الفزاري ١٦٢-١٦٣

الغريض (مغن) ١٠٥

الفرزدق ١٣٧-١٤٧ و ١٥٣ و ١٥٦

١٦٨ و ٢٤٥

الفضل بن عبد الصمد الرّقاشي ١٩٢

قس بن ساعدة الإيادي ٨٢ و ٢٧٦

القطامي ١٢٦ و ٢٠١

قطري بن الفُجاعة ٢١٠ و ٢١٣-٢١٤

قيس بن الخطيم الأوسي ٧٦-٧٧

قيس بن ذريح الكناني ١١٩

قيس المكشوح المرادي ٩٨

كثير عزة ١٢٣ و ٢١٤ و ٢١٧ و ٢٢٠ و ٢٤٥

كعب الأشقرى ٢٠١

كعب بن جُعيل ١٣٤ و ٢٠٥-٢٠٦ و ٢٦٣

كعب بن زُهَيْر ٨٧-٨٨ و ٩٦

الكميت بن زيد الأسدي ٢٢٠-٢٢٤

٢٤٥ و

لبيد بن ربيعة العامري ١٤ و ٥٩ و ٦٢ و ٦٣

٧١ و ١٦٥

مالك بن أبي السمح (مغن) ١٠٥

مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري

٢٥٢-٢٥٣

المتلسم ١٤ و ٦٨

متمم بن نُزيرة البربوعي ٩١-٩٣

المتوكل بن عبد الله الليثي ١٣٥ و ٢٥٤-

٢٥٥ و ٢٦٣

مجنون ليلي ١١٧ و ١٢١-١٢٣

محارب بن دثار الدهلي ٢٢٦

محمد بن عبد الله النخعي ١١٣

محمد بن يسار ٢٣٧

مرة بن مُحَكان السعدي ١٦١

مزرد بن ضرار ٩٣

مسعود بن كبير الجرمي ١٩١

مسكين الدارمي ٢٦٠

معاذ بن جُؤين بن حصين الحاربي

٢١١-٢١١

معاوية بن أبي سفيان ١٢٥ و ١٤٢-١٤٣

٢٥٨ و ٢٥٩-٢٦٠ و ٢٦٧

مسعود (مغن) ١٠٥

مقاتل بن مسعود العبدي ١٦

مهلهل ٥٣-٥٤

موسى شنوات ٢٣٧

نهار بن تَوْسِعة ٢٤٣
 هناد بنت عُمَيْة ٢٥٨
 الوليد بن عُمَيْة بن أبي سفيان ١١٠
 الوليد بن عثمان بن عفان ١١٠
 الوليد بن يزيد ٢٧٦-٢٧٣ و ٢٦٨
 وهب بن مَسْنَبَة ٢٨٢
 يزيد بن معاوية ٢٥٨-٢٥٩ و ٢٦٠ و ٢٦٧
 يزيد بن مُفَرِّغ انظر: ابن مفرغ
 يعلى الأَحْوَل بن مسلم اليشكري ١٦٢

ميسون بنت بحدل ١٢٥ و ١٢٧
 ميسون بنت جندل الفزارية ١٢٧
 النابغة الجعدي ١٢٦
 النابغة الذبياني ٦٩-٧١ و ٧٣ و ١٦٥ و ٢٤٥
 النابغة الشيباني ١٦
 الناشئ الأكبر ١٩٢
 نشوان بن سعيد الحميري ٢٧٧
 نصر بن سيار ١٠٧-١٠٨ و ٢٣٤-٢٣٦
 نصيب بن رباح ٢٦٢ و ٢٦٣ و ٢٧١ و ٢٧٢
 النعمان بن عدى ٢٤٦

فهرست

صفحة

٣

مقدمة

الباب الأول

- ١ - لفظ « الأدب » : بحث عن معناه الأصلي وما تفرع منه من المعاني المتعددة المختلفة ١١
- ٢ - تعريف تاريخ الآداب ٤٢
- ٣ - كيف ينقسم تاريخ الآداب العربية ٤٤

الباب الثاني : الآداب العربية في العصر الجاهلي ٥١

- ١ - شعر أهل البادية ٥٧
- ٢ - شعر الوثنيين الملازمين ملوك الحيرة وغسان ٦٦
- ٣ - شعر النصاري بالحيرة وفي مملكة غسان ٧٢
- ٤ - شعر أهل الحضر في مدن الحجاز ٧٦
- ٥ - النثر الجاهلي ٧٨
- ٦ - المسائل المتعلقة بالقرآن ٨٢

الباب الثالث : الآداب في صدر الإسلام وأيام الخلفاء الراشدين ٨٦

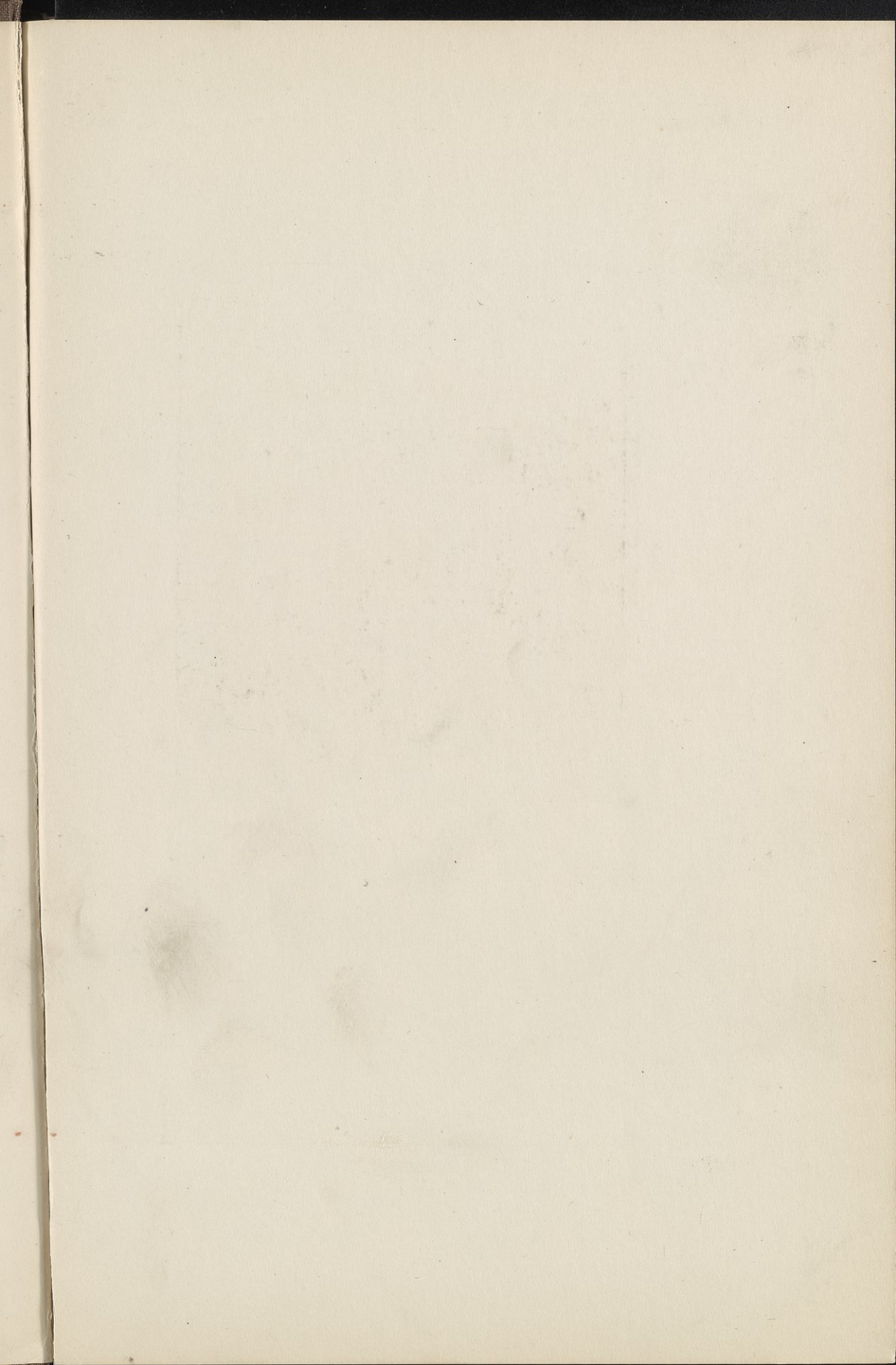
- ١ - الشعر في ملاح النبي ٨٧
- ٢ - شعراء المشركين الحاققون على النبي ٩١
- ٣ - الشعراء الذين أسلموا من غير أن يهتموا في أبياتهم بأمور دينهم ٩١
- ٤ - شعر الفتوحات ٩٨
- ٥ - الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب ٩٨
- ٦ - النثر ٩٩

١٠١	الباب الرابع : الشعر في عصر بني أمية
١٠٢	١ - الغزل في مدن الحجاز
١١٦	٢ - النسيب عنده الأعراب
١٢٣	٣ - الشعر على أسلوب فحولة الجاهلية
١٦٤	٤ - الأراجيز
١٩٤	٥ - شعر الجنود
٢٠١	٦ - شعر الفتن السياسية والمدنية
٢٤٣	٧ - شعر أهل الخضر في مدن العراق والشام
٢٧٦	٨ - الشعر القصصى اليمنى
٢٨٤	٩ - المراثى
٢٨٥	فهرست الأعلام

تصحیح أغلاط

ص ١١١ س ١	اقرأ : وخالد بن أبي أيوب
ص ١٨٨ س ٧	من الحاشية الرابعة اقرأ : أما دكين بن رجاء الفقيمي
	فقال يا قوت . . . إنه





893.79
N1491

BOUND

JUL 13 1956

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58871748

893.79 N1491

Tarikh al-adab al-Ar